توماس جيفرسون ودوره السياسي في التاريخ الأمريكي حتى عام ١٨٠١

دراسة تاريخية

أطروحة تقدم بها

كفاح احمد محمد احمد نجار

إلى مجلس كلية الآداب ـ جامعة بغداد وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث من كلية الآداب ـ جامعة بغداد

إشراف

الأستاذ الدكتور
هاشم صالح مهدي التكريتي

٢٠١١م　　بغداد　　١٤٣٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا

سورة الإسراء الآية ٢٠

الاهداء

الى.....

ابي العزيز

الى .....

امي الغالية

اطال الله في اعمارهما

شكر وتقدير

اتقدم بجزيل الشكر والتقدير الى استاذي المشرف الدكتور هاشم صالح مهدي التكريتي، لما ابداه من ارشادات وتوجيهات علمية فاقت كل حد، فلم يبخل علي بوقته وجهده وملاحظاته السديدة ومتابعته المستمرة لهذه الدراسة فلولاه ما خرجت هذه الاطروطة بالصورة التي هي عليها .

وعرفاناً مني بالجميل اتقدم بالشكر والتقدير الى اساتذتي الافاضل الذين كان لي شَرف التلمذة على ايديهم في السنة التحضيرية وهم كل من الاستاذ الدكتور ابراهيم خلف العبيدي والاستاذ الدكتور صادق حسن السوداني والاستاذ الدكتور نوري السامرائي (رحمه الله واسكنه فسيح جناته) والاستاذ الدكتور حسن سبتي الفتلاوي والاستاذ المساعد نذير جبار الهنداوي، ولا يفوتني ان اسجل شكري وتقديري للدكتور محمود عبد الواحد القيسي رئيس قسم التاريخ لمعاملته الاخوية لطلبة الدراسات العليا.

واتوجه بالشكر والتقدير الى كل من اسهم وشارك في تسهيل مهمة البحث من الاخوة العاملين في المكتبة المركزية واخص بالذكر الاخت الاء احمد والاخ ابو نور، كما اسجل شكري للاخ الدكتور عمار محمد علي الطائي لما قدمه لي من مصادر مهمة، وكذلك الاخت الدكتورة سحر احمد، والاخ الدكتور انس ابراهيم العبيدي لما قدمه من مساعدة في طباعة الاطروحة. ولا يفوتني هنا ذكر المدرس المساعد مهدي علي العبايجي(ابو علي) رحمه الله تعالى لاهدائه لي بعض الكتب المهمة ومساعدته الكبيرة خلال السنة التحضيرية. كما أتقدم بالشكر الجزيل للأخ المترجم أبو محمد لالتزامه الشديد في المواعيد، وكذلك لصهري الدكتور باسم محمد لمساعدته إياي في ترجمة العديد من المصادر المهمة

وأخيرا اقدم شكري واعتزازي لرفيقة دربي زوجتي تمارا جاسم خليفة لوقفتها معي خطوة بخطوة ومشاركتها اياي هموم الدراسة ومشكلاتها.

اقرار المشرف

اشهد ان إعداد هذه الأطروحة الموسومة بـ" توماس جيفرسون ودوره السياسي في التاريخ الأمريكي حتى عام ١٨٠١" للطالب " كفاح احمد محمد احمد" تم تحت إشرافي في كلية الآداب ـ جامعة بغداد وهي جزء من متطلبات نيل درجة دكتوراه في التاريخ الحديث

التوقيع

المشرف : أ. د. هاشم صالح مهدي التكريتي
التاريخ / /

توصية رئيس القسم

بناء على التوصيات المتوافرة ، ارشح هذه الأطروحة للمناقشة .

التوقيع

أ.م.د محمود عبد الواحد القيسي
رئيس قسم التاريخ
التاريخ : / /

اقرار لجنة المناقشة

نشهد أننا أعضاء لجنة المناقشة قد اطلعنا على الأطروحة الموسومة ((توماس جيفرسون ودوره السياسي في التاريخ الأمريكي حتى عام ١٨٠١)) وقد ناقشنا الطالب " كفاح احمد محمد احمد" في محتوياتها وما له علاقة بها ونرى أنها جديرة بالقبول لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث بتقدير " "

التوقيع
أ. د فلاح عبد الحسين حسن الاسدي
رئيساً

التوقيع
أ.د هاشم صالح مهدي التكريتي
مشرفاً

التوقيع
أ.د توفيق خلف ياسين السامرائي
عضواً

التوقيع
أ.د خليل إبراهيم صالح المشهداني
عضواً

التوقيع
أ.م.د أنعام مهدي علي السلمان
عضواً

التوقيع
أ.م.د سمر رحيم نعمة الخزاعي
عضواً

صادق مجلس كلية الآداب – جامعة بغداد على اقرار لجنة المناقشة

التوقيع
د. فيصل غازي مجهول
عميد كلية الآداب – جامعة بغداد

المقدمة

يعد توماس جيفرسون من ابرز الشخصيات السياسية في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، برزت شخصيته السياسية والفكرية من خلال دوره الكبير في تأسيس الكيان السياسي للجمهورية الأمريكية، فكان قلم الثورة الأمريكية وكاتب إعلان الاستقلال وواضع قانون فرجينيا للحرية الدينية ومشرعاً للعديد من القوانين الاجتماعية التي حاولت إزالة الطبقية في المجتمع الأمريكي، وأدى دوراً عظيماً في السياسة الداخلية للجمهورية الأمريكية الناشئة من خلال تقلده العديد من المناصب السياسية فكان حاكماً لفرجينيا في زمن الحرب وعضواً فعالاً في المؤتمر القاري ووزيراً للخارجية وزعيماً مؤسساً لحزب الجمهوريين ونائباً للرئيس جون آدمز، كما كان له دور كبير في رسم ملامح السياسة الخارجية الأمريكية من خلال عمله سفيراً في فرنسا ومن ثم وزيراً للخارجية،وكان الرائد الأول لسياسة العزلة التي استمرت عليها الولايات المتحدة حتى اواخر حكم الرئيس جيمس مونرو. ولدوره العظيم في تأسيس الولايات المتحدة عد جيفرسون ثالث الإباء المؤسسين فهو يأتي بعد جورج واشنطن وجون آدمز، كما كان الأب الروحي والمعلم القدوة لاثنين من رؤساء الولايات المتحدة وآبائها المؤسسين وهما جيمس ماديسون أبو الدستور الأمريكي وجيمس مونرو صاحب مبدأ مونرو المعروف. وإضافة إلى ذلك كان توماس جيفرسون الرئيس الثالث للولايات المتحدة ولدورتين متتاليتين ١٨٠١- ١٨٠٨ . ورغم دوره العظيم في بناء الولايات المتحدة وتأثيره البارز في سياستها الداخلية والخارجية الذي لا يزال باقياً حتى يومنا هذا، لا نجد في مكتباتنا العربية ما يؤرخ حياة هذا الرجل الفكرية والسياسية على الرغم من انه كان أول رئيس أمريكي فكر بغزو بلاد العرب ووضع خطة لذلك حينما كان سفيراً في فرنسا. ولذلك جاءت هذه الدراسة المتواضعة لتسلط الضوء على الجزء الأكبر من دوره السياسي في الولايات المتحدة،ذلك الدور الذي أداه قبل تسنمه منصب الرئاسة، فلم يعرف لجيفرسون عمل عظيم أداه بعد توليه رئاسة الولايات المتحدة سوى شراء لويزيانا من فرنسا

عام ١٨٠٣ ولذلك ارتأينا دراسة دوره السياسي في الولايات المتحدة حتى عام ١٨٠١ ،ولاسيما إذا ما علمنا إن جيفرسون نفسه طلب أن يكتب على شاهد قبره أنه توماس جيفرسون واضع إعلان الاستقلال وقانون فرجينيا للحرية الدينية ومؤسس جامعة فرجينيا(أسس الجامعة بعد اعتزاله الحياة السياسية) وهذا يعد إقرارا منه بأنه لم يقدم شيئاً بعد توليه الرئاسة.

حاولنا في هذه الدراسة تقديم صورة واضحة وغير متحيزة قدر الإمكان عن توماس جيفرسون الذي قدم المؤرخون الأمريكان آلاف الدراسات عنه منذ بداية حياته السياسية وحتى يومنا هذا واغلب تلك الدراسات كانت تمجد وتعظم من شانه إلى درجة غير معقولة حتى قيل إذا قال جيفرسون قالت أمريكا، لهذا غالباً ما كنا نرجع إلى الوثائق الأصلية لبيان حقيقته من خلال كتاباته ومراسلاته التي أعطت صورة واضحة عن شخصيته المركبة، غير أننا لم نحاول التقليل من شأنه أو تعمد إلصاق التهم به لكننا روينا الأحداث التي اشترك فيها وحاولنا تحليلها بالمنطق من وجهة نظر محايدة وحسبما فهمناه من الوثائق التاريخية .

واقتضت طبيعة الدراسة توزيع الأطروحة على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة،تضمن الفصل الأول المعنون "نشأة توماس جيفرسون وبروز شخصيته الاجتماعية والسياسية" ثلاثة مباحث تناولت في المبحث الأول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في فرجينيا عند نشأة جيفرسون، ثم انحداره الأسري وكيف استطاع والده بيتر جيفرسون تكوين ثروة وامتلاك مساحة واسعة من الأرض ورثها فيما بعد ابنه توماس جيفرسون، وأخيرا ولادته ونشأته في منطقة الحدود. أما المبحث الثاني فقد تناولت فيه تعليمه ودراسته الأولية ومن ثم دراسته للقانون في كلية وليام وماري ومن ثم تخرجه وعمله في المحاماة ، وأخيرا تعيينه في مجلس مواطني فرجينيا وبداية حياته السياسية. أما المبحث الثالث فقد تناولت فيه حياته الاجتماعية وقيامه ببناء قصره الذي أطلق عليه اسم "مونتسليو" وكان ذلك بعد احتراق منزل والده في شادويل وفقدانه لمكتبته، وبعد ذلك زواجه من مارثا سكيلتون وما قدمه له هذا الزواج من منافع مادية ومن ثم وفاتها وارتباطه

بالآمة سالي هيمينغز أخت زوجته غير الشرعية وإنجابه منها العديد من الأبناء وما تضمنه ذلك الموضوع من رفض جمهرة من المؤرخين الأمريكان لهذا الارتباط وما نتج عن ذلك الرفض من قيام العلماء بفحص الحمض النووي لتوماس جيفرسون لبيان صحة ارتباطه بها وإنجابه أولاداً منها.

أما الفصل الثاني المعنون" الصراع بين المستعمرات الأمريكية والحكومة البريطانية وموقف جيفرسون منه" فقد قسم إلى مبحثين، تناولت في المبحث الأول بداية الصراع بين الحكومة البريطانية ومستعمراتها في أمريكا الشمالية وموقف جيفرسون من ذلك الصراع الذي تمثل بانتخابه عضواً في المؤتمر القاري الأول وتقديمه لمقالته الشهيرة "نظرة موجزة لحقوق أمريكا البريطانية" وهي مقالة فلسفية قدم فيها أدلة قانونية وطبيعية على حق المستعمرات في الثورة وحكم نفسها بنفسها،ثم قيام الحرب وموقف جيفرسون منها المتمثل باسهامه في المؤتمر القاري الثاني وكتابته بيان الحرب الذي سمي "لماذا نحمل السلاح" وما نتج عن المؤتمر الثاني من قرارات كان أهمها إعلان الاستقلال وتولي توماس جيفرسون مهمة كتابة ذلك الإعلان، والمأخذ على إعلان الاستقلال وما وجه لجيفرسون من اتهامات بخصوص قيامه باقتباس بعض جمل الاعلان من مفكرين أوربيين ولاسيما جون لوك. وتناولت في المبحث الثاني عضوية توماس جيفرسون في مجلس فرجينيا التشريعي ودوره في تشريع العديد من القوانين الاجتماعية مثل قانون الابن البكر الذي كان الهدف منه تقويض الارستقراطية الأمريكية وتقديمه لمشروع قانون التعليم العام، وقانون فرجينيا للحرية الدينية وهو أفضل ما شرع في الولايات المتحدة من القوانين الدينية إذ منح مواطنو الولايات حرية التبعية لأي مذهب او دين، وأخيرا محاولته اصدار قانون يحرم تجارة العبيد وموقف جيفرسون من العبيد بصورة عامة.

أما الفصل الثالث الذي جاء بعنوان " دوره في السياسة الامريكية الداخلية والخارجية ١٧٧٩-١٧٨٩" فقد قسم إلى مبحثين، تناولت في المبحث الأول توليه منصب حاكم ولاية فرجينيا ١٧٧٩- ١٧٨١ وجاء توليه لذلك المنصب في اشد

سنوات الحرب ضراوة، إذ عمل في مدته الأولى على تطوير الولاية وكلية وليام وماري الكلية الوحيدة في فرجينيا وقتذاك، أما مدته الثانية فقد طغت عليها أجواء الحرب إذ اقترب الجيش البريطاني من مستعمرة فرجينيا بعد دحر قوات الجنرال الأمريكي غيتس في معركة كامدين بالقرب من كارولينا الجنوبية، وخسارة جيفرسون لمعظم قواته التي أرسلها لتعزيز قوات غيتس، وما نتج عن ذلك من ترك الولاية بدون جيش يدافع عنها وتمكن الجيش البريطاني من اجتياحها، إذ أوشك على اسر جيفرسون لكنه استطاع الفرار، وما لقي من اتهامات بخصوص فراره من الجيش البريطاني. أما المبحث الثاني فكان بعنوان"توماس جيفرسون في فرنسا" تناولت فيه تعيينه سفيراً في فرنسا خلفاً لبنيامين فرانكلين، ومحاولته الحصول على اعتراف دولي باستقلال بلاده من خلال عرضه لمشروع معاهدات مع الدول الأوربية، ثم اهتمامه بتطور الأحداث في بلاده في أثناء غيابه في فرنسا ولاسيما موقفه من قيام انتفاضة شايز وموقفه من كتابة الدستور الأمريكي من خلال رسائله إلى جيمس ماديسون وغيره، ومن ثم رحلاته إلى جنوب فرنسا وايطاليا حيث تعرف على الحضارة الأوربية عن كثب، وأخيرا قيام الثورة الفرنسية وموقف جيفرسون منها ودوره باحتضان الاجتماع السري للمركيز دي لافاييت ورفاقه.

أما الفصل الرابع فقد كان بعنوان " توماس جيفرسون وزيراً للخارجية ونائباً للرئيس جون آدمز" وقسم الفصل إلى مبحثين، تناول المبحث الأول تعيينه وزيراً للخارجية في حكومة جورج واشنطن الأولى وما نتج عنه من صراع بينه وبين وزير المالية الكسندر هاملتون حول العديد من الأمور أولها قضية الديون الفيدرالية،إذ اختلف الاثنان على تلك الديون التي جاءت نتيجة طبيعية لحرب الاستقلال، وكيفية دفعها والضرر الواقع على كاهل المواطن العادي نتيجة فرض الضرائب لدفع تلك الديون، ثم قضية تأسيس مصرف الولايات المتحدة وتقديم هاملتون للمشاريع الصناعية والانشقاق السياسي في داخل الولايات المتحدة، فقد أراد الكسندر هاملتون تأسيس مصرف أمريكي مركزي على غرار مصرف

انكلترا لكن جيفرسون عارض ذلك التأسيس لأنه رفض فكرة انتهاج السياسة البريطانية في بلاده فقد أراد جيفرسون الاستقلال التام عن بريطانيا ورأى في المصرف وسيلة لتقوية نفوذ الرأسماليين المؤيدين لطبيعة الحكم الملكي. ومن المنطلق نفسه عارض إنشاء صناعة كبيرة لأنها حسب رأيه تهدف إلى القضاء على الزراعة ونشر الفساد بين أفراد المجتمع كما أنها تُسهم في زيادة الفوارق الطبقية في المجتمع،ومن المسائل الخلافية الاخرى قضية الموقف من فرنسا فقد دأب توماس جيفرسون على محاولة ربط بلاده بعلاقات حسنة مع فرنسا وتشجيع الثورة الفرنسية والوقوف إلى جانبها كما وقفت فرنسا إلى جانب المستعمرات الأمريكية إبان حرب الاستقلال، في حين أراد هاملتون تقوية علاقات بلده مع بريطانيا وتقليدها في كل شيء لأنها مثال للدولة الناجحة حسب رأيه، كما نظر إلى الثورة الفرنسية على أنها تمرد مجموعة من الغوغاء على النظام الملكي الشرعي، لذا يجب عدم الاعتراف بالثورة والوقوف إلى جانب الأسرة الملكية ومساندة الدول الأوربية في القضاء عليها لأنها تهدد السلم الأهلي والعالمي بأفكارها المسمومة. وأخيرا تضمن المبحث الأول قضية الملاحة في نهر المسيسبي التي كافح جيفرسون طوال وجوده في وزارة الخارجية لجعلها مجانية وسعى لحصول الولايات المتحدة على ميناء في مصب النهر لتسهيل عملية النقل النهري. أما المبحث الثاني فقد تضمن عمل جيفرسون نائباً للرئيس جون آدمز وما نشأ عنه من خلافات في العديد من الموضوعات كان أهمها الموقف من الجمهورية الفرنسية وحروبها فقد بقي جيفرسون على موقفه المؤيد لفرنسا وعد تلك الحروب تحررية، وتراجع موقف جيفرسون والجمهوريين بسبب قضية العملاء الثلاثة المعروفة "اكس واي زت" وما سببته تلك القضية من تراجع لشعبية الثورة الفرنسية في الولايات المتحدة والتهديد بدخول الحرب ضد فرنسا،لكن جيفرسون والجمهوريين نجحوا في تلافي تلك الحرب وامتصاص النقمة الشعبية التي تحولت شيئاً فشيئاً ضد الفيدراليين بسبب الضرائب الجديدة التي أقرتها حكومة الرئيس آدمز للنفقات الحربية. وأخيراً تناولت في هذا المبحث انتخابات عام ١٨٠٠ أو ما

أسماها جيفرسون ثورة عام ١٨٠٠ وفوز الجمهوريين بتلك الانتخابات ووصول جيفرسون إلى سدة الحكم عام ١٨٠١.

اعتمدت الأطروحة على العديد من الكتب الوثائقية، جاء في مقدمتها كتابات توماس جيفرسون التي تعد اكبر مجموعة كتابات كتبها رئيس أمريكي إلى يومنا هذا، وهي عبارة عن رسائله الرسمية التي كان يرسلها إلى مرؤوسيه عند توليه مناصب سياسية، كما حوت الرسائل الواردة إليه من جميع الشخصيات الأمريكية، وكذلك الرسائل المتبادلة بين بعض الشخصيات السياسية التي كانت ترد إليه ليتعرف على محتواها بحكم مناصبه العديدة التي تولاها، وضمت كذلك نسخاً من المعاهدات والتحالفات والبيانات الرسمية التي صدرت في الولايات المتحدة في المدة بين ١٧٧٤-١٨٠٨ ،كما اشتملت على مجموعة كبيرة من مناقشات مجلس النواب ومجلس الشيوخ طوال مدة وجود جيفرسون عضواً في المؤتمر ورئيساً لمجلس الشيوخ ١٧٩٦-١٨٠٠ ، كما اشتملت على رسائله الاجتماعية والخاصة. لقد غذت تلك الكتابات فصول الأطروحة جميعها بالكثير من المعلومات المهمة وبينت العديد من الحقائق التي تغاضى بعض الكتاب عن ذكرها. وقد جمع كتابات جيفرسون تلك المؤرخ الأمريكي جوليان بي بويد ونشرت عام ١٩٦٥ تحت عنوان" اوراق توماس جيفرسون The Papers of Thomas Jefferson " لكن الباحث لم يحصل إلا على سبعة عشر مجلداً تنتهي في تموز عام ١٧٩٠ وهي ما توافر في المكتبة المركزية لجامعة بغداد،وقد استطاع الباحث تعويض ذلك النقص بالحصول على مجموعة من كتابات جيفرسون جمعها آخرون مثل بول ليستر فورد في كتابه "اعمال توماس جيفرسون The Works of Thomas Jefferson" المنشور عام ١٩٠٤، الذي حصلت على المجلد السابع منه وهو يبدأ من عام ١٧٩٣وينتهي عام ١٧٩٨ ، ثم كتاب ادرين كوش و وليام بدن المعنون "حياة توماس جيفرسون ومنتخبات من كتاباته The Life and Selected Writings of Thomas Jefferson "، وقد جمعا في هذا الكتاب أهم الكتابات لتوماس جيفرسون من رسائل ومذكرات وتقارير،

وأخيراً استطعت الحصول على كتاباته الكاملة بنسخة اليكترونية e-Book صادرة من لجنة في الكونكرس الأمريكي بعنوان " كتابات توماس جيفرسون The Writings of Thomas Jefferson ". كما اعتمدت الأطروحة على مؤلفات جيفرسون الأخرى وأهمها مذكراته التي قام بكتابتها عام ١٨٢١ وطبعت في لندن عام ١٨٢٩ بعنوان " توماس جيفرسون راندولف مذكراته ومراسلاته واوراقه الخاصة Thomas Jefferson Randolph, Memories, Correspondence, and Private Papers" وجاء في تلك المذكرات معلومات قيمة عن حياته الخاصة والعامة والاوضاع في الولايات المتحدة، لكنها غير مكتملة إذ توقف عن كتابة الأحداث عند عام ١٧٩٠ منهياً تلك المذكرات، كما أغنى كتابه "ملاحظات عن فرجينيا Notes On The State "of Virginia المطبوع في بوسطن عام ١٨٣٢، الأطروحة في فصولها الأولى لاسيما ما يتعلق بآرائه الدينية ووجهة نظره فيما يخص العبيد وأرائه الاجتماعية الأخرى، ثم كتابه Anas الذي نشره فرانكلين ساوفل عام ١٩٠٣ Franklin B. Sawvel , The Complete ANAS of Thomas Jefferson " الذي كان بمنزلة يوميات وملاحظات بدأ بكتابتها عند عودته من فرنسا عام ١٧٨٩ وقد تضمنت تلك اليوميات صراعه مع الكسندر هاملتون فيما يتعلق بإنشاء مصرف الولايات المتحدة وانتشار الأفكار الملكية بين السياسيين الأمريكيين، وقضية الديون الفيدرالية وانقسام الامريكيين الى جمهوريين وفيدراليين. وقد غطت تلك الكتابات جزءاً مهماً من الفصل الرابع، وأخيرا كتابه" نظرة موجزة لحقوق أمريكا البريطانية A Summary View of the Rights of British American" الذي نشر باسم مستعار هو"مواطن من فرجينيا A People of Virginia," المطبوع في وليامزبورج عام ١٧٧٤ الذي شرح فيه الحقوق القانونية والطبيعية للمستعمرات الأمريكية في الانفصال عن بريطانيا، ويعد من أقدم كتب جيفرسون كما انه وثيقة تاريخية مهمة لكل من أراد البحث عن أسباب انفصال المستعمرات عن بريطانيا.

وإضافة إلى كتابات توماس جيفرسون ومؤلفاته ، اعتمدت الأطروحة على العديد من الكتب الوثائقية الأخرى أهمها كتاب وليام ماكدونالد William Macdonald الأستاذ في جامعة براون Brown المعنون" وثائق مختارة من تاريخ الولايات المتحدة Select Documents Illustrative of The History of The United States 1776- 1861 " والمطبوع في نيويورك عام ١٩٠٥ وتمثلت فائدته في انه جمع الوثائق الأمريكية من المدة ١٧٧٦-١٨٦١ أي بداية إعلان الاستقلال واندلاع الحرب الأهلية الأمريكية، وغطى ذلك الكتاب اغلب موضوعات الأطروحة من المعاهدات والتقارير الرسمية للوزراء المقدمة إلى الرئيس واشنطن وحكومته ولاسيما تقارير هاملتون عن المصرف وعن الصناعات وتقرير جيفرسون عن المصرف.

وكان لكتب السير فائدة كبيرة للتعرف على شخصية توماس جيفرسون من وجهات نظر مختلفة ومتباعدة حسب تواريخها، ويأتي في مقدمتها كتاب هنري ستيفن راندال Henry S. Randall المعنون "حياة توماس جيفرسون The Life of Thomas Jefferson" وهو من اكبر الكتب التي تناولت حياة توماس جيفرسون، ويقع في ثلاثة أجزاء وتكمن أهميته في كونه أقدم كتاب تناول سيرة جيفرسون بالشرح والتفصيل الممل،فقد طبع الكتاب في نيويورك عام ١٨٥٨ وحوى عشرات الرسائل الكاملة لجيفرسون، التي حصل عليها من مكتبة الكونكرس وبعضها من أقاربه وأحفاده حتى إن جوليان بويد الذي جمع اوراق توماس جيفرسون، يعتمد على الرسائل الموجودة في كتاب راندال ولاسيما الرسائل المفقودة أو التي لم تودع في مكتبة الكونكرس،فهو يعد من أهم المصادر التي يجب الرجوع إليها عند كتابة دراسة أو بحث ما عن جيفرسون، وعلى الرغم من أهمية الكتاب اعتمد مؤلفه على شرح التفاصيل في حياة جيفرسون كافة بالترتيب الزمني فتراه يتحدث عن حادثة ما ثم يقطعها ليذكر رسالة كتبها جيفرسون في التاريخ نفسه إلى ابنته ثم يذكر حادثة أخرى ويقطعها ليرجع للحادثة الأولى، أي انه تابع تفاصيل الحياة العامة والخاصة لجيفرسون بدون تمييز أو

تبويب وذلك ما يجعل الباحث يتيه في الموضوعات المتشعبة والمختلطة التي يورد ذكرها حسب اليوم والشهر والسنة، وبهذا يكون الحصول على المعلومة المفيدة منه صعباً. وتأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية دراسة كيلبرت شينارد Gilbert Chinard " توماس جيفرسون المصلح الأمريكي The Apostil of Americanism" الذي استعرض حياة توماس جيفرسون بالشرح والتحليل العميق والربط بين الأحداث،لكنه اغفل بعض المحطات المهمة في حياة جيفرسون الاجتماعية مثل علاقته بسالي هيمينغز التي لم يتطرق لها أبدا وكذلك لم يعالج موضوع الخلاف مع هاملتون بصورة حيادية فكان تحيزه الشديد لجيفرسون واضحاً. وفي الحقيقة ان اغلب كتاب السير كانوا منحازين لجيفرسون وقليلٌ منهم من كتب بحيادية عن الموضوع. ولعل أفضل أولئك الكاتب الأمريكي كريستوفر هيتشز Christopher Hitchens في كتابه الذي جاء بعنوان " توماس جيفرسون كاتب أمريكا Thomas Jefferson , Author of America " الذي عالج أهم المحطات التي تغافل عن شرحها العديد من المؤرخين ولاسيما علاقته بسالي هيمينغز وإنجابه أولادا منها، وكذلك موضوع الرقيق وموقف جيفرسون منه واستخدام جيفرسون للصحافة الصفراء وغيرها،لكنه مع ذلك لم يقدم لنا أي تحليل لفكر جيفرسون ولاسيما فيما يتعلق بكتابة إعلان الاستقلال او كتاباته الأخرى على الرغم من ان عنوان الكتاب يدل على ذلك. ومن كتب السير المهمة كتاب بي ايل راينر B. L. Rayner "حياة توماس جيفرسون Life of Thomas Jefferson " المطبوع في لندن عام ١٨٣٤ الذي تضمن شرحاً وافياً لحياة جيفرسون مع وثائق ورسائل مهمة اختارها بصورة جيدة لبيان الأحداث المهمة، وتكمن أهميته في كونه معاصراً لجيفرسون وبنته وحفيده، لكن ما يؤخذ عليه ذكره بعض الرسائل بلا عنوان. والحقيقة أن هناك العشرات من الكتب التي تناولت حياة توماس جيفرسون لا تقل أهمية عما ذكرته آنفا مثل كتاب جين ليسيتزكي Gene Lisitzky "توماس جيفرسون Thomas Jefferson " التي عالجت فيه جوانب مهمة من حياة توماس جيفرسون بنوع من التركيز والاختصار، وكتاب اس. ي.

فورمان S. E. Forman " حياة توماس جيفرسون وكتاباته The Life and Writing of Thomas Jefferson" الذي كان عبارة عن كتابين في مجلد واحد تضمن الأول حياة جيفرسون والثاني أوراقه ورسائله المهمة، كما أن هناك العديد من الكتب التي تناولت جانباً واحداً من حياة جيفرسون مثل كتاب الباحثة انيت جوردون ريد Annette Gordon-Reed"توماس جيفرسون وسالي هيمينغز: القصة الأمريكية المثيرة للجدل Thomas Jefferson and Sally Hemings: An American Controversy Charlottesville?" وكما هو واضح من عنوان الكتاب فقد تناولت الباحثة علاقته بسالي بصورة مفصلة، وكتاب كلود جي باوريس Claude G. Bowers "جيفرسون الشاب The Young Jefferson " الذي تناول حياة جيفرسون المبكرة، وكتاب كارل لي بيكر Carl L. Becker "إعلان الاستقلال، دراسة في تاريخ الأفكار السياسية The Declaration of Independence Studying the History of Political Ideas " الذي ركز على مصادر إعلان الاستقلال الذي كتبه جيفرسون وأكد قيام جيفرسون بالاقتباس من جون لوك. وغير ذلك من المصادر العديدة التي استفدنا منها في القاء الضوء على بعض جوانب الموضوع والتي لا يتسع المجال لذكرها هنا.

وإضافة إلى كتب السير التي تناولت حياة جيفرسون كان هناك العديد من المصادر الأخرى التي أفاد منها الباحث مثل كتاب ويرتن بيكر Werten Baker "المزارعون في مستعمرة فرجينيا The Planters of Colonial Virginia " الذي أعطى صورة واضحة عن الطبقات الاجتماعية في فرجينيا بصورة عامة والمزارعين والزراعة بصورة خاصة واسهم في إثراء الفصل الأول من الأطروحة بمعلومات قيمة عن الحالة الاجتماعية في فرجينيا قبل الاستقلال. وكتاب جون فيسك John Fiske "الثورة الأمريكية The American Revolution" ويقع في جزأين وفيه شرح تفصيلي ودقيق عن مسيرة الثورة الأمريكية وحرب الاستقلال ونتائجها، وتميز الكتاب بإعطاء أرقام دقيقة عن عدد الجنود في كل المعارك وتسليحهم وأحوالهم النفسية. وكتاب بول جونسون Paul

Johnson "جورج واشنطن الاب المؤسس George Washington . The Founding Father" الذي أفاد الأطروحة بمعلومات قيمة عن الرئيس الأول جورج واشنطن وحكومته الأولى والثانية والصراع بين وزرائه واثر ذلك في عمل الحكومة.وكان لكتاب كلود جي باورز " جيفرسون وهاملتون، الكفاح من اجل الديمقراطية في أمريكا Jefferson And Hamilton The struggle for Democracy In America " الفائدة الكبرى في بيان أسباب الصراع بين الاثنين وموقف الرئيس واشنطن ومن ثم الرئيس آدمز من ذلك الصراع، ونتائجه على تطور الديمقراطية في الولايات المتحدة.

وكان للكتب المعربة دور مهم في شرح العديد من التفصيلات المهمة، ويأتي في مقدمتها كتاب برنارد مايو" جيفرسون الرئيس الفيلسوف من كتاباته" الذي قام بترجمته الدكتور محمد عبد المعز نصر، وتكمن أهمية الكتاب في كونه أعطى وصفاً كاملاً لحياة توماس جيفرسون من خلال رسائله وكتاباته الأخرى، وقام باختيار مجموعة من تلك الكتابات لكنه حرص على عرض الكتابات التي تبرز الوجه الحسن لجيفرسون والسياسين الأمريكيين الآخرين، كما انه كان يستقطع رسالة ما ويلصقها بأخرى بدون ذكر ذلك الاستقطاع، مما يؤدي إلى ركاكة النص المقتبس، كما انه لا يذكر عناوين الرسائل وتواريخها. وكان لكتاب "الحلم والتاريخ أو مئتا عام من تاريخ أمريكا" للمؤلف الفرنسي كلود جوليان أهمية كبيرة في إغناء الأطروحة بالمعلومات الزاخرة عن الصراع بين هاملتون وجيفرسون وما ترتب عليه من صراع بين الفيدراليين والجمهوريين، وكان وصفه لذلك الصراع جيداً لكنه تحيز في كثير من الأحيان لجيفرسون.ويأتي كتاب جون ستيل جوردون "إمبراطورية الثروة" بالأهمية نفسها لكونه بين الصراع بين هاملتون وجيفرسون في الجانب الاقتصادي.

وهناك العديد من المصادر الأمريكية والمعربة التي لا تقل فائدتها عن ما ذكرته سابقا، لكن المجال لا يكفي لسردها وبيان فائدتها العلمية. والى جانب ذلك هناك العديد من البحوث المهمة التي سلطت الضوء على بعض الحقائق التاريخية،

وكان للمكتبة الافتراضية العلمية العراقية على شبكة الانترنت فائدة عظيمة للحصول على اغلب تلك البحوث بصورة مجانية، كما كان لشبكة الانترنت العالمية دور كبير في رفد الأطروحة بالمعلومات المهمة ولاسيما ما يتعلق بعلاقة توماس جيفرسون بسالي هيمينغز وفحص الحمض النووي.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١-١١
الفصل الأول : توماس جيفرسون وبروز شخصيته الاجتماعية والسياسية	١٢- ٩٨
المبحث الأول: (انحداره الأسري، ولادته ونشأته)	
أولا: الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في فرجينيا عند نشأة جيفرسون	١٣-٣٠
ثانياً: انحداره الأسري	٣٠-٣٩
ثالثاً: ولادته ونشأته	٤٠-٤٤
المبحث الثاني: تعليمه ونشاطه العلمي	٤٥
أولا: تعليمه ودراسته	٥٤-٥٦
ثانياً : عمله في المحاماة	٥٧-٦٥
ثالثاً: تعيينه في مجلس المواطنين	٦٥-٦٩
المبحث الثالث: حياته الاجتماعية	٧٠-٧٤
أولا : بناء مونتسليو واحتراق شادويل	٧٥-٧٨
ثانياً: زواجه	٧٩-٨٢
ثالثاً : جيفرسون وسالي هيمينغز	
رابعاً : قضية الحمض النووي	٨٣-٩١
	٩٢-٩٧

الفصل الثاني : الصراع بين المستعمرات الأمريكية والحكومة البريطانية وموقف جيفرسون منه	٩٨- ١٦٢
المبحث الأول:	
أولا: بداية الصراع بين الحكومة البريطانية ومستعمراتها في أمريكا الشمالية	٩٩-١٠٤
ثانياً : موقف جيفرسون من ذلك الصراع	١٠٥-١١٧
ثالثاً : قيام الحرب وموقف جيفرسون	١١٨-١٢٥
رابعاً : جيفرسون يكتب بيان الاستقلال	١٢٦-١٣٤
خامساً :ملاحظات على بيان الاستقلال	١٣٤-١٤٠
المبحث الثاني: جيفرسون عضواً في مجلس فرجينيا التشريعي	١٤١-١٤٢
أولا: قانون الإرث (الابن البكر)	١٤٢-١٤٤
ثانياً: التربية والتعليم	١٤٥-١٤٨
ثالثاً: التشريعات الدينية	١٤٨-١٥٣
رابعاً: قضية العبيد	١٥٣- ١٥٧
خامساً: قضايا أخرى	١٥٨-١٦٢
الفصل الثالث : دور جيفرسون في السياسة الأمريكية (الداخلية والخارجية) ١٧٧٩-١٧٨٩	١٦٣-٢١٦
المبحث الأول : توماس جيفرسون حاكما لفرجينيا ١٧٧٩- ١٧٨١	١٦٤-١٨٤
جيفرسون عضواً في المؤتمر ومشكلة الاراضي الغربية	١٨١-١٨٦
المبحث الثاني : توماس جيفرسون في فرنسا	١٨٧- ١٩٩
أولا : توماس جيفرسون سفيراً في فرنسا	

ثانياً: اهتماماته بتطور الأوضاع في الولايات المتحدة	٢٠٠-٢٠٥
ثالثاً : رحلاته إلى جنوب فرنسا وايطاليا	٢٠٥-٢٠٨
رابعاً : جيفرسون والثورة الفرنسية	٢٠٩-٢١٦
الفصل الرابع توماس جيفرسون وزيراً للخارجية ونائباً للرئيس جون آدمز	٢١٨-٢٢٢
المبحث الأول : جيفرسون وزيراً للخارجية والصراع مع هاملتون ١٧٩٠- ١٧٩٤	٢٢٢-٢٣٠
أولا: قضية الديون الفيدرالية	٢٣٠-٢٤٢
ثانيا: تأسيس المصرف والمشاريع الصناعية والانشقاق السياسي	٢٤٢-٢٦٢
ثالثا: الموقف من فرنسا	٢٦٢-٢٧٠
رابعاً: قضية الملاحة في المسيسبي	
المبحث الثاني	
جيفرسون نائبا للرئيس جون آدمز ١٧٩٦- ١٨٠٠	٢٧٠-٢٨٩
انتخابات عام ١٨٠٠	٢٨٩-٢٩٩
الخاتمة	٣٠٠-٣٠٦
المصادر	٣٠٧-٣٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الاول

توماس جيفرسون انحداره الاسري وبروز شخصيته الاجتماعيه والسياسية

المبحث الاول :- (انحداره الاسري، ولادته ونشأته)

اولا:- الاوضاع السياسيه والاقتصاديه والاجتماعيه في فرجينيا عند نشأة جيفرسون

ثانيا:- انحداره الاسري

ثالثا:- ولادته ونشأته

المبحث الثاني : تعليمه ونشاطه العلمي

اولا:- تعليمه ودراسته

ثانيا:- عمله في المحاماة

ثالثا:- تعيينه في مجلس المواطنين

المبحث الثالث:- حياته الاجتماعيه

اولا:- بناء مونتسليو واحتراق شادويل

ثانيا:- زواجه

ثالثا:- جيفرسون وسالي هيمينغز

رابعا:- قضية الحمض النووي

اولا: الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في فرجينيا عند نشأة جيفرسون

بعدما تولى جيمس الاول [١]العرش الانكليزي عام١٦٠١, عدَّ من حقه الشرعي ان يرث كل الشاطىء الشرقي لقارة امريكا الشمالية ,لذلك منح في عام ١٦٠٦ امتيازا لشركة فرجينيا بأن تقوم بتوطين مستعمرين انكليز في الاراضي الواقعة على الساحل الشرقي مابين خطوط العرض ٣٤و ٤٥شمالا[٢] على ان تؤسس لهذا الغرض شركتين هما شركة لندن وشركة بلايموث , وقد امر الملك بأن يكون لهؤلاء المستعمرين حق التصويت في الانتخابات وضمان الحريات العامه وان تكون لهم الامتيازات في اي جهة من ممتلكات التاج البريطاني وان يعاملوا كما لو انهم مولودون وقاطنون في انكلترا نفسها[٣]، واعطى في الوقت نفسه الحق للشركة بأن تقوم بسك النقود وفرض الضرائب وسن القوانين في تلك الاراضي مع المحافظة على التبعية للملك[٤] .

انشأ المستوطنون الاوائل (الذين جلبتهم شركة لندن) مدينة جيمس تاون ، في فرجينيا نسبة الى الملك جيمس الاول, وفي عام ١٦١٩ اجتمعت عدة احداث ادت الى تقرير مستقبل المستعمرة , كان الحدث الاول وصول سفينة من انكلترا تحمل مئة فتاة للزواج من رجال المستعمرة[٥]،وهذا جعل الحياة تدب فيها كما اعطى ذلك الامر سببا اخرا للنضال من اجل البقاء والتوطن في المستعمرة , والحدث الثاني وصول سفينة هولندية تحمل عبيدا من افريقيا اذ اشترى اهل

---

(١) جيمس الاول :- (١٦٠٣- ١٦٢٥) تولى العرش وعمره ستة وثلاثون عاما بعد وفاة الملكة اليزابيث الاولى, كان من اسكتلندا لذلك عرف عنه جهله بأنكلترا وشعبها ودستورها كما عرف بغروره وتبذيره الشديد ,استند الى نظرية الحق الالهي في الحكم ولذلك اصطدم مع البرلمان في اول جلسة له عام ١٦٠٤ , ودخل في صراع مع البرلمان وحله عدة مرات اثناء حكمه , شاركت انكلترا بحرب الثلاثين عام ضد اسبانيا في عهده , ينظر :- محمد محمد صالح , تاريخ اوربا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية ١٥٠٠-١٧٨٩، بغداد ١٩٨٢, ص.ص ٣٥٠- ٣٤٦

(٢) ينظر نص الامتياز الكامل في:-

Howard W. Preston , Documents Illustrative of American History 1606- 1863 , New York 1886, PP 1-14.

(٣) ديب علي حسن , الولايات المتحدة من النشيئة الى الامبراطورية، مراقبة وتدقيق، اسماعيل الكردي، دمشق ٢٠٠٢ ، ص ٢٥

(4) H.S. Commager , Documents of American history , New York 1949 , P.11

(5) Alan Brinkley ,A survey, American history ,NewYork , 2007, P. 3

المستعمرة عشرين عبدا[١], وكان ذلك ايذانا ببدء عملية استخدام العبيد في الزراعة , اما الحدث الثالث فكان اجتماع مجلس فرجينا الاول الذي سمي بيت المواطنين , في كنيسة جيمس تاون الذي حضره الحاكم ومستشاروه الانكليز واثنان وعشرون نائبا يمثلون احدى وعشرين مزرعة في المستعمرة[٢], وقد اعطى الحدث الاخير شعورا بالثقة لدى المستعمرين تجاه الحكومة الانكليزية ومنحهم الثقة في أنفسهم فبدؤوا يمارسون الحياة السياسية بصورة ديمقراطية .

وسرعان ما توالت الاحداث على هذه المستعمرة الصغيرة فقد تعرضت عام ١٦٢٢ لهجوم كبير من قبل الهنود قتل فيه(٣٥٧) رجلا , وادى ذلك الى استياء الملك جيمس من شركة لندن وممثلي المستعمرة[٣].ولما كانت مصالح الشركة تتعارض مع نظام الضرائب الذي فرضه الملك , وجد في ذلك الهجوم فرصته لالغاء امتياز شركة فرجينيا وكان ذلك عام ١٦٢٤ ,اذ اصبحت مستعمرة فرجينيا مقاطعة ملكية يحكمها حاكم يُعَين من قبل الملك يساعده مجلس استشاري وجمعية تشريعية ينتخبها رجال المستعمرة[٤], ومن ثم اصبحت مستعمرة فرجينيا تشبه ولاية انكليزية ملكية .

كانت مهمة الحاكم الانكليزي حماية السلطة الانكليزية في المستعمرة والمحافظة عليها , لذلك فقد منح سلطات واسعة، فهو الذي يطبق القوانين ويقود المليشيا المحلية ويمنح الاراضي باسم الملك ويدعو الهيئة التشريعية للانعقاد , ومن حقه الاعتراض على قراراتها وتأجيل اجتماعاتها او حلها واجراء انتخابات جديدة. اما الهيئة التشريعية المنتخبة من السكان فكان لها الحق في أصدار القرارات على الا تتعارض مع القوانين المعمول بها في بريطانيا , كما كان من حق الملك نقض تلك القرارات[٥]. وفي بداية الامر كان من حق جميع الرجال

(1) Charles L. Thompson , The Religious Fundations of America , A study in National Origins , NewYork 1917 ,P. 89

(2)Ibid, p .92

(٣) محمد محمود النيرب المدخل في تاريخ الولايات المتحدة الامريكية , الجزء الاول حتى ١٨٧٧, القاهرة ١٩٩٧, ص ٣٤.

(4) John D. Hicks ,The Federal Union , Ahistory of the united states to 1865 , Cambridge .Massachusetts 1948 , P. 87.

(٥) هاشم صالح التكريتي , الحياة السياسيه في المستعمرات الانكليزيه في العالم الجديد قبل حرب الاستقلال, بحث غير منشور , ص ٢-٣

الاحرار البيض من " خدم التعاقد " والمزارعين التصويت لانتخاب اعضاء الهيئة التشريعية ولكن بعد عام ١٦٧٠ حرم اولئك حق التصويت , فقد اصبح هذا الحق يعطى لملاك الاراضي فقط, كما اصبحت الوظائف تعطى لاصحاب الحظوة لدى الحاكم والمزارعيين الاغنياء[١], ويذكر احد المؤرخين الانكليز بهذا الخصوص ما نصه:" ان التعينات في المستعمرات تحصل في معظم الاوقات عن طريق الصداقات ومن خلال المعارف والوساطة في لندن ... وان الناس في المستعمرات يدفعون الضرائب لاجل دفع رواتب الموظفين"[٢]، وقد دفعت تلك الاوضاع العديد من الرجال الاحرار للقيام بانتفاضة ضد حاكم فرجينيا الانكليزي وليام بركلي (William Berkely)[٣], وكان السبب المباشر لتلك الانتفاضة عدم قيام بركلي بحماية المستوطنين على الحدود الغربية للمستعمرة من خطر الهنود , وكان هؤلاء المستوطنون من المزارعين والعمال قد تعرضوا لغارة عنيفة من الهنود ولم تتدخل مليشيا المستعمرة , لذا نظم ناثانيال بيكون Nathaniel Bacon[٤] المهاجر الجديد من انكلترا ذو الثقافة العالية , فرقا من المتطوعين من سكان المستعمرة قاموا بمهاجمة الهنود , وبعد انتصاره على الهنود وعلو شأنه بين المزارعين واشتراكه في الهيئة التشريعية الجديدة رغما عن الحاكم بركلي , قام الاخير بتجهيز مليشيا بلغ عددها ١٢٠٠جندي لملاحقة بيكون ورفاقه بعدما غادروا لشن

---

(١) الان نيفز وهنري ستيل كوماجر, موجز تاريخ الولايات المتحدة الامريكية ، ترجمة محمد بدر الدين خليل، القاهرة ١٩٩٠ , ص ٢٣

(2) Quoted in , T. O. Lloyd , The British Empire 1558-1995 , Oxford University, New York 1997 , P. 68

(٣) وليام بركلي :- ولد في انكلترا عام ١٦٠٦, كان ابوه واخوه من اوائل المستوطنين في المستعمرات الامريكية , تخرج من جامعة اكسفورد عام ١٦٢٩, عمل تاجرا بين المستعمرات , وعين ممثلا تجاريا في كندا عام ١٦٣٢, في عام ١٦٤١ عين حاكما لمستعمرة فرجينيا نتيجة علاقته الوطيدة بالقصر الملكي , ومن عمله كحاكم اخذ يتاجر بالفرو مع الهنود وعمل على اقامة علاقات جيدة معهم , بقي حاكما لفرجينيا حتى قمع الانتفاضة ,ينظر:-

The Encyclopedia Americana, The international Reference Work, U.S.A 1962, Vol.3, PP. 555- 556.

(٤) ناثانيال بيكون :-ولد في سوفلوك في انكلترا عام ١٦٤٧, تخرج من جامعة كامبرج ١٦٦٠, سافر مع العالم جون راي الى فرجينيا لمدة سنتين وبعدها قرر دراسة القانون في انكلترا عام ١٦٦٨, تزوج عام ١٦٧٠ وقرر الذهاب الى فرجينيا مع عائلته واستوطن فيها منذ عام ١٦٧٤, كان قريبا جدا من الفلاحين الذين اصبحوا يكنون الاحترام له لذا دعاهم الى مقاتلة الهنود بأنفسهم وعدم الاعتماد على حكومة المستعمرة خاصة بعد احداث ١٦٧٦ , وقاد الفلاحين بهجوم على الهنود ومن ثم حصل الصدام مع بركلي , توفي عام ١٦٧٦, ينظر:- Ibid,P.524.

حملة جديدة على الهنود , وحينما علم بيكون بالامر هاجم مدينة جيمس تاون واحرقها عن آخرها عام ١٦٧٦, واتجه صوب وليامزبورج حيث الحاكم بركلي , لكنه مات متأثرا بالملاريا , وتفرقت جموعه وانتهت انتفاضته[١] .

مثلت انتفاضة بيكون نقطة البدايه للثورة على حكام المستعمرات الانكليز الذين لم يكونوا يفكرون بسوى مصالحهم الخاصة, ولم يعتقدوا أن احدا ما سيثور عليهم ولاسيما المستعمرين ذوي الاصول الانكليزية , كما انها تمثل الثورة على كل اشكال الارستقراطية الانكليزية التي تطبع بها العديد من اصحاب الاراضي الواسعة واصحاب الاموال الذين كانوا يدعمون حكام المستعمرات لغاية حماية املاكهم وارواحهم فقط, غير مكترثين بأبناء جلدتهم من المزارعين البسطاء والعمال المتعاقدين معهم. وعلى الرغم من عدم نجاح الانتفاضة اصبحت رمزا لمقاومة الظلم والطغيان في المستعمرات الامريكية الناشئة.

وعلى الرغم من قيام هذه الانتفاضة وانتشار روح التذمر من الحكام ومن تبعهم من الارستقراطيين , لم تكن فكرة الانفصال عن البلد الام قد ظهرت بعد, فأغلب سكان المستعمرات كانوا يزالون يعدون بريطانيا وطنهم الام, وأنهم حصلوا على الحكم الذاتي في مستعمراتهم ومارسوا نوعا من انواع الحكم التشريعي الذي منحهم سيطرة تامة في ادارة شؤونهم الداخلية[٢]، فما حاجتهم للاستقلال التام ولاسيما انهم يزالون محاصرين بعدوين تقليديين هما الهنود والفرنسيون الذين تحالفوا ضد المستعمرات الانكليزية وخاضوا عدة حروب اشترك فيها رجال المستعمرات الى جانب الجيش الانكليزي واهم تلك الحروب :

اولا : حرب الملك وليام(تسمى في اوربا بحرب عصبة اوكسبرك) ١٦٨٩- ١٦٩٧ كانت اول حرب تشترك فيها مستعمرات انكلترا في القارة الامريكية ضد فرنسا , وانتهت هذه الحرب بمعاهدة ريزويك Ryswick سنة ١٦٩٧, دون حصول اي طرف من الاطراف على اي مكاسب اقليمية[٣] .

---

(1) Hicks , Op. Cit,P.72 ; Brinkley , Op. Cit ,PP.39-40

(٢) ستيفن فنسنت بنيه , امريكا , ترجمة عبد العزيز عبد المجيد , القاهرة ١٩٤٥, ص ٥٠

(٣) للاطلاع على مجريات الحرب وتفاصيل المعاهدة ينظر :

Abiel Holmes, D.D, American Annalis, Or A Chronological History of America Formists Discovery in 1492 To 1806, Vol. II, London 1813, PP.2-32.

ثانيا: حرب الملكة آن (١٧٠١- ١٧١٣) وتسمى في اوربا بحرب الوراثة الاسبانية، حدثت بسبب سلسلة من الاصطدامات بين المستعمرين الانكليز والحاميات الفرنسية بجنوب كندا , وكان ابرز مافيها مشاركة الهنود في المعارك الى جانب الفرنسين ولاسيما في مستعمرات نيو انجلند New England التي استطاعت بالاشترك مع الجيش الانكليزي الاستيلاء على بورت رويال الفرنسية , وكانت نتيجة هذه الحرب لصالح بريطانيا اذ حصلت بموجب صلح اوترخت (Utrecht) عام١٧١٣ على كل من نوفاسكوتيا ونيوفاوندلاند ومنطقة خليج هدسن في امريكا الشمالية[١] .

ثالثا : حرب الملك جورج (١٧٤٠- ١٧٤٨) وتسمى في اوربا بحرب الوراثة النمساوية، وجاءت نتيجة لتعرض مناطق نيوانجلند للغارات الهندية التي كانت تشجعها فرنسا , وكذلك للمنافسة الفرنسية البريطانية على مناطق الصيد في الساحل وعلى تجارة فراء الحيونات , وانتهت بصلح اكس لاشابيل Aix-Lachapell عام ١٧٤٨, اذ اعيدت منطقة لويسبرغ الى فرنسا[٢].

رابعا : حرب السنوات السبع او الحرب الهندية الفرنسية(١٧٥٦- ١٧٦٣) اندلعت الحرب في المستعمرات الامريكية منذ عام ١٧٥٤ واستمرت لغاية ١٧٦٣, اي مدة تسع سنوات, في حين بدأت الحرب في اوربا عام ١٧٥٦, وكان السبب المباشر لاندلاع الحرب في المستعمرات الامريكية هو قيام الفرنسيين الذين استوطنوا كندا وعدداً من المناطق على طوال حوض نهر المسيسبي واسسوا مستعمرة لويزيانا، ببناء عدد من الحصون في اوهايو وهذا هدد المستعمرات الامريكية في الغرب, وكانت الغلبة لفرنسا في بداية الامر لقوة تحالفها مع الهنود ولحكمها المركزي على مستوطنيها في كندا وهذا اسهم بتعبئتهم بشكل كبير وسريع, واستمر الامر كذلك حتى عام١٧٥٩,[٣] اذ تمكنت القوات البريطانية من دحر الفرنسيين عند مدينة كويبك الفرنسية , واضطرت فرنسا لتوقيع معاهدة

---

(1)Holmes,Op.Cit, PP. 72-74.

(٢) عمر عبد العزيز عمر, دراسات في التاريخ الاوربي والامريكي الحديث،الاسكندرية ١٩٩٢، ص ٣٣٥

(٣) بعدما تولى وليم بت الوزارة في بريطانيا عام ١٧٥٧ , تحالف مع فردريك الكبير ملك بروسيا , وبالتالي جعل بروسيا تدير الحرب في اوربا نيابة عن بريطانيا , وتفرغ للفرنسيين في قارة امريكا , ينظر :- محمد محمد صالح , المصدر السابق, ص ٥٣٦- ٤٣٨؛ جلال يحيى , التاريخ الاوربي الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الاولى , الاسكندرية ١٩٨٣, ص ١٤٥- ١٤٨.

باريس عام ١٧٦٣ التي تنازلت بموجبها عن كندا ووادي المسيسبي عدا نيواورليانز عند مصب النهر, وحصلت اسبانيا على لويزيانا من فرنسا مقابل دخولها الحرب الى جانبها(١).

اعطى الانتصار بحرب السنوات السبع ثقة كبيرة لرجال المستعمرات الذين عدوا النصر نصرهم , كما ازالت تلك الحرب التهديد المزعج الذي طالما اتى من ناحية المستعمرات الفرنسية, وأفادت الحرب رجال المستعمرات باكتسابهم خبرة كبيرة في الشؤون العسكرية (٢), وبرز بينهم ضباط علا شأنهم في اثناء الحرب وبعدها ولاسيما جورج واشنطن الضابط الفرجيني الذي كان اول ما اشتهر به أنه الشخص الذي تسبب باندلاع الحرب , فقد كتب فولتير فيما بعد" لقد أذنت قذيفة مدفع اطلقت في امريكا بأندلاع الحرب التي اشعلت النار في اوربا"(٣), وكان واشنطن هو الذي امر بأطلاق النارعلى الحامية الفرنسية التي كان يقودها الملازم الفرنسي دي جومونفيل De Jumonivile عند اوهايو فوركس غرب فرجينيا, فقد كان واشنطن يقود جموع المتطوعين من فرجينيا لطرد الهنود في وادي اوهايو اذ شن هجمة عنيفة على الحامية الفرنسية وقتل قائدها جومونفيل وعشرة جنود واسر الباقي, وهذا اثارسخط الفرنسيين(٤) .

كانت حرب السنوات السبع لفرجينيا مسألة حياة او موت فهي ولاية الحدود التي اوشكت على السقوط بيد الفرنسيين بعد ان تعرضت لهجوم فرنسي هندي مطبق ،وفي اثناء الحرب تقلصت الحركة الاقتصادية فيها , فقد قلت الاراضي المزروعه بالتبغ بل اوشكت ان تتوقف تلك الزراعة التي تعتمد عليها المستعمرة , ومن ثم انعدمت الحركة التجارية واصبحت المستعمرة على وشك التعرض للشلل التام. وما ان زال الخطر الفرنسي وعاد رجال المزارع الى مزارعهم حتى تنفست المستعمرة الصعداء وعادت الحياة الى طبيعتها , لكن مع

(١) عبد العزيز سليمان نوار , محمد محمد جمال الدين , تأريخ الولايات المتحدة الامريكية من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين , القاهرة ١٩٩٩, ص ٤٦- ٤٧؛

Andre Maurois, A History of England, London 1962, P. 380.

(٢) الان نفينز وهنري ستيل كوماجر, المصدر السابق , ص ٧٤

(3) Quoted in, Paul Johnson, George Washington: The Founding Father , New York 2005,PP. 35-36

(4) Ibid , P 36

تغير كبير في الفكر فقد بات الفرجينيون بنشوة النصر وصحوا بـروح الافتخـار بأنهم قادرون على حماية انفسهم من الهنود ومن الفرنسيين, بدون الاعتماد الكلي على بريطانيا ,وتجلى ذلك الفخر باقتراح الوحدة بين المستعمرات الذي وضـعت صيغته في مؤتمر الباني Albany Congress سنة ١٧٥٤ والذي حضره سبعة نواب من تسع مستعمرات , وكان بنيـامين فـرانكلين [١] Benjamin Franklin اكبر المسهمين في صياغته ,فقد اقترح ان يكون للمستعمرات رئيس عـام يعينـه الملك ومجلس فيدرالي يختار الجمعيات القائمة في المستعمرات اعضاءه , وتكون مهمته الاشراف على العلاقات مع الهنود وفرض الضرائب ويكون للرئيس العـام حق استخدام النقض ,ولكن ذلك المشروع لم يحظ بالتأييد الكافي وهـذا ادى الـى فشله في نهاية الامر [٢] .

ومع ذلك لم تكن الديمقراطية التي تمتع بها اهالي فرجينيا ديمقراطية حقيقية فقد كانت الحكومة البريطانية لاتمانع ابدا في اصدار قرارات تعـارض مصـالح المستعمرات كما انها لم تأبه ابدا بمجلس المـواطنيين فـي المسـتعمرة فـاجتمع المجلس في عام ١٧٥٥ لمناقشة اوضاع الحرب التي كانت تسـير بشـكل رديء حسب شعور اهالي فرجينيا الذين قالوا ان الحكومة الانكليزية فاسـدة وعـاجزة , واشتكوا من تحملهم تكاليف الحرب وانها لاتأخذ اراءهم في كيفيـة ادارة الحـرب بنظر الاعتبار وبعد اسابيع من النقاشات استاء الحاكم الانكليـزي دينويـدي مـن المواطنيين وامر بحل المجلس واعادة الاعضـاء الـى بيـوتهم , وكـان بيتـر جيفرسون"والد توماس جيفرسون" احد الحاضرين في ذلك الاجتماع [٣]،فعادوا الـى

---

(١) بنيامين فرانكلين (١٧٠٦- ١٧٩٠) سياسي وفيلسوف وعالم امريكي ولد في ١٧/ ١ / ١٧٠٦ في بوسطن , عمل بالصحافة منذ نعومة اظافره , ثم اصبح محررا في صحيفة دوجرد عام ١٧٧٢, حيث كتب اغلب مقالاته المثيرة , اجاد التحدث بالعديد من اللغات مثل الفرنسية والايطالية والاسبانية , واشتهر بكونه احد العلماء الطبيعيين خاصة لدراسته الظواهر الكهربائيه ويعود له الفضل في اكتشاف مانعة الصواعق, كان عضوا مؤسسا للجمعية الامريكيه الفلسفية , عمل في السياسة منذ عام ١٧٣٠ , وكان له الدور الابرز في الثورة الامريكية ومثل بلاده في فرنسا عام ١٧٧٦ وكان احد الموقعين على اعلان الاستقلال , وقع الصلح مع بريطانيا عام ١٧٨٣, وكان له الدور الفعال في المؤتمر الدستوري الاتحادي عام ١٧٨٧, توفي في ١٧/٤/١٧٩٠, ينظر :-
TheEncyclopediaAmericana, Vol.12, PP.8-12.

(٢) الان نفينز , المصدر السابق , ص ٤٥٧ دان ليسي , الثورة الامريكية دوافعها ومغزاها , ترجمة محمد عبد الفتاح ابراهيم , القاهرة ١٩٦٥ , ج١, ص ١٢٩

(3) John D. Passos, Thomas Jefferson The Making of president, U.S.A 1964,P 17.

بيوتهم بدون تحريك اي ساكن لانهم ببساطة كانوا مجرد اوراق تلعب بها الحكومة الانكليزية متى شاءت وتتركهم متى شاءت.

اما اقتصاد المستعمرة فقد اعتمد اعتمادا كليا على الزراعة , فالتربة الخصبة والمناخ الحار ذو الرطوبة العالية وفرا مناخا ممتازا لزراعة التبغ[1] الذي اشتهرت به فرجينيا منذ نشوئها مستعمرةً الى يومنا هذا , فمنذ عام ١٦١٢ بُدِئَ بزراعة نوعية جديدة ومميزة من التبغ في فرجينيا , حيث جلبت بذور مهجنة من التبغ المستورد من جزر الهند الغربية وقد استساغ الذوق الاوربي ذلك التبغ ووصلت اول شحنة من التبغ الفرجيني الى لندن عام ١٦١٤[2]. زد على ذلك ان مستعمرة فرجينيا كانت تخترقها الانهار العديدة الصالحة لملاحة سفن النقل الصغيرة وهذا سهل عملية نقل المحاصيل الزراعية , فما ان يجمع الفلاح انتاجه ويكدسه حتى تكون السفينة قريبة منه وفي بعض الاماكن ترسو السفن عند باب المزرعة والمزارعون الاثرياء كانت السفن تقف عند منازلهم ومخازنهم وتقوم بتحميل التبغ وتشحنه للموانىء ثم الى اوربا فلا يجد المزارع عناءً لنقل منتوجه من التبغ الى الساحل وهذا ما شجع على زيادة حجم الانتاج , فقد زاد انتاج التبغ عام ١٦١٨الى عشرين الف رطل وبعد اربع سنوات تضاعف المحصول ثلاثة اضعاف , وفي عام ١٦٢٧وصل الانتاج الى ٥٠٠الف رطل ثم بلغ مليون رطل ونصف المليون عام ١٦٢٩, واصبحت فرجينيا تصدر ثلاثة ملايين رطل الى بريطانيا سنويا وبذلك تفوقت على المستعمرات الاسبانية لتصبح المصدر الاساسي للتبغ المستورد الى اوربا[3] .

لكن مزارع التبغ كانت تتطلب الكثير من الايدي العاملة والتي كان وجودها صعبا جدا في مستعمرة تمنح كل رجل حق تملك الارض,فمن سيقوم بالزراعة ؟ ومن هنا ظهرت مشكلة العمال التي قام رجال المستعمرة الاغنياء بحلها عن طريقين الاول كان شراء العبيد، ولما لم يكن ذلك متاحا بصورة كبيرة حتى

---

(١) محمد محمود النيرب , المصدر السابق , ص ٥٠

(2) Gene Lisitzky, Thomas Jefferson, New York 1933, P.8.

(٣) جون ستيل جوردن , امبراطورية الثروة. التاريخ الملحمي للقوة الاقتصادية الامريكية , ترجمة محمد مجد الدين باكير , الكويت ٢٠٠٨, ص ٢٩؛ Lsitzky, Op.Cit , P.8

منتصف القرن السابع عشر, لجأ اصحاب المزارع الى طريقة اخرى هي طريقة التعاقد مع الفقراء من الرجال الذين هاجر اغلبهم من انكلترا , وكان المتعاقد ملتزما بعقد رسمي للعمل في المزارع مقابل اجور مادية لاتتجاوز في احسن الاحوال بضعة شلنات[١]،لان صاحب المزرعة قد دفع تكلفة نقله من انكلترا الى المستعمرة ومن ثم عليه تسديد اجرة النقل من خلال العمل المضني في المزارع. وادى ذلك الى جعل المتعاقد شبه العبد فهو مملوك لصاحب العمل حتى انتهاء مدة العقد , علما ان قسما من هؤلاء المتعاقدين كانوا من السجناء والمجرمين[٢] .

حاول الكثير من رجال المستعمرات غير الاثرياء في البداية القيام بزراعة مزارعهم الخاصة لكنهم لم يحصلوا على ارباح تجارية فقد كانوا لايستطيعون منافسة الملاك الاغنياء , فإن ما تنتجه المزارع الصغيرة بمجموعها لايقارن بانتاج مزرعة واحدة من مزارع الاغنياء , ولاسيما انهم لم يكن باستطاعتهم جلب العمال المتعاقدين من انكلترا ولايمكنهم شراء العبيد حيث بدأ ملاك الاراضي بشراء العبيد من افريقيا.لذلك فضل اولئك البسطاء الرحيل الى بنسلفانيا ونيوجرسي وديلاور[٣], وبذلك نشأت في فرجينيا طبقة واسعة من اصحاب الاموال عرفت بمالكي الارض, وكان مادونها طبقات من الخدم والعبيد خاصة بعدما كثر استيراد العبيد والاعتماد عليهم اذ بدأت التعاقدات تتلاشى لتفضيل الملاك للعبيد على اعتبار انهم غير مثيرين للفوضى كما انهم ارخص ثمنا على مدى السنوات اللاحقة فالعبد يعمل في ألارض حتى يموت دون مقابل وينجب عبيدا وهكذا ومع بداية القرن الثامن عشر استشرى عدد العبيد حتى اصبح ذلك العصر يسمى بالعصر الذهبي لمالكي العبيد[٤] .

---

(١) المئة شلن تساوي سنتا واحدا

(2) Werten Baker , The planters of colonial Virginia, New York N.D, PP. 31- 32

(٣) كان اغلب اولئك ممن يسمون (Redemptioners) وكانوا من العمال المتعاقدين الذين جلبوا معهم عائلاتهم ولم يكونوا ذوي سوابق او مجرمين , فما ان تنتهي مدة تعاقدهم (مابين ٣-٧سنوات) حتى يغادروا فرجينيا الى بنسلفانيا حيث كانت السلطات هناك تمنح كل متعاقد مع عائلته ٥٠ هكتارا من الارض وبعض الادوات الزراعيه والملابس وغيرها من الاحتياجات الاساسيه للمعيشه , ينظر : محمد محمود النيرب , المصدر السابق , ص ٥٣

(4)Baker,Op.Cit,32.

اصبح التبغ عماد الحياة الاقتصادية في فرجينيا فقد كان معظم معاش الفرجينيين يتوقف على تصديره الى انكلترا , اما في المعاملات المحلية فأن كميات التبغ كانت تؤخذ وتعطى مثل النقود[١], واصبح الانسان يقاس ويقدر بمقدار ما يملك من التبغ والاراضي الزراعية المخصصة لزراعته وعدد العبيد الذين يملكهم فكلما زادت مساحة الارض وعدد العبيد زاد انتاجه من التبغ ومن ثم ازادت وارداته وازداد معها قيمته واعتباره , ولذلك سعى بيتر جيفرسون كما سنرى للحصول على اراضٍ جديدة للوصول الى الطبقة الارستقراطية في فرجينيا.

اما من ناحية الصناعة فلم تقم في فرجينيا اي صناعات تذكر وعموما كانت الصناعات تتركز في المستعمرات الشمالية[٢]. وكانت بريطانيا تشجع الزراعة في المستعمرات الامريكية وتحاول جهدها منع قيام المستعمرات ببناء صناعة قادرة على منافستها حتى ان وليم بت هدد ذات مرة بانه "اذا انتجت امريكا خيطا واحدا من الصوف او حدوة حصان واحدة فانه سيملأ مدنها بالجنود"[٣] ,ومن ثم لم تكن هناك سوى صناعات صغيرة لتلبية الاحتياجات الضرورية لسكان المستعمرة فقد كان هناك ورش النجارين والدباغين وغيرها من الصناعات التي افضل مايقال عنها انها صناعات حرفية [٤], ولم تكن انكلترا تشجع قيام صناعات في المستعمرات لتبقي صناعتها المتنامية بسرعة التي تحتاج الى اسواق , وكانت تشجع الزراعة بشكل كبير, كما ان الثقافة العامة في فرجينيا كانت ثقافة الزراعة لانها الطريق الاساسي للحصول على الثروة الهائلة بل ان : " الطريق الوحيد لان تنمو ثروتك وتكون رجلا نبيلا هو بتعلم فن الاقتصاد الزراعي"[٥]. وهكذا نشط الملاك واصحاب الاراضي واجتهدوا في زراعة التبغ حتى بلغت صادرات

---

(1) Ibid, P. 33

(٢) للتفاصيل عن الصناعة في المستعمرات الامريكيه ينظر :- هاشم صالح التكريتي , "الصناعة والتجارة في المستعمرات الانجليزيه في العالم الجديد قبل حرب الاستقلال" , المجلة القطرية للتأريخ والاثار/بغداد , العدد٢لسنة ٢٠٠١

(3) Quoted in , Andre Maurois , The Miracle of England , U.S.A N.D, P.372.

(4) Baker,Op.Cit, P. 105

(5) Quoted in , Richard Bridgman," Jeffersons Farmer befor Jefferson",American Quarterly Magazine,Vol.14,No.4 winter,1962, P.568

فرجينيا من التبغ مع مستعمرة ماريلاند قبل الثورة زهاء خمسة وثمـــانين مليـــون رطل الى انكلترا وحدها[١] .

وخلاصة القول ان البنية الاساسية لاقتصاد مستعمرة فرجينيا هي الزراعة وان التبغ هو العمود الاساس لتلك الزراعة.

اما عن وضع المستعمرة الاجتماعي فيمكن تقسيم مجتمع فرجينيا الى ثلاث طبقات رئيسة:ـــ

اولا: الطبقة العليا (الارستقراطية)

اغلب ابناء هذه الطبقة كانوا من الانكليز او المتحدرين من دماء انكليزية,وقد "عاش نبلاء العوائل الانكليزية القديمة الجديدة كلوردات اقطاعيين بين عبيدهم"[٢] وهؤلاء هم ملاك الاراضي الواسعة وملاك العبيد والمصدرون الاساسيون للتبغ, وكانت الحياة الاقتصادية والسياسية للمستعمرة تدور بعجلتهم,وقد ارتبط اسم الطبقة الارستقراطية بالمستعمرة حتى ان فرجينيا سميت بالمستعمرة الارستقراطية لانها برمتها كانت ملكا لنحو مئة اسرة انكليزية تقاسمت الارض والثروة وكانت هذه الأسر تتناقل الثروة فيما بينها عن طريق المصاهرة ضمن طبقة اجتماعيه مغلقة[٣], وكانت املاك هذه الطبقة واسعة جدا اذ عدّ والد الرئيس الاول جورج واشنطن منحدرا من طبقة متوسطة الحال مع انه يملك "عشرة الاف ايكر[٤] وتسعة واربعين عبدا وست ورش حدادة"[٥]!!! في حين عد توماس جيفرسون والده من الرجال المتوسطي الحال على من الرغم انه يملك خمسة الاف هكتار وعشرات العبيد[٦]!!!واذا اخذنا بصحة القول" متوسطي الحال" فما حجم ثراء وممتلكات الاغنياء من ابناء الطبقة الارستقراطيه الفرجينية ؟ والوصف التالي يعرفنا على جزء من تلك الحياة الارستقراطية في فرجينيا اذ جاء فيه "..

(١) لويس هايكر , الرأسمالية الامريكية , ما انجزته وما تعد , ترجمة دكتور ع. الحفار, بيروت د.ت, ص ٣٢

(2) Chrlton J. H. Hayes, A Political And Cultural History of Modern Europe ,Vol ,I ,1500- 1830 , P. 476.

(٣) بيير سلانجر, امريكا المستبدة , الولايات المتحدة وسياسة السيطرة على العالم , ترجمة د. حامد فرزات , دمشق ٢٠٠١, ص٢٥

(٤) الايكر يعادل ٤٠/٤٧ مترا مربعا، اما الهكتار فيعادل ١٠٠٠٠ متر مربع

(٥) هكذا يذكر احد كتبة سيرة الرئيس جورج واشنطن , ينظر Johnson,Op.Cit, P.13.

(6) Thomas Jefferson Randolph, Memoirs, Correspondence, and private papers, London 1829, P.14.

قصورها جميلة ولافتة للنظر واروقتها المعمدة تمتد على طول المزارع التي تتكون من الاف الايكرات والحدائق الرائعة, والاثاث المستورد من انكلترا والاضاءة الفضيه على موائد العشاء والرسوم التي تزين الجدران والكتب التي تملأ المكتبات والنبيذ الفاخر في سراديب القصور الرائعة الجمال ومداخلها انيقة ومضاءة دائما ... اما موائد العشاء فتجد فيها الصحون الفضية والاباريق النحاسيه المخصصة للضيافة مع شراب كحولي خفيف في اكواب فضية ...اما سادة القصور من الرجال فتراهم يركبون على خيول من ارقى السلالات, والنساء يركبن العربات الغالية الثمن واللامعة لكونها مطلية بالوارنيش في الاعلى ومكسية بأروع الاقمشه الملونة في الوسط مع شبابيك مصقولة, اما جسم العربة فتراه مغلفا بورق البردي والواح الباب قد رسم عليها سمك الرف وعرف الديك للاشارة الى مقاطعة ويلز في انكلترا..."[١]. ويبدو من خلال هذا الوصف اننا نتكلم على مدينة فاحشة الثراء في فترة العصور الوسطى, ويجب الاّ نستغرب كما استغرب الرحالة الانكليزي سمايثي smythe مما سمعه عن فرجينا من حياة مترفة وصاخبة بحيث انه لم يصدق ما سمعه حتى رآه بأم عينه كما اخبرنا في رحلته للمستعمرات الامريكية التي وصف فيها الحياة اليوميه للرجل الارستقراطي في فرجينيا بأنه "يستيقظ عند الساعة التاسعة صباحا ويمشي الى الاسطبلات قبل الفطور من ثم يتناول فطوره المكون من الشاي او القهوة والخبز والزبدة وشرائح رقيقة جدا من لحم البقر وفيما بعد يرتاح على الاريكة في غرفته الباردة بقميصه وبنطاله , ويقف عند رأسه عبد ليمنع عنه الذباب , وفيما بين الساعة الثانيه عشرة والواحدة يأخذ شراب البمبو او التوديه[٢] Bombo Or Toddy وبين الساعه الثانية والثالثة يتناول غداءه المكون من فخذ لحم الخنزير والخضروات , وفي العشاء يشرب نبيذ التفاح او النبيذ الاحمر وبعد العشاء يتمدد على الاريكة مع عبدين الاول يقوم بمنع الذباب عنه والثاني يحرك المروحة ويواصل السيد تناول الشراب المسكر حتى اخر الليل..."[٣].

---

(1) Quted in, Claude G. Bowers, The Young Jefferson 1743 – 1789, U.S.A 1945, PP.3-4.

(٢) شراب مكون من عصارة النخيل والسكر والكحول وجوز الهند.

(3) Smythe, A Tour in the United Ststes,N.D, PP.41-42.

من خلال هاذين الوصفين يتسنى لنا التعرف على حياة الطبقة العليا في فرجينيا التي لم يوصف بها حتى النبلاء الانكليز انفسهم , وهي قريبة جدا من حياة النبلاء في العصور الوسطى باستثناء ان النبيل في ذلك الوقت كانت لديه مهام يقوم بها بنفسه مثل المشاركة بالمعارك او جمع الضرائب على عكس الارسقراطي الفرجيني الذي لايقوم بشيء سوى الاتكاء وشرب الكحول وعبيده يقومون بكل الواجبات, ولذلك نرى العديد من اغنياء انكلترا يفضلون العيش في فرجينيا وترك لندن وليفربول لكونها مدنا بدأت تكتظ بالسكان منذ بداية القرن السابع عشر لتحولها الى مدن صناعية ضيقة ,زيادة على قلة توافر العبيد نتيجة المطالبة الملحة بوقف تلك التجارة , فكان لابد من اللجوء الى فرجينيا تلك المدينة الحمراء الصاخبة التي توافرت فيها جميع اسباب الترف والفجور.

ولما كان اقتصاد المستعمرة بيد تلك الطبقة كانت امورها السياسية هي ايضاً لاتخرج عن ايديهم والمعروف ان من يملك المال يملك السلطة, فالهيئة التشريعية كانت تُعَيّن من ابناء تلك الطبقة وحتى الحكام الانكليز نادرا ماكانوا يعصون امرا لهم بوصفهم اهل المال فكانت الوظائف الحكومية كلها بأيديهم باستثناء حاكم المستعمرة الذي يعين من الملك. وفي دراسة اجراها الباحث الامريكي جاك كرين Jack Green على مائة وعشرة رجال ممن شغلوا مقاعد في مجلس المواطنين في فرجينيا للمدة من عام ١٧٢٠- ١٧٧٦ وجد ان ٧٥% منهم كان يملك على الاقل عشرة الاف ايكر من الاراضي الزراعية, و٩٠% منهم كان يستخدم العبيد في مزارعه, و٤٠%منهم كان لديه وكلاء يستخدمهم لدفع الرشاوي لشراء اراضٍ جديدة بكر من حكومة المستعمرة , و ٥٠%منهم كانوا من عوائل انكليزية مشهورة , كما ان نسبة ١٠٠% منهم كانوا يتبعون الكنيسة الانكليكانية الانكليزية(١)

ان ابناء هذه الطبقة العليا كانوا يهتمون بأموالهم وممتلكاتهم وكيفية الحفاظ عليها وتوسيعها ولو كان ذلك على حساب مصالح عامة الناس وغالبا ما ارتبطوا

(1) Jack P. Green ,Foundations of political power in the Virginia house of Burgesses1720-1776,WMQ 1959: 485-500, Quoted in, Ronald L.hatzenbuehler, "Thomas Jeffersons life Among Virginia gentry", The virginina Magazin of history and biography, Vol.101, No.1(Jan,1993) PP8-9.

بروابط قوية مع حاكم المستعمرة الانكليزي ودافعوا عن نظام الحكم في المستعمرة الذي اتاح لهم المحافظة على اموالهم وزيادتها. وقد اسهمت هذه الطبقة الارستقراطية بصورة كبيرة في قمع انتفاضة بيكون . وكان لجد جورج واشنطن دوراً كبيراً في اخمادها لكونه عقيدا في مليشيا بركلي[١]. وعموما كانت تلك الطبقة تدير المستعمرة كما تدار المزارع مع التركيز على نفع ابناء تلك الطبقة الذين هم في الوقت نفسه المقررون والمستفيدون من الاجراءات المتخذة لان بيدهم السلطة والمال والارض فلا عجب اذن من القول " اذا كان كبار اهالي ولاية فرجينيا امثال واشنطن وجيفرسون ومادبسون ومونرو قد ساهموا بنجاح هذه الامة بفضل صفاتهم الجدية وحكمتهم وحذرهم وفصاحتهم ونبلهم, الا ان الفعل بقي محصورا بتأمين نجاح الثورة لتحقيق الهدف الاساسي وهو الحفاظ على نمط من الحياة هو نمط الصفوة الفرجينية"[٢].

ثانيا : الطبقة العامة

تتكون من المزارعين البسطاء الذين لم يكونوا يملكون اموالا لاقامة مزارع كبيرة مع انهم مشتركين في تحدرهم مع ابناء الطبقة الارستقراطية لكونهم من اصول انكليزية, الا ان ذلك الامر لم يشفع لهم الا بالحصول على اراضي الغابات والحدود، التي كان من الصعب جدا استصلاحها وزراعتها بأيديهم فلم تكن لديهم تلك الالات البشرية السوداء (العبيد) ولم يكن عندهم اخر ماوصلت اليه العبقرية الانكليزية من المكائن الزراعية التي كان يجلبها الارستقراطيون لاراضيهم[٣] .

شكل ابناء الطبقة العامة نسبة كبيرة من سكان المستعمرة وكانوا الاساس الذي بنيت عليه المستعمرة وكان اول هؤلاء من المهاجرين الانكليز الذين وصلوا في عام ١٦٠٧ ليناضلوا من اجل البقاء والاستقرار فيها, من الهاربين سعيا وراء الحرية في ممارسة ومعتقداتهم الدينية وكانت شركة فرجينيا قد جلبت بذلك العام

---

(1) Johnson,Op.Cit, P.12.

(٢) نقلا عن، بيير سلانجر، المصدر السابق، ص ٢٦.

(3) Bridgman ,Op.Cit, PP. 569-570

مائة واربعة رجال كلهم من الفقراء والمعدمين واستمرت بجلب المئات منهم[١]،كما قدم العديد من الفقراء الذين ارادوا الحصول على فرص عمل حرموا من الحصول عليها في انكلترا خاصة بعدما اجتاحت انكلترا ازمة اقتصادية عام ١٦٢٠ وعام ١٦٢٥ .ولم يجد الكثيرون عملا ولم يستطع حتى الحرفيون تأمين متطلبات حياتهم الضرورية, ثم جاءت ظاهرة تسييج الاراضي الزراعيه,اذ حدد اصحاب الاراضي في انكلترا اراضيهم وطردوا منها الفلاحين للاستفادة منها في تربية الاغنام لتلبية حاجة معامل النسيج الجديدة من الصوف وكان ذلك سببا لهجرة الاف الفلاحين الى العالم الجديد[٢] .

ثم جاء بعد ذلك المتعاقدون, وكان اغلب هؤلاء قد هاجروا من انكلترا بعدما ابرم معهم السيد الارستقراطي في فرجينيا, عقدا ينص على العمل في المزرعة طوال اليوم ولمدة تتراوح بين ثلاث سنوات وسبع سنوات, في مقابل مردود مادي لا يكاد يذكر, وفي كثير من الاحيان بدون اي مقابل, والسبب في ذلك ان بعضهم من المسجونين في سجون انكلترا فيخرجهم الاقطاعي من السجن ويدفع كلفة نقلهم الى فرجينيا, والتي تتراوح مابين (٥-٦) جنيه استرليني ثم يعمل حسب مدة سجنه الاساسية وبعد ذلك يصبح حرا في فسخ العقد, والاخرون من المتعاقدين الذين كانوا يقبضون اجورا مادية, كانوا في الاصل احرارا لكنهم فقراء مُعْدَمون فيقوم صاحب المزرعة بنقلهم مع اسرهم الى المستعمرة ويحصلون على اجر مادي قليل بعدما يستقطع منهم اجرة النقل[٣] .

اما الفئة الاخيرة التي اسهمت بتكوين الطبقة العامة فكانت من اولئك المغامرين الذين اعتقدوا انهم سيحصلون على الربح الوفير ما إن يصلون الى العالم الجديد نتيجة ما سمعوه من خرافات عن وجود الذهب والماس واللؤلؤ بشكل كبير وانه كالرمال, او الذين اتوا نتيجة وعود مغرية لفرص العمل والحياة الجديدة

---

(1) James West Davidson , Nation of Nations Aconcise Narrative of The American Republic, New York 2006 , P. 37.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار , المصدر السابق , ص٣٢-٣٣؛ محمد محمود التيرب , المصدر السابق, ص ٣٢-٣٣.

(3) Baker,Op.Cit,P. 31.

في العالم الجديد[1]، لكنهم ما إن يصلون الى ذلك العالم الجديد حتى يصدموا بالحقيقة التي كان عليهم تقبلها لعدم قدرتهم على دفع تكاليف العودة .

شكل ابناء الطبقة العامة شريان الحياة الاساسية في فرجينيا فهم عمال ومنهم خدم البيوت وهم اصحاب الحرف من نجارين ودباغين وغير ذلك من المهن العامة التي من دونها لم تكن لتستقر الحياة وتنشط, الاانهم كانوا يسكنون في بيوت حقيرة ضمن مجمعات كبيرة تناثرت قرب حدود المستعمرة فكان يقع عليهم عبء هجمات الهنود المتكررة ومن ثم عليهم بعد قضاء عمل يوم مُضنٍ ان يقوموا بتحصين قراهم وتجهيز انفسهم للقتال اذا ما دعاهم السادة اصحاب المزارع او قادة المليشيا لكونهم عماد تلك المليشيا[2]. وكانت اوضاعهم مأساويهة فهم بدون علاج او اي رعاية صحية ومعرضون بشكل دائم لاخطار الملاريا[3], كما كانوا محرومين من اي تعليم فلم تكن هناك مدارس اصلا في فرجينيا وكان التعليم مقتصرا على ابناء الطبقة العليا من خلال المدرسين الخاصين[4]، ولم يكونوا بأحسن حالاً من العبيد وربما كان العبد افضل منهم لكونه محمياً من هجمات الهنود وغير معرض للموت بسبب الملاريا لان الارستقراطي كان يطعم العبيد لكونهم جزءا من ثروته، وفوق كل هذه المحن لم يكن لابناء تلك الطبقة اي تمثيل سياسي في المستعمرة او اي مشاركة بألرأي, ولم تكن الحكومة تقبل تعيينهم بأية وظيفة لذلك قام بين هؤلاء نثانيل بيكون الذي قاد انتفاضته المشهورة ضد حكام المستعمرة.

ثالثا : طبقة العبيد

يعود تاريخ وجود العبيد في المستعمرات الامريكية عامة ومستعمرة فرجينيا خاصة الى عام ١٦١٩ اذ وصلت اول سفينة هولنديه الى فرجينيا تحمل عبيدا فاشترى سكان المستعمرة عشرين عبدا بثمن باهظ فقد كانت المرأة تساوي انذاك ستة قضبان من الحديد وبندقيتين وبرميلا من البارود اما الرجل فيساوي

(1) Baker, Op.Cit, P.31.
(2) Ibid, P. 32.
(٣) كونهم يعيشون بالقرب من المستنقعات والبرك التي كانت تحتضن العديد من الامراض الخطرة مثل الكوليرا والملاريا, ينظر:- محمد محمود النيرب, المصدر السابق , ص ٢٣.
(٤) الان نفينز وهنري ستيل كوماجر, المصدر السابق , ص ٢٣

ثماني بنادق وصندوقا من الكحول[١]. واستُخدم هؤلاء العبيد خدماً في البيوت ومزارعين, وهذه كانت بداية الرق في المستعمرة ومنها انتشرت الى باقي المستعمرات .

كان يؤتى بالعبيد من افريقيا ويصطادون بعدة طرق ثم يباعون في فرجينيا وباقي المستعمرات ولكن الطلب على العبيد في فرجينيا كان اقوى من المستعمرات الاخرى لاستخدامهم في الزراعة, الا ان ازدياد الطلب على العبيد اصبح واضحا جدا خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر[٢], فقد ارتفع عدد العبيد المستخدمين في الزراعة من (٣٠٠) عبد عام ١٦٤٩الى (٢٠٠٠) عبد عام ١٦٧٠ [٣] وازداد العدد بعد توسع الزراعة وادخال محاصيل جديدة الى جانب التبغ مثل الرز والقطن فبلغ عدد العبيد في المستعمرات الجنوبية (فرجينيا وماريلاند وكارولينا) عام ١٧١٥ (٤٦٠٠٠) الف عبد في حين كان عدد سكان تلك المستعمرات من البيض وفي السنة نفسها (١٢٣٠٠٠) مائة وثلاثة وعشرين الف نسمة[٤]، واستمرت الزيادة بوتيرة عالية حتى اصبح العبيد يشكلون نصف سكان فرجينيا تقريبا عام١٧٧٠ [٥].

كان وضع العبيد مأساويا بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وللدلالة على اوضاعهم الانسانية الصعبة يكفي القاء نظرة على جزء من قانون مستعمرة كارولينا الخاص بالعبيد الذي صدر عام ١٦٣٨وطبق في مستعمرة فرجينيا على الفور, وقد جاء فيه ما يلي ((ان العبد لانفس له ولاروح وليس له فطنة ولاذكاء ولاارادة , وان الحياة لاتدب الافي ذراعيه،وللسيد حق بيعه او تأجيره او رهنه وله ان يقامر عليه ولاتثريب عليه ان يقتله, ويعدم العبد اذا ضرب سيده اوسيدته او عصى لهما امرا،ولايجوز للعبد الخروج من مزرعة سيده الابأذن كتابي يحمله بيده ويعدم اذا خرج بدونه،وليس للعبد الزواج الابأذن سيده وبمن يختارها له,

---

(١) شادي عبد السلام , الويلات المتحدة الامريكية , دمشق ٢٠٠٣, ص ٣٦.

(2) Baker,Op.Cit,P. 31.

(٣) الان نفيز وهنري ستيل كوماجر، المصدر السابق , ص ١٨٨

(٤) كلود جوليان , الحلم والتاريخ او مئتا عام من تاريخ امريكا , نقله الى العربية نجلة كلاس , دمشق ١٩٨٩ ط٢, ص ٢٤٣.

(٥) الان نفينز وهنري ستيل كوماجر, المصدر السابق , ٤٧.

ويملك السيد اولاده وله ان يفرقهم عن ابويهم اذا شاء بيعهم او بيع ابويهم, وللسيد ان يستمتع بزوجة رقيقه وبأي من زنجيات مزرعته"[١] .

من خلال هذا القانون البشع للغاية يتبين مدى قساوة الحياة التي كان يعيشها العبد في المستعمرات الجنوبية ولاسيما فرجينيا التي اضحت تعتمد على العبيد اعتمادا كليا, فقد مثل العبيد الوقود الحي للمستعمرة فعليهم تقع كل الاعمال الجسام من عمل في المزرعة طوال النهار صيفا وشتاءً بدون راحة, وبيسير من الطعام الذي كان يقدم لهم كي لايموتوا, وفي اخر النهار المضني ينام العبد في حضيرة كحظائر البهائم.

ان الكثير من المؤرخين والكتاب الامريكيين حاولوا التقليل من صور المعاناة التي كان يعانيها العبيد في المستعمرات الجنوبية عامة وفرجينيا خاصة، من خلال القول انهم كانوا يلقون معاملة حسنة وانسانية، ودافع بعضهم عن مالكي العبيد بالقول " انهم على الرغم من اعتقادهم بان السود اقل شاناً من البيض لكنهم آمنوا تماماً بان العبيد سيكونون مفيدين اذا تم تخليصهم من وحشيتهم وادخالهم بالحضارة"[٢] ويقارن كاتب اخر حياة العبيد في فرجينيا بحياة العمال الانكليز في تلك الحقبة قائلا:" انهم كانوا اكثر سعادة من العمال الانكليز الفقراء"[٣] وهذا غير صحيح فمهما عانى العمال الانكليز كانوا في نهاية اليوم احراراً وبوسعهم ترك عملهم وايجاد غيره.

ثانيا: انحداره الاسري

ينتسب توماس جيفرسون راندولف Thomas Jefferson Randolph الى اسرة ذات اصول انكليزية عريقة, اذ عاش اجداده في انكلترا في جنوب ويلز Wales بالقرب من جبل سنودن Snowdon [٤], وهاجروا من ويلز بحدود

(١) نقلا عن، عبد السلام الترمانيني، الرق ماضيه وحاضره، الكويت ١٩٩٠، ص ١٤٨

(2) Quoted in, Max Savelle, Seeds of Liberty, The Genesis of The American Mind, New York 1948, P. 238.

(3) Quoted in, Jonathan Boucher, Reminiscences of American Loyalist, Boston 1925, P. 97.

(4) Paul Leicester Ford , George Haven Putnam , Autobiography of Thomas Jefferson 1743- 1790 , New York 1914 , P .3.

عام١٦١٢ [١]الى مستعمرة فرجينيا Virginiaالتي تأسست عام ١٦٠٧بواسطة شركة لندن التي تفرعت من شركة فرجينيا، وقامت بانشاء اول مدينه في تلك المستعمرة وسميت مدينة جيمس تاون James Town حيث استقر فيها اوائل المستوطنين الانكليز،[٢] وقد اسس اولئك المستوطنون مجلسا خاصا بهم لادارة شؤون حياتهم الخاصة في المستعمرة وتنظيم علاقاتهم مع الوطن الام (انكلترا) وفي الثلاثين من تموز عام ١٦١٩ اجتمع مجلس فرجينيا الاول في كنيسة جيمس تاون الخشبية [٣]، واطلقوا على مجلسهم هذا اسم House of Burgesses "بيت المواطنين" الذي ضم في عضويته الجد الثاني لتوماس جيفرسون [٤].

كان اسلاف توماس جيفرسون من علية القوم بالمجتمع الفرجيني وهم يمثلون الطراز الانكليزي الراقي بكل عاداته وتقاليده, فقد كانوا من المسهمين الاساسيين في شركة فرجينيا للتبغ. وجاء في مذكرات توماس جيفرسون في حديثه عن اصل اسرته:" ... كان انحدارعائلة والدي لهذا البلد آتية من ويلز بالقرب من جبل سنودون, الجبل العالي في بريطانيا العظمى، ولاحظت في احدى السجلات الرسمية وانا انظر بدعوى قادمة من ويلز ان واحدا كان يحمل اسم عائلتنا وكان احد المسؤلين في شركة فرجينيا ..."[٥] ويبدو ان هذا الشخص الذي لم يأت جيفرسون على ذكره كان جده الثاني وسبب عدم ذكر اسمه هو حرص جيفرسون على الاّ يلصق اسمه باسم الارستقراطيين الانكليز الذين كان يكرههم المجتمع الامريكي لما اتسموا به من حياة البذخ والترف الذي وصل حد المجون، وما كانوا يملكون من الاموال والثروات الهائلة،والمئات من العبيد[٦]،الذين طالما دافع جيفرسون عن حقوقهم .

(1) Heny Moscow , Thomas Jefferson and his World ,New York 1965 , P .12
(٢) الان نفينز , هنري ستيل كومجر , المصدر السابق, ص ٩.
(٣) ديب علي حسن , المصدر السابق، ص ٢٥.
(4) Ibid , P.12
(5) Jefferson, Op.Cit, P. 1
(6)Bowers , Op.Cit, P.P.5-6.

عاش جد توماس جيفرسون المسمى جيفرسون الاول (١٦٧٩-١٧٣١)[١], في جستر فيلد Chester Field حيث امتلك ارضا تابعة لابناء الابرشية في اوزبورنس Ozbornes [٢]، وكان فرجيني المولد والنشأة وممن يطلق عليهم اسم توكوهوس Toukwhous وهم الانكليز الذين يسكنون المناطق الساحلية الشرقية من فرجينيا والذين بنوا منازلهم على ضفاف الانهار واوديتها وحولوها الى مزارع يعمل بها العبيد، وكانوا على درجة من الثراء تمكنهم من العيش وكأنهم يعيشون في لندن,حيث تصل اليهم الكتب والصحف الجديدة من انكلترا، واحدث الابتكارات من ليفربول، وكان هؤلاء من المستوطنيين الانكليز بالدرجة الاولى وهم يحرصون على الاتصال بالبلد الأم. اما جهة الساحل الغربي فكانوا يسمون كوهيز Couhies وكانوا يعملون بالزراعة بأيديهم ولايملكون تلك الثروات الضخمة، غير ان جد توماس جيفرسون لم يكن له مما كان لابناء التوكوهوس اكثر من الاسم فقد كان ميسور الحال لكنه لا يملك مايملكه التوكوهوس, ويمكن القول انه كان يتوسط الطبقتين[٣].

تزوج جيفرسون الاول من ماري فيلد Mary Field(١٦٨٠ – ١٧١٥)[٤]، وانجب ثلاثة اولاد ذكور وهم توماس الذي توفي في ريعان شبابه ولم يتزوج , والثاني كان فيلد الذي استقر عند مناطق الانهار في روانوك Roanoke والثالث بيتر Peter[٥]، وهو والد توماس جيفرسون.

ولد بيتر جيفرسون في التاسع والعشرين من شباط عام ١٧٠٧ في مقاطعة جسترفيلد, ونشأته كانت صعبة الى حد ما فقد توفيت والدته وهو في الثامنة من عمره, كما انه لم يدخل المدرسة قط ولم يحصل على تعليم في طفولته لان التعليم في زمنه لم يكن بالامر السهل او المتاح، كما ان عادات ذاك الزمان كانت تقضي ان تعلم الأم ابناءها بعض الامور البدائية وهذا لم يحصل عليه ايضا بسبب وفاتها

(1) http: // www. Wikitree.Com / index .phptitleSpecial: Family Tree and Who; http: // www. Monticello. Org/ library/ reference / Tree. Jefferson Family tree
(2) Jefferson , Op. Cit , P.2
(3) Lisitzky, PP.7-8
(4) http: // www . wikitree.Com./ index. phptitleSpecial :m Family terr and who
(5) Jefferson , Op. Cit ,P. 2

بوقت مبكر[١]. الا أن بيتر جيفرسون كان نشطا وكثير الحركة كما سعى الى تعليم نفسه بنفسه، ومن ثم ركز على قراءة ثقافات ذلك العصر, فقد قرأ لشكسبير والكثير من الاعمال الادبية الانكليزية التي كانت منتشرة في المستعمرات، ولم تقتصر قراءاته على الاعمال الادبية بل تعدتها الى العلمية والفنية, فقد علم نفسه الرياضيات حتى انه استطاع في نهاية الامر اجتياز الامتحان المعد لاختيار مهندسي المحافظة[٢]، وبهذا الصدد يتفاخر توماس جيفرسون بأبيه قائلا : - " ... كان والدي قد اهمل تعليمه، لكن عقله كان قويا وتواقا الى المعرفة والتعلم فقرأ كثيرا حتى حسن معرفته ... "[٣]

لم يكن والد بيتر جيفرسون من ملاك الاراضي الواسعه وماكان يملكه يعود للكنيسه لذلك قرر مغادرة جسترفيلد متوجها نحو گوتش لاند Gooch Land القريبة من حدود فرجينيا الغربية للحصول على ارض للزراعة والسكن وفعلا حصل هناك على ما كان ينشد واستقر فيها. وعموما لم تكن ممتلكاته تتجاوز بعض الاحصنة والمواشي والدواجن وعدد قليل من العبيد[٤]، لذلك كان على بيتر جيفرسون ان يقوم بالعديد من الاعمال اليومية وان يعتمد على نفسه، وكان جسمه ضخما وقويا،فقد كان باستطاعته حمل برميلين من التبغ بمفرده كما ان قوته البدنية كانت تعادل رجلين من العبيد العاملين، ففي احد الايام امر بيتر جيفرسون ثلاثة من العبيد بسحب سقيفة بعد ان ربطها بالحبال، لكنهم لم يستطيعوا ذلك وبعد ثلاث محاولات فاشلة،اخذ بيتر جيفرسون الحبال وربطها حول نفسه وجر السقيفة بمفرده، ويمكن القول انه اشبه بالابطال القوميين للشعوب، فقد تناقل الناس في زمنه العديد من القصص عن مهاراته وقوته البدنية وكيف انه كان يستطيع ان يعيش لأيام عديده في الغابات ويأكل اللحم النيىء بعد ان يصطاد الطرائد[٥].

وعلى الرغم من ان هذه الروايات قد تكون فيها مبالغة كبيرة، لكنها ترسم لنا بوضوح شخصية بيتر جيفرسون العصامية وسعيه الحثيث للوصول الى منزلة

(1) Moscow ,Op. Cit ,P .11
(2) Lisitzky, Op. Cit , P . 9
(3) Jefferson , Op.Cit ,PP. 2-3
(4) Moscow ,Op. Cit ,P .11
(5) Henry S. Randall , The life of Thomas Jefferson , New York 1858 , Vol , 1, P.13

كبار الارستقراطيين في فرجينيا من خلال تعليم نفسه بنفسه والاعتماد على قوته البدنية وهذا ما نجح في الوصول اليه فيما بعد .

استفاد بيتر جيفرسون من تعلمه الرياضيات وعمل مساحا للاراضي ولبراعته في ذلك العمل عين مساحا رسميا لدى الحكومة المحلية في فرجينيا وكلف مع جوشوا فري Joshua Fryاستاذ الرياضيات في كلية وليام وماري Williem and Mary برسم خط الحدود بين مستعمرة فرجينيا ومستعمرة كارولينا الشمالية وكان ذلك عام١٧٤٩ [١]، ونتيجة لذلك حصلت صداقة وطيدة بين الاثنين وقد استفاد بيتر من تلك الصداقة لتقوية مركزه الاجتماعي بالمستعمرة لاسيما ان جوشا فري كان انكليزيا من خريجي اكسفورد وهو رجل غزير الثقافة وباحث عن الثروات فقد استقال من عمله أستاذاً في كلية وليام وماري وتفرغ للعمل مساحاً لتكوين ثروة كبيرة من هذا العمل[٢]، وتوافقت رغباته مع تطلعات بيتر الذي كان لديه الطموح نفسه .

اضافة الى ذلك كان بيتر جيفرسون يرتبط بصداقة متينة مع وليام راندولف Willim Randolph ابن عم مساعد حاكم فرجينيا ايشام راندولف Isham Randolph وكانت تلك الاسرة الانكليزية العريقة قد وصلت الى فرجينيا عام ١٦٧٤ واقامت علاقات متعددة مع اشهر اسر المستعمرة من ضمنها اسرة جورج واشنطن[٣]، وكان وليام راندولف قد اصبح محافظا منذ عام ١٧٤٤ لـ(البيمارل Albemaral)المقاطعة التي انشئت حديثا في فرجينيا، لتزايد عدد السكان بعد توافد المستوطنيين على مناطق ضفاف الانهار، وكان على الشخص الذي يريد الحصول على حق ملكية الاراضي البكر الواقعة على حدود المستعمرة، ان يتقدم بطلب الى مجلس الحاكم في وليامزبورج Williamsburg للحصول على تخويل رسمي لادارتها . وتشترط موافقة الحاكم موافقة محافظ المقاطعة اولا وان يكون مقدم الطلب موظفا في المقاطعة،ولذلك عُيّنَ بيتر جيفرسون مسؤولا للامن في المقاطعة لانه من اقدم ساكنيها، ومنح رتبة عقيد لقيادة المليشيا التابعة للمقاطعة

(1) Gilbert Chinard , Thomas Jefferson , The Apostie of Americanism , U.S.A 1943, P.5
(2) Passos, Op.Cit, P.12
(3) Moscow ,Op. Cit ,P .12

الجديدة التي كان عليها صد هجمات الهنود الحمر, وتشكيل سد ضد الفرنسيين في اوهايو Ohio[1]، وبذلك يكون بيتر جيفرسون قد استنفد كل الشروط الواجب توافرها لامتلاك الاراضي، حينها حصل على المئات من الايكارات في المنطقة الواقعة على نهر الريفانا Rivanna مناصفة مع وليام راندولف الذي منحه اول الامر الموافقة على امتلاك مئتي ايكر مقابل برميل صغير من عرق البنش (Arrack Punch) دفعه للهنود كما جرت عليه عادة المستوطنين بسلب الاراضي من الهنود عن طريق" بضعة قنانٍ من شراب الروم والحصول من الرؤساء[رؤساء القبائل الهندية] السكارى على التخلي عن الاف الهكتارات"[2] وفيما بعد منحه مئتي ايكر اخرى لكن هذه المرة مقابل خمسين باوند استرليني[3].

وعن طريق صداقته لوليام راندولف، تعرف بيتر على الشابة جين Jane ابنة ايشام راندولف وقام بخطبتها، ولما اراد بيتر بناء بيت للزواج من جين وجد افضل بقعة لبناء ذلك البيت على ضفاف نهر الريفانا، وهناك بنى بيتر بيته الذي اطلق عليه اسم شادويل Shadwell تيمنا باسم شارع في لندن وهو المكان الذي ولدت فيه خطيبته جين[4]. لقد تزوج بيتر جيفرسون وهو ابن الحادية والثلاثين من جين راندولف ابنة التسعة عشر عاما الفتاة المتحدرة من دماء انكليزية اصيلة ومن بنات الطبقة الارستقراطية العليا في فرجيناوكان ذلك عام ١٧٣٨[5]. وبعد الزواج بدأت احوال بيتر جيفرسون المالية تتحسن شيئا فشيئا فبدأ يجني ثمار كفاحه من اجل الوصول للطبقة العليا في فرجينيا،فبعد عدة سنوات استطاع بيتر جيفرسون بالاشتراك مع جوشوا فري تاسيس شركة لمسح الاراضي سميت لويال لاند كومبني (Loyal Land Company) وقد قامت هذه الشركة بمسح الاف الايكارات في الحدود الغربية لفرجينيا[6] .

(1) Lisitzky , Op.Cit PP.10-11; Passos , Op.Cit, P.4
(2) James A. Williamson , The Evolution of England , A Commentary on The Facts , Oxford At The Clarendon Press 1944 , P. 315.
(3) Moscow ,Op. Cit ,PP.13-14
(4) Chinard, Op.Cit, P.4
(5) Randall, Op. Cit, P.7
(6) Passos, Op. Cit , P. 14

وفي بداية عام ١٧٤٥ بدأ المرض يأكل جسد وليام راندولف وشعر بأنه سيفارق الحياة لذلك ارسل الى صديقه العزيز بيتر جيفرسون وطلب منه ان يكون وصيا على ممتلكاته واولاده الثلاثة (توماس مان وجوديث وماري) وان ينتقل من شادويل الى توكوهو Tuckahoe التي يقع فيها قصر وليام، وفعلا توفي وليام في العام نفسه، واطلع بيتر على وصيته الخطية التي لم تختلف كثيرا عما حدثه به, وكان التأكيد في الوصية على تعليم توماس مان ليتمكن من ادارة ممتلكات ابيه فيما بعد،ولم يذكر في الوصية شيئاً عن البنات، فقد كان الابن الذكر الاكبر هو الوارث الوحيد وهو اهم شيء في مجتمع فرجينيا[١]. واستجاب بيتر لوصية صديقه وترك بيته في شادويل راحلا صوب توكوهو، ولاسيما بعدما توافقت الوصية مع رغبة بيتر بالرحيل عن شادويل، فقد كبر ابناؤه واحتاجوا الى التعليم الذي لم يكن متاحا في شادويل، زيادة على ان الحركة التجارية في توكوهو كانت نشطة للغاية[٢].

وفي توكوهو تطورت الامور لصالح بيتر اذ اصبح عضوا في بيت المواطنين عام ١٧٥٥[٣] واصبح يشارك في الامور السياسية للمستعمرة، وبهذا يكون بيتر جيفرسون قد حقق طموحاته بأن يصبح من الشخصيات البارزة في مجتمع فرجينا الارستقراطي وبأن يكون من كبار ملاك الاراضي فقد كان يملك عند وفاته خمسة الاف هكتار (٢٠كم٢) من الاراضي[٤]، ومما لاشك فيه انه استطاع الحصول على تلك الاراضي من خلال وظيفته مساحا اولا ومن ثم قائدا في المليشيا واخيرا عضوا في بيت المواطنين وكانت تلك الوظائف هي الباب الذي لولاه لما استطاع امتلاك اراض بذلك الحجم، فلم تكن السلطات تمنح اكثر من خمسين هكتارا لكل مستوطن مع عائلته وتلك الخمسين غالبا ماتكون في المستنقعات او الغابات[٥] ومن ثم فهي غير صالحة للزراعة، وهذا يثبت ان من كان يملك السلطة في

(1) Stephen Simpson, The Lives of George Washington And Thomas Jefferson , With A Parllel , Philadelphia 1833, P. 190 ; Passos, Op. Cit , P.5
(2) Moscow ,Op. Cit ,P. 14
(3) Chinard, Op.Cit, P.4
(4) Jefferson , Op.Cit, PP. 3-4
(٥) محمد محمود النيرب , ص ٥٣

فرجينا يملك الارض.واخيراً فان اسرة بيتر جيفرسون لم تكن من الاسر المعروفة في المجتمع الفرجيني لكنها اشتهرت بعد بروز بيتر جيفرسون بانها من الاسر المالكة للاراضي، حتى ان بعض المؤرخين قال انه على الرغم من ان اسرة جيفرسون كانت من اقدم الاسر التي استقرت في فرجينيا لكنهم" بقوا متخفين الى زمن بيتر جيفرسون والد توماس جيفرسون ... الذي ملك مساحة من الاراضي في البرية وتزوج من جين راندولف وبهذا وضع نفسه وسط عائلة قيادية في المستعمرة"(١).

توفي بيتر جيفرسون في السابع عشر من آب عام ١٧٥٧ تاركا ارملة وست بنات وولدين وخمسة الاف هكتار من الاراضي الزراعية وعشرات العبيد، وقد ترك الميراث لاكبر اولاده الذكور توماس جيفرسون حسب الاعراف التي كانت سائدة آنذاك، غير انه ترك لابنه الاصغر ارضا تقع عند نهر جيمس تدعى سنودن حسب وصيته(٢)،التي قُرِئَتْ بعدما اجتمعت الأسرة واصدقاء بيتر جيفرسون في شادويل إذ وجد توماس جيفرسون نفسه مالكا بالنصف لعشرة الاف فدان من الاراضي الزراعيه على نهر الريفانا، مع شركة لويال لاند، كما ترك له ابوه ستين عبداً وخمسة وعشرين حصانا وسبعين رأسا من الاغنام ومئتي خنزير ومطحنة على نهر الريفانا، كما اوصى بيتر جيفرسون بأن يرث ابنه توماس كتبه ومعداته الرياضية بما فيها آلات المساحة التي تركها له صديقه جوشوا فري ومكتبه وخزانة كتبه، وترك لبناته ما يكفي لتعليمهن وتزويجهن، وترك لزوجته البيت في شادويل(٣) وكثيرا ما تفاخر توماس جيفرسون بوالده فيما بعد ومما جاء في مذكراته قوله :- " ... كان ابي ذا عقل قوي وكان تواقا الى المعرفة وقرأ كثيرا حتى حسن معرفته، حتى انه اختير مع جوشوا فري، استاذ الرياضيات في كلية وليام ماري لاتمام رسم خط الحدود بين فرجينيا وكارولينا الشمالية، كما انضم الى الاستاذ فري لصنع اول خارطة لفرجينيا التي لم ترسم لها اي خارطة

(1) Quoted in, Herbert Agar, The United States, The Presidents, The Parties & The Constitution, London 1950, P.111.
(2) Jefferson , Op.Cit ,PP. 3-4
(3) Passos, Op. Cit, P.20

من قبل غير تخطيطات تخمينية قام بها الكابتن سميث ... وكان والدي المستوطن الثالث او الرابع بحدود سنة ١٧٣٩ في الجزء الذي اعيش فيه من البلد "[١] .

اما والدة توماس جيفرسون جين راندولف،فلم تذكر عنها المصادر وكتب التاريخ سوى بضع كلمات تتلخص بأنها ذات اصول انكليزية راقية وهي زوجة بيتر جيفرسون وانها انجبت له خلال المدة المحصورة بين عامي ١٧٤٠ و ١٧٥٥ عشرة اطفال كان توماس جيفرسون اكبرهم[٢]. وحتى هنري ستيفن راندال مؤلف اكبر كتاب عن سيرة توماس جيفرسون[٣]، حينما يأتي على ذكر والدة جيفرسون لايذكر عنها سوى ماذكرناه سابقا، ومن ثم يقتبس النص الذي كتبه جيفرسون في مذكراته عن والدته، ولعل السبب في ذلك هو النظرة الدونيه للمرأة في المجتمع الفرجيني آنذاك،التي لم تنقل اخبار النساء،زد على ذلك كره توماس جيفرسون الواضح لوالدته إذ لم يأت على ذكرها في رسائله وخطاباته، ولم يكتب عنها في مذكراته الا في معرض حديثه عن والده فيقول :ـ " ... ولد ابي عام ١٧٠٧ ... وتزوج من جين راندولف وعمرها تسع عشرة سنة ابنة ايشام راندولف ... وهم ينحدرون من طبقات راقية وأصول عميقة من انكلترا واسكتلندا"[٤]. ومن خلال قراءة النص يتضح ان جيفرسون لايحب الحديث عن والدته التي يسميها باسمها (جين راندولف)، وعلى الرغم من ان والدته قد عاشت طويلا حتى عام ١٧٧٦، لم يتأثر بها اطلاقا والكلمات الاخيرة التي يوردها جيفرسون في مذكراته تؤكد عدم اكتراثه بها إذ يقول عن وفاة والده (... توفي تاركا ارملة عاشت حتى عام ١٧٧٦)[٥]، وكانه اراد القول انها عاشت اكثر مما يجب !!!

لم يكن توماس جيفرسون يبالي بالأنساب والاصول العريقة وكان يبغض الارستقراطية الفرجينية ولاسيما عندما يكون الحديث عن والدته وعن اسرتها،

---

(1) Passos, Op. Cit,, P.4
(2) Chinard, Op.Cit, P.4
(٣) هنري ستيفن راندال: حاصل على شهادة الدكتوراة في القانون، وبعد كتابه ((حياة توماس جيفرسون" المرجع الاساسي لكل من اراد البحث او الكتابة عن توماس جيفرسون، ويقع كتابه في ثلاثة مجلدات كبيرة وطبع لاول مرة في نيويورك عام ١٨٥٨
(4) Jefferson , Op.Cit ,PP. 3
(5) Ibid,P. 4

وكانت له عبارة شهيرة يقولها عن الانساب والذين يقدرونها وهي :-- " فليؤمن بها من يشاء ايمانا عميقا وليعط لها مايشاء من خصال "[١]،ومن هذا الباب فسر المؤرخون سبب كره جيفرسون لوالدته بأنها امرأة ارستقراطية[٢]،ويزيد هنري راندال أن الرجال في فرجينيا لا يذكرون امهاتهم في مراسلاتهم وكتاباتهم ولا في جلساتهم لأن ذلك يعيب الرجل[٣]، ولكن هذا الكلام عار عن الصحة ولاسيما اذا قارناه بالنص الذي كتبه بول جونسن Paul Johnson كاتب سيرة الرئيس الاول جورج واشنطن, عن والدته قائلا : " ... لم يأت جورج واشنطن على ذكر والده في مراسلاته الخاصة التي تقع في الاف الصفحات الا مرتين فقط, لكن من ناحيه اخرى نجد ان والدته ماري بول Mary Ball التي كانت تمتلك ثروة اكتسبتها بنفسها،كانت شخصية فذة وكان جورج يعاملها بأحترام خالص وقد اشار اليها مرة امام الملا قائلا امي المبجلة صاحبة اليد الحنونة التي اخذت بيدي منذ الطفولة "[٤]، وهذا النص يكشف عدم صحة التسويفات التي ساقها راندال لان واشنطن فرجيني يحمل العادات والتقاليد نفسها التي يحملها جيفرسون وقد عاش في الفترة نفسها، ولم يخجل من مدح والدته على الملإ .

(1) Quoted in , Christopher Hitchens,Thomas Jefferson Author of America , New York 2005 , P 19

(٢) ينظر:-

Ibid , P .19 ; B. L. Rayner , Life of Thomas Jefferson , Boston 1834, P 2 ; Randall, Op. Cit,P.16.

(3) Ibid , P 16

(4) Quoted in ,Johonson , Op.Cit, P. 14

ثالثا: ولادته ونشأته

ولد توماس جيفرسون في الثالث عشر من نيسان عام ١٧٤٣[١] حسب التقويم الكريكوري [٢]، وكانت ولادته في منزل ابيه بشادويل من مقاطعة البيمارل التابعة لمستعمرة فرجينيا وكان المولود الثالث لبيتر جيفرسون، فقد أنجبت زوجته اول اطفالها عام ١٧٤٠ وكانت بنتا سميت جين والثانية كانت ماري وولدت عام ١٧٤١[٣]، ولما كان للابن الذكر الاول جميع الميراث انصب اهتمام بيتر على ابنه توماس الذي حرص على ان يقوم بتعويضه عما حرم منه من التعليم ورفاهية العيش. وجاء امر الانتقال من شادويل الى توكاهو فرصة جيدة لتربية الاولاد في مناخ افضل، وكان عمر جيفرسون آنذاك سنتين ونيفاً. وقد روى جيفرسون فيما بعد ما قد علق بذهنه عن تلك الرحلة وقال ان اول شيء يذكره هو وضعه على مخدة وحمله على حصان بواسطة عبيد قاموا بذلك عندما بدأ مسير القافلة من شادويل واستمر لمسافة طويلة، في طريق متعرج يمر داخل غابات وعرة ويسير بجانب شلالات جيمس بعدها ينحدر الطريق الى اسفل مع مجرى النهر ثم يمر من بيت الى بيت حتى يصل توكوهو[٤].

الحياة في توكاهو كانت مرحة فالبيت كبير وواسع والطريق المؤدي اليه مملوء بأشجار الدردار العالية ذات المنظر الرائع والجمال الاخاذ،والحدائق تطوق البيت من جميع جهاته، وكانت للدار طلة رائعة على نهر جيمس لكونه قد بني على تلة[٥]، ومن ناحية اخرى كان في الدار سبعة اطفال مملوؤون بالحيوية والنشاط

---

(١) ذكرت بعض المصادر ان ولادته كانت في الثاني من نيسان ١٧٤٣،وهذا التاريخ هو الذي كتب على شاهد قبره، و كتب اعتمادا على التقويم الجولياني القديم،وهو الثالث عشر من نيسان وفق التقويم الكريكوري الحالي، ينظر مثلا :-

William Linn , The life of Thomas Jefferson ,New York 1834,P. 2; Stimpson, Op.Cit, P.190

فيما اعتمدت مصادر اخرى على التقويم الكريكوري فسجلت ولادته في ١٣/٤/ ١٧٤٣، ينظر مثلا :-

John T.JR.Morse , American Statemen , Thomas Jefferson ,Cambridge 1889, P. 2 ; Hitchens , Op.Cit , P.40

(٢) التقويم الكريكوري :- نسبة الى البابا كريكوري الثالث عشر الذي اصلح التقويم الجولياني في عام ١٥٨٢ , وطبق التقويم الكريكوري في بريطانيا عام ١٧٥١, ينظر: محمد محمد صالح , تاريخ اوربا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية ١٥٠٠-١٧٨٩, بغداد ١٩٨٢, ص ١٠٨

(3) Ford ,Op.Cit ,P.5

(4) Quoted in , Moscow ,Op.Cit ,P .15

(5) Moscow ,Op.Cit, P. 15

فزيادة على جيفرسون وأخواته كان هناك اولاد وليام راندولف،فزاد ذلك من البهجة والسرور والمتعة للاولاد، كما أن المنزل كان يختلف في تصميمه الداخلي عن بيتهم في شادويل وكل مافيه ينطق بالثراء، فألاثاث مستورد من انكلترا والسلالم انيقة وغاية في الروعة والخدم يروحون ويغدون ولكل بنت من بنات راندولف ثلاث خادمات[1]. ومن خلال هذا الوصف يشعر المرء وكأن جيفرسون قد عاش في احد القصور التي ذكرت بالقصص الخيالية، لما فيها من وسائل العيش الرغيد .

من جهة اخرى نشأ جيفرسون نشأة دينية، ففي توكوهو كانت الصلوات والابتهالات الدينيه تسمع ثلاث مرات وفي بعض الاحيان اربع مرات في اليوم الواحد. وفي مستهل طفولته ادى جيفرسون الطقوس الدينية بشكل منتظم ولاسيما طقس القربان المقدس (Liturgy) الذي كان يقام في الكنيسة الانكليزية، زد على ذلك ان بيتر جيفرسون كان متدينا، والحقيقة أن عموم الناس كانوا في تلك الفترة متدينين فالانجيل موجود في كل بيت[2].

مكثت الاسرة سبع سنوات في توكوهو وازداد عددها إذ رزق بيتر ببنتين اخريين،عندئذ قرر العودة الى شادويل ليتمكن من ادارة مزارعه بصورة مباشرة وذلك بسبب تزايد الطلب على التبغ بصورة كبيرة في اوربا ,وعاد بالفعل عام ١٧٥٢ دون ان يتم وصية صديقه وليام راندولف[3].والحقيقة ان اساس قبول الوصية كان بناءً على منفعة لبيتر في الانتقال الى توكوهو إذ كانت التجارة نشطة هناك وما ان تعثرت تلك التجارة ولم تعد هناك اي فائدة في البقاء حتى قرر العودة الى دياره, وموقف بيتر هذا يدل على انه انسان انتهازي يحاول دائما استغلال الظروف لصالحه ولايهمه امر الاخرين وان كانوا من أهم اصدقائه واصحاب الفضل عليه ببلوغه مرامه من المال والسلطة . وفي شادويل كبر جيفرسون وبدأ يتعلم كيف يركب الخيل بمفرده كما تعلم السباحة،ثم اخذ دروسا عملية في صيد الحيوانات إذ كان يصحبه والده الى الغابات ويصطاد الطرائد مع

(١) - عبد الحميد جودة السحار، صانعو التاريخ الامريكي،" توماس جيفرسون"، القاهرة د.ت، ص ٤٤

(2) Chinard , Op.Cit , P. 5

(3) Ibid , P.4

اخته الصغيرة جين[1].هكذا نشأ جيفرسون على الرفاهية فيما بين توكوهو وشادويل فقد كان السيد الصغير فيما بين الخدم والعبيد،وكانت واجباته عبارة عن القراءة فقط, فلقد كان واحدا من ابناء الارستقراطيين الفرجينيين، بل مثالا لهم لان بيتر كان يعد واحدا من اكبر خمسة ملاك في المستعمرة كلها، ولذلك لم يعان توماس جيفرسون في مرحلة الطفولة اي شقاء، بل انه كان " محظوظا بمولده وبيئته الاولى،فهو نتاج ارستقراطية ذلك العصر ورواد الحدود "[2]، كما جاء في وصف الفيلسوف الامريكي الشهير جون دوي[3] عن حياة توماس جيفرسون .

ومن ناحية اخرى استفاد توماس جيفرسون من علاقات والده السياسية منذ صغره, فقد كان يسمع ويرى كل ما يدور من موضوعات سياسية حساسة كانت تناقش في منزل والده بوصفه عضوا في بيت المواطنين وعقيدا في مليشيا المقاطعة, وكان والده يصر على ان يحضر ابنه ليسمع ما يدور من مناقشات لاسيما تلك التي كان يجريها مع صديقه جوشوا فري, الذي كان واسع المعرفة وتميز بأسلوبه الممتع والجذاب الذي يجعل الاخرين ينصتون جيدا لما يقول, وكانت اغلب تلك الاحاديث عن التحركات الفرنسية عند وادي المسيسبي والتخوفات الانكليزية منها, ثم اندلاع الحرب الفرنسية الهندية, التي ادت الى ايقاف مشاريع بيتر وفراي في استكمال مسح اراضي الغرب. ومما يتذكره جيفرسون مقولة فري لوالده بأن الحرب المشتعلة التي دمرت جميع مخططاتهم لاستكشاف الغرب, ماهي الا جزء من صراع عالمي كان يدور بين التاج البريطاني والحكومة الفرنسية بهدف وضع اليد على التجارة في العالم[4]. ومن خلال نشأة توماس جيفرسون على الحدود تعرف على الهنود الحمر,فقد كان يراهم بكثرة ولاسيما بعدما عاد والده الى شادويل وتولى المناصب السياسية,إذ كان الهنود

---

(1) Listzky ,Op. Cit .P .12

(2) Quted in , John Deweu , Thomas Jefferson , New York 1940 , P.2

(٣) جون ديوي (John Dewey) :- فيلسوف امريكي ولد عام ١٨٥٩ , وذاع صيته كمفكر منذ عام ١٨٨٧, له عدة مؤلفات ودراسات عن الفلسفة السياسية والاخلاق , سمي بشيخ الفلاسفة في التربية , من اشهر مؤلفاته"نظرية البحث Theory of imquiry" عام ١٩٣٨ و (مقالات في المنطق التجريبي Essays in Experimental) و(كيف نفكر How We Think) وغيرها , وللتفاصيل عن فلسفته ينظر:- جيراد ديلودال، الفلسفة الاميركية، ترجمة جورج كتورة والهام الشعراني، بيروت ٢٠٠٩، ص ٢٧١- ٢٨٢

(4) Passos , Op.Cit , P.13

يأتون كثيرا لبيترجيفرسون في منزله وكان يرحب بهم دائما ويبادلهم الزيارات مما نتج عنه اقامة علاقة طيبة مع الهنود الحمر . وظل جيفرسون حساسا لموضوع الهنود طيلة عمره, وبقي يتذكر تلك الزيارات الودية, ففي رسالة جوابية بعث بها جيفرسون الى الرئيس جون ادمز John Adams[1], بتاريخ ١٨١٢/١/١١ بعدما سأله الاخير عن الهنود الحمر رد قائلا :- " للاجابة على استفساراتك الكثيرة عن الهنود, ففي وقت مبكر من حياتي عرفتهم جيدا وكانوا مألوفين لي ... فقبل الثورة كانوا يأتون بكثرة الى قصر الحكومة, فعرفت اونتاسيت Ontassete المحارب والكاتب زعيم الشيروكي Cherokees[2], الذي غالبا ما كان يأتي ضيفا على والدي من خلال اسفاره من والى وليامزبورج, وقد كنت في معسكره مع والدي حينما ودع شعبه الوداع الاخير قبل سفره الى انكلترا, يومها كان القمر كاملا ورائعا وصلى من اجل العودة سالما وكان ابناء شعبه يحيطون به ويدورون حوله ويصدرون اصواتا, وكانت النيران تحيط بنا, ولكني لم افهم اي كلمة مما قالوه ...."[3] .

وهكذا اخذ توماس جيفرسون يتعلم الامور السياسية من خلال ما تلقاه من دروس على ارض الواقع عن طريق والده واصدقائه المتعددين, مستفيدا من تجارب والده كثيرا في المستقبل, ومع ان جيفرسون تعلم الاستماع والانصات الجيد, فأنه لم يتعلم حسن الكلام والفصاحة لانه لم يشارك بالحوارت السياسية,وقد وصفه احد المؤرخين بانه كان" يبدو خليطا من رجل البرية والفلاح وكان يتنقل على ظهر الجواد. كانت كرامته عالية ولا تهتز واستقباله للغرباء كان باردا ...لم يسع ابدا الى الاختلاط بالناس ونادرا ما كان يشاهد في المحافل العامة، وفي

(١) جون ادمز :- (١٧٣٥-١٨٢٦) سياسي امريكي وثاني رئيس للولايات المتحدة الامريكية , ولد في كوينسي بولاية ماستشوستس , خريج هارفرد عام ١٧٥٨ , كان عضوا في المؤتمر القاري عام ١٧٧٤ في فيلاديلفيا , شارك في صياغة اعلان الاستقلال عام ١٧٧٦ , عين مندوبا لبلاده في فرنسا , وهولندا , اصبح نائب الرئيس الاول جورج واشنطن , فاز بأنتخابات ١٧٩٧- ١٨٠١ , مات في الرابع من تموز عام ١٨٢٦ عن عمر يناهز ٩١عاما , وجاءت وفاته بنفس اليوم الذي مات فيه جيفرسون وكان ذلك اليوم هو الذكرى الخمسين لاعلان الاستقلال ينظر :-

TheEncyclopediaAmericana,Vol,1,JohnAdams,PP.120-123

(٢) الشيروكي :- احدى القبائل الهندية الكبيرة التي كانت تسكن كارولينا الشمالية والجنوبية وفرجينيا ولويزيانا وتمتد على طول وادي المسسبي حتى رود ايلاند , ناهد ابراهيم دسوقي , دراسات في التاريخ الامريكي , الاسكندرية ١٩٩٨, ص٣٩

(3) Quoted in , Randal , Op. Cit , PP. 12- 13

الخطابة كان صوته ضعيفا وخجله جعل الخطابة بالنسبة له امرا مكروها"[1] وهذا ما أثر فيه في المستقبل فلم يكن جيفرسون يوما خطيبا بارعا, ولم يكن قادرا على ادارة الحوارات , بل كان قادرا على الكتابة وبرع في ايصال ما يريد عن طريقها , فكان كاتبا بليغا .

(1) Quoted in, Agar, Op.Cit , P. 111.

المبحث الثاني

تعليمه ونشاطه العلمي

اولا: تعليمه ودراسته

حرص بيتر جيفرسون على ان يحصل اولاده على تعليم منظم منذ الطفولة، ويكون بذلك قد عوض حرمانه من التعليم وهو صغير.واول ما تلقاه توماس جيفرسون من تعليم كان من قبل والده الذي بدأ يعلمه اساسيات الديانة المسيحية منذ ان كان عمره ثلاث سنوات إذ كان عليه تلاوة الصلاة قبل العشاء، وبدأ ياخذ تعليماً منظماً من والده، وكان ذلك طبيعياً بحكم انتماء والده ووالدته الى الكنيسة الانكليكانية،وهذا ما تعودوا عليه من تعاليم من ابائهم واجدادهم[1] .

عمل بيتر على جمع مكتبة صغيرة اشتملت على بعض المصادر الاصيلة ككتب التاريخ ومؤلفات وليم شكسبير، وكان من طبيعة أهل فرجينا اقتناء، مؤلفات شكسبير، وكذلك الانجيل، فكان الاثنان يُوجَدانِ في كل بيت وهما يحملان روح اللغة الانكليزية، فكان والده كثيراً ما يقرأ لهُ روايات شكسبير ،كما يقرأ لهُ ايات من الانجيل[2].

وما ان اصبح عمر جيفرسون خمس سنوات حتى ادخله والده في مدرسة انكليزية داخلية[3]، وكانت تلك المدرسة خاصة لتعليم قواعد اللغة الانكليزية واساسياتها، وفقاً لما درجت عليه تعاليم ذلك العصر من آداب للدراسة التقليدية التي كانت سائدة في اوربا عامة وانكلترا خاصة[4]. وما ان اصبح عمره تسع سنوات حتى سحبه والده من تلك المدرسة وارسله الى مدرسة داخلية اخرى ليتعلم فيها قواعد واساسيات اللاتينية واليونانية. وكان يدير هذه المدرسة مجموعة من رجال الدين الذين يتبعون الكنيسة الانكليكانية ويرأسها القس وليام دوغلاس William doglas الاسكتلندي الاصل والمولد[5].

---

(1) Randall, Op. Cit, P. 17
(2) Chinard , Op. Cit . P.4
(3) William Linn , The Life of Thomas Jefferson Author of The Declaration of Independence, U.S.A 1834, P. 9
(4) karl Lehmann , Thomas Jefferson American Humanist , London 1965 , P. 35
(5) Chinard , Op . Cit , p . 5; Albert Jay Nock, Jefferson, New York 1926,P.15

كانت مدرسة القس دوغلاس تبعد بضعة اميال عن بيت جيفرسون في شادويل، وكان دوغلاس معلماً للغات القديمة ويجيد الفرنسية والانكليزية بصورة ممتازة، وقد عرف عنه قراءته الفصيحة جدا في المدرسة وفي الكنيسة الانكليزية، وكان كثير التذمر وذا نبرات صوتية قوية غالبا ما اتصف بها اهل السهول[١]. تعلم جيفرسون في تلك المدرسة مبادئ اللاتينية واليونانية وتعلم الفرنسية باتقان، لكن جيفرسون لم يذكر أي تعليق على تعليمه في مدرسة القس دوغلاس في مذكراته، رغم انه قضى فترة طويلة فيها (نحو ست سنوات) وكل ما ذكره عن دوغلاس هو : ـ"... وعلمني معلمي السيد دوغلاس – وهو قسيس من اسكتلندا – الفرنسية ومبادئ اللغة اللاتينية واليونانية ..."[٢] ويبدو ان صرامة القس دوغلاس وشدته دفعتا جيفرسون الى التململ طوال المدة التي عاشها في تلك المدرسة الداخلية، والتي كانت تحرمه من كل الاثارات التي كان يشعر بها في توكوهو حيث الصيد واللعب واللهو وقصص الجنود، وكذلك الحفلات الراقصة التي كانت تقام بصورة دورية، حيث كان جيفرسون يعجب بالراقصين في صالون توكوهو[٣].

لما بلغ جيفرسون الرابعة عشرة من عمره قرر والده سحبه من مدرسة القس دوغلاس، وكان من المقرر ارساله الى مدرسة القس جيمس موري JamesMaury، وهو من الهكنوت، وكان شديد التعصب للغات القديمة ولاسيما اللاتينية واليونانية[٤]، لكن والده توفي قبل ارسالة لتلك المدرسة الداخلية عندها أجمعت الاسرة مع اصدقاء على العمل بوصية بيتر جيفرسون، الذي جعل من شركائه في شركة لويال لاند للمساحة أوصياء على ابنه توماس. وكان من بين الاوصياء قريبه وصديقه بيتر راندولف Peter Randolph [٥] وجون هارفي John Harvey اللذين قررا تحقيق رغبة بيتر جيفرسون وارسلا توماس الى

(1) Passos ,Op.Cit,P.9
(2) Jefferson, Op.Cit , P. 4
(3) Moscow, Op. Cit, P. 14; Passos, Op. Cit, P. 10
(4) Ibid , P. 15
(5) Passos , Op. Cit ,P.20 ; Nock ,Op.Cit, P.15

مدرسة القس موري الواقعة في لويزا Liousa التي تبعد اربعة عشر ميلاً عن شادويل[١].

كان جيمس موري رجل الدين الاسكتلندي، قد انشا مدرسته على الجبل، وهو استاذ كلاسيكي لديه العديد من الافكار والارآء الخاصة بالتعليم وكانت له قاعدة في التعليم تقوم على اساس ان يخلق من كل رجل شخصية قائمة بذاتها وتنمية ذكائه واخلاقه . وعلى الرغم من ان جيفرسون قضى سنتين في مدرسة القس موري لم يتأثر فيه كثيرا "واذا فسرنا سبب عدم تأثره بصورة صحيحة، يمكن لنا تصور جيفرسون وهو ابن الستة عشر عاما، طويل القامة ونحيلاً، ذا شعر احمر وعيون صافية، نجده مهتما بالخيل والعراء الواسع، مع قليل من القراءة في الكتب المتواجدة في مكتبة والده الصغيرة، اضافة الى ان السيد موري كان نادرا ما يفتح مكتبته لطلابه"[٢] . وقد انصرف جيفرسون بعد وفاة والده الى اللهو واللعب وركوب الخيل، واخذ يتردد على صالونات الرقص وتعرف على العديد من اصدقاء السوء الذين اوشكوا ان يجروه الى عالم الرذيلة لكنه تنبه اخيرا وعاد الى الطريق الذي رسمه له والده، وقد ذكر جيفرسون فيما بعد لحفيده وهو ينصحه، تلك الظروف التي عاشها قائلا : "والان حينما اتذكر نفسي وانا ابن الرابعة عشرة من العمر وقد ألقيت الي وحدي مسؤولية العناية بنفسي وتوجيه شؤوني الخاصة، من دون قريب اوصديق ينصحني او يوجهني، واتذكر الاشكال المتعددة من الاصحاب السيئين الذين اختلطت بهم مرارا وتكرارا، فاني استغرب كيف لم انحرف معهم ثم اصبح واحدا مثلهم عديم الجدوى والنفع للمجتمع"[٣].

وبعد سنتين قضاها مع القس موري، قرر جيفرسون الذي اصبح عمره ستة عشر عاما الذهاب الى الكلية لاكمال دراسته، ولكي يضمن موافقة جون هارفي احد الاوصياء عليه ويضمن تأييده امام الاوصياء الاخرين ارسل اليه رسالة شارحا خطته هذه، وليوافق على ارساله الى الكلية قدم جيفرسون لوصيه عدة اسباب كان اهمها انه كل من الدراسة في الجبل مع القس موري التي

(1) Lisitzky , Op .Cit , P. 14
(2) Chinard, Op. Cit,P. 6
(3) Quoted in , Ibid ,P.7

اصبحت عقيمة لانه يضيع وقته هناك بدون فائدة، وانه بحاجة لتطـوير دراسـته وليحصل على شهادة عالية كما انه تعلم اللاتينية واليونانية ولا حاجه له في البقاء عند القس موري، وانه يريد تعلم الرياضيات[١] فوافق بيتر راندولف على طلبـه وقرر ارساله الى الكلية،ورحل جيفرسون الى وليامزبورج حيث كلية وليام وماري William and Mary، اكبر كلية في المستعمرات الامريكية آنذاك، التي كانـت تقضي عادة الجنوبيين الذهاب لها للدراسة. وقد تأسست تلك الكلية عـام ١٦٩٣، وتطورت عام ١٧٢٧ لتضم اربعة اقسام رئيسة وهيَ مدرسـة القواعـد للـذكور ومدرسة ألفلسفة ومدرسة اللاهوت والمدرسة الهندية، وقد سجل جيفرسون في كلية وليام وماري في الخامس والعشرين من اذار ١٧٦٠ قبل بلوغه السابعة عشـرة من العمر باسابيع قليلة[٢].

حال وصول جيفرسون الى وليامزبورج انبهر بحجم المدينة الكبير، فانهـا اكبر تجمع يراه في حياته، فقد كانت وليامزبورج آنذاك عاصمة مستعمرة فرجينـا وهي تتألف من مئتي دار ويسكنها اكثر من الف شخص وهي بعيدة كل البعد عن المشكلات، ومملؤة بالزوار والمسافرين والمسارح الخشبية الواسعة التي تعـرض اعمال شكسبير والكوميديا الحية لكونكريف Congreve، وتنتشر صالات القمـار وحانات الخمر والمطاعم على طول الشارع الرئيس الذي يقسم المدينة لقسـمين، كما تنتشر التجمعات المقامة لمصارعة الديكة وحفلات الرقص والاغـاني التـي تستمر طوال الليل، وفيها انواع العربات الحديثة التي تسحبها الخيول، واخيرا في هذه المدينة بنايتان تقابل احداهما الاخرى وهما بنايـة الكليـة وبنايـة الحكومـة Capitol [٣] وقد وصفها المؤرخ الانكليزي الاستاذ هوج جـونز Hugh Jones كالآتي : "وليامز بورج مدينة اسواق، ويحكمها عمدة ورجال حكمة، انهـا مدينـة مبنية من الخشب وغنية بالمحلات، وفيها انواع السلع، ومجهزة باحسـن المـؤن

(1) Julian P. Boyd, The Papers of Thomas Jefferson, vol .1. 1760 – 1776, New Jersey 1969, P.3 .
(2) Max Beloff, Thomas Jefferson and American Democracy, New York 1965,P.35; T. P. Lyman, The Life of Thomas Jefferson, ESQ.L.L.D, Late Ex. President of The United States , Philadelphia 1826 , P.18.
(3) Moscow, Op, C.t, P.16.

والشراب المسكر . تقطنها عدة أُسر مشهورة وأُسر اخرى نشأت في المدينة وامتلكت فيها بيوتاً . وهم يعيشون بالاسلوب المنظم نفسه لطبقة النبلاء في لندن، واغلب تلك العائلات المشهورة كانت تمتلك انواعاً من العربات ذات المديلات الفاخرة (كاجو وكاربوت وبرلين أو كازي*) ... كما اني اتمنى السكن فيها."[1] .

عند وصول جيفرسون الى الكلية شعر بخيبة امل كبيرة، فسوء حظه قد جلبه الى الكلية وهي تمر باصعب اوقاتها، فقد كانت الدراسة متوقفة نتيجة الخلافات الحادة بين اساتذة الكلية والقس توماس دوسون، وكان ذلك بسبب اقرار مجلس المواطنين في فرجينا قانون البنسين، الذي كان يقضي بان يتم دفع رواتب التدريسيين نقداً بدلاً من التبغ، الذي كان سعره عالياً، ولكن عملة فرجينا كانت منخفضة جداً، وهو الامر الذي دفع القساوسة الانكليز الذين كانت تتكون منهم الهيئة التدريسية في كلية وليام وماري الى ترك الكلية التي كان عميدها قساً سكيراً، كما كان استاذ الفلسفة جاكوب مروو يعطي الدروس وهو في حالة تشبه الاغماء نتيجة تناوله الخمور بشكل مفرط وهذا أدى الى طرده من الكلية التي لم يتبق فيها سوى استاذين فقط[2]، لم يذكر جيفرسون منهما سوى الدكتور وليام سمول William Small الاسكتلندي. وبهذا الصدد يذكر جيفرسون في مذكراته ما نصه : "في ربيع عام ١٧٦٠ ذهبت لكلية وليام وماري حيث أكملت فيها سنتين وكان من حسن حظي اني تعلمت على يد الدكتور وليام سمول الاسكتلندي الذي أصبح فيما بعد استاذاً للرياضيات، والذي كان عميق التفكير في اغلب الفروع العلمية المفيدة، مع مقدرة عالية في ايصال المعلومات، وكان يصحح الاخطاء بطريقة مهذبة جداً وبعقل واسع وحر .. ولحسن الحظ كان كرسي الفلسفة شاغراً عند وصولي الى الكلية وكان الدكتور سمول جاهزاً لشغره، وكان هو أول استاذ يعطي دروساً في الكلية عن علم الاخلاق والبلاغة والادب المحض"[3].

(*) انواع فاخرة من العربات المصنوعة من اجود الاخشاب والمطلية بالذهب واغلب هذه الانواع تجرها اربعة خيول.

(1) Quoted in , Chinard,Op.Cit , P. 8
(2) Passos , Op. Cit , p.p23-25
(3) Jefferson , Op. Cit , P.4

كان من الطبيعي جداً ان يتأثر توماس جيفرسون بالدكتور سمول، لانه على ما يبدو الاستاذ الوحيد في تلك الكلية التي طالما وصفها المؤرخون الاميركان باحسن الأوصاف فهي "جامعة عريقة تخرج منها عظماء الامة جيفرسون وويث ومونرو وجون مارشال، ولها السمعة الحسنة وتقارن بهارفرد"(١) . هكذا توصف كلية لا يُدرس فيها سوى استاذ واحد وهو متعاقد معها وليس مُعَيَّناً، والاستاذ الآخر الذي لم تذكر أيّ من المصادر اسمهُ وربما يكون ملفقاً وليس لهُ وجود اصلاً ؟ أو انه جاكوب روو السكير المفصول، ورئيسها ذلك القس الانكليزي السكير الثاني، والغريب ان أفضل كلية في الجنوب الامريكي وأعرقها برمته كان عدد طلابها بكل اقسامها ومراحلها مئة طالب فقط(٢)، يصفهم المؤلفون الامريكان بانهم كانوا "شريحة واسعة من الشباب المشاكسين الذين يميلون للمتعة" (٣)، وان الطلبة كانوا يحضرون "كلابهم وبنادقهم وبعض الاحيان يحضرون عبيدهم لينامو مكانهم"(٤)، ويبدو ان روح اللهو واللعب لا الدراسة والتعلم، هي التي كانت سائدة في كلية وليام وماري، ولم تكن هناك أي حواجز بين الطالب والاستاذ، فقد كان بعض الاساتذة "يحثون الطلاب على المشاجرة مع اولاد الشوارع للرهان وكانوا دائماً يخسرون رهانهم"(٥)، ولنقف عند الفقرة الاخيرة متسائلين هل وجدت كلية في العالم أجمع قديمه وحديثه، يقوم اساتذتها بالمراهنة على قتال طلابها مع صبية المدينة ؟ هل استحوذ القمار المنتشر في وليامزبورج حتى على اساتذة وطلاب الكلية، والجواب : نعم هذا ما كان يحصل في تلك الكلية العريقة ! .

وبالعودة الى توماس جيفرسون نجده قد شغف حباً بالقمار والخمر، ففي السنة الاولى نادراً ما كان يفوته سباق الخيل، أو الحفلات الراقصة في وليامز بورج، بل ان الرجل بدأ يفقد حياءه وهو في عمر سبع عشرة سنة فبدأ يقبل ايادي السيدات في وقت لم يكن ذلك حينها مسموحاً به في قريته (٦)،ولم يفارق صالات

(1) Quoted in , Bowers , Op. Cit , P.18
(2) Moscow, Op. Cit, P.16.
(3) Quoted in, Bowers, Op. Cit, P.18.
(4) Quoted in , Moscow Op. Cit , P.16
(5) Quoted in, Bowers, Op. Cit, P.18.
(6) Moscow , Op. Cit , p18

الرقص المضاءة بالشموع والصاخبة المليئة بالفتيات الجميلات[1] . في هذا الجو المملوء بتلك المغريات كان لابد لجيفرسون ان ينساق وراء رغباته وهو في قمة شبابه، لكن مدت له يد اخرى انتشلتهُ من الوقوع في عالم الرذيلة وتلك كانت يد الدكتور وليام سمول الاستاذ الاسكتلندي الشاب الذي كان يكبر جيفرسون بتسع سنوات فقط، وكان سمول يدرس الرياضيات والفيزياء والفلك، وكان قد اعتمد نظاماً جديداً للتدريس، فقد كان الطلبة آنذاك يحفظون الدروس عن ظهر قلب ثم يسمعها منهم المدرس في الصف، اما نظام سمول الجديد فكان نظام المحاضرات إذ يشرح الاستاذ الموضوع بنفسه ثم يعطي الطلاب فرصة لالقاء الاسئلة، وقد كان جيفرسون يثير الاسئلة بصورة كبيرة وهذا لفت انتباه سمول الذي بدأ يحبه ويقربه اليه في الصف ومن ثم اصبح يماشيه ويأخذه معه في زياراته لاصدقائه الكثر، وكانت لهُ محادثات كثيرة مع جيفرسون، ولاسيما ان سمول كان عالماً اكثر من كونه استاذاً واغلب اصدقائه كانوا من العلماء امثال ايراسموس دارون Erasmus Darwin العالم الطبيعي المعروف" جد العالم تشارلس دارون صاحب نظرية التطور"، وجميس واط JamasWatt مكتشف المحرك البخاري، زيادة على علاقته القوية بحاكم مستعمرة فرجينا آنذاك فرنسيس فوكيير Francis Fauquier الذي كان يسعد بصحبة سمول [2].

والى جانب كون سمول استاذاً ومخترعاً،اذ اخترع ساعة قامت بتصنيعها شركة بولتون ووات Boulton and Watt، كان طالباً يدرس الطب، وقد اثر ذلك في نفس جيفرسون اشد التأثير، فمن خلال محادثاته مع الدكتور سمول تولع جيفرسون بالعلوم والمعرفة والاختراعات العلمية واصبح قارئاً نهماً، ومما يذكره جيفرسون عن استاذه سمول بهذا الخصوص "... كان سعيداً لاجلي واصبحت قريباً منه، كما صار يرافقني عند وقت فراغه بالمدرسة، ومن خلال محادثاتي معه اخذت منه نظرياتي الاولى حول العلوم" [3] . ولهذا كان لوليام سمول الفضل الكبير في بناء شخصية جيفرسون ونقله الى عالم العلم والمعرفة، ولم ينته دور

(1) Passos ,Op.Cit, P. 23 -
(2) Lisitzky ,Op.Cit, PP. 16-17
(3) Jefferson, Op. Cit ; p4.

سمول عند ذلك، فقد قام بتعريفه الى أفضل الناس الموجودين في وليامزبورج ومنهم الحاكم فرنسيس فوكيير،إذ غالباً ما صحب سمول جفيرسون الى منزل ذلك الحاكم، الذي كان مديراً لمصرف انكلترا قبل ان يصبح حاكماً للمستعمرة، وقد الف كتاباً هاماً عن الضرائب، وكان شغوفاً بالفيزياء، وعضواً في الجمعية الملكية العلمية في لندن [١].

أما الشخص الثاني الذي تعرف عليه توماس جيفرسون بواسطة وليام سمول، فكان جورج ويث Georg Wythe المحامي القدير الواسع المعرفة الذي كان يشبه القاموس المتحرك [٢] . كان جورج ويث في الثلاثين من عمره حين تعرف عليه جيفرسون وزيادة على كونه محاميا بارعا كان عالماً باللغتين اللاتينية واليونانية، كما كان معمارا ومهندسا ممتازا، وكان صَديقاً لسمول ولفوكيير، وبدأ جيفرسون يجتمع مع رفاق سمول في منزل الحاكم الذي اعتاد على دعوة سمول وويث على الغذاء كل اسبوع[٣].

وهكذا بدأت احوال توماس جيفرسون تتغير نحو الافضل فقد بدأ يترك صالات الرقص والقمار، ويتوجه مع سمول الى بيت الحاكم الذي اعجب بعزف جيفرسون على آلة الكمان كما انه كان مولعاً بالعزف الثلاثي مع أي ممن يستطيع العزف فكان ويث وفوكيير وجيفرسون يعزفون معاً[٤]، وكانت تدور الاحاديث المختلفة بكل فروع العلم والمعرفة، وغالباً ما كان جيفرسون يلتزم الصمت ويستمع للآخرين بدون اصدار أي تعليق على ما يسمع، واذا ما طُلب منه الحديث يتحدث عن المحار الذي اكتشفه مدرسهُ القديم القس موري، خلف الجبال،وكذلك عن العظام الضخمة التي وجدت في المغارات على الحدود وكيف ان الهنود يعتقدون ان هناك حيوانات ضخمة لا تزال في براري الغرب، كما رواها لهُ والده[٥] . وقد ذكر توماس جيفرسون تلك الجلسات التي كان يحضرها برفقة

(1) Lisitzky, Op. Cit. P.17.
(2) Passos, Op. Cit, P.25.
(3) Lisitzky , Op. Cit , P.17
(٤) فنسنت شيان، توماس جيفرسون ابو الديمقراطية، ترجمة الزعيم الركن المتقاعد جاسم محمد، مراجعة وتقديم : بدر شاكر السياب، بغداد، ١٩٦١، ص١٨
(5) Passos, Op. Cit ,P.26 .

الدكتور سمول وجورج ويث بمنزل الحاكم فوكيير قائلاً : "كان فوكيير اقدر رجل حكم المستعمرة، وقد كون رفقة رباعية تجلس حول مائدته التي تكونت منه ومن الدكتور سمول والسيد ويث – صديقيه المخلصين ومني . وانا هنا اديـن لتلك المحادثات التي كانت تدور في مجالسه بكثير من المعرفة حيث سمعت في هذه الجلسات من الاقوال والاحاديث الحكيمة والعقلية والفلسفية أكثر مما سمعته على طوال حياتي وكان الحاكم مولعاً بالموسيقى وعازفاً ماهراً وكان يجمعني مع اثنين أو ثلاثة من هواة العزف في حفلاته الاسبوعية التي كان يقيمها"[١].

لم يمكث وليام سمول طويلاً في فرجينا فقد رحل الى بريطانيا عام ١٧٦٢ بعد ان اوصى جورج ويث بان يقوم بمتابعة جيفرسون الذي كان قد طلب منه ذلك[٢]. وعندئذ توثقت علاقته بشدة مع جورج ويث الذي أصبح فيما بعد بمنزلة والده الثاني، وقد ترك ويث أثراً عميقاً في نفس جيفرسون حتى انه كتب ملخصاً عن سيرة جورج ويث وارسلها الى صديقه جون ساندرسن John saunderson عام ١٨٢٠ إذ كان الاخير ينوي تأليف كتاب عن جورج ويث[٣]، ومما جاء في تلك السيرة التي ارسلها جيفرسون لساندرسن: "... لم يتعلم جورج ويث في المدارس بل علم نفسه بنفسه الى ان أصبح أفضل عالم باللاتينية واليونانية بالولاية وأصبح عالماً في الرياضيات وفلسفة الاخلاق ودرس القانون وبرع فيه بشدة فكان فصيحاً وذا اسلوب منطقي في المجادلات ... كان شخصاً عظيماً ونقياً خالياً من الشوائب نزيهاً فوق مستوى الشبهات، عادلاً وطنياً صادقاً، مخلصاً للحرية وحقوق الانسان الطبيعية ... زاهداً ولا يوجد أحد بزهده ... كان عالماً في استخدام لغته فصيحاً مهذباً عنيفاً عند المرافعات .... فيلسوفاً لم يتطاول على احد بما يعتقد من دين فترك الناس على ما يعتقدون ... هكذا كان جورج ويث شرفاً لعصره الذي عاش فيه ومثالاً للاجيال القادمة" [٤].

---

(1) Jefferson ,Op.Cit, P. 5
(2) J. Honeywell ," Anote on the Educational work of Thomas hefferson" , History of Education Quarterly , Vol.9 , No.2 (spriny 1969) , P. 65.
(3) Adrienne koch , William Peden , the life and selected writings of Thomas Jefferson New York , 1944 , P.180.
(4) Ibid,PP. 180-183

بهذه الصورة الزاهية وصف جيفرسون استاذه جورج ويث، الذي كان قد تأثر بارائه وافكاره اشد تأثير، والذي يقرأ بداية حديث جيفرسون عن ويث يشعر بان ويث يمتلك بعض الصفات القريبة من بيتر جيفرسون ولاسيما كونه علم نفسه بنفسه، وقد زادت تلك الصفة سبباً آخر لتأثر جيفرسون بويث الذي أصبح يسميه "ابي الروحي" و" معلمي المخلص" و"ناصحي المحبوب"(١).

انتهت السنة الاولى في كلية وليام وماري بدون ان يكتسب جيفرسون خبرات جديدة باستثناء تطوير لغته اللاتينية واليونانية لكنه من جهة اخرى استفاد كثيراً من رفقه الدكتور سمول والحاكم فوكيير وجورج ويث،إذ بدأت افكاره تتضح وبدأت ملامح شخصيته بالظهور.كانت الفائدة الكبرى التي حصل عليها جيفرسون هي تعرفه على سمول وويث اللذين غيرا حياة الفتى نحو الاحسن وبهذا الصدد يذكر جيفرسون انه : "من حسن حظي اني تعرفت في وقت مبكر على بعض الشخصيات اصحاب المنزلة الرفيعة وطالما شعرت برغبة قوية بان اصبح مثلهم وان اصل الى ما وصلوا اليه . وفي تلك المواقف الحرجة كنت اسال نفسي، ماذا يفعل الدكتور سمول والسيد ويث وبيتون راندولف Peyton Rendolph اذا واجهوا ما واجهته، واي طريق يسلكون ؟ واني مؤمن ان هذا الاسلوب في متابعة سلوكي ادى بي الى الاستقامة اكثر من أي قوة فكرية اكتسبتها" (٢).ثم يسال عن فائدة المرح واللهو اللذين أنفق عليهما مبالغ كبيرة قائلاً : "وجدت نفسي ارافق المراهنين على الخيل، ولاعبي القمار، وصيادي الثعالب، ورجال العلم واصحاب الحرف وذوي المكانة العالية من الناس، وسالت نفسي أي اللحظة هي الاصح ؟ عند موت الثعلب ؟ او فوز الحصان ؟ أو عند مناقشة فصيحة في قاعة القضاة أو في مجلس الامة العظيم : أي هذه الانواع من الشهرة الذي يجب ان افضله ؟ أهي شهرة راكبي حصن السباق، ام شهرة صيادي الثعالب؟ أم شهرة الخطيب أو المدافع الامين عن حقوق البلاد" (٣) . ولما اتت العطلة ووجب على جيفرسون العودة الى شادويل قرر شطب ما وراءه وما فعله من امور سيئة كالقمار في

(1) Jefferson Op. Cit , P. 4
(2) Quoted in , Raynar , Op.Cit , P. 25
(3) Ibid , P. 25

وليامزبورج وبادر قبل رحيله الى ارسال خطاب لوصيه جون هارفي كان يشبه اعترافاً بسوء تقديره للامور وتبذيره للمال، وانه أنفق الكثير من الاموال على المتعة والملابس وطلب منه ان يستقطع المال من حصته بالميراث فقط وليس من حصته بالشركة[1]. وكان ذلك تصرفاً يشير الى ان جيفرسون بدأ يتحمل مسؤولية افعاله . وما ان وصل شادويل حتى بدأ يغير مجرى حياته أذ أخذ يهتم بالكتب والقراءة اكثر من السابق، وأخذ يتعرف على اصدقاء جيدين امثال دابني كار Dabney Carr الذي كان قد قبل في كلية وليام وماري للعام القادم الذي اصبح من أعز أصدقائه، فقد كانا يخرجان الى التلة العالية في شادويل حيث شجرة البلوط الكبيرة ويتسامران، وقد تعاهدا ان يبنيا بيتين عند التلة واذا مات احدهما يقوم الثاني بدفنه عند التلة مكان البلوطة وهذا ما حدث فعلاً فيما بعد فالاثنان دفنا معاً هناك[2].

ما ان انتهت العطلة حتى عاد جيفرسون الى كليته متلهفاً للقراءة والدراسة، وأخذ الدكتور سمول يعرفه على كتابات التجريبيين البريطانيين، امثال جون لوك وفرنسيس بيكون واسحق نيوتن، الذين سماهم جيفرسون بثلاثة من اعظم الرجال الذين انتجهم العالم على الاطلاق، كما اصبح جيفرسون يحمل معه كتاب قواعد اللغة اليونانية اينما ذهب، واخذ يقرأ لكتابات الأغريق ولاسيما تاسيتوس Tacitus وهوميوس Homer، ونظم جدولاً للدراسة والقراءة، حتى إن صديقه جون بيج John page ذكر ان بامكان جيفرسون نزع نفسه بعيدا عن أعز اصدقائه للهروب الى الدراسة[3].

اصبح جورج ويث يدرسه في الكلية، وكان جورج ويث يدرس القانون بوصفه وجها من اوجه التاريخ والمنطق والانسانية، وفي السنة الثانية ومع تدريس سمول وويث اشتعلت جذوة طلب العلم في نفس جيفرسون حتى صار من العسير إطفاؤها بقية حياته، واصبح تعطشه للعلم لا يرتوي ابدا، تماما كالرغبة في امتلاك الكتب والاطلاع على محتواها . وهنا بدا جيفرسون يهتم بكتابات اللورد

(1) Raynar , Op.Cit ,.P. 21
(2) Moscow, Op. Cit, P. 19.
(3) http : \\ www . Wikipedia. com

بولبنكبروك Lord Bolingbroke الذي يُعَدّ من اكثر نقاد المسيحية، وكان الجو العام انذاك يسمح بمثل هذه الكتابات ولاسيما بعدما هبت رياح الفكر التنويري من انكلترا واسكتلندا وفرنسا، أما ما يتعلق بالمعتقدات الدينية فقد راعى جيفرسون الكتمان فلم تصدر عنه اية تصريحات علنية يشجب فيها الدين، ولكن نفوره وابتعاده المبكر عن المسائل الدينية مثل الوحي والروحانيات، كشفا بوضوح عدم توجهه الديني(١).

في السنة الثانية والاخيرة اصبح تأثره واضحاً جدا بجورج ويث وبدا جيفرسون، الذي لم يكن لديه هدف أساسي من دخوله لتلك الكلية، يرغب بدراسة القانون وأراد ان يصبح محاميا كأستاذه ويث. زد على ذلك انه تعرف في تلك السنة على الخطيب ألثوري باتريك هنري Patrich Henry وقد وجد فيه جيفرسون العديد من المزايا القريبة منه في شخصيته، فقد كان مولعاً بالموسقى ورائداً في العزف على القيثارة، ومن خلال حضور جيفرسون لجلسات الحاكم فوكيير التي كان يحضرها باتريك هنري توثقت العلاقة بين الاثنين واصبحا صديقين مقربين(٢).

وبعد ان ترك جيفرسون اللهو والمرح وقرر الدراسة بجدية ليحصل على الشهادة، قام بارسال جميع عبيده وخدمه الى شادويل وكذلك قرر ارسال جميع احصنته الخمسين الى الديار وبهذا تفرع تماماً للتجارب العلمية والدراسة الحقيقية(٣). واستمر على ذلك النحو حتى تخرج من كلية وليام وماري في الخامس والعشرين من ايار عام ١٧٦٢، وكان عمره آنذاك تسع عشرة سنة، واصبح يتقن اللغتين اليونانية واللاتينية قراءة وكتابة ويفهم المؤلفات المكتوبة بهما بسهولة، لكنه لم يحسن الفرنسية بل كان يقرؤها جيداً ويفهمها بدون قدرته التامة على التحدث بها(٤).

(1) Quoted in ,Hitchens , Op. Cit , PP. 21-22
(2) Gene Stone , Famous Americans , The Story of Thomas Jefferson , New York 1922 , PP. 25-27
(3) Henry Childs Merwin, Thomas Jefferson, New York 1901, PP. 14-15.
(4) Lisitzky , Op. Cit , P.2

دراسته للقانون

بعد ان تخرج توماس جيفرسون من كلية وليام وماري، وضع شهادته وراء ظهره واخذ يستعد لدراسة القانون ليصبح محامياً وقد أخذ جورج ويث بيده ليكون مدرسه الناصح وليتدرب في مكتبه على دراسة القانون[١]. وفي تلك الحقبة لم يكن هناك معاهد لتدريس القانون بل كانت المحاماة تكتسب بالمطالعة والتمرن تحت اشراف احد اعضاء نقابة المحامين، وكان على المتدرب ان يثابر لحضور جلسات المحاكم وتحضير اوراق المرافعات والمقابلات وتدوينها جيداً ومن ثم يصرف الساعات لدراسة كتب القانون والمؤلفات الخاصة بتاريخ التشريعات حتى يتمكن من مسك زمام المهنة عملياً ويحفظ مواد القانون ثم يتقدم لامتحان ينظمه بعض محامي الولاية، فاذا اجتاز ذلك الامتحان، تمنحه تلك اللجنة اجازة بالعمل في المحاماة ويسجل في نقابة المحامين[٢].

ونتيجة لعدم وجود كلية أو معهد لتدريس القانون لم تكن هناك مدة زمنية محددة لانجاز دراسة القانون، بل كان ذلك يعتمد على الطالب وامكانياته المادية لشراء الكتب ومواد الدراسة، وامكانياته الذهنية، فكان بعضهم ينهي دراسة القانون بسنة أو سنتين وبعضهم الاخر ببضعة شهور، في حين انهى باتريك هنري تلك الدراسة بستة اسابيع فقط واجتاز الامتحان ونجح فيه[٣] .اما بالنسبة لجيفرسون فلم ينه دراسته للقانون الا في خمس سنوات متواصلة، وذلك لعدة اسباب, اولها انشغاله برعاية اسرته بعد وفاة والده، وادارة الممتلكات من الاراضي الزراعية وشركة المساحة، وكذلك واجباته بوصفه سيداً تجاه العبيد، وادارة المبيعات وتسويق ما تنتجه الاراضي الزراعية ولاسيما زراعة التبغ التي تحتاج لمتابعة مستمرة، ولاسيما ان تلك الزراعة كانت العماد الاساسي لدخل جيفرسون واسرته إذ يبلغ الدخل السنوي منه اكثر من الفي دولار[٤]، وهذا مبلغ ضخم في تلك الايام وللحفاظ عليه وزيادته يجب الحفاظ على الاراضي ورعايتها، والسبب الثاني هو

(1) Jefferson , Op. Cit, P. 5
(2) Lisitzky , Op. Cit, P. 21
(3) Passos , Op. Cit, P.28
(4) S.E. Forman , The Life and Writing of Thomas Jefferson , New York 1900 , P.8

عدم رغبة جيفرسون في قراءة كتب القانون وحفظها بدون فهمها وفهم شروحاتها، فقد كان مقدار فصل واحد من مادة الحقوق باللغة اللاتينية او الفرنسية يستنفد شهراً من وقت الطالب الاعتيادي لحفظه، لكن جيفرسون لم يكن يقف عند حفظ الفصل بل كان يندفع وراء مراجعة منابع المادة واصولها المذكورة لينظر اليها اولاً في تاريخ انكلترا القديم ايام غزوات النورمان، ومن ثم يفصل المواد التي تندرج تحت بنود القانون ويستفهم عمن شرع هذا القانون وقتها وكيف ؟ وهل هذا النص القانوني كامل ويؤدي الحقوق في كل الظروف ام لا ؟ ولاجل ذلك كان عليه الاحاطة بجميع تلك الامور[1].

اخذ جيفرسون يدرس القانون بعمق وتوسع في قراءة تاريخ انكلترا وتاريخ الرومان وتاريخ فرنسا ليفهم كيفية وضعها للقوانين، وواصل غوصه ليفهم اعماق القانون الانكليزي، فدرس تاريخ السكسون القدامى وكيف وضعوا قوانينهم وكيف طبقوها، ومن هم واضعوها الاصليون . وقد ترتب على ذلك معرفة تامة باللغة السكسونية وقد اجادها جيفرسون بالفعل عندها بدأ يعرف ما القوانين السكسونية القديمة التي لا تزال سارية المفعول وهل يجب تعديلها ؟ وتلك القوانين التي ابطلت وهل يمكن احياؤها[2]، وقد جعل ذلك الغوص بالقوانين من جيفرسون باحثاً بالتاريخ القانوني اكثر من كونه متدرباً للمحاماة، وهذا ما دفعه الى العديد من التساؤلات فمن وضع القانون بشكل عام وهل هو مقدس لا يمكن تغييره ام انه يتغير حسب الزمان والمكان ولحاجة انسانية ملحة ؟ ومن ثم هل من حق مجموعة معينة من الناس فرض قانون عام على الاخرين وفقاً لمصالحها ؟ هذه الاسئلة دفعت جيفرسون الى التفكير باحقية الشعب الامريكي بان يحكم نفسه بنفسه ويقر قوانين جديدة تتلاءم وطبيعة تركيب ذلك الشعب، ومن ثم جعلت منه محامياً لامعاً يدافع عن قضية شعب باكمله لحقه بالحرية والاستقلال .

ويذكر توماس جيفرسون دراسته للقانون بهذه الطريقة قائلا :- "لقد استطعت ان اقدر تقديرا ملائما دراسة اللغات الشمالية – وخاصة الانكلو –

(1) Lisitzky , Op.Cit , PP. 21- 22
(2) Moscow, Op. Cit, P. 23

سكسون – عندما كنت طالبا ادرس القانون وذلك لاضطراري الى ان ارجع الى ذلك المصدر من اجل شرح العديد من المصطلحات القانونية ... وخطرت لي بعض الافكار لتيسير الدراسة بتبسيط قواعد نحوها وصرفها وذلك بإخضاع مستفرقاتها غير المحدودة لاشكال واحدة مستقرة تبين في الوقت نفسه نطق اللفظ بتجاوبه مع الحروف الهجائية في اللغة الانجليزية ..."[١]

يتضح من خلال هذا النص ان جيفرسون قد غاص عميقا بتاريخ القانون حتى وصل به المطاف لدراسة لغة الانكلو – ساكسون، ويبدو انه لم يكن يتابع المحاكم والمرافعات بصورة مستمرة بل انه كان يحضر للمحكمة لمتابعة القضايا المتميزة فقط التي فيها اثارة كبيرة[٢].ومن تلك القضايا التي حضرها جيفرسون كانت قضية "البنسين"التي رفعها مدرس جيفرسون القديم القس موري ضد ذلك القانون، وقد وكل القس موري، المحامي البارع باتريك هنري للدفاع عن حقوق المدرسين في اخذ رواتبهم عينا "من التبغ" لا نقدا حسبما اقرته الحكومة الانكليزية، والذي تعارض مع قرار مجلس فرجينيا بهذا الشان . واستند باتريك هنري في دفاعه الى اساس ان الحكومة البريطانية ليس لها الحق في الغاء أي قانون يصدره المشرع في المستعمرة وقد ألهبت اقوال باتريك هنري وخطاباته حماس الجماهير الذين حملوه على أكتافهم ورشحوه عضوا لمجلس فرجينيا[٣].

على الرغم من تاثر توماس جيفرسون بباتريك هنري، عد هنري رجلا كسولا لا يقرا وانه "اكسل رجل في القراءة ممن عرفهم وان قضية البنسين كانت القضية الوحيدة التي قرأها هنري طول حياته"[٤]، ولذلك فهو لا يعد باتريك هنري قدوة صالحة يقتدي بها على الرغم من حماسه وانفعالاته داخل قاعات المحكمة، لكن تلك طريقة باتريك هنري في الدفاع وهي تعتمد على الخطابة واشعال حماس الجماهير، وهذه الطريقة تناقض طريقة جيفرسون المبنية على اساس القراءة

(١) نقلا عن برنارد مايو، جيفرسون الرئيس الفيلسوف من كتاباته، ترجمة وتقديم الدكتور محمد عبد المعز نصر، القاهرة ١٩٥٩، ص٥٥

(2) Moscow, Op. Cit , P. 25
(3) Beloff , Op Cit , P.29
(4) Quoted in , Passos , Op. Cit , P. 28

وايجاد الثغرات وتدوينها في دفتر ملاحظاته، الذي اكتظ بالملاحظات عن الكتب التي قراها والتي عمل منها كتابا سماه "الكتاب العام" (١).

لم يكن جيفرسون طالبا مجتهدا خلال فترة دراسته القانون، كما لم يكن بالكسول، بل كان يوفق فيما بين الدراسة والرياضة والمتعة والمرح، وكانت له قاعدة ثابتة في الرياضة وهي :- "ان الرياضة والنزهة ضروريتان مثل القراءة، بل قد تكونان اكثر ضرورة لان الصحة اكثر قيمة من التعلم فالجسم القوي يجعل العقل قويا ... وفي المشي اجعل بندقيتك الصاحب الدائم معك، ولا تفكر مطلقا في ان تاخذ كتابا معك . فان غرض المشي هو الترويح عن العقل ... ان المشي خير رياضة ممكنة ..."(٢)، كما انه لم ينس هوايته المفضلة وهي العزف على البيانو، فقد كان يعزف لمدة ثلاث ساعات يوميا، ويركب حصانه ليذهب بنزهة يومية(٣).

والى جانب كونه المسؤول عن تدبير الامور الحياتية اليومية لاسرته وادارة ممتلكاته، كان يمارس الرياضة بصورة دائمة ويعزف على البيانو يوميا ويتنزه يوميا، فما الذي بقي من اليوم ليدرس فيه ؟ وهذا سبب تاخره بالدراسة لمدة خمس سنوات . والغريب ان اغلب المصادر الامريكية التي تناولت موضوع دراسة جيفرسون للقانون ذكرت انه كان يجلس للدراسة مابين خمس عشرة ساعة الى سبع عشرة ساعة يوميا !! وانه كان قد اعد جدولا للدراسة هو كالآتي :-

من الساعة ٥ صباحا – ٨ صباحا : يقرا العلوم متضمنة الفيزياء والكيمياء وعلم النبات والحيوان والزراعة والتشريح والاخلاق

من الساعة ٨ صباحا – ١٢ ظهراً : يقرا كتب القانون

من الساعة ١٢ ظهرا – ١ ظهراً : يقرا التاريخ

من المساء وحتى وقت النوم : الاداب والنقد والبيان والخطابة(٤) .

---

(١) فنست شيان، المصدر السابق، ص٢٨

(٢) نقلا عن، برنارد مايو، المصدر السابق، ص٥٧.

(3) Moscow, Op. Cit, P. 24

(4) Lehann, Op. Cit, PP. 12- 13 .

ولأول وهلة يبدو هذا الجدول ليس حقيقا، فاذا افترضنا صحته وأخذنا بالحد الادنى وهو خمس عشرة ساعة مزيداً عليها ثلاث ساعات للبيانو وساعة لركوب الخيل وساعة لمراجعة حسابات المزرعة وساعة للطعام والشراب، فستصبح احدى وعشرين ساعة ويبقى لديه ثلاث ساعات للنوم فقط ! وهذا غير معقول، لكن الجدول وضعه بالفعل توماس جيفرسون نفسه ولكن ليس له بل انه وضعه فيما بعد لاحد أصدقائه الذي طلب منه جدولا مثاليا للدراسة فوضع جيفرسون هذا الجدول له[1] واخذ كتاب السير يتغاضون عن هذه الحقيقة بشكل متعمد، وذكروا ان جيفرسون قد وضع ذلك الجدول لنفسه حينما كان يدرس الحقوق، وعلى ايه حال فان جيفرسون كان قليل الدراسة في فترة الصيف حيث يُوجدُ في شادويل ليرعى إعماله واشغاله وفي الشتاء يذهب الى وليامز بروج ليواصل دراسته وحضور جلسات المحاكم ومرافقة زملائه وحضور الجلسات والمآدب التي كانت تقام بصالونات وليامزبروج وعند الحاكم فوكيير[2] .

عموما تعرض توماس جيفرسون الى ثلاثة احداث رئيسية بعد تخرجه في الكلية وخلال فترة دراسته للقانون.واثرت هذه الاحداث بصورة مجتمعة، في دراسة جيفرسون للقانون تاثيرا سلبيا ادى في النهاية الى تاخره في الحصول على اجازة المحاماة. كان اول تلك الاحداث صدمته العاطفية بفتاة فرجينية تعرف عليها في صالونات وليامزبورج وشغف بها حبا حد الهيام، تدعى ربيكا بورويل Rebecca Burwell الحسناء الفرجينية التي كان يتطلع اليها اغلب الشباب، وهي اخت احد زملائه في الكلية وابنة اسرة عريقة من ذوي الاملاك[3]، ظل توماس جيفرسون يتقرب منها ويحاول الحصول على وعد بالزواج منذ تخرجه من الكلية عام ١٧٦٢ حتى عام ١٧٦٣ أذ صدته وابلغته بانها خطبت لآخر. وكان ذلك في موقف عام في قاعة ابوللو Apollo Room حيث يجتمع رجال السياسة والفكر والعشاق والرجال والنساء والمقامرون من انحاء فرجينيا كافة، ويقصدون

(١) وضع هذا الجدول في رسالة ارسلها الى صديقة برنارد مور، ينظر : برنارد مايو، المصدر السابق، ص٥٦

(2) Randall, Op.Cit , P. 42

(3) Hitchens, Op. Cit, P. 20

القاعة وكانت الجلبة تتركز في ركن القاعة عند حانة راليـــة Raleigh، وهنـــاك ووسط الحشود تقدم جيفرسون الى الانسة ريبكا والتي كان يسميها بليندا Belinda في رسائله لصديقه جون بيج John Page[1] وعرض عليها حبه وطلـــب منهـــا الرقص، لكن محاولته باءت بالفشل الذريع وجعل من نفسه أضحوكة وقـــد علـــم جميع من كان في القاعة بالامر وتسبب ذلك الموقف باصـــابة جيفرســـون بـــاول نوبات الصداع النصفي التي لازمته بقية حياته[2].

لم ينم جيفرسون ليلته تلك وفي صباح اليوم التالي الموافـــق الســـابع مـــن تشرين الاول ١٧٦٣ كتب الى صديقه جون ببج قائلا : "في اشد نوبة من نوبـــات الحزن الشديدة التي مرت بنفس بائسة اكتب اليك، ففي الليلة الماضية وانا في غاية من الطرب في قاعة ابوللو بحانه رالية، لم اكن اظن مطلقا ان شمس اليوم الثـــاني ستشرق عليَّ من شدة تعاستي التي انا فيها، فقد كنت على استعداد لقـــول الكثيـــر "لربيكا" فنظمت في عقلي عدداً من الافكار التي خطرت لـــي فـــي لغـــة مـــؤثرة وتوقعت تأدية هذا الدور باسلوب غرامي، ولكن، ياالهي ! ياله من موقف!..."[3]

كان جيفرسون قد احب ربيكا حبا صادقا مدة عام كامل وهو يامل الـــزواج منها فيما بعد، وقد ادى حبه لها الى ضياع العديد من المشاريع التي خطط لها بعد تخرجه من الكلية وكان اهم تلك المشاريع القيام برحلة الى اوربا ليمارس ما تعلمه من لغة على ارض الواقع وليكتسب خبرات علمية وشراء كتب وغيرها، وقرر ان ينطلق من فرجينا صوب انكلترا مباشرةً ومنها يذهب الى هولندا ثم فرنسا فاسبانيا وايطاليا وأخيراً مصر، بعدها يعود لانكلترا ومن ثم الى شمال امريكا -كندا حالياً- ثم فرجينا، لكنه قرر فيما بعد الغاء هذه الرحلة خوفاً من ان يأتي احد ما ويســـبقه الى ربيكا، وقد ابلغ صديقه جون بيج بخوفه الشديد من ذلك الامر[4].

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل انه من شدة تفكيره بها وما راودتـــه مـــن احلام نسى دراسته للقانون، حتى انه أصبح يسميها بالشيطان الـــذي يأتيـــه لـــيلاً

(1) Boyd, Op. Cit, P. 11.
(2) Hitchens, Op. Cit, P. 20
(3) Quoted in, Boyd, Op. Cit, P. 11
(4) Ibid , P. 7

وينزل عليه الكوارث. وذكر بخطاب آخر لجون بيج انه يفكر بها كثيراً لدرجة انه بدأ يخاف من ان يتخبط عقله وقال له ان ذلك الامر سيؤدي الى "....عدم انتهائي من دراسة كتاب كوك Coke العجوز، هذا الشتاء لان الله يعلم انني لم اره [يقصد الكتاب] منذ ان وضعته في حقيبتي في وليامزبورج"(١) .

اذن قصة حبه لربيكا كانت الحدث الاول الذي اثر على دراسته للقانون وادى الى تأخيرها، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على ضعف في شخصية جيفرسون الذي لم يستطع كبح جماح نفسه والسيطرة على اهوائها .اما الحدث الثاني فقد كان رحلته الى المستعمرات الاخرى، وهذا الحدث مرتبط أيضاً بقضية حبه لربيكا فقد اراد السفر للمستعمرات للترويح عن نفسه محاولاً نسيان حبيبته التي لم ينسها رغم ما حدث له بل انه اراد ان يحاول مرة اخرى ونرى ذلك واضحاً في رساله الى جون بيج يخبره فيها بان : "نفسي تراودني بان أتي عندكم لاطلب يدها واستعد للحكم الذي ستصدره مهما كان شأنه ولا ابقى بعد ذلك معلقاً . ولكن عقلي يقول ان ذهبت وانتهى مجهودي بالفشل فان شقائي يتضاعف عدة مرات عن الشقاء الذي اعانيه الان .. "(٢).

ولينسى آلامه كان عليه السفر بعيدا عن كل ما يذكره بربيكا، كما انه اراد الذهاب الى مستعمرة فيلادلفيا Philadelphia لغرض التلقيح ضد مرض الجدري إذ حصل على رسالة توجيه من قبل طبيب فرجيني الى الدكتور جون موركان John morgan استاذ الطب في فيلادلفيا القادم من انكلترا ومعه طرق جديدة للتقليح، فاخذ جيفرسون الرسالة وانطلق نحو فيلادلفيا. وكان عليه الوصول اولا الى نيويورك مارا عبر انابوليس Annapolis، وفي الطريق الى نيويورك تعرض جيفرسون الى العديد من الاخطار،ولاسيما أن الامطار كانت تهطل بغزارة شديدة وبصورة مستمرة مما سبب فقدانه السيطرة على حصانه اكثر من مرة، كما ان عربته اوشكت ان تنقلب به، ومع ذلك واصل المسير حتى وصل انابوليس،إذ

(1) Quoted in , Boyd , Op.Cit , P. 5
(2) Quoted in , Ibid , P. 8

انبهر بجمالها العظيم وبيوتها الرائعة المبنية بالطابوق ووصفها بانها اعظم مكـــان للتجارة [١] .

وبعد وصوله الى نيويورك اخذ يتفقد المدينة التي تعد اقرب المدن الامريكيـــة الى اوربا، وقد امتلأت الحانات بكل ما هو جديد قد جاء للتو من اوربـــا، وفيهـــا العديد من المنازل المبنية بالطابوق وشوارعها الطويلة التي تتخذ شكلا هولنديا[٢]. وكانت تقام الحفلات الموسيقية المسائية بحدائقها الغناء، وفيها مراكـــب شـــراعية للنزهة، وكانت مدينة بحرية صاخبة جدا توصف بانها مدينة عربدة، وبعد وصوله الى فيلادلفيا التقى الدكتور موركان واعطاه اللقاح ثم عاد الى فرجينا[٣] .

كانت الرحلة الى فيلادلفيا شاقة وطويلة استغرقت عدة اشهر، وقد استفاد توماس جيفرسون من تلك الرحلة الشيء الكثير فقد اختلط بالعديد مـــن ابنـــاء فيلاديفـــا ونيوريوك الذين كانوا يتحدثون عن انفسهم بوصفهم امريكين وليسوا انكليز علـــى عكس ما كان موجوداً في فرجينا من شعور سائد بانهم انكليز، كما وافقت رحلتـــه الى نيويورك الغاء قانون الطابع [٤]، وراى الاحتفالات بهذه المناسبة في نيويورك وانابوليس وفيلادلفيا، وكتب الى جون بيج يقول"... كنت اود ان اعطيـــك وصـــفا للفرح الذي سادهم هنا لالغاء قانون الطابع، ولكن ربما ترى هذا في الصحف قبل

---

(1) Quoted in, P. 18

(٢) يعد الهولنديون اول من اكتشف نيويورك، بقيادة الملاح هنري هدسن وقد سميت نيو امستردام وظلـــت كذلك حتى السيطرة البريطانية، للتفاصيل ينظر : البرت ك ميزل، المهاجرون الى امريكا، ترجمة عبد الفتاح المنياوي، القاهرة د . ت، ص٢٦-٤٩ .

(3) Passos ,Op.Cit , P. 35

(٤) قانون الطابع : ضريبة فرضت لموازنة الانفاق على الدفاع الانكليزي عن المستعمرات، وقد اصاب هذا القانون بالدرجة الاولى رجال الصحف والكتاب ورجال الاعمال، وقد فرضت تلك الضريبة على اساس لصق طابع بتراوح ثمنه بين سته بنسات وستة جنيهات على الصحف والبطاقات والكتيبات والرخص والايجـــارات والوثائق القانونية والمستندات التجارية وعقود البيع والرهن، وقد اثار هؤلاء ضجة كبيرة ضد القانون اثـــرت في الراي العام، واخذت مستعمرة فرجينا المبادرة في معارضة ذلك القانون اذ اعلن مجلس المواطنين انه ما من احد يحق له ان يفرض الضرائب على اهل فرجينيا غير مجلسها التمثيلي، ثم تلتها ماساتشيوســـتس فـــي الحملة على ذلك القانون، ولم تلبث روح المعارضة ان انتشرت في ارجاء المســـتعمرات وتشـــكلت عندئـــذ منظمةاطلقت على انفسها " ابناء الحرية " واخذت تدعو لمقاومة الضرائب الجديدة واستمرت حتى الغي القانون سنة ١٧٦٥، ينظر :- عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، المصدر السابق، ص ٥٣- ٥٤

ان يصلك خطابي"[1]. وعلى الرغم من الخبرة المفيدة التي اكتسبها جيفرسون اثناء الرحلة اثرت بصورة سلبية في دراسته للقانون وما ان عاد جيفرسون الى فرجينا حتى صدم بنبأ وفاة اخته جين في تشرين الاول عام ١٧٦٥ وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، عندها سقط جيفرسون في فترة من الحزن الشديد على فراق اخته جين التي كانت اقرب اخواته له فقد كان يفضي لها باسراره ويصاحبها في العزف على الكمان. ولم يبق له بعد وفاة جين سوى اخواته الصغيرات واخيه الطفل راندولف، فقد تزوجت اخته الكبرى مريم وبعدها مارتا التي تزوجت من صديقه دابني كار، وكان عليه العيش مع الصغار الذين لم يكن يشعر بالارتياح معهم لانهم لا يقدمون له ذلك النشاط الفكري الذي كان يحصل عليه من شقيقاته الكبيرات[2]، وكان موت جين هو الحدث الثالث الذي تسبب بتاخير دراسته.

(1) Boyd , Op. Cit , P.20
(2) Randall , Op.Cit , P. 41

ثانيا:جيفرسون محاميا

بعدما أمضى جيفرسون خمس سنوات في دراسة القانون، قدم في عام ١٧٦٧ للامتحان المعد للمحامين المتدربين واجتازه بنجاح ودخل المحاماة وهو في الرابعة والعشرين من عمره . ويعود الفضل الاول والاخير لدخول جيفرسون سلك المحاماة لجورج ويث الذي اخذ بيد جيفرسون عام ١٧٦٧ وقاده الى نقابة المحامين في المحكمة العامة في فرجينا[١].وعد جيفرسون في ذلك الوقت من اكثر الناس حظاً لانه تدرب في مكتب جورج ويث واخذ يعمل معه بعد منحه اجازة الرخصة، فجورج ويث كان اشهر معلم للقانون، كما كان زعيما للمحامين دخل سلك المحاماة منذ ١٧٤٦ واصبح بعد اثنتي عشرة سنة رئيسا للنقابة وهذا ما لم يحصل عليه أي محام شاب يريد التدرب في مكتب للمحاماة، لذا كان جيفرسون محظوظا لتدربه باعظم مكتب محاماة في مستعمرة فرجينا انذاك[٢] .

وعلى الرغم من ما حصل عليه جيفرسون من عمل بافضل مكاتب المحاماة في المستعمرة الا انه كان يفقد اهم صفة يتصف بها أي محامٍ عادي، الا وهي القدرة على الخطابة، فانه لم يكن خطيبا يهز جدران المحكمة بمرافعته ولا متكلما مُفوّهاً بل انه اصلا لم يكن ممن يجذبك حديثه حتى مع الناس، رغم كونه كفؤا في مجال التحري والاستقصاء . كذلك كان يقدم قضاياه للمحكمة وهي معدة إعدادا جيدا ومهيأة ومرتبة وفي صلب الموضوع وان كانت معقدة او واسعة لكنه قادرٌ على ترتيبها واختصارها،كما كان قادرا على كشف حيل المحامين الآخرين[٣] .

وعلى الرغم من نجاحه النسبي في عمله محامياً كانت عقدة الخطابة والتفوه تلاحقه دائما، فهو ليس خطيبا بليغا كباتريك هنري الذي استقطب خطابه الشهير ضد قانون الطابع [٤] الباب الحاضرين حيث وقف جيفرسون مدهوشا بما يسمع

---

(1) Jefferson ,Op.Cit, P. 4

(2) Roland S. Morris,:" Jefferson As A Lawyer" , American philosophical society , vol 87 , No . 3 (Jul. 14, 1943), P. 212.

(3) Froman, Op. Cit , P. 8

(٤) عرف خطاب باتريك هنري في مجلس المواطنين عام ١٧٦٥ بخطاب الخيانة، حيث كان هنري اصغر النواب سنا واقلهم خبرة فقد انتخب بنفس العام، لكنه ومع سكوت اغلب الأعضاء الكبار على القانون، قام وقدم بعض المقترحات طالبا من المجلس اقرارها، ولما بدا هنري يصور ظلم الضريبة بصوته الرنان انتصب

ومشدودا لكل كلمة يقولها باتريك هنري، وقد وصف جيفرسون تلك الخطابة قائلا :- "حين اقترح قانون ١٧٦٥ المشهور كنت لازال ادرس القانون في وليامزبورج، لكني حضرت المناقشة على باب شرفة من شرفات مجلس النواب وسمعت العرض الرائع لمواهب السيد هنري ذلك الخطيب الشعبي البارع . لقد كانت موهبة عظيمة فعلا، واني لم اسمع ابدا خطابا مثل خطابه من أي رجل اخر . وفي ذلك اليوم بدا لي انه يتكلم مثلما كان يكتب هومر"[١]، ويبدو ان جيفرسون كان يود لو انه محل باتريك هنري او انه يتكلم مثله، لكن ذلك ما لم يستطع جيفرسون فعله ابدا .

عموما عمل جيفرسون محامياً واستطاع الحصول على القضايا، فقد تولى في سنته الاولى (٦٨) قضية، ولمدة اربع سنوات لاحقة ازدادت اعماله القانونية وقضاياه بصورة كبيرة، ففي السنة الثانية عمل مستشاراً قانونياً باكثر من (١١٥) قضية في المحكمة العامة وفي عام ١٧٦٩ قدم ١٩٨ استشارة وزاد ذلك العدد عام ١٧٧٠ فوصل الى ٢٢١ استشارة قانونية حتى وصلت استشاراته القانونية (٢٣٧) عام ١٧٧١، ثم بدأ عمله بالانحدار بعد عام ١٧٧٢ خاصة بعد انهماكه في قضايا العلاقات السياسية بين المستعمرات وانكلترا حيث ملئ مكتبه بـ(١٥٤) قضية من هذا النوع. وفي عام ١٧٧٣ هبط الرقم الى (١٢٧) وخلال اشهر قليلة هبط الى (٢٩) قضية بحلول عام ١٧٧٤ حيث قرر في الحادي عشر من اب ١٧٧٤ تسليم مكتبه الى قريبه وصديقه ادموند راندولف [٢].

جميع الحاضرين بما فيهم جيفرسون واخذوا يصفقون لما يقول، وحينما قال "لقد كان للقيصر[يقصد يوليوس قيصر] بروتسه وكان لشارل الاول كروميل و ليس هناك من ضير لان ياخذ الملك الانجليزي من ذلك درسا..." هنا صاح رئيس المجلس "خيانة خيانة" وتردت اصوات بعض الاعضاء الذين رفضوا وصف جروج الثالث بانه مثل السابقين، وقالوا وراء الرئيس "خيانة – خيانة" اما هنري فلم يهتم لهم ولم يتوقف بل تابع خطابه قائلا : "دعوني انتفع بمثلهم !! واذا كانت هذه خيانة فارتكبوا اعظم ما يمكنكم منها ..."، وكان ممن اعترض على خطابه هذا، بايتون راندولف وجورج ويث، ينظر:-

Beloff, Op.Cit, P. 28; Lisitzky, Op. Cit, P. 6

(1) Jefferson , Op.Cit , P. 6
(2) Roland. Morris, Op. Cit, P. 213.

يلاحظ من خلال الفقرة السابقة ان عدد الاستشارات القانونية قد تفوق عدد القضايا الفعلية. والاستشارة القانونية تتطلب دراسة القضية دراسة متأنية لتفنيدها ووضع المقترحات الخاصة بها، بعد تقديم ما يدعمها من حجج وبراهين قانونية، وهذا ما برع به جيفرسون إذ كان يجلس ويقرأ القضايا ومن ثم يضع لها المخارج القانونية من خلال ما درسه وتعمله من كتب القانون الأصلية، اما القضايا الاخرى التي مسكها جيفرسون فكانت قضايا سياسية وتجارية فيما بين التجار الانكليز وتجار المستعمرات[1].وكلا النوعين من تلك القضايا لم يكن يحتاج الى مراقعات وخطب رنانة بل تحتاج دراسة متانية وتقديم ثبوتات منطقية من خلال كتب القانون .اما القضايا العادية فلم تكن من نصيب جيفرسون، الا ان اشهر قضية تولاها جيفرسون خلال فترة عمله محامياً كانت قضية "هاويل ضد تدرلند" التي جرى النظر فيها عام ١٧٧٠، ويعود اصلها الى عام ١٧٠٥ ففي تلك السنة ولدت امراة بيضاء طفلا من اب اسود فحكم عليها عملا بقوانين ذلك الزمان بالرق حتى تبلغ الحادية والثلاثين من العمر، وحينما كانتْ أَمَةً ولدت بنتا وبعد سنين ولدت هذه البنت طفلا فباعه اسياد امه وجدته، على انه عبد وادعى السيد الجديد ان هذا الطفل الصغير الحفيد هو عبد حتى يبلغ الحادية والثلاثين من العمر. بنى جيفرسون دفاعه على اساس عدم امكان انتقال حالة الرق الى الاحفاد او اية ذرية بعيدة وعدم اطالة مدته بناءً على القانون الطبيعي للانسان والذي بموجه ان الناس يولدون كلهم احراراً، لكن المحكمة اندهشت لسماعها شخصا يجادل في ان للعبيد حقوقاً كهذه، وخسر جيفرسون القضية لان مستعمرة فرجينا كانت تستند الى الرق وقد فزع مواطنوها عند سماعهم بدفاع جيفرسون[2]، لان ذلك سيمس النظام الاجتماعي برمته وهذا ما لم يكن الملاك مستعدين لسماعه .

كان من الطبيعي ان يخسر توماس جيفرسون قضية مثل هذه، فلم يقدم جيفرسون دفاعه على اساس القوانين الفرجينية التي كانت سائدة والتي لو عمل بموجبها لاصبح الطفل حرا إذ ان القانون يعرض على الجدة والام ان تكونا أمتيْن

---

(1) Beloff, Op.Cit, PP. 39- 40

(٢) فنسنت شيان، المصدر السابق، ص ص ٣٨ – ٣٩ .

للمدة المصرح بها من السنين[١]، فلو ركز في دفاعه على ان الطفل "الحفيد" الذي لم يأت القانون على ذكر حالته لحصل له على الحرية، لكنه اراد ان يضع حدا لانتقال حالة العبودية الى الابناء والاحفاد، وكان ذلك عملا مناقضا لقوانين المجتمع ولاسيما ان جيفرسون نفسه لديه عبيد بالولادة ؟! وهذا تناقض كبير في دفاعه.

ومع ذلك لم يخسر توماس جيفرسون عدداً كثيراً من قضاياه بل تميز بكونه محاميا ناجحا ربح العديد من القضايا، حتى ان دخله السنوي من المحاماة بلغ ثلاثة الاف دولار ويعد ذلك مبلغا ضخما في تلك الايام، علما بأن مقدار ما كان يحصل عليه توماس جيفرسون من مزارعه كان لا يتجاوز الالفي دولار سنويا[٢]، وهذا ان دل على شيء فانه يدل على ان جيفرسون كان محاميا ناجحا بعمله ولكن في القضايا التجارية والاقتصادية والسياسية، ولم يكن محاميا ناجحا في قضايا الجنايات وغيرها من القضايا العامة. وكان بعضهم يعده محاميا لامعا ترك عمل المحاماة لاجل قضايا الوطن[٣] في حين عده بعضهم الاخر دخيلاً على مهنة المحاماة فعلى سبيل المثال يقول سول كي بادوفر Saul K . Padover ان جيفرسون يمكن ان يكون "مدرسا او معلما او عالما او مخترعا او مهندسا او نباتيا، نعم يمكن ان اتقبل فكرة كهذه ولكن محاميا لا يمكن ان يكون"[٤].

بعدما اشتد السخط على اجراءات الحكومة البريطانية وعم الغضب المستعمرات الامريكية، وبدا جيفرسون ينشغل بقضايا المستعمرات والاستعداد للثورة على الحكم البريطاني، قرر ترك عمله في المحاماة في ١٧٧٤ بصورة نهائية وعزف عن مزاولة المهنة عزوفا تاما. وعندما تركها لم يعد اليها ابدا، فالواقع انه كون رأيا متواضعا عن المحامي بصورة عامة اذ قال : "مهنتهم استجواب كل شيء بدون ان تربح اي شيء والكلام بالساعات" [٥] .

---

(١) فنسنت شيان، المصدر السابق ، ص ٣٨

(2) J R. Morris ,Op.Cit, P. 9

(3) Ibid , P. 9

(4) Quoted in , Roland Morris , Op.Cit , P.211

(٥) نقلا عن، فنسنت شيان، المصدرالسابق ، ص٣٩

ثالثا: توماس جيفرسون عضوا في بيت المواطنين

كان النظام الانتخابي في مستعمرة فرجينيا مبنيا على الاختيار، ليس اختيار الناخبين لمرشح، بل اختيار المجلس للمرشح المعين، أي ان مجلس المواطنين يقوم بتعيين شخص معين عضوا في المجلس، وعلى ذلك الشخص بعد ان يعين ان يجمع اصواتا تؤيد انتخابه، وخلاصة القول ان الانتخابات كانت عملية رمزية وليست حقيقية فكل نائب معين يجلب اصحابه وأقرباءه وما يستطيع جمعه من الناس فيصوتون له وحده [1].هكذا كانت تتم عملية الانتخاب في المستعمرة، ويذكر توماس جيفرسون هذا الامر في مذكراته قائلا :- "في عام ١٧٦٩ اصبحت عضوا في الهيئة التشريعية للمجلس عن طريق الاختيار واستمريت فيها حتى أغلقت" [2].ولم يكن المجلس يختار أي شخص عادي بل كان الاشخاص المختارون من الطبقة الارستقراطية في فرجينيا وممن يتبعون الكنيسة الانكليكانية، ويجب ان يكون معروفا، واذا كان ابوه او احد اقربائه عضوا سابقا في المجلس فله الافضلية بان يصبح عضوا واخيرا "يمكن القول ان توماس جيفرسون قد ورث مقعد ابيه "[3].

على ان ذلك لم يكن بالامر السهل، فكان على النائب المعين الجديد ان يقوم بسلسلة من الاجراءات الاجتماعية والقانونية، فكان على جيفرسون ان يزور الناخبين واحدا تلو الاخر ويؤمن تأييدهم له بصورة قانونية، وحتى لا يغيب المصوت عن الاجتماع أو يتهرب من التصويت، كان على العضو ان يجعل بيته مفتوحا لمدة ثلاثة ايام وهي ايام الاقتراع، وان يقدم للمقترعين "الذي جلبهم بنفسه" طعاما وشرابا من أجود انواع الخمور، ومناما هانئا في بيته طوال مدة الاقتراع، وفي النهاية يقف امام صندوق الاقتراع بين المقترعين وقت التصويت و "ينحني شاكراً لكل من يمنحه صوته" [4]، وبالطبع كان الاقتراع علنياً وليس سرياً، وبعدما

(1) Froman , Op.Cit , P. 9
(2) Jefferson , Op.Cit, P. 5
(3) Froman, Op. Cit , P. 9
(4) Froman, Op. Cit , P. 28

اتم توماس جيفرسون هذه الامور اصبح عضواً في المجلس وهو لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره[١] .

كان حاكم المستعمرة الانكليزي هو رئيس المجلس، ولما وصل جيفرسون للمجلس كان فرنسيس فوكيير قد مات، وعين محله نوربورن بيركلي Norborne Berkeley لورد مقاطعة بوتيتورت Botetourt، الذي وصف بانه " حاد الطباع ورمز مثالي لتلك القيود النورماندية التي كانت مفروضة على الحريات في انكلترا قديما"[٢]، أي انه كان متغطرسا وشديدا في تعامله مع اعضاء المجلس ومع الرعايا الفرجينيين الذين اصبحوا تحت حكمه المباشر . وكان ذلك من سوء حظ جيفرسون الذي اصبح لاول مرة شخصا غير محظوظ، لكونه عين عضوا في المجلس مع مجيء نوربورن الحاد الطباع، كما كانت العلاقات مع المستعمرات وانكلترا مضطربة تماما، وكان شعور بعدم الثقة يتنامى بصورة قوية ضد جورج الثالث والبرلمان الانكليزي[٣] .

ومع ذلك لم تفل تلك الامور عزيمة النائب الشاب توماس جيفرسون المتحمس لتحقيق العديد من الامور السياسية والاجتماعية لبلده فرجينيا فقام مع بعض النواب بتقديم اعتراض مكتوب على فرض الضرائب، كما اعترض على محاكمة المتهمين من رجال المستعمرات بقضايا تجارية او مالية مع تجار من لندن في لندن، أذ كتب جيفرسون المذكرة بنفسه وقدمها اعضاء المجلس الى الحاكم الذي رفض تلك المذكرة وما جاء فيها بشدة[٤].وبعد يومين دعا الحاكم مجلس المواطنين للاجتماع بحضوره، ولما اكتمل عددهم قال لهم : "ايها السادة الممثلون، قد سمعت بقراراتكم الطائشة ولمست اثرها السيء، وقد اضطررت وفقا لواجباتي كحاكم ان احل مجلسكم هذا، اذهبوا فانتم الان مطرودون"[٥] .

على الرغم من عدم تحقيق رغبة النواب ومن ثم طردهم وحل المجلس، فتح ذلك الباب امام توماس جيفرسون كاتب المذكرة ليدخل السياسية ليس عن

(1) Hitchens ,Op.Cit , P. 28
(2) Froman , Op.Cit ,P: 9
(3) Beloff , Op.Cit, P. 41
(4) Lisitzkt ,Op. Cit, P. 29
(5) Quoted in , Hitchens ,Op.Cit , P. 28

طريق خطبة ما او وقفة جريئة ضد حاكم متغطرس بل عن طريق بلاغة رائعة في الكتابة، إذ اكتشف توماس جيفرسون في نفسه موهبة الكتابة الدقيقة لهوامش القوانين والاجراءات القانونية وموهبة دمج الحجج والبراهين القانونية بالسياسية وتركيب الافكار المعقدة باسلوب واضح وسلس وقد تسببت تلك المواهب في استمرار احتياج المجلس له مع تصاعد الازمة الاقتصادية والسياسية بين المستعمرات وبريطانيا التي كان يمثلها انذاك جورج الثالث[1]،وهكذا بدا توماس جيفرسون يشتهر بانه كاتب المذكرة وبدا اسمه يقترن باسماء الرجال السياسيين حتى قيل فيما بعد في اثناء الثورة الامريكية بان واشنطن هو سيفها وهنري لسانها وجيفرسون قلمها[2] .

لم يكن توماس جيفرسون من اولئك الرجال الذين يهزمون بسهولة، والذين يثيرون الامور ثم يتركونها فور تعرضهم لامر ما يردهم عن ما بدءووا به، فلم يستسلم جيفرسون للحاكم ويقبل ان يطرد دون ان يفعل أي شيء، بل توجه مع الاعضاء الذين وقعوا على المذكرة الى قاعة ابولو المجاورة لبناية الحكومة في وليامزبورج حيث اجتمعوا عدة ايام وقرورا مقاطعة البضائع الانكليزية والحث على انتهاج خطة صناعية متكاملة في المستعمرات الامريكية، وعدم شراء أي سلعة تحمل ضريبة انكليزية، أي مختومة بان صاحبها قد دفع الضريبة للحكومة الانكليزية ولم يقف عند هذا الحد بل يجب التوقف عن استيراد البضائع من الدول الاخرى بواسطة تجار او سفن انكليزية، واكد على تربية الاغنام للاستغناء عن الصوف الانكليزي[3].

لم يكتب جيفرسون ذلك البيان وحده بل كتبه كل المجتمعين بقاعة ابولو ولكن كان لجيفرسون الدور الكبير في صياغته كما كان له الدور الاكبر في تجمعهم بالقاعة، وهذا يدل على بعد نظر سياسي قوي عند توماس جيفرسون الشاب ذي الستة والعشرين عاما الذي تصرف كسياسي محنك له باع طويل في

(1) Forman ,Op.Cit , P. 9
(2) Ibid . P. 9
(3) Ibid , P. 10 ; Lisitzky , Op. Cit , P. 30

السياسة. ولكن مدة عمل جيفرسون في مجلس المواطنين لم تتجاوز خمسة ايـام[١] قدم هذا الشاب خلالها مثلا رائعا للسياسي المتحمس لقضايا بلده فلم يكن يمضـي يوم الا وجيفرسون اتٍ بمشروع ما او فكرة جديدة تخدم البلاد، وان كان آخر مـا قدمه جيفرسون قد تسبب في حل المجلس، الا ان جيفرسون كان قد قدم اقتـراحين او مذكرتين للمجلس قبل مذكرته الاخيرة، الاولى كانت مشروعا لازالة العوالـق في مجرى نهر الريفانا التي تسببت في عدم صلاحية النهر للملاحة ممـا يجعـل عملية نقل البضائع فيه مستحيلة، فاخذ جيفرسون زورقاً صغيراً محـاولا تحديـد مكان العوالق الموجودة في النهر لازالتها والنظر من احتمال وجود اسباب اخرى .وبعد ان حدد جيفرسون جميع العقبات وجد انها لا تشكل مشـكلة كبيـرة ومـن الممكن التغلب عليها، وقدم طلبا للمجلس الذي وافق على الفور، ثم بدا تنفيذ خطة لتطهير مجرى النهر مما ساعد على تقليص صعوبات الملاحة ومن ثـم تسـهيل عملية نقل المحاصيل الزراعية ولاسيما التبغ التي كانت تنقل برا الى نهر جمـيس حيث يتم نقلها الى الموانئ [٢].

واذا كانت مذكرته الاولى قد حظيت بالقبول من اغلـب الاعضـاء، فـان مذكرته الثانية قد لاقت سخطا عنيفا ورفضت بالاغلبيـة السـاحقة وكانـت تلـك المذكرة تحمل طلباً لعتق الرقيق، ولم يرد جيفرسون عتق الرقيق بالقوة او منعـه وانما طالب بتشريع قانون جديد يستطيع من خلاله مالكو العبيد عتق عبيـدهم اذا ارادوا ذلك[٣]، أي ان هذا القانون اذا ما شرع فسوف يسمح للعبد اذا ما اعتق بان يصبح حرا له ما للرجل الابيض وعليه ما عليه من حقوق وواجبات، وهذا ما لـم يكن يسمح بحدوثه ابدا من تلك الطبقة الارستقراطية المتعجرفة التي لم تكن تـرى في العبد أي جانب انساني بل تعدهم حيوانات خلقهم الله للعمل عند البيض، ويذكر جيفرسون ذلك المشروع الذي قدمه قائلا : "عملت جهدي وبشكل رئيسـي حينمـا كنت عضوا في مجلس المواطنين للحصول على اذن او تشريع قانون بعتق العبيد،

(1) David Saville Muzzey , Thomas Jefferson , New York 1918 ,P. 14
(2) Hitchens, Op. Cit, P. 26
(٣) فنسنت شيان، المصدر السابق، ص٤٠ .

والذي رفض خلال فترة الحكم الملكي والتي كانت ترفض أي فكر حر"[1].ويـذكر جيفرسون ان اللوم لا يقع على الحكم البريطاني بل على افكار الامريكـان التـي يصفها بانها"... كانت تدور بدائرة ضيقة ومحدودة بطبيعة فطرتنا باعتقادنـا اننـا تابعون للبلد الام ... "[2] .

كان مشروع القانون الذي اراد جيفرسون اقراره بداية لفلسفة سياسية اراد توماس جيفرسون تثبيتها في المجتمع الامريكي وقد اصبحت جـزءا كبيـرا مـن فلسفته السياسية التي ناضل من اجلها طويلا وحاول اغتنام أي فرصة لتثبيتها .

(1) Jefferson , Op. Cit , P. 6
(2) Ibid , P. 6

المبحث الثالث : حياته الاجتماعية

اولا : بناء مونتسليو واحتراق شادويل

تقع مونتسليو Monticello في مستعمرة فرجينيا وهي تبعد حوالي ٣٠٠ كم عن العاصمة واشنطن .ومونتسليو في الاصل اسم ايطالي يعني الجبل الصغير وقد جاءت التسمية من خلال اعجاب جيفرسون باللغات الاجنبية والايطالية بصورة خاصة، ويقع القصر على قمة الجبل الصغير الذي يبلغ ارتفاعه (٢٦٠م)[١].

وتعود فكرة بناء مونتسيلو الى ايام العطل الدراسية حينما كان جيفرسون طالبا في وليامزبورج ففي ايام العطل كان يخرج مع صديقه دابني كار ويجلسا على قمة الجبل الصغيرة، حيث قرر جيفرسون بناء بيت على قمة ذلك الجبل واخذت الفكرة تنمو في عقله يوما بعد يوم ولما كان دائم الحضور في منزل الحاكم فوكيير وكانت موضوعات البناء والهندسة الاوربية تثار للمناقشة والمقارنة مع البناء في المستعمرات الامريكية، فقد شجعه ذلك على تنفيذ فكرته في بناء ذلك البيت ولاسيما ان البنايات في فرجينيا نادرة لانهم اعتقدوا ان الطابوق يسبب امراضا وان هذا الاعتقاد اثبت عدم صحته والاوربيون يتطاولون في البنيان وان اغلب المتحدثين يختمون حديثهم بالاشارة الى كتاب فني يصف عظمة البناء الروماني وجماله لمهندس ايطالي عاش في عصر النهضة يدعى اندريا بلاديو Andrea Palladio[٢].

شرع جيفرسون في بناء مونتسيلو عام ١٧٦٨ واكمل بناءه عام ١٨٠٩ أي انه استغرق احدى واربعين سنة في بناء القصر وقد قسم المؤرخون الامريكان مدة البناء الى قسمين، القسم الاول سمي " مونتسيلو الاولى " التي امتد بناؤها من عام ١٧٦٨ الى ١٨٠١ ومنذ ذلك العام بدا جيفرسون يهدم بعض الاجزاء من القصر

---

(١) منير الماوري، قمة جبل هادئة ساعدت جيفرسون في التفكير لتاسيس دولة كبرى، جريدة الشرق الاوسط ،٨ نوفمبر ٢٠٠٦، العدد ١٠٢٠٧

(2) Lisitzky ,Op.Cit , P. 31

ويزيد غيرها بناءً على ما شاهده في فرنسا من هندسة معمارية حديثة في اثناء عمله سفيراً للولايات المتحدة فيها[١] .

حينما بدا جيفرسون في البناء بدات العوائق تظهر امامه فقد كانت التكاليف تفوق قدرته المالية كما انه كان ينفق بسخاء شديد على البناء ولذلك عانى من الديون الكثيرة[٢]. ويبدو ان جيفرسون حاول ان يجعل من مونتسليو قصرا فريدا من نوعه ليس في فرجينيا وحدها بل في المستعمرات الامريكية جمعاء .

كان مجرى العمل بطيئا فقد اراد جيفرسون وضع كل التفاصيل التي قرأها في كتاب بالاديو، لكن حدثا ما جعله يسرع في بناء " القصر " ففي شتاء عام ١٧٧٠ احترق منزل العائلة في شادويل والتهمته النيران بالكامل حينما كان جيفرسون في روزويل يحضر امسيه فلسفية، وكانت الخسارة عظيمة وفقدت عائلة جيفرسون كل شيء عدا بعض الاسرة، اما كارثة جيفرسون الحقيقية فقد كانت في احتراق مكتبته التي كانت تحوي ثلاثة الاف مجلد[٣].زيادة على خسارته لسجلاته القانونية، وقد فجع جيفرسون بنبأ احتراق شادويل وجاء في رسالة ارسلها الى احد اصدقائه:ـ"...انه نبأ خسارتي الاخيرة وفقداني لبيت امي بفعل الحريق وخسارتي كل ورقة كانت عندي في العالم وكل كتاب تقريباً بسبب هذا الحريق وحسب تقديري لثمن الكتب التي التهمتها النيران فان خسارتي فيها تقدر بمائتي جنيه استرليني وتمنيت لو ان خسارتي مادية فحسب فما كان ذلك حينئذ يكلفني اهة واحدة ولكن الذي المني على وجه الخصوص هو احتراق كتب القانون العام التي لم يبق لي منها سوى كتاب واحد كان معارا خارج المنزل اما الاوراق من كل الانواع فقد ضاعت جمعيها"[٤] .

لم يبق من بيت جيفرسون الا قيثارة تم اخراجها من وسط لهيب النار. ويذكر ان عبيد جيفرسون هرعوا لاخراج القيثارة ظنا منهم انها اثمن شيء في

---

(1) Chriskern ," Jefferson's Dome At Monticello " http : // www . Chriskern. Net / essay. html. 2009 – 7 -10 .

(2) Architecture Week. "The Orders –O1. http : // www . Architecture week. Come / topics / orders – ol . html

(٣) فنست شيان، المصدر السابق، ص٤٢

(4) Quoted in , Boyd , Op.Cit ,PP. 34-35

المنزل[١]، لذلك كان على جيفرسون ان يسرع في بناء القصر ويضاعف جهوده لاتمام العمل، ولاسيما ان افراد عائلته جميعا كانوا يقيمون في منزل وكيل العمل (المقاول)، وما ان تم بناء غرفة من الاجر حتى انتقل اليه وكان ذلك في اوائل سنة ١٧٧١ [٢].

وكان هناك سبب آخر دفعه الى الاسراع باتمام البيت وهو استعداده للزواج. وعلى الرغم من اسراعه في العمل لم ينس تلك التفصيلات الضرورية لاظهار القصر وكانه يعود لاحد ملوك العصور الوسطى، وبعد زواجه استمر ببناء القصر الذي اصبح الاول من بين منشآت معمارية كثيرة تركت اثرا عميقا في مجرى المعمار الامريكي كله اذ كان مبنيا من الاجر ومؤلفاً من طابقين، ذا اجنحة، يدخله الداخل من الامام ومن الخلف بواسطة اروقة قائمة على اعمدة وتربطه بمباني المنافع والخدمات ممرات ضيقة ويشرف القصر على منظر رائع من جبال ريدج في الغرب ومزرعة شارلوتسنيل في الوادي مباشرة في الاسفل وفي الشرق على فسحة من الاراضي الزراعية ذات الصلصال الاحمر التي كان يسميها جيفرسون منظره البحري[٣].

ومما جاء في وصف الكابتن بيكون Bacon احد معاصري جيفرسون وجاره " مونتسليو قصر على قمة جبل وهو على شكل كتلة من السكر مخروطية الشكل، وصورة القصر غاية في الروعة من الجمال الطبيعي ... والبيت يقف على مصطبة من الخشب القوي، مقامة لتصبح محيطة بالقصر من تحته ومن جميع اطرافه وفيها تجاويف لتصريف مياه الامطار والثلوج .وهناك قبو للخمور ومطبخ وغرف متعددة الاغراض، وغرف للخدم وهي متراصة بجانب واحد وتكون دافئة بالشتاء وباردة في الصيف، ومن ثم غرفة للعصائر، ثم توجد غرفة خاصة للحطب وبعدها تاتي الغرف ذات المنافع الاخرى ... وفي خارج البيت من جانبه الخلفي توجد مرجة رائعة تمتد لثلاثة ايكرات، وتجد انواع النباتات

(1) Miss Fransces M. Perry and Henry w. Elson, Famous American's series, four Great American presidents, No. I , Washington , Jefferson , Jackson , Lincoln , New York 1905 , P. 133

(2) Passos ,Op.Cit ,P. 39

(٣) نقلا عن برنارد مايو، المصدر السابق ص٦٢-٦٣

والازهار الجميلة وهي تحيط بالقصر من كل جوانبه وهناك ازهار ونباتات لم ارها او اسمع عنها في حياتي..."[1].

من خلال هذه الاوصاف يتبين لنا ان جيفرسون بنى قصرا حقيقيا كتلك القصور الرومانية القديمة او قصور ملوك عصر النهضة ولم تكن ثقافة البناء شائعة في المستعمرات الامريكية فما بالك بقصر فخم كهذا، ويبدو ان جيفرسون اراد تخليد عمله من خلال بناء هذا القصر الفريد الذي اصبح مزارا سياحيا الى يومنا هذا[2] .

(1) Quoted in, Hamilton W. Pirson, Jefferson At monticllo, New York 1862, PP. 37-38.

(٢) ورثت القصر مارثا جيفرسون بعد وفاة ابيها عام ١٨٢٦ ثم باعته عام ١٨٣١ لحاجتها المادية، الى جيمس باركلي الذي باعه بدوره الى اليهودي الامريكي اورها بي ليفي Uriah P . Levy ثم استولت عليه الحكومة الكونفدرالية في الجنوب اثناء الحرب الاهلية، بعدها اعيد الى عائلة ليفي وبقي ملكهم حتى عام ١٩٢٣ حيث اشترته مؤسسة " الاب المؤسس توماس جيفرسون شبه الحكومية، وطبعت صورة القصر على قفا عملة ورقية من فئة دولارين والوجه كان يحمل صورة جيفرسون، عام ١٩٥٣، واليوم يعد القصر متحفا تاريخيا مهما ومزارا للسواح، وتعرض في القصر لوحات جيفرسون ومصورات من وثيقة الاستقلال كما تعرض صور للويس وكلارك ورحلتهما الشهيرة لكشف الغرب الامريكي ومكتب توماس جيفرسون وساعته الجدارية التي صنعها بنفسه وغيرها من متعلقات جيفرسون للتفاصيل ينظر : http : //www. Monticello.org.

ثانيا: زواجهُ

بعد ما تعافى جيفرسون من صدمته بريبيكا باوريل وبدأ حياته من جديد محامياً ناجحاً، تعرف على إحدى الأرامل وتدعى مارثا سكيلتون Martha wayles Skelton، وهي ارملة باثورست سكيلتون Bathurst Skelton المحامي الذي توفي عام ١٧٦٨، ومارثا سكيلتون هي ابنة المحامي الثري جون وايلس John wayles الذي زيادة على كونه محامياً ممتازاً كان يملك مساحة كبيرة من الاراضي تسمى "الغابة" فيْ مدينة جارلس Charles City [١]، وكان جيفرسون قد تعرف على جون وايلس من خلال المحكمة في وليامزبورج وصار صديقاً لهُ، وفي فترة الصيف دعا جون وايلس جيفرسون لزيارة منزله الريفي، وهناك رأى جيفرسون ابنة وايلس مارثا التي وصفت بأنها ذات جمال زائد وجاذبية خارقة، زيادة على كونها بارعة بالموسيقى وكانت تأخذ دروساً عند الفنان البيرتي. ولما علم جيفرسون بالامر ذهب الى البيرتي متوسلا لكي يأخذ دورساً عندهُ[٢]. ويبدو ان جيفرسون قد هام بمارثا منذ اول وهلة وتحايل في سبيل رؤيتها مرة اخرى، حتى قرر الزواج منها .

كان جيفرسون يحترم السيد جون وايلس وقد اثنى عليهِ في مذكراتهِ قائلاً : "السيد وايلس محام ناجح ذو عمل كثير حصل عليه بجهده العظيم ومثابرته واستعداده العملي أكثر مما حصل عليه بتفوقه في علم مهنته . وقد كان رفيقاً محبوباً جداً يمتاز بالمرح والدعابة وهو مرحب به في كل مكان . وقد حصل على ثروة كبيرة ومات في ١٧٧٣ تاركاً ثلاث بنات . ولقد كان نصيب زوجتي التي آل اليها عند وفاته بعد دفع ديونه مساوياً لتركتي الخاصة ومن ثم تضاعفت سعة العيش عندنا" [٣] .

وبالعودة الى جيفرسون الشاب ذي التاسعة والعشرين عاماً من العمر نجدهُ قد بلغ طولاً يفوق عمرهُ بكثير بل يفوق المعتاد، فقد تخطى طوله ستة أقدام، وكانت

---

(1) Randall, Op. Cit , P. 62
(2) Lisitzky , Op Cit , PP. 32-33
(3) Jefferson ,Op.Cit , P. 6

أطرافه طويلة ومرتخية إلى حد ما، ولون شعرهِ يميل الى الحمرة وبشرته ممتلئة بالنمش وعيناهُ عسليتان[١] وشفتاه رفيعتان، وانفهُ وذقنه حادان بارزان، ويذكر المؤرخ كريستوفر هيتجنز بانه " اذا اردنا تشبيههُ بحيوان ما فأننا مجبرون على التفكير في ثعلب ماكر" [٢] وكان على ذلك الثعلب الماكر ان يتزوج زيجة ذات شأن حسب متطلبات الاسرة والطبقة الاجتماعية ينتمي اليها وقد فعل ذلك.

وقد ذهب العديد من خصوم جيفرسون السياسيين والمؤرخين الى ما ذهب اليه كريستوفر هيتجنز بأن زواج جيفرسون من مارثا كان لغاية مصلحة مادية ولاسيما بعد ما ورث جيفرسون حصتها من أبيها الذي توفي بعد زواجهما بعام، فقد ورث نحو ثلاثة الآف ومئة هكتار من الاراضي الزراعية[٣]. ولكن اذا اردنا إنصاف الرجل فهناك عدة حقائق تظهر عدم صحة هذهِ الفرضية، أولها ان شخصية جيفرسون عكس شخصية والده الاستغلالية فلم يكن وصولياً، ولم يكن يرغب بالزواج بناءً على مصلحة مادية وقد رأينا ذلك بوضوح حينما اراد الزواج من ربيكا باوريل، ليس لكونها غنية بل لكونه قد أحبها، هذه الحقيقة الأولى، اما الثانية فقد كان جيفرسون رجلاً متوهج المشاعر ولاسيما في ما يتعلق بالنساء الجميلات وهو يقع بالحب منذ الوهلة الأولى، فنجدهُ يقع في غرام انسة جميلة اسمها سالي نيكولاس Sally Nicholas بمجرد حضورهِ أمسية فلسفية في روزويل Rosé well، ويسارع بالكتابة الى جون بيج عن مشاعره نحوها قائلا:ــ"أن الفلسفة التي تخرج من الشفاه الحمر تأتي بسحر لا يقاوم" [٤] حتى انهُ كان يقع في غرام زوجات أصدقائه، بمجرد النظر إليهن والحديث معهن فقد حاول إغواء زوجة صديقهِ جون واكر John walker بعدما تهيأ له منها القبول لكنها صدته ومنعتهُ[٥] أما الحقيقة الثالثة والأخيرة فهي استقامة جيفرسون بشكل كبير بعد زواجهِ من مارثا الذي استمر لمدة عشر سنوات فخلال هذهِ المدة لم يحدث ان

(١) اشارت بعض المصادر الى ان عيناهُ رماديتان، ينظر : برنارد مايو، المصدر السابق، ص٣٧

(2) Hitchens , Op.Cit , P. 22

(3) Randall , Op . Cit , P. 63 .

(4) The Lief and Letters of Thomas Jefferson from Original Manscripts , New York 1858 , P. 194

(5) Hitchens , Op . Cit , P . 20 .

احب جيفرسون أمرأة أخرى ولم يتحرش بأخرى بل أنهُ أحب زوجتـــه وحـــرص على بيت الزوجية. ويبدو أنهُ كان يغار عليها كثيراً فلم يتـــرك أي خطـــاب مـــن خطاباته لها او التي ارسلتها هي اليه، ففي اوراقه وكتاباته لا تجد ذكراً لزوجته الا خطابا أرسلهُ الى احد اصدقائهِ يعتذرفيه عن عدم ردهِ بسرعة ويضيف فيه مأساتهِ عند وفاة زوجتهِ ومما جاء في ذلك الخطاب "...إن تاريخي كان ينبئ بأن يكـــون سعيداً قدر ما كنت أتنمى لو ان احبابي كانوا خالدين . ولكن جميـــع الـــنعم التـــي ساقها إلي الله قد كدرتها الخسائر المنزلية . فمن بين ستة أطفال خســـرت أربعـــة وفي النهاية خسرت أمهم ... أنا نفسي أحاول الخروج من ذهـــول العقـــل الـــذي صيرني ميتاً بالنسبة للعالم كالموت الذي سبب فقدانها ذلك الذهول ... فقـــد كـــان نظام حياتي قبل تلك الكارثة قد تقرر وقد بنيت كل آمال السعادة في المستقبل على حياتي المنزلية والأدبية ولكن حادثة واحدة قوضت جميع خططـــي وتركـــت لـــي فراغاً لا أجد في نفسي من الهمة ما يكفي لملئه"[1] .

تزوج جيفرسون من مارثا سكيلتون في الاول من كانون الأول عـــام ١٧٧٢ م وتم الزواج في منزل والدها . ولما اتى الشتاء مبكراً رحلا الـــى قصـــرهما فـــي مونتسليو، حيث كانت الثلوج تغطى الطرقات لدرجة ان العربة لم تتمكن من السير بعيداً مما اضطرهم لركوب الخيل لمسافة ثمانية أميال حتى وصلا مونتسليو، التي لم يكتمل من بناؤها بعد، اذ لم يُبْنَ سوى غرفة واحدة أصبحت تعرف فيمـــا بعـــد بغرفة شهر العسل. وكانت هذهِ بداية أسعد سنوات في حياة جيفرســـون إذ تـــزوج صديقهُ دابني كار من مارثا أخت جيفرسون وعاشا بالقرب منهم، وكانوا يقضـــون اوقاتاً يسودها المرح فطالما عزفوا الموسيقى فكان جيفرسون يعـــزف علـــى آلـــة الكمان وكانت مارثا تعزف على البيانو، الذي اشتراهُ لها جيفرسون مـــن انكلتـــرا [2].لقد كانت حياة توماس جيفرسون الخاصة خلال السنوات العشر (من ١٧٧٢ – ١٧٨٢) حياة الوجيه الشاب المتعددةِ الجوانب، أو السيد المثقف من فرجينا الـــذي كان مهندساً ومزارعاً وكاتباً وهاوياً لعلم الفلك[3]. وخلال تلك المدة قـــدم اعظـــم

(1) The lief and letters of Thomas Jefferson, Op. Cit , PP. 321-322 .
(2) Passos, Op. Cit, PP. 39 – 40

(٣) برنارد مايو، المصدر السابق، ص٦٢

انجازاته السياسية والفكرية فقد قدم عملهُ "نظرة موجزة لحقوق امريكا البريطانية" سنة ١٧٧٤ وقيامه بكتابة وثيقة الاستقلال عام ١٧٧٦ والمباشرة بكتابه ملاحظات عن فرجينيا عام ١٧٨١، وهذا يدل على ان فترة زواجه كانت فترة نقاء وصـــفاء ذهني وراحة نفسية استطاع فيها تقديم هذهِ المنجزات .

خلال فترة زواج دامت عشر سنوات أنجب توماس جيفرسون من مارثا ســيكلتون ستة أطفال وهم كالأتي :-

١- مارثا جيفرسون ولدت في ٢٧ / ٩ / ١٧٧٢ .

٢- جان راندلوف ولدت في ١٧٧٤/٤/٣ وتوفيت في ٩ / ١٧٧٥ .

٣- ولدٌ ولدميتاً في عام ١٧٧٧ .

٤- ماري جيفرسون ولدت في ١٧٧٨/٨/١ وتوفيت في ١٨٠٤/٤/١٧ .

٥- ابنة لم تسم ولدت في ٣ / ٩ / ١٧٨٠ وتوفيت في ١٧٨١/٤/١٥ .

٦- إليزابيث جيفرسون ولدت في ٨ / ٥ / ١٧٨٢ وتوفيت في عام ١٧٨٤[1].

لم يعش من ابناء جيفرسون سوى بنتين مارثا وماري وقد توفيت ماري وهـــي بعمر ست سنوات اما مارثا فقد عاشت طويلاً وورثت أباها فيما بعد .

(1) Nock, Op. Cit, PP. 32 – 33.

ثالثا: توماس جيفرسون وسالي هيمينغز

سالي هيمينغز Sally Hemings هي ابنة إليزابيث هيمينغز رقيقة(أَمَة) جون وايلس والد مارثا زوجة توماس جيفرسون، واليزابيث هي ابنة غير شرعية للقبطان الانكليزي (هيمنغز) الذي كان يعمل بنقل السلع مابين انكلترا و وليمامزبورج، وقد اشتراها جون وايلس وأنجب منها سالي وعند موتهِ عام ١٧٧٣، انتقلت التركة الى ابنتهِ مارثا، وكانت، سالي الأخت غير الشقيقة لمارثا، ضمن تلك التركة[١].وقد اكدت العديد من المصادر التاريخية حقيقة كون سالي هي ابنة جون وايلس[٢]، وكونها أَمة ملونة (أي انها غير سوداء) وتحمل العديد من الصفات الشكلية للبيض[٣]. عاشت سالي بعد موت والدها مع أختها غير الشقيقة مارثا في مونتسليو وكانت أشبه بالوصيفة لأختها الكبيرة ومربية لأطفالها، ولقيت سالي معاملة طيبة من جانب أختها وزوج أختها والاقارب الآخرين، ولم تُعامل على أنها أَمة بل كانت محترمة لقربها من مارثا و "لجاذبيتها الأخاذة"[٤]، وبدأت قصة سالي عند موت أختها مارثا، فأصبحت من الناحية القانونية ملكا لتوماس جيفرسون، وبقيت في مونتسليو حتى وفاة ابنة جيفرسون الصغرى (لوسي) حينها طلب جيفرسون من اقربائه ارسال ابنته الوحيدة بولي الى فرنسا حيث اصبحت هناك وحيدة بعد وفاة اختها فخشي جيفرسون من ان يغتالها المرض كما اغتال اختها، فأرسلت بولي برفقه سالي الصبية ذات الاربعة عشر عاماً الى فرنسا[٥] .

كان من المفروض ارسال بولي بواسطة احدى الخادمات الأكبر سناً وتدعى اليزابيث، إذ تقرر ان تعود على الفور بعد اتمام مهمتها، لكن حالة اليزابيث الصحية لم تكن تسمح لها بالسفر، فقرر آل إيبيس Aybies اقرباء جيفرسون ارسال بولي مع سالي، فأكملت المهمة بنجاح، لكنها لم تعد الى الديار على الفور

---

(1) Madison Hemings , Life among the Lowly , No . 1 , "pik county (Ohio) Republican , March 13 , 1873 ", E – copy , http : \\ www . pbs . org \ wgbh \ pages \ frontline \ shows \ Jefferson \ cron \ 1873 , htm .

(٢) لم نجداي اعتراض على هذهِ الحقيقة من قبل جميع المؤرخين الذين تناولوا قصة سالي هيمينغز

(3) Fawn Brodie , Thomas Jefferson , Norton 1974 , P. 353

(4) Hitchens , Op . Cit , p . 67

(5) Pearl M . Graham , "Thomas Jefferson and sally Hemings ", The Journal of Negro histors , vol . 46 . No . 2(APR , 1961) p . 91 .

فقد بقيت في فرنسا بناء على رغبة جيفرسون، الذي صرف خدمهُ، وابقاها وكان يعطيها أجراً ثابتاً، كما يعطي أخاها جيمس الذي قدم معهُ الى باريس أجراً ثابتاً ايضاً، زيادة على حصوله على المال من الفندق الذي كان يسكن فيه جيفرسون، حيث كان جيمس يعمل طاهياً، ومن المعلوم ان جيفرسون لم يسبق ان أعطى أجوراً منظمة الى أي من رقيقه[١].

ظلت سالي هيمنغز في فرنسا لمدة ٢٦ شهراً ووفقاً لمذكرات جيمس ماديسون[٢] ابن سالي من توماس جيفرسون، فأنها تعلمت القراءة والكتابة في فرنسا وكانت تعيش حرة وليست أَمَة، وأن جيفرسون قد تزوجها سراً ووعدها بأعتاق أولادها منهُ قبل وفاته ومعاملتهم معاملة خاصة[٣]. ورواية ماديسون قريبة جداً من الحقيقة فقد الغت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ الاسترقاق في كافة الاراضي الفرنسية وعبر البحار كذلك، كما ان الاسترقاق لم يقر في فرنسا قبل الثورة بوصفه قانوناً كما هو الحال في المستعمرات الامريكية الامر الذي كان يعلمهُ جيفرسون جيداً ووفقاً لما وصفت به سالي من ذكاء وفطنة فأنها ستعرف بأمر الاسترقاق عاجلاً ام أجلاً لذلك فضل جيفرسون المبادرة بنفسه وأخبرها بأنها حرة واعطاها أجوراً مقابل عملها[٤].والامر الاخر هو ان جيفرسون كان يرسل ابنته الى المدرسة في فرنسا وكانت سالي ترافقها فلابد أنها تعلمت من خلال مرافقتها ابنتهُ[٥]، أو كونه أعطاها حرية التعليم، وأخيراً فأن جيفرسون قد بَر بوعده لسالي واعتق أولادها بطريقة أو بأخرى، فبعد ان أنجبت سالي ستة أطفال لتوماس جيفرسون، توفي منهم اثنان وهما طفلان، وعاش الاربعة الاخرون ردحاً من الزمن وهم كل من :-

---

(1) Hitchens, Op. Cit, P. 67.

(٢) جيمس ماديسون : هو ابن سالي من توماس جيفرسون ولدفي مونتسيلو عام ١٨٠٥، واعتقه توماس جيفرسون (والده) عام ١٨٢٦، رحل الى اوهايو بعد وفاة والدته ١٨٣٥ وعمل نجاراً ثم مزارعاً كتب مذكراتهِ الصحفي آس . آف وتيمور S . F . Wetmore، عن طريق الاملاء (أي كان جميس ماديسون يتكلم والصحفي يكتب ما يقول) ونشرها في اوهايو عام ١٨٧٣، توفي جميس ماديسون رجلاً حراً عام ١٨٧٧، ينظر :

http : \\ www. pbs . org \ wgbh \ pages \ front line shows \ Jefferson \ \ cron \ 1873 \ march . htm

(3) Hemings , Op . Cit .68

(4) Hitchens, Op. Cit, P . 67

(5) Graham, Cp . Cit , P. 92

١- هارييت همينغز الأولى (١٧٩٥-١٧٩٧) .
٢- بيفرلي هيمنغز (١٧٩٨-١٨٧٣) .
٣- طفلة ولدت في ١٧٩٩ وماتت بنفس السنة .
٤- هارييت هيمينغز الثانية (١٨٠١ - ١٨٦٣) .
٥- ماديسون هيمينغز (او يسمى جيمس ماديسون) (١٨٠٥-١٨٧٧) .
٦- أستون هيمينغز ويدعى توماس أستون (١٨٠٨-١٨٥٦)[١] .

وجميع اولاد جيفرسون من سالي أصبحوا أحراراً، ففي عام ١٨٢٢ فر كل من بيفرلي ولحقت بهِ اختهُ هاريت، ولم يرسل جيفرسون وراءهم او يحاول البحث عنهم، بل ارسل لابنته هارييت مبلغ خمسين دولاراً بيد احد المقربين لهُ من اجل رحلتها وهذا يدل على انهم لاذوا بالفرار بناءً على اتفاق مسبق ورضا من قبل جيفرسون. اما ماديسون وأستون فقد أعتقهم جيفرسون في وصيتهِ، وفي تعداد عام ١٨٣٠ صُنّف ماديسون وأستون وبيفرلي على انهم من البيض[٢] .

وقد رحل بيفرلي الى واشنطن وتزوج من امرأة بيضاء من الطبقة الارستقراطية في ميريلاند وانجب منها ولداً وبنتاً، وهارييت رحلت الى واشنطن وتزوجت رجلاً ابيض وعاشت سعيدة معه وأنجبت العديد من الأطفال، وكلٌ من أولاد بيفرلي وهارييت كانوا من البيض الأصحاء ولم تبد عليهم أي آثار للأصول الأفريقية . اما أستون فقد تزوج من امرأة ملونة ورحل الى أوهايو وانجب ثلاثة أطفال . وأخيراً ماديسون الذي تحدث عن نفسه قائلاً "... اما أنا فأسمي ماديسون ودعيت بهذا الاسم من قبل زوجة الرئيس ماديسون قبل ان يصبح رئيسا - حيث زارت مونتسليو مع زوجها، وفي اثناء وجودها ولدت فاقترحت على أمي ان تسميني ماديسون ووافقت أمي ... ولدت في مونتسليو بقصر أبي بمقاطعة البمبارل عام ١٨٠٥"[٣]. ويستمر ماديسون في سرد مذكراته عن امه واخوته وابيه الذي يقول عنه انه عالم ومثقف وذو صحة جيدة وهادئ وغيرها من الامور،

(1) Annette Gordon – Reed, Thomas Jeffer son and sally Hemings : An American contriversy , charlottesville : university of Vrirginia press , 1997 , P. 220 .
(2) Ibid, P. 60 – 62 .
(3) Hemings , Op – Cit , P . 3

وحين يصف مشاعر والده نحوه ونحو اخوته يقول ان أبـاهُ – جيفرسـون – لـم يُشعرهم يوما بأبوته على عكس ما كان يخرجه من مشاعر حين يرى اولاد ابنتـه مارثا، وانهم ظلوا دائماً بالنسبة لهُ اولاد امرأة من العبيد . وكان يحز بنفسهِ دائمـاً عدم إنجابه اولاداً من امرأة بيضاء حرة[١] .

وعلى الرغم من أن جيفرسون لم يمنح اولاده من سالي الابوة الحقيقية هو في الوقت نفسه لم يعاملهم معاملة قاسية أو أي معاملة تدل على أنهم من العبيـد، بـل حرص على تعليمهم مهنا تنفعهم في حياتهم المستقبلية دُرّب ماديسـون واسـتون كنجارين على يد عمهم جون، والذكور الثلاثة تعلموا العزف على الكمان، وبيفرلي كان يعزف في رقصات حفلات مونتسليو، اما إستون فكان ماهراً بما فيهِ الكفايـة لكسب العيش من عالم الموسيقى[٢] .

ومهما يكن من امر فأن ابوة جيفرسون لأولاد سالي بل علاقتهُ بها، كانـت موضوعات صحفية تُثار بين حين وآخر وبقيت لسنوات طويلة تثير الجـدل بـين المؤرخين الامريكان، الذين لم يجدوا دليلاً على صحة ما يقال،ولاسيما أن إثـارة ذلك الموضوع لأول مرة كان بسبب نفعي بحت، إذ قام الصحفي جـيمس كالنـدر James T . Callender المحرر في جريدة فرجينيا بنشر مقال بعنـوان "سـجل ريجموند Richmond Recorder" في الاول من ايلول عام ١٨٠٢ حينما كـان جيفرسون رئيساً للولايات المتحدة في دورتهِ الأولى، وقد قام بنشر المقال بعد مـا فشل في محاولتهِ لابتزاز توماس جيفرسون لتعينيه في منصب مـديرمكتب بريـد ولاية فرجينيا، وقد اورد كالندر قصة سالي وان جيفرسون قد ابقي عليها لسنوات طويلة كي تكون خليلته. وقد استغلت الصحف المعارضة لجيفرسون هذا المقـال فقامت بنشر روايات عديدة وأدخلت عليها رسوماً كاريكاتيرية لكن جيفرسون لـم يرد عليها[٣]، مما دفع كالندر، الذي وصف بكونهِ مهووساً بالكحول والجنس، بنشر

(1)Hemings , PP . 4 -5 .
(2) Gordon – Reed , Op . Cit , PP . 216 – 217
(3) David N . Mayer "A . Denials by Jefferson Himself and virtually All His Contemporaries" , The Thomas Jefferson – Sally Hemings Mythandthepoliticization of Americanhistoryohtt : \\ www . ashbrook . org \ articles \ Mayer – Hemings . html , Apr . 19 . 2001 .

العديد من المقالات الاخرى التي أشار فيها الى سالي بـ "العاهرة" وإلى أبنائها بـ "القطيع" وإلى جيفرسون برجل شهواني لدرجه انهُ كان يستدعي سالي من المطبخ او من حضيرة "الخنازير" ليفعل فعلتهُ[1].

والحقيقة ان ما كتبه كالندر لم يجد ارضاً خصبة بسبب العدد الكبير من المعارضين لقصة سالي، لانه رجل سكير يبحث عن الاموال عن طريق اختلاق قصص وابتزاز الناس الشرفاء، ولذلك فأن مقالاتهِ ليس لها أي وزن او قيمة تاريخية تذكر. وعلى هذا الاساس استخدم كالندر ليكون حجة للذين ينفون العلاقة بين جيفرسون وسالي، والذين لم يعترفوا بمذكرات ماديسون هينمنغز، ولعل ابرز هؤلاء هو دوماس مالون Dumas Malone ابرز من كتب عن سيرة جيفرسون في القرن العشرين، الذي قال "ان ادعاء ماديسون هيمنغز بأنه ينحدر من سلالة سيدهُ لا يعد بأي حال أفضل من شهادة النسب المطبوعة على الوثائق العديدة الخاصة بالخيول، التي تجدها ملصقة على الأعمدة الخشبية داخل اسطبلات الخيول في فصل الربيع . مهما تكن سلالة الخيل وضيعة او مجهولة الأصل، فأن مالك الخيل يلفق لها أصلاً مشرفاً"[2]. ومن خلال نصهِ هذا تتضح عنصريتهُ الشديدة ضد السود اولاً الذين وان كانوا من أصل أبيض فهم ليسوا أحسن من الخيول، كما ان ماديسون الذي ليس لهُ أصل حسب رأي مالون، حاول الصاق نفسهِ بسيدهِ جيفرسون، والملاحظ أن مالون يتكلم بالحس نفسه الذي تكلم به ارستقراطيو فرجينيا ضد المشروع الذي قدمهُ جيفرسون لمجلس المواطنين لأعطاء السيد حق اعتاق عبيدهِ عام ١٧٦٩.وليثبت مالون حجتهُ استند الى مقولة جيفرسون عام ١٨١٤ بأن "امتزاج الاعراق الملونة – البيض والسود – ينتج عنه التدهور لمن لا يحب وطنه، وأي محب للتمييز في شخصية الإنسان لا يمكنهُ الموافقة على ذلك الاختلاط ببراءة"[3]. ما يريد جيفرسون قولهُ ان امتزاج السود والبيض قد ينتج عنهُ جنس ثالث قد يؤدي الى تفتيت المجتمع، الذي دافع عن تكوينهِ العرقي والذي يجب

(1) Qouted in, Hitchens, Op. Cit, P. 72.
(2) Quoted in , Ibid , PP. 72-73
(3) Quted in , John Chester Miller , The wolf by the Ears : Thomas Jefferson and slavery , New york 1977 , P. 207

ان يبقى جنساً واحداً وهو الابيض، اما السود والأفارقة فيجب ان يعودوا الى ديارهم[١] . ومن هذا المنطلق رفض مالون ان يكون جيفرسون أباً لأي من اولاد سالي أو انه أصلا قد أقام علاقة معها، لان ذلك لا يتماشى مع مبادئهِ التي اعلنها[٢] .

هذا فيما يتعلق بالمؤرخين الذين تناولوا موضوع سالي، أما باقي من كتب عن جيفرسون فلم يشر اغلبهم الى قصة سالي لا من قريب ولا من بعيد وحتى حينما يأتي ذكر وصول ابنتهِ بولي الى باريس فأنهم لا يذكرون اسم المرافقة التي معها[٣]، وقد حاول المؤرخون الامريكان على امتداد قرنين من الزمان طمس تلك الحقيقة التأريخية بحجج واهية وغير صحيحة، لإتمام صورة جيفرسون "المقدسة" والتي لا تشوبها أي شائبة لأنهُ "الأب المؤسس" وواضع وثيقة الاستقلال والرئيس الثالث والفيلسوف الامريكي العظيم. لكن ذلك لم يستمر ولاسيما بعد بروز بعض المؤرخين ذوي الافكار الحرة مثل انيت جوردن رِيد التي جاء كتابها بعنوان "توماس جيفرسون وسالي : القصة الامريكية المثيرة للجدل" الذي سلطت فيهِ الضوء على الحقائق التاريخية المطموسة، ونظرت الى الموضوع من جهتين هما جهة جيفرسون وجهة سالي تلك الأَمَة البيضاء الشابة الجميلة والذكية، حسبما وصفها الخصوم. واشارت انيت جوردن الى ان كل المؤرخين قد رفضوا حتى مجرد التفكير في سالي وهل أنها تملك عقلاً خاصاً بها، أو انها قدرت بعقلها هذا أن تتخذ قراراً بإقامة علاقة مع رجل واسع الثراء وشهير وربما – ساحر – وذي جاه، ونحن لا نزال – كما تقول – نعجز عن منح الإماء السود الخرساوات صوتاً – باللغة الاصطلاحية – أو ان نعترف بحقهن في ذلك.ولكن لسوء الحظ، فأن سالي ما تزال خرساء فالمجموعة الوحيدة من الرسائل التي ربما يكون جيفرسون قد كتبها لها هي وحدها من بين مجموع رسائلهِ الضخمة، قد ضاعت، فنحنُ لا نعرف أكانت متعلمة "الأمر الذي يبدو احتماله وارداً" اوكانت تتحدث الفرنسية

(1) Miller,Op.Cit,P. 207
(2) Gordon- Red, Op. Cit, P . 217.

(٣) ينظر على سبيل المثال :
Chinard, Op. Cit, PP. 164 – 165.

"الأمر الذي يبدو احتماله أكبر"، ان كل ما لدينا هو شهادة ابنها ماديسون بأنها في أثناء وجودها في باريس انتزعت من جيفرسون وعداً بأن يعتق أي ابناء ينجبهم منها بمجرد ان يصلوا للسن القانوني، والدليل الوحيد على ذلك الوعد هو انهُ اعتقهم جميعاً بالفعل، ولم يعتق سواهم من العبيد ابداً، أضف الى ذلك ان حفيد توماس جيفرسون من ابنته ذكر ان جميع اولاد سالي كانوا يشبهون توماس جيفرسون، وان واحداً من الاولاد كان "يشبههُ وكانهُ هو"(١) .

وقد اعتقد بهذهِ الحقيقة كذلك المؤرخ الامريكي كريستوفر هيتجنز Christopher Hitchens ، الذي بدا مقتنعا اقتناعاً تاماً بأن جيفرسون قد احب سالي حباً عنيفاً لكونها جميلة جداً وتشبه الى حد بعيد أختها مارثا – زوجة جيفرسون المتوفاة –، لذلك فلا يمكن وصف علاقة سالي بجيفرسون بعلاقة السيد بالعبد بل أنها علاقة رجل بامرأة، وجاء في معرض ردهِ على دوماس مالون "لقد صور جيفرسون في صورة مثالية اعتبرت معياراً لمدة طويلة، وربما تظن ان ذلك المؤرخ – يقصد مالون – كان يجد صعوبة في استيعاب مسالة العلاقة الجسدية من الأساس، حيث مكانة سالي بالكاد يمكن اعتبارها عبده مملوكة ومن حيث نسبها فقد كانت السلالة التي تنحدر منها اضافة الى مظهرها أقرب ما تكون لبياض البشرة ..."(٢) أي ان مالون اعتبر ان تلك العلاقة فيما بين جيفرسون وسالي مستحيلة، فلا يمكن لابيض ان يقيم علاقة مع سوداء ولا يمكن التفكير بذلك، خاصةٍ وان ذلك الابيض هو رئيس الولايات المتحدة !!، ويدافع هيتجز عن سالي باعتبارها خلاسية "أي ان احد اجدادها الاربعة كان زنجيا" وبما انها سُجلت في الاحصاء الرسمي لتعداد السكان عام ١٨٣٠، على انها بيضاء فيجب اعتبارها"واحدة من الأمهات المؤسسات لجمهوريتنا"(٣).

ان علاقة توماس جيفرسون بِسالي هينمغز، علاقةٍ حقيقية لا تقبل الشك وفق المعطيات المذكورة آنفاً ، فأن توماس جيفرسون لم يقم بعتق أي من عبيده الا ابناء سالي وسمح لهم بالمغادرة، بل انهُ اعطى ابنته من سالي مبلغ خمسين دولاراً حينما لاذت بالفرار، وهذا مبلغ كبير في تلك الايام. ويمكن أيضاً ان نتساءل هنا

(1) Qouted in , Reed , Op . Cit , PP . 218 – 219
(2) Qouted in , Hitchens , Op . Cit ,P 68 .
(3) Quoted in , Ibid,P. 68

عن عدم زواج جيفرسون بعد وفاة زوجتهِ مارثا وهو قادر على الزواج مادياً ومعنوياً ؟ فهل هو إخلاص لمارثا ؟ واذا كان ذلك صحيحاً فما قصتهُ مع الانكليزية ماريا كوزواي Marya cosway التي اقام معها جيفرسون علاقة غرامية في اثناء اقامتهِ في باريس، ونجد في احد خطاباتهِ لها كلاماً لا يليق بمواطن عادي وليس بسفير للولايات المتحدة او أحد عظمائها[1]، واللافت للنظر ايضا ان تلك العلاقة انتهت عندما بدأ جيفرسون بصرف مخصصات مالية لسالي عام ١٧٨٨ . فأذن لم يكن جيفرسون مخلصاً ابداً لمارثا التي أحبها فعلاً، ولكن بعد موتها أصبحت ذكرى فقط، وهذا شيء طبيعي، وغير طبيعي هو عدم الزواج مع القدرة، وهذا ان دل على شيء فيدل على حبه لسالي وعلاقتهِ القوية بها .

واخيراً فأن هناك سؤالاً يطرح نفسه بقوة، وهو ما الداعي لنفي تلك العلاقة؟ واذا ما طرحت هذا السؤال ستجد نفسك مجبراً على ان ترد عليه بأن السبب عنصري ليس الا، إنها عنصرية وعنجهية تلك الأقوام التي استوطنت الولايات المتحدة، ضد سود افريقيا التي مازالت مستعرة بشكل او بآخر، والا فلو كان جيفرسون قد اقام علاقة ما مع امرأة بيضاء ومن نسب ابيض لما اعترض عليها كتاب التاريخ الامريكي بل انهم حينها سيقولون إنها الديمقراطية والحرية. وهذا حقيقي فَلا تجد أي اعتراض على محاولة جيفرسون التحرش بزوجة صديقهِ جون واكر حينما كان في وليمامزبورج، وليس هناك أي اعتراض ايضاً على علاقتهِ بمدام كوزواي،ولاسيما ان السيدتين كانتا متزوجتين وربما لو كانت سالي متزوجة واقام معها جيفرسون علاقة لاعترفوا بالامر ، والسبب الآخر هو عدم الرغبة في الاساءة لسمعة جيفرسون الذي يعد من الاباء المؤسسين.

---

(١) كُتب الخطاب في ١٧٨٨/٤/٢٤، وكانت يدهُ مكسورة نتيجة قيامة بمحاولة عبور سياج عالي لإبهار مدام كوزواي، مما اضطره للكتابة باليد اليسرى، وقد جاء في ذلك الخطاب : ((في ستراسبورج، جلست لأكتب إليك، ولكن لم يسعني التفكير في شيء سوى الأنوف الطويلة البارزة، مثل انف ديجو، وانف سلوكينبير جيمس ومسير اهالي ستراسبواج ليشاهدوا الرجل ذو الأنف، فلو كنت كتبت إليك من ذلك المكان، لكان ذلك استكمالاً لما كتبهُ ستيرن Sterne عن الأنوف، وانا اعلم ان الطبعية لم تؤهلني لأخلف ستيرن ...)
Qouted in ,Thomas, Jefferson, Head and Heart Letter,
http://www.pbs.org/jefferson/archives/documents/ih195811z.htm

رابعا: قضية الحمض النووي DNA

بعد نشر الدراسة المعمقة التي اجرتها الباحثة انيت جـوردن عـن جيفرسـون وسالي، عام ١٩٩٧، قامت لجنة مكونة من ثمانية علماء اوربيين مختصين بعلـم الوراثة[١]، وبقيادة الاستاذ الانكليزي اوجين فوستر Eugene A Foster، بدراسة الحمض النووي (DNA) لتوماس جيفرسون لمحاولة معرفة حقيقة علاقتهِ بسـالي وحقيقة نسب اولادها، ولاسيما بعدما ثبت علمياً نجاح الفحص النووي في معرفـة الكروماسومات الوراثية (البصمة الوراثية) إذ ان معظم الامـريكيين قـد سـمعوا بموضوع الفحص النووي (DNA) خلال محاكمة في عملية جريمـة قتـل عـام ١٩٩٤،اذ قرأوا في كل الصحف الامريكية بأن الـ DNA هو فحص دقيق تصل درجة دقتهِ في كثير من الاحيان الى ٩٩.٩٩%[٢] . وقـد درس العلمـاء تـأريخ الاسرة، ووضع أوجين فوستر قاعدة تاريخية لدراستهِ العلمية، فأخذ برأي مارثـا جيفرسون ابنة الرئيس التي كانت تقول ان ابناء سالي الاخيـرين ومـن ضـمنهم إستون اخر ابنائها هم اولاد اما صومائيل Samuel او بيتر كـار peter Carr ابني أخت جيفرسون[٣] وقرر فوستر دراسة الحمض النووي لذريـة صـومائيل وبيتر كار ومقارنتها مع الحمض النووي لذرية سالي هينمغز وابنها أستون .

ان السبب الذي دفع فوستر ليجعل من ابناء أخت جيفرسون مادة لدراسته، هـو عدم وجود خط ذكور لتوماس جيفرسون لكونهِ لم ينجب ذكراً معترفاً به، ومن ثـم فلم يكن هناك DNA موجود لجيفرسون كي يتم تحليلهُ لذلك عمد فوستر الى أخـذ عينات من دماء الابناء الذكور المنحدرين من راندولف أخي توماس جيفرسـون ومن ابناء عمهِ فيلد ليقارن في النهاية بين استون همينغز وابناء أخت جيفرسـون وابناء أخية[٤]، أي ان فحصهُ اعتمد على ثلاث عينات رئيسـة، وان فحصـه لـم يصمم ليحل محل الحمض النووي لتوماس جيفرسون، وبعبارة أخرى ان النتـائج

(١) هم كل من : M . A. Jobling, P.G. Taylor, P.Donnelly, P.de. Knijff, Rene Mieremet, T. Zerjal , C.Tyler – Smith

(2) Kevin Mane, DNA Test Basks in Simpson Spotlight, USA Today News Papear, Des. 2, 1994.

(3) Eugene A. Foster , and others , Jefferson fathered slaves last child , Nature Macm – illan , vol 396 , 5 November, 1998 , P. 27.

(4) Foster, Op. Cit, P. 27.

التي ستظهر لا يمكن ان تطبق على توماس جيفرسون نفسهِ كفحص جنائي وانما ستقارن مع فحوصات اخيه وابناء عمومتهِ كفحص جنائي لانهم من الجد نفسه ، فأذا كان ابناء سالي يحملون الكروموسوم Chromsome نفسه الذي يعود لابناء اخيه وعمهِ فأنهم من ثم من الاسرة نفسها، اما إذا كانوا يحملون الكروموسوم المشابه لبيتر او صومائيل ابناء اخت جيفرسون (زوجها غريب ليس من الاسرة نفسها ومن ثم كروماسوماتهِ الوراثية تختلف) فانهم ليسوا من ذرية جيفرسون او من ذرية تلك الاسرة.

اعتمد الدكتور فوستر على الكروموسوم الذكري (y) لفحص العينيات الرئيسية وتوصل البحث في النهاية الى عدم وجود أي صلة بين الكروموسوم (y) عند استون هنيمنغز مع خط الذكور لبيتر كار او صوموئيل ابناء اخت جيفرسون، وان استون يحمل الصبغة الوراثية نفسها لابناء راندلوف جيفرسون اخي توماس جيفرسون وفيلد جيفرسون، عمه . أي ان استون قد يكون من سلالة راندلوف او من سلالة فيلد او أي شخص ينتمي لعائلة جيفرسون لأنهم جميعاً يحملون الكروموسومات الوراثية نفسها، ولا يمكن ان يكون من سلالة بيتر كار او صومائيل لان البصمات الوراثية تتخلف اختلافاً جذرياً[1] وقد أكد ايضاً الاستاذان ارك أسلاندر وجوزيف أليس في دراسة منفصلة ان تحليل (DNA) يثبت ان جيفرسون كان اباً لواحد من ابناء سالي على اقل تقدير[2] .

ان استخدام الدكتور فوستر ابناء عمومة جيفرسون كان استخداما علمياً معروفاً وغير معترض عليهِ، لكن المشكلة كانت بانتشار الخبر الذي ادى الى اعتراض الباحثين والصحافة والمجتمع بان استخدام مثل هذا الفحص "العام" المصمم للتأكد من احتمال أن بعض ابناء سالي ينحدرون من جيفرسون غير صحيح ولا يمكن مقارنة هذا الفحص مع الاختبار السابق في المحاكمة في قضية سمبسون Simpson ١٩٩٤، لان الاختبار الاخير جرى على عينات مباشرة من

(1) Foster, Op. Cit, PP. 27- 28
(2) Quoted in, Scholar commission on the Jefferson – Hemings Matter , under standing the DNA Evidence Linking Est on Heming to Thomas Jefferson's cousins , www . Tjheritage. Org \ do cuments \ sc Re – port 1 . Pdf, P. 61.

سمبسون وليس من اخوانه وابناء اخيه[1]. لكن هذا الاعتراض مرفوض لسببين، الاول ان دكتور فوستر لم يعلن صراحة ان استون هو ابن جيفرسون بل قرر انهُ يحمل البصمات الوراثية نفسها التي تحملها الاسرة أي انه قد يكون ابنهُ او ابن ابنه او ابن عمهِ ...الخ، والسبب الثاني ان سمبسون المقتول حديثاً لديه خط ذكري تمكن خبراء الفحص من خلاله تقديم النتائج، اما جيفرسون فليس لديه خط ذكور . فاذا أردنا معرفة أي بصمة وراثية فلا بد من أخذ عينات من ابناء عمهِ وابناء اخيه الذكور وهذا ما حدث فعلاً .

وبالعودة الى الأحداث التاريخية نجد ان جيفرسون قد غادر باريس متوجهاً الى الولايات المتحدة في نيسان من عام ١٧٨٩ بعد ان اشترى ملابس لسالي تقدر بمئاتي فرانك فرنسي. وفي السفينة جلست الى جانبه، وبعد وصولهِ الى مونتسليو لم يغادرهُ الا بفترات قصيرة جداً، ولم يوجد في كل هذهِ الأوقات أي شخص آخر يحتمل ان يكون "كما يشكك البعض من احتمال اقامة سالي علاقة جسديه مع بيتر كار او صومائيل او غيرهم" اباً لاحد اولادها، وذلك حسب سجلات مونتسليو التي كان يسجل فيها الزوار وتاريخ حضورهم[2]. ومع مناقشة الادلة العلمية مع الادلة التاريخية نستنتج وبصورة قطعية لا تقبل أي مجال للشك ان جيفرسون هو والد ابناء سالي .

بعد نشر بحث الدكتور فوستر في مجلة نيتشر (Nature) اشهر مجلة علمية في العالم، قامت الدنيا في الولايات المتحدة ولم تقعد، معترضين على نتائج البحث، لذلك قامت مؤسسة "توماس جيفرسون"التي تشرف على ادارة مونتسليو، بتأليف لجنة متعددة الاختصاصات ومكونة من تسعة اعضاء من الحاصلين على شهادة الدكتوراه، لدراسة قضية ابوة توماس جيفرسون لاولاد سالي هينمغيز، ونشرت اللجنة تقريرها عام ٢٠٠٠ وجاء فيه : " إنهُ من غير المحتمل ان أي جيفرسون غير توماس جيفرسون يكون والد اطفال سالي هيمنغر الستة"[3]. لكن

(1) Scholar commission on the Jefferson -- Hemings Matter, Op. Cit , PP. 62-63
(2) Hitchens , Op . Cit , P . 71 .
(3) Appendix J : The possible paternity of other Jeffersons , A summary of Research " . Report of the Research comm. Ittee on Thomas Jefferson and sally Hemings Thomas Jefferson foundation Jan 2000. http : \\ www . Monticello. Org \ plantation \ heminhscontro \ oppendixj. html.. "

تقرير اللجنة لم يقنع المؤرخين المعترضين على النتائج لـذلك قامـت فـي عـام ٢٠٠١، جمعية" تراث تومـاس جيفرسـون" Thomas Jefferson Heritage society (TJHS) باجراء دراسة مستقلة قام بها ثلاثة عشر عضواً من العلماء، وخلصت اللجنة الى ان أطروحة ابوة جيفرسون لم تكن مقنعة وزادت في تقريرها الصادر في ٢٠٠١/٤/١٢ ان "الادعاءات بابوة جيفرسون لأولاد سالي ليست مثبتة بأي حال" واقترحت اللجنـة ان اولاد سـالي ربمـا يكونـون ابنـاء رانـدلوف جيفرسون[١]، فيما بعد قامت اللجنة الوطنيـة لأنسـاب المجتمـع National Genealogical Society Quarterly (NGSQ) بمراجعة المقالات المنشـورة واستعراض الادلة من منظور علم الانساب ووجـدت ان الصـلة بـين تومـاس جيفرسون وسالي هينمنغز كانت موثوقة ومتسقة مع وزن الادلة، وانتقدت اللجنـة تقرير اللجنة السابقة (TJHS) لنقاط الضعف العديدة فيهِ ولانحياز اعضاء اللجنـة التام عند مراجعة البيانات وتجاهلهم لوزن الادلة العلمية والتاريخية، وكـان ذلـك عام ٢٠٠١[٢] .

ومهما يكن من امر فمازال باب البحث في موضوع الحمض النـووي يشـغل بال العديد من العلماء والمختصين، ولا سيما اولئك الرافضين لابـوة جيفرسـون لاولاد سالي، لكن من جهة ثانية نعتقد ان الادلة التاريخية مضـافاً اليهـا الـدليل العلمي تثبت هذهِ الابوة بشكل قاطع، ولا داعي للاستمرار بعملية البحث العلمـي التي ستؤدي الى تفصيلات كثيرة لاحاجة لها. فمنذ نشر بحث الدكتور فوستر الى يومنا هذا لم تتوقف هذه الابحاث لكنها فتحت بابا آخر للنقاش والبحث العلمي بعيدا جدا عن قضية سالي، الا وهو قضية اصل توماس جيفرسـون نفسـه والتشـكيك بكونه من اصول انكليزية . فقد وجد الباحثون الذين درسـوا الحمـض النـووي لجيفرسون ومن خلال الكروموسوم (y) انه ينتمي الى سلالة نادرة الوجـود فـي اوربا لكن تلك السلالة موجودة بكثرة في الشرق الاوسـط، لان كروموسـوم (y)

(1) The Scholars Commission on the Jefferson – Hemings Issue. Tjheritage. Org. http: \\ www. Tjheritage – org \ scholars. html.
(2) Helen F. M. Leary (Sep 2001). "Sally Hemings s children: A Genealogical Analysis Evidence". National Genealogical Society Quartly 89 (3) : 156 – 207 . http: \\ www. loc. Gov \ loc \ locib \ 0205 l Hemings . html.

لدى جيفرسون وعائلته ينتمي الى فرع معين من كر موسوم (k2) النـــادر فـــي اوربا الذي يحمله عدد قليل جدا من سكان البرتغال واسبانيا ولاسيما ذوي الاصول العربية واليهودية اضافة الى شيوع ذلك الكرموسوم في منطقة الشـــرق الاوســـط وشرق افريقيا، ووجدوا ان ١٠% من رجال سلطنة عمان والصـــومال يحملـــون الكروموسوم نفسه ، لذلك قام الدكتور مارك جـــوبلنكز Dr . Jobling's عضـــو المجلة الامريكية لعلم الاحياء والوراثة مع مجموعة من الخبراء بـــاجراء فحـــص على عينات اختيارية في ويلز (جنوب بريطانيا) التي تنتمي اليها عائلـــة تومـــاس جيفرسون، وبعد فحص العينات فـــي جامعـــة ليســـتر بـــانكلترا تبـــين ان هـــذا الكروموسوم نادر في بريطانيا واوربا عموما، ولكن يوجد اصل لهذا الكروموسوم في يورك شاير yorkshire وفي ويست مدلاندس westMidlands، وقد تساءل الدكتور جوبلنكز عن سبب وجود مثل هذه العينات في هـــذه المـــدن الانكليزيـــة العريقة واعتقد انها وصلت من الشرق الاوسط منذ اجيـــال بعيـــدة عـــن طريـــق الفينيقيين الذين كانت لهم علاقات تجارية مع اوربا عبر البحر المتوسط[1]

وقد رجحت الدراسة ان يكون جيفرسون من اصل يهودي، لان يهـــود اوربـــا يحملون الـــ (k2) وظهر هذا الكروموسوم بكثرة بين اليهود المغاربة الذين نزحوا من اسبانيا عام ١٤٩٢ على يد محاكم التفتيش الاسبانية، والـــذين يســـمون يهـــود السفارديم Sephardic، الا ان الغوص في هذا البحث اظهر العديد مـــن النتـــائج المغايرة، فنرى ان الكروموسوم (k2) موجود في العراق والصـــومال وســـلطنة عمان ومصر وكذلك هناك نسبة كبيرة من الاكراد يحملون الكرموســـوم نفســـه ، وذلك بسبب البعد الزمني الذي ينشأ عنه تطور في البصمة الوراثية للاقوام عبـــر عشرات الاجيال. ومع ان الدكتور جوبلنكز لم يستطع تحديد المنطقـــة او الاصـــل الذي ينتمي اليه جيفرسون، اكد ان كروموسوم (k2) نادر جـــدا فـــي الولايـــات

(1) Professor mark Jobling , taken while conducting a previous study in to president Jefferson university of Leicester, http://www.sciencedaily .com/re;eases/2007/03/.html;nicholaswade,study raises possibility of Jewish tie for Jefferson ,http://www.nytimes.com/2007/02/28/us/28jefferson.html.

المتحدة وانكلترا واوربا[1] وهذا يدعم فكرة ان عائلة جيفرسون لا ترجع الى أصول انكليزية مسيحية بل انها تعود لاصول يهودية قد تكون عربية او غير عربية، لكن هذا البحث لم يكتمل ويحتاج الى دراسات كثيرة للبحث عن الجينات الوراثية ومتابعة التغيرات التي حدثت فيها على مر العصور والازمنة، كما يحتاج الى مسح انثروبولوجي للمناطق كافة التي يوجد فيها هذا الجين، ومن ثم هذا عمل يصعب تحقيقه اذ يحتاج الى وقت طويل وعمل دؤوب، كما يحتاج الى تقنيات حديثة، وربما تتطور الوسائل العلمية في المستقبل وتكشف عن هذه الحقيقة .

(1) Debbie schlussel, was Thomas Jefferson Jewish? : Researchers find tj'spossibly Jewish genes, http://www.debbieschlussel.com.

الفصل الثاني

الصراع بين المستعمرات الأمريكية والحكومة البريطانية وموقف جيفرسون منه

المبحث الأول

أولا: بداية الصراع بين الحكومة البريطانية ومستعمراتها في أمريكا الشمالية

ثانياً: موقف جيفرسون من ذلك الصراع

ثالثاً: قيام الحرب وموقف جيفرسون

رابعاً: جيفرسون يكتب بيان الاستقلال

خامساً: ملاحظات على بيان الاستقلال

المبحث الثاني

جيفرسون عضواً في مجلس فرجينيا التشريعي

أولا: قانون الإرث (الابن البكر)

ثانياً: التربية والتعليم

ثالثاً: التشريعات الدينية

رابعاً: قضية العبيد

خامساً: قضايا أخرى

أولا: بداية الصراع بين الحكومة البريطانية ومستعمراتها في أمريكا الشمالية

بعد انتهاء الحرب الفرنسية – البريطانية عام ١٧٦٣ ظن مواطنو المستعمرات الأمريكية بأنهم سيحصلون على امتيازات سياسية واقتصادية من الوطن الأم (بريطانيا) لكونهم قاتلوا إلى جانبها وبذلوا أرواحهم في سبيل تحقيق النصر،إلا أن الحكومة البريطانية وبعد تولي جورج كرنفيل George Gernville رئاسة الوزارة في نيسان من عام ١٧٦٣، وتعيين جارلس تاونشند Charles Townshend لوزارة التجارة،وجه الاثنان نظرهم صوب المستعمرات الامريكية محاولين تسديد ديون الحكومة البريطانية البالغة(١٤٠) [١] مليون باوند [٢] لذلك دعا كرينفيل لفرض ضرائب على المستعمرات الأمريكية، التي دافعت الحكومة والجيش البريطاني عنهم أثناء حرب السبع سنوات وضحت برجالها وأموالها حسب وجهة النظر البريطانية، ولذلك بدأت بفرض العديد من القوانين الضريبية كان أهمها :

أولا: قانون السكر لعام ١٧٦٤ (Sugar Act)

بموجب هذا القانون فرضت ضرائب كمركية على البضائع المستوردة من المستعمرات الاسبانية والفرنسية، زيادة على منع استيراد دبس السكر(المولاس) والنبيذ والبن من هذه المستعمرات، ومن ثم متابعة تنفيذ القانون بشيء من الصرامة لمنع محاولات التهريب، إلا أن اعتراض السياسيين الأمريكيين كان على إصدار القانون من الناحية التشريعية وليس التنفيذية، لأنهم عدّوا أن المجالس التشريعية في المستعمرات هي وحدها التي لها الحق في فرض الضرائب، ومن ثم فأن إصدار مثل هذه القوانين هو محاولة لمصادرة السلطات التشريعية المحلية[٣]

---

(1) Hayes , Op.Cit , P. 477

(٢) يذكر بنيامين فرانكلين بهذا الخصوص ان المستعمرات الأمريكية الناشئة قد ضحت بالأموال والأنفس، كما انها شاركت بخمسة وعشرين الف مقاتل في الحرب وهذا الرقم يوازي ما شاركت به بريطانيا من رجالها بهذه الحرب وبالتالي فأنهم متساوون فيما دفعوا وما ضحوا، ولذا فالحكومة البريطانيه هي التي تدين لشعب المستعمرات بالمال كون رجالها شاركوا بدون مرتبات على عكس الجيش البريطاني الذي كانت تدفع له مرتبات منتظمة، ينظر :

John Fiske, The American Revolution , New York 1916, Vol. 1, PP. 15-16

(3) William Edward H. Lecky and Jams Albert wood burn, The American revolution 1763 - 1783, New York 1906, PP. 54-55

ثانيا: قانون الطابع ١٧٦٥ (Stamp Act)

صدر هذا القانون بعد مناقشة مستفيضة من مجلس العموم واللوردات،إذ دفع كرنفيل وتاونشند، بأن الأنفاق على الجيش البريطاني في المستعمرات الامريكيه لا يمكن أن تتحمله الحكومة البريطانية وحدها ويجب أن تشارك المستعمرات الأمريكية بهذا الأنفاق، وتكون تلك المشاركة وفق موازنة معينه تُستحصلُ من خلال فرض ضريبة جديدة وهي ضريبة الطابع، وتفرض على الأوراق الرسمية وعلى الصحف والمطبوعات والرخص وعقود البيع والشراء وعقود الإيجار وأي وثيقة تصدر من مكاتب حكومية، وقد تراوحت أسعار الطابع بين ثلاث سنتات وعشرة باونات[١].

أثارت تلك القوانين ولاسيما قانون الطابع، سخط رجال المستعمرات وقد رفضت مستعمرة فرجينيا هذا القانون، ولاسيما بعدما أثار باتريك هنري الحماسة في نفوس الناس، وقررت فرجينيا انه ليس لأحد الحق في فرض ضرائب سوى مجلسها التشريعي، وسارعت ماساتشوستس Massachusetts لاتخاذ موقف مشابه لما اتخذته فرجينيا[٢]،لكنه كان موقفا حادا إذ وقف زعيم المعارضة في بوسطن مركز ماساتشوستس صومائيل آدمز(Samuel Adams)[٣] ضد هذا القانون واثار الناس وقاموا بإتلاف جميع الطوابع التي وصلت إلى ميناء بوسطن وهددوا الموظفين المعينين لجمع الضرائب مما اضطرهم إلى الهرب، وقد أسرع صومائيل آدمز لدعوة ممثلي المستعمرات للحضور إلى بوسطن أو إرسال رسائل

---

(1) Fisher, Op.Cit, P.16

(2) Ibid , PP.16-17

(٣) صاموئيل آدمز : ولد في بوسطن عام ١٧٢٢، تخرج من هارفارد عام ١٧٤٠، وبعد ثلاث سنوات حصل على الماجستير في الآداب، برز خطيبا شعبيا وقائدا سياسيا منذ عام ١٧٤٨ حيث أصبح قائدا للمناظرات في النوادي السياسية لمدينة بوسطن، أسس صحيفة public advertiser، أصبح احد جباة الضرائب في الأعوام ١٧٥٦ – ١٧٦٤، حيث أعُفي من منصبه لسياسته الضريبية المتساهلة التي أدت إلى تأخير دفع الديون، برزت شهرته السياسية بمعارضته الشديدة لقانون الطابع، وبدأ دوره يبرز في المجلس الثوري من خلال مقالاته الحماسية والثورية، وصف بالدهاء والمكر والفطنة السياسية، وعد المحرض الأساسي لتهييج الرأي العام ضد انكلترا، أصبح مندوب ماسا تشوستس في المؤتمر القاري عام ١٧٧٤، وكان احد الموقعين على وثيقة الإستقلال ١٧٧٦، ساهم في تنظيم قوات الثورة،في عام ١٧٧٩ أصبح عضواً في مؤتمر ماسا تشوستس لوضع دستور لها، كان له الدور الفعال بالمصادقة على الدستور عام ١٧٨٨، من ١٧٨٩- ١٧٩٤ كان وكيلا لحاكم ماسا تشوستس ومن ١٧٩٤- ١٧٩٧ كان حاكما للولاية، مات عام ١٨٠٣ في بوسطن، ينظر :

Encyclopedia Britannica , U.S.A 1965 , Vol , 1,P. 128

تبين موقفهم من قانون الطابع. وأسرعت كل من فرجينيا ونيويورك وبنسلفانيا وكارولينا الجنوبية بالرد بايجابية وأعلنت موقفها المؤيد تماما لما فعلته ماساتشوستس وأعلنت هذه المستعمرات جميعا رفضها لقانون الطابع والوقوف إلى جانب ماساتشوستس(١).

أيد سكان المستعمرات قرارات مجالسهم المحلية وثاروا ضد القانون،وظهرت بسرعة كبيرة هيئات شعبية معارضة للقانون دعت نفسها بجماعة "أبناء الحرية "Sons of Liberty(٢) التي شاركت في احداث الاضطرابات في بوسطن وغيرها. (٣)وقد جاءت المعارضة القوية لقانون الطابع لسببين، الأول دستوري مفاده أن الأمريكيين يرون انه لا يحق للبرلمان الانكليزي فرض ضرائب عليهم ما داموا غير ممثلين فيه، والثاني كون تلك الضريبة تهدف في النهاية إلى إحكام قبضة الانكليز على حركة الملاحة وتقوية الرقابة المالية والكمركية، وهو أمر سيحقق المبدأ التجاري القاضي بجعل الاقتصاد الأمريكي متمما للاقتصاد الانكليزي، وهذا ما يضر بمصالح رجال التجارة(٤).

لم تصمد الحكومة البريطانية أمام هذا الرفض الشديد لقانون الطابع، ولاسيما بعد مقاطعة أغلب رجال المستعمرات للتجارة البريطانية كما أن العديد من رجال الأعمال الانكليز توقفت تجارتهم وعارضوا القانون مثلما عارضه العديد من رجال السياسة البريطانية المحنكين أمثال وليم بت الذي خطب في البرلمان البريطاني قائلا:" إن سقطت أمريكا فإنها ستسقط مثل ذلك الرجل الجبار شمشون ... ولحد ألان لم يتصرف الأمريكيون تجاه كل المواقف بعصبية لكنكم أخطأتم بحق الأمريكيين ودفعتموهم إلى الجنون بظلمكم.فهل ستعاقبونهم على الجنون الذي

---

(1) Fiske, Op.Cit, P .17.

(٢) أبناء الحرية: جاءت التسمية من قبل اسحق بار احد رموز بوسطن، من خلال مقالة وجهها إلى البرلمان البريطاني، حيث جاء فيها " من يسال عنا فانا أبناء الحرية " وتكونت هذه الجمعية لأول مرة في بوسطن عام ١٧٦٥وانضم اليها العديد من المحاميين ورجال التجارة وقادهم صوموئيل آدمز، وذاعت شهرتهم بعد حفلة شاي بوسطن ١٧٧٣،وتم إنشاء العديد من الجمعيات تحت نفس الاسم والهدف في إنحاء المستعمرات الأمريكية والذين أصبحوا فيما بعد وقود الثورة الأمريكية، ينظر :

Sophie J.Gowen, Notes on early American history, New York 1900, PP. 103-104

(٣) الان نفينز وهنري ستيل كوماجر، المصدر السابق، ص ص ٩٣- ٩٤

(٤) عبد العزيز سليمان نوار، محمد محمود جمال الدين، المصدر السابق، ص ٥٤

سببتموه انتم ؟ " [١]، ولذلك قامت الحكومة البريطانية الجديدة(١٧٦٥-١٧٦٦) التي ترأسها روكينكهام Rockingham إلى إلغاء القانون عام ١٧٦٦ [٢]، وتوقفت بعد ذلك الإلغاء أعمال الاضطرابات وسكنت جماعة أبناء الحرية إلا أن ذلك الهدوء والسكينة لم يستمرا طويلا، فقد أصدرت الحكومة البريطانية قوانين جديدة عرفت باسم قوانين تاونشند Townshend Act، إذ اصدر وزير المالية تاونشند سلسلة من القرارات تقضي بفرض ضرائب على استيراد الشاي والورق والزجاج عام ١٧٦٧. وكانت الغاية من إصدار هذه القرارات هي دفع رواتب الحكام والموظفين الانكليز في المستعمرات ودفع رواتب الجنود الانكليز. ورفضت هذه القوانين وعادت الاضطرابات في المستعمرات ولاسيما في بوسطن حيث قام السكان بإثارة الجنود الانكليز وتوجيه العبارات السيئة إليهم وهاجموا موظفي الجباية الكمركية مما اضطر القوات البريطانية الى النزول للمدينة وهناك تعرض الجنود لرشقات السكان الهائجين، بالأوساخ والقاذورات والعبارات النابية مما أدى الى وقوع احتكاك شديد بين السكان والجنود الذين قاموا بإطلاق النار على السكان وقتلوا ثلاثة منهم، وذلك في الخامس من آذار عام ١٧٧٠[٣].

استغل المعارضون للسياسة البريطانية هذه الحادثة التي سرعان ما سميت بـ"مذبحة بوسطن Boston Massacre " ونقلت أخبارها بسرعة إلى المستعمرات كافة ، التي عدت المذبحة مثلا صارخا على ظلم الانكليز واستبدادهم[٤]. وإزاء هذه الحادثة وما ولدته من اضطراب وبعد تدخل رجال التجارة الانكليزية الذين تأثرت تجارتهم جراء المقاطعة للسلع البريطانية في المستعمرات تراجعت الحكومة البريطانية وألغت قوانين تاونشد لكنها استثنت الضريبة المفروضة على الشاي لغاية الاحتفاظ بحق فرض الضرائب بالمستقبل[٥]. وبعد إلغاء قوانين تاونشد عام ١٧٧٠ ساد الهدوء النسبي في

(1) Quoted in , Maurois , Op.Cit , P. 373
(2) Frederick George Marcham , A History of England , New York 1957, P. 566.
(3) Robert Sears, The pictorial history of the American Revolution, New York 1846, PP. 122-124.
(٤) الآن نفينز وهنري ستيل كوماجر، المصدر السابق، ص ٩٨
(٥) عبد العزيز سليمان نوار، محمد محمود جمال الدين، المصدر السابق، ص ٥٦

المستعمرات الأمريكية وتحسنت الأحوال الاقتصادية وبدأت العلاقات بين المستعمرات والحكومة البريطانية تتحسن بصورة تدريجية لكن المتطرفين أمثال صاموئيل آدمز لم يرحبوا بهذا التطور لأنهم أصبحوا يؤمنون بالاستقلال ونجح هؤلاء في إبقاء النفوس متوترة ومترقبة للتحركات البريطانية،ولاسيما بعدما شكلوا لجنة المراسلة عام ١٧٧٢، التي كان الغاية منها الدفاع عن حق المستعمرات(١).

لم يستمر الهدوء النسبي في المستعمرات طويلا، فقد أصدرت الحكومة البريطانية قانون الشاي عام ١٧٧٣ Tea Act، وكان الغرض منه محاولة إنقاذ شركة الهند الشرقية من الإفلاس إذ بلغت خسائر الشركة نحو سبعة عشر مليون باون، لذلك منحت الحكومة البريطانية الحق لشركة الهند الشرقية في تصدير الشاي إلى المستعمرات بدون فرض أي ضريبة تصدير على الشركة، التي تمكنت هي ايضا من خلال هذا القانون من بيع الشاي بأسعار رخيصة جدا مقارنة بأسعار المهربين، ومن ثم أصبحت الشركة تحتكر تجارة الشاي، وأضّر هذا القانون بمصالح التجار والمهربين الأمريكان الذين بدؤوا يخسرون أموالهم مما دفعهم إلى الاعتراض على القانون وشجعوا العمال في الموانئ على منع تفريغ الشاي من السفن(٢) . بالنهاية التقت مصالحهم مع مصالح المعارضين للسياسة البريطانية الذين كانوا بانتظار الفرصة السانحة للانتفاض على الحكومة البريطانية، فأسرع صاموئيل آدمز بمعارضة القانون وألب أهالي بوسطن على البريطانيين، وقام بجمع خمسين رجلا تنكروا بزي الهنود الحمر وصعدوا إلى السفن الراسية في ميناء بوسطن والقوا حمولتها من الشاي في البحر وهذا ما عرف بالتاريخ الأمريكي بـ "حفلة شاي بوسطن Boston Tea Party" (٣).

إزاء هذا التصرف كان لابد من اتخاذ موقف حاد تجاه المستعمرات فقررت الحكومة البريطانية اتخاذ إجراءات لردع مثل تلك الإعمال وقررت معاقبة ماساتشوستس وباقي المستعمرات فأصدرت قانون ميناء بوسطن Boston Port

(١) محمد محمود النيرب، المصدر السابق، ص ٨٧

(2) Sears, Op.Cit, P.129

(3) Fisher ,Op.Cit, PP.110-112

Bill الذي كان عبارة عن أربعة قرارات وافق عليها البرلمان البريطاني وهي إغلاق ميناء بوسطن حتى يدفع ثمن الشاي التالف وتخفيض سلطات المجلس التشريعي لمستعمرة ماساتشوستس وعدم محاكمة المتهمين من موظفي الحكومة البريطانية داخل المستعمرة وعلى المجلس التشريعي تهيئة المأوى والمأكل للحامية البريطانية في بوسطن[1]، كما أصدرت الحكومة البريطانية قانون كيوبك Quebec Act عام ١٧٧٤ وخلاصة القانون وضع خط فاصل شمال أوهايو وشرق المسيسبي وتمديد حدود مقاطعة كيوبك جنوب كندا التي كانت تابعة لفرنسا قبل حرب السنوات السبع ومن ثم إيقاف امتداد المستعمرات،شمالا وشرقا وعدم الحصول على المناطق ذات الثروات الطبيعية الوفيرة في تلك الجهات، كما أن الاعتراف بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية في كندا يمكن عده إهانة للكنائس البروتستانتية[2] زيادة على إعطاء الكاثوليك الفرنسيين حرية ممارسة شعائرهم الدينية والاعتراف بالكنيسة الكاثوليكية كنيسة رسمية لمقاطعة كيوبك وبضمنها الحدود الجديدة التي اقرها هذا القانون[3].

أن إصدار القرارات الأخيرة من جانب الحكومة البريطانية كان أشبه بمحاولة تأديب سكان المستعمرات عن الأمور التي قاموا بها والتي من شأنها إضعاف سلطة الحكومة في المستعمرات لذلك وجب على بريطانيا فرض هيبتها من خلال هذه القوانين لكن ذلك لم يحدث قط، فقد أثارت تلك القوانين سكان المستعمرات وساستها الذين كانوا مرتابين بشدة من السياسة البريطانية، كما أن فكرة الاستقلال كانت تدور برؤوسهم، وجاءت تلك القوانين لتبلور فكرة الثورة والاستقلال وتعطيها شرعيتها وقدسيتها لانهم يناضلون لأجل الحرية والعدل وإنصاف الأمريكيين المظلومين من الحكومة البريطانية وقراراتها الجائرة.

---

(1) Fiske ,Op.Cit, P.95
(2) Marcham , Op.Cit , P. 567
(3) Fiske ,Op.Cit, PP.95-96

ثانياً: موقف جيفرسون من الصراع بين الحكومة البريطانية والمستعمرات الأمريكية

تأثر توماس جيفرسون بالأحداث التي تدور في المستعمرات الأمريكية وكان من نوعية الرجال الذين لا يستطيعون الوقوف جانباً بينما تتغير مصائر الأمم، فكان تأثيره بالثورة الأمريكية قويا ومدويا فمنذ بداية الأحداث عمل جيفرسون على تقوية الاتصال مع باقي المستعمرات والوقوف تجاه بريطانيا وقفة واحدة كي " نصل إلى تفاهم مشترك مع المستعمرات الأخرى كافة على أن ننظر إلى المطالب البريطانية كقضية مشتركة خاصة بنا جميعا وان نحقق وحدة في التصرف والعمل " [1] ولتحقيق ذلك الغرض كان لابد من تأسيس لجنة مراسلة في كل مستعمرة لإتمام الاتصال بين قادة المستعمرات. وعمل جيفرسون على تكوين لجنة مراسلة في فرجينيا ترأسها بيتون راندولف Peyton Randolph ونأى بنفسه عن عضوية تلك اللجنة فاسحا المجال أمام صديقه وصهره دابني كار العضو الجديد في مجلس المواطنين[2] . وبعد إن أخذت اللجنة تكتمل كان لابد من كتابة قرار بشأن صدورها فكلف جيفرسون بكتابة القرار الذي كان البذرة الأولى لتأسيس المؤتمر القاري، وقد صدر ذلك القرار في آذار من عام ١٧٧٣ [3].

ومنذ ذلك الوقت أصبح جيفرسون كاتب فرجينيا ومجلسها التشريعي ومرجعها التاريخي والقانوني، فلم يكن يحضر جلسات المجلس إلا ولديه فكرة جديدة وعمل جديد، وخلال ربيع عام ١٧٧٣ أثار جيفرسون موضوع المحاكمات خارج حدود المستعمرات فعدّ من الإجحاف إرسال الأشخاص المتهمين الى انكلترا ليحاكموا هناك لجرائم ارتكبت في المستعمرات ورأى في محكمة تحقيق رود ايلاند Rhode Island المشكلة عام ١٧٦٢ امراً يستوجب الانتباه والبحث فأثار تلك القضية في مجلس المواطنين، كما انه لم يكتف بالحضور التقليدي للمجلس كما يفعل بعضهم بل كان دائم الحركة فقد شكل ورشة عمل مسائية مكونة من باتريك هنري وريتشارد هنري لي وفرانسز لي ودابني كار ، وكانت تجتمع في غرفة

(1) Jefferson ,Op.Cit , P.7
(2) Ibid, P.7
(3) Rayner ,Op.Cit , P.43

خاصة من صالات قاعة ابوللو للتشاور في الظروف والمستجدات على الساحة والمواقف التي يجب اتخاذها[١].

كان الحدث القوي الذي أثار فرجينيا وساستها هو صدور قانون ميناء بوسطن الذي تقرر فيه إغلاق الميناء في الأول من عام ١٧٧٤وقد بلغ نبأ القانون إلى مجلس المواطنين في فرجينيا حينما كان مجتمعا،وعلى الرغم من تعاطف زعامة المجلس مع بوسطن لم تفعل شيئاً لذلك قرر جيفرسون وزملاؤه في الورشة المسائية الوقوف بشجاعة ضد القرار البريطاني، ومساندة ماساتشوستس بكل قوة. وكان رأي جيفرسون الاجتماع والتشاور بصورة مكثفة في المجلس للاستفادة من المكتبة الموجودة فيه،زيادة على ضرورة إيقاظ الشعب من الخمول الذي اعتراه في موقفه من الحوادث الجارية. وفي رأي جيفرسون كانت أفضل طريقة لتنبيه الناس وإيقاظهم هو تعيين يوم للصوم وإقامة يوم للصلاة العامة التي سيكون لها دور ايجابي في إثارة اهتمام الناس وهزهم هزة عنيفة [٢]. لكن تعيين ذلك اليوم يجب ان يكون وفق دراسة علمية وتاريخية، فأن اختيار يوم عادي لن يكون وقعه على النفوس مدويا لذلك اخذ جيفرسون ورفاقه يبحثون في الوثائق المتصلة بالحرب الأهلية الانكليزية ١٦٤٢-١٦٤٩ بين شارل الأول والبرلمان ومن ثم عهد كروميل والسبب في ذلك كما يذكر جيفرسون " لكي نصل إلى السوابق والنظم الثورية التي اخذ بها البيورتان في ذلك الوقت حتى إذا وجدنا السجلات صنعنا منها قرارا بأسلوب حديث لتعيين أول يوم من يونيو الذي يبدأ فيه تطبيق قانون ميناء بوسطن يوما للصوم والخشوع والصلاة لندعو الله إن يجنبنا الحرب الأهلية وان يلهمنا الثبات في نصرة حقوقنا وان يهدي قلب الملك والبرلمان إلى العدل والاعتدال" [٣]. وحتى يكون التأثير قويا ومضاعفا يجب أن يقود الصلاة شخص تتناسب شخصيته الجادة المتدينة مع صفة القرار ولذلك ذهب جيفرسون إلى السيد نيكولاس Nicholas وعرض عليه الأمر وبعد موافقته قدم الاقتراح إلى المجلس فتمت الموافقة عليه دون معارضة، وما كان من الحاكم إلا أن أمر بحل المجلس كالعادة[٤].

---

(1) Jefferson ,Op.Cit,PP. 6-7
(2) Ibid, P 9.
(3) Ibid, P 8
(4) Ibid, P 9

لقد جمع جيفرسون كل أسباب نجاح مشروع القرار فمنذ البداية تم تعيين اليوم المخصص للصلاة بناء على دراسة تاريخية ولم يكن بصورة عشوائية، أما بالنسبة لجعل الصلاة والصوم سببا للتجمع فكان حلا ذكيا من جانبين، الأول هو من سيستطيع إقناع اكبر قدر ممكن من الناس للتجمهر ضد الحكومة البريطانية البلد الأم وبأي وسيلة؟ ولاسيما ان ما يقارب نصف المجتمع كان لا يرغب بإثارة المشكلات مع الحكومة البريطانية ويراها حكومة شرعية فالتجمهر معناه الخروج عن طاعة الملك ولذلك أورد جيفرسون بقراره عبارات تشير إلى عدم الخروج عن طاعة الملك والتمرد عليه، كقوله " أن يهدي الله قلب الملك إلى العدل والاعتدال " إذن ما خروج الناس إلا لطلب العدل من الحاكم وليس للخروج عن طاعته، والجانب الأخر تمثل بمن سيعارض التجمهر من جانب الحكومة البريطانية وقواتها فلو أنهم أعلنوا يوما للتمرد والتجمهر فسيكون ذلك وحده كافيا لقمع ذلك التمرد، لكن من سيمنع مصلين من تأدية صلاتهم ؟ والحقيقة حتى الملك نفسه لم يكن باستطاعته إصدار تعليمات بمنع تلك الصلاة أو إبطالها فكيف بالجنود وقادتهم وبذلك ضمن جيفرسون خروج اكبر قدر من الناس مع عدم تعرضهم للاعتقال وهذا يدل على ذكاء وحكمة.

وعلى الرغم من قيام الحاكم بحل المجلس لم يثن ذلك عزيمة جيفرسون ورفاقه بل اتفقوا على تفعيل لجنة المراسلة التي اقترحها جيفرسون وبعد الاجتماع في حانة راليه تقرر أن تقترح اللجنة على اللجان المماثلة في المستعمرات الأخرى أن تعين مندوبين ليجتمعوا على هيئة مؤتمر في المكان الذي يتيسر لهم سنويا ليقروا التدابير الواجب اتخاذها لأمر المصلحة العامة. وقرر المجتمعون بحانة راليه أن أي هجوم على مستعمرة من المستعمرات يعد هجوما على المستعمرات كافة،كما تم تحديد يوم الخامس من أيلول بعد الاتفاق مع لجان المراسلة عام ١٧٧٤ يوما لاجتماع وفود المستعمرات وعينت فيلادلفيا مكانا للاجتماع. وكانت رؤية الناس وهي مجتمعة على الصلاة بخشوع قد أعطى السياسيين دفعة من الشجاعة فقد " اجتمع الناس جميعهم وبدا على وجوههم القلق والذعر فكان تأثير

ذلك اليوم في جميع أنحاء المستعمرة أشبه بصدمة كهربائية أيقظت كل رجل ووضعته في وضع مستقيم ثابت على جذعه" (١) .

كان من المقرر أن يحضر توماس جيفرسون للاجتماع العام في فيلادلفيا وجهز نفسه للحضور في الموعد وكتب مذكرة بعنوان " نظرة موجزة لحقوق أمريكا البريطانية Summary View Of The Rights Of British America " تُقدم للمجتمعين هناك لكنه تعرض فجأة لمرض اجبره على العودة إلى مونتسليو(٢)، لكن المذكرة تم إيصالها إلى المجتمعين في فيلادلفيا فقد سلم نسختين من تلك المذكرة، الأولى إلى بيتون راندولف والثانية لباتريك هنري. ويذكر جيفرسون انه سلم نسخة لراندولف لعلمه انه سيرأس المؤتمر وسلم النسخة الثانية لهنري بوصفه ابرز الخطباء، لكن هنري لم يسلم المذكرة للمؤتمر و" سواء وافق السيد هنري على الرأي الذي ناديت به أم بلغ به الكسل لدرجة انه لم يقرأها – لأنه اكسل رجل عرفته في القراءة– فأنه لم يطلع عليها احد، ولم اعرف السبب الذي دفعه لذلك " (٣). ولعل باتريك هنري قد أصابته حُمى الغيرة فلم يقدمها للمجلس أو انه فعلا تكاسل عن قراءتها ولم يرد تقديمها منعا للإحراج إذا ما سُئل عن محتواها .

وعند عقد المؤتمر بموعده قدم راندولف مذكرة جيفرسون التي كان قد كتبها باسمه الحركي الذي بات يعرف به من خلال لجان المراسلة وهو المواطن الفرجيني A people of Virginia (٤) وكانت الغاية من المذكرة أن يقرأها المجتمعون، وبعد الموافقة عليها تصدر باسمهم وتوجه للملك جورج الثالث وقد جاء في مقدمتها " من المقرر ان تعد هذه المذكرة بمثابة تعليمات للنواب المذكورين حين اجتماعهم في جلسة عمومية مع نواب الولايات الأخرى في أمريكا البريطانية، لاقتراحها على المجلس المذكور بوصفه خطاباً متواضعاً يقدم

(1) Jefferson , Op.Cit, P9
(2) Froman, Op.Cit, P.12
(3) Jefferson ,Op.Cit,P.11
(4) People of Virginia, A Native and member of the House of Burgesses, A Summary View of the Rights of British America, Williamsburg 1774, P.1.

لجلالة الملك، متوسلين عرض شكاوي رعاياه في أمريكا عليه بوصفه حاكم الإمبراطورية البريطانية"[1] اما الشكاوي فكانت على :ـــ "الحالات العديدة للاعتداء،واغتصاب الحقوق التي منحها الله للناس وقررها القانون لهم بالتساوي بينهم ولكل الرجال الأحرار ...والملك لا يعدو ان يكون رئيسا رسميا للشعب وان الشعب نصبه بمقتضى القوانين وفوضه بسلطات محدودة ليساعد بإدارة الجهاز الهائل للحكم وتوجيهه لمصلحته وهو من ثم خاضعا لغاياته العليا " [2]. فأذن المذكرة قدمت على أساس دعوى وشكوى من المجتمعين إلى الملك للمطالبة بحقوقهم الطبيعية وفق فطرة الله في خلقه للناس أحرارا ومتساوين في الحقوق، واعتمادا على نظرية العقد الاجتماعي لجون لوك، مَن أن الناس هم الذين نصبوا عليهم حكاما لإدارة شؤون أمورهم ومتى ما خرج أولئك الحكام ومن يمثلهم عن طبيعة عملهم وتمادوا في حقهم في الحكم الممنوح لهم من الشعب، تعرضوا للمسآلة ومن ثم للعقاب بفسخ ذلك العقد الرمزي الذي إبرم.

ووفقا لذلك المبدأ فالناس والمجتمعون في المؤتمر ليسوا بحاجة إلى " تلك العبارات التي تتسم بالتزلف والتملق والتي قد توهم جلالته بأننا نسأله منحا لا حقوقا إنسانية طبيعية لذلك فالتزلف ليس من شيم الأمريكيين الذين يعرفون ويقولون أن الملوك هم خدم للشعب لا ملاكه" [3]، ثم بدأ جيفرسون يشرح في مذكرته بإسهاب الحالة بين المستعمرات والحكومة البريطانية شرحا تاريخيا وقد اعتمد أسلوب التفصيل فيما يخص الجذور البريطانية والأمريكية لمحاولة إثبات الحقوق الأمريكية في الحرية والحكم الذاتي لأنفسهم ومما جاء في ذلك التفصيل" أن أسلافنا وقبل رحيلهم إلى أمريكا كانوا مواطنين أحرار في أوربا ويملكون كافة الحقوق التي منحتها الطبيعة لهم بصورة متساوية، وقد بحثوا عن موطن جديد وبدأوا يؤسسون مجتمعات جديدة ووضعوا لأنفسهم قوانين وتنظيمات كما فعل إسلافهم السكسون وفق القانون الطبيعي حينما تركوا حياتهم البرية في غابات شمال أوربا وأستملكوا الجزر البريطانية وأسسوا نظاما مبنياً على قوانين جديدة

(1) People of Virginia , P. 1
(2) Ibid, P.5
(3) Ibid , P. 5

لذلك البلد الجديد ولم يدع احد بوصايته عليهم او تبعيتهم له ...وان أمريكا قد تم غزوها واستيطانها من قبل سكان المستعمرات الذين ضحوا بحياتهم وأموالهم من دون إن يدفع لهم الملك أو أي شخص آخر ولا شلناً واحداً واقتحموا تلك الأدغال الموحشة محوليها بجهدهم وكفاحهم المتواصل إلى مزارع منتجة وجنائن مثمرة، ولم تكن تلك المزارع منحة من احد ، فهي أراضيهم وليست لأي احد آخر في انكلترا أو في غيرها ...وأن أمريكا وانكلترا ليسا ببلد واحد ولا تمتلك انكلترا ولا ملكها تلك البلاد التي تمتد على طول الساحل الغربي " [1].

ويستمر توماس جيفرسون بعرضه التاريخي ويستنتج من خلاله أن العلاقة بين بريطانيا العظمى والمستعمرات الأمريكية هي تلك العلاقة القديمة نفسها بين انكلترا واسكتلندا التي استمرت حتى قيام الاتحاد بينهما، كما أنها العلاقة نفسها القائمة بين انكلترا وهانوفر فكلاهما يشترك في الرئيس التنفيذي نفسه لكن دون رابطة سياسية ضرورية، وبناءً على ما قدمه جيفرسون من تحليل تاريخي وسياسي يصل في النهاية إلى خلاصة مفادها : " أن تلك الهجرة من انكلترا إلى العالم الجديد لم تعط انكلترا أي حقوق تخولها حكم المهاجرين الى ذلك العالم وإلا فأن أقوام الدنماركيين Danes والسكسون يجب أن يعطوا حقوقا للبلاد التي هاجروا منها " [2]، ألا انه يعود مرة أخرى ليغوص في عمق الأحداث التاريخية كي يستنبط منها أحكاما تخدم فرضيته فيشرح الحرب التي دارت بين النورمانديين والسكسون، وبعد انتصار النورمانديين بقيادة وليم الغازي، فان الحريات الأصلية التقليدية للسكسون بقيت كما هي ولم يجر إلغاؤها عقب الهزيمة، فأذن لا يمكن فرض سلطة من قبل محتلين جدد للأراضي المستوطنة أصلا. وفي هذه المرة يختم جيفرسون سرده بعبارة شديدة القساوة قائلا " إلا أن أمريكا لم يهزمها وليام النورماندي ولم تخضع أراضيها له أو لأحد من أحفاده " [3]. ونرى نبرة الاستعلاء والتحدي واضحة جدا في هذه العبارة التي قصد فيها أن السكسون الانكليز

(1) Ibid, PP.6- 7 ; Albert Fried , The Essential Jefferson, Library of Congress 1963 ,PP. 56- 57
(2) Jefferson ,Op.Cit ,P. 10
(3) People of Virginia, Op.Cit,P20

خضعوا لحكم النورمانديين واستسلموا لهم، بينما لم يخضع السكسون الأمريكان لأي غازٍ سواء أكان سكسونيا أصيلا أو ممتزجا بدماء نورمانديه .

من خلال إسهاب جيفرسون التاريخي يمكن استنتاج عدة حقائق :

الأولى:

أن جيفرسون وعلى الرغم من استفادته من قراءاته ألتاريخيه السابقة ألا أن كتاباته كانت تشبه الكتابة الصحفية البعيدة كل البعد عن الكتابة التاريخية الدقيقة، فهو يبدأ الحديث وينهيه بخاتمة ويصل إلى نتيجة، ثم يعود مرة أخرى ليبدأ الحديث نفسه لكن بعبارات مختلفة ويصل إلى النتيجة نفسها لكن بعبارات مختلفة أيضا، ومن ثم يقطع سرده التاريخي ليسرد أحداث اقتصادية وسياسية ليس لها علاقة بموضوعه الأول ويعود بعد ذلك للسرد التاريخي مرة أخرى، لذا نرى مقالته غير مترابطة وتنقصها التواريخ بالسنين كما انه يربط الماضي السحيق بالحاضر بدون أواصر فمثلا رجع نسب الأمريكان إلى السكسون بصورة مباشرة ونسي أو تناسى انه وغالبية الشعب الأمريكي من أصول انكليزية مختلطة بالاسكتلنديين والايرلنديين بل بالنورمانديين الذين عيّر بهم الانكليز، زيادة على وجود أصول أوربية مختلفة كالهولنديين والفرنسيين وغيرهم .

الثانية:

أن جيفرسون بنى فرضيته التاريخية على أساس قبلي (دعوى بين القبائل) وفي الحقيقة لا يمكن مقارنة الهجرات القبلية العظيمة كهجرة السكسون والنورمانديين والجرمان وغيرهم بالهجرة الانكليزية إلى المستعمرات الأمريكية، فحالة الهجرات القديمة كانت مبنية على عرف قديم يقول أينما توافرت العناصر الأساسية للحياة(المأوى ــ المأكل ــ المشرب) ذهبت باتجاهه القبائل للمعيشة والسكن وليس لغاية تكوين دول، أما في الحالة الأمريكية فكانت هجرة منظمة من حكومة مركزية ـــ الحكومة البريطانية ـــ اتخذت قراراً بهجرة بعض أفرادها ونفذته، كما أنها أساسا كانت تمتلك الأرض التي أرسلت لها مهاجريها، من خلال استكشافاتها الجغرافية، فلو أن قبائل انكليزية غادرت الجزر البريطانية لسبب

معين وبحثت في ارض الله الواسعة عن ملجأ ووجدت أرضا لا يملكها احد ثم استقرت فيها وحكمّت عليها رجالا منهم لأصبحت المقارنة ممكنة .

الثالثة:

من خلال فرضيته التاريخية نجده يدين نفسه وكل الأمريكان معه، ذلك أن أمريكا لم تكن أرضا فارغة لا يملكها احد بل كانت مأهولة بالسكان وسكانها الأصليون هم الهنود الحمر، ومن ثم هم ملاك الأرض ومستوطنوها لذا فقوله إنها أرض فارغة تم استيطانها واستصلاحها بجهود المستوطنين الأمريكان ومقارنة هجرة السكسون إلى الجزر البريطانية لا يصح لكون الجزر البريطانية كانت آنذاك شبه خالية من السكان أي أن السكسون لما سكنوها لم يُبيدوا شعوبا أخرى كانت تقطنها. هذه هي الإدانة الأولى اما الثانية فهي في قوله أن النورمانديين لما انتصروا على السكسون تركوا لهم حرياتهم الأصلية التقليدية وتناسى ان الأمريكان لم يتركوا للهنود الحمر أي حرية أصلية تقليدية ـــــ حق الحياة وحرية العيش بسلام ـــــ بل إنهم حاولوا إبادة شعب بأكمله بكل الوسائل التي أُتيحت لهم، وهذا تناقض كبير من فيلسوف أمريكا وأحد آبائها المؤسسين وكاتب وثيقة الاستقلال التي يتبجح بها الأمريكان بوصفها أول وثيقة تضمن حقوق الإنسان .

من جانب آخر ناقش توماس جيفرسون في نظرته الموجزة القضايا الاقتصادية والتجارية بين المستعمرات الأمريكية وبريطانيا، وذكر أن قيمة المستعمرات بالنسبة لبريطانيا هي قيمة اقتصادية وتجارية، وان الشروط المجحفة التي أصدرها البرلمان بفرضه الضرائب العديدة تشعر المستوطنين بأن حقوقهم الاقتصادية والتجارية في خطر، تلك الحقوق الممنوحة لهم بموجب معاهدة ١٢ آذار ١٦٥١ المعقودة بين مجلس المواطنين في فرجينيا والحكومة الانكليزية إذ أشارت المادة الثامنة من المعاهدة إلى أن يكون لفرجينيا الحق في التجارة الحرة مع بريطانيا وكل الأمم حالهم بذلك كحال الشعب الانكليزي لكن قيام السلطات الدكتاتورية قد حرم العمل بموجب هذه المعاهدة وبدأت بأخذ الإنتاج الزراعي خاصة من التبغ إلى بريطانيا ومن ثم توزيعه إلى بلدان أوربا كما احتكرت تصدير الحديد المصنوع في أمريكا، وغيرها من الأعمال مثل قيام البرلمان البريطاني "

بمنعنا من الصناعة والإنتاج حتى منعنا من عمل القبعات وكان المقصود بهذه الإعمال تدمير صناعتنا الناشئة" [١] .

إن اعتماد جيفرسون على معاهدة ١٦٥١ كان اعتماداً قانونياً صحيحاً،ولاسيما أن تلك المعاهدة قد تم عقدها من جانب الحكومة البريطانية ومستعمرة فرجينيا ومن ثم فأن تلك الاتفاقية هي أشبه بالاعتراف الضمني لاستقلال مستعمرة فرجينيا، لأنها منحتها حق المتاجرة مع كل الأمم بدون العودة إلى الوطن الأم،ومن ثم فان تغيير النظام لا يعني أبطال المعاهدة، وإبطالها من جانب واحد لا يلزم الجانب الآخر. إذن فأن ما فرض بعد هذه المعاهدة من جانب الحكومة البريطانية هو خارج نطاق القانون وليس للبرلمان البريطاني الحق في فرض قوانين وقرارات على مستعمرة فرجينيا، وان هذه القوانين التي يراد فرضها بقوة تبرهن على درجة الديكتاتورية العالية التي وصلت لها الحكومة البريطانية بكافة وزرائها المتعاقبين، كما: " تبرهن لنا وبألم كبير على خطة الحكومة المنظمة لجعلنا عبيدا " [٢]، وقوانين الضرائب المفروضة على الشعب الأمريكي بدءاً من قانون الطابع حتى قانون الشاي تؤكد على هذا المنحى، وبأي حق يفرض مئة وستون منتخبا(أي نائبا في البرلمان البريطاني) قوانين على أربعة ملايين شخص في المستعمرات الأمريكية وليس بين أولئك المنتخبين واحد يمثلهم، "لذلك نحن لا نستطيع قبول استبداد مئة وستين شخصاً علينا مما يجعلنا شيئا فشيئا نجد أنفسنا عبيدا!"[٣]، ولذلك فأن الشعب الأمريكي لن يتخلى عن حقوقه الطبيعية التي تجعله حرا، وهو مضطر للدفاع عنها، لأنه بعكس ذلك سيصبح عبدا للبرلمان البريطاني الذي يشرع بدون الرجوع إلى أصحاب الحق الأساسيين[٤].

وبناء على ما تقدم يصل جيفرسون إلى نتيجة مفادها أن من حق أهالي مدينة بوسطن وتجارها أن ينتفضوا على قرارات البرلمان البريطاني ولاسيما فيما يتعلق

---

(1) People of Virginia, Op.Cit, P. 9
(2) Ibid, P. 12
(3) People of Virginia, Op.Cit, P. 12
(4) Ronald L. Hatzen buehler ," Thomas Jefferson life among Virginia gentry" , the Virginia magazine of history and biography , vol .101, No. 1, Jan, 1993, P.11

باحتكار شركة الهند الشرقية لتجارة الشاي، لان الغايـــة منـــه تـــدمير تجـــارتهم وحياتهم، ولذلك فهناك " مواقف غير اعتيادية تتطلب تدخلا أكثر من الاعتيـــادي، وتدخل الناس في قضية السفينة[يقصد حفلة شاي بوسطن] كان ينبع من شـــعورهم بقوة الموقف..." [١]، وهنا يشير جيفرسون إلى أمر غامض لم يشرحه أو يوضحه فيما بعد وهو قوله "أن سكان المستعمرات كانت لهم الشجاعة للوقوف ضد مجلس الستيوارت Stuart وهم في طريقهم إلى الدمار الذي ستلحقه بهم الأيادي الخفيـــة Unseen hand والتي تحكم كل ما يتعلق بتلك الإمبراطورية العظيمة من قضايا خطيرة " [٢]. في هذه الفقرة شبه جيفرسون جـــورج الثالـــث وهـــو مـــن العائلـــة الهانوفرية بحكم آل ستيوارت الموصوفين بالدكتاتورية، لكن الأمر غير الواضـــح هو قوله الأيادي الخفية، فما تلك الأيادي وما دورها في حكم الإمبراطورية؟ هـــذه التساؤلات لم يجب عنها جيفرسون كما لم يعلق عليهـــا أي مـــن كتـــاب التـــاريخ الأمريكي، وهذا يدفعنا للاعتقاد أن جيفرسون أراد الإشارة للماسونية التي كانـــت ذات نفوذ طاغ في انكلترا قبل انتقالها إلى أمريكا.

أما خاتمة النظرة الموجزة فكانت مجموعة من التحذيرات الموجهة مباشـــرة إلى الملك جورج الثالث التي صاغها جيفرسون بنبرة حادة وعلى شـــكل نصـــائح يوجهها الشعب الأمريكي ومن ينوب عنه إلى الملـــك. فبعـــدما اختـــتم عرضـــه التاريخي والاقتصادي والسياسي للعلاقة بين المستعمرات وبريطانيا، وجه حديثـــه للملك مباشرة قائلا:ـــ" اجعل صدرك يا صاحب الجلالة مفتوحا للفكر الحر البسيط ولا تجعل اسمك يكون كنقطة سوداء في صفحات التاريخ، لان أساس الحكم يقـــوم على الأمانة، واجعل هدفك هو أداء واجبك تجاه محكوميـــك وحينهـــا سينصـــفك الشعب حتى وان فشلت ولا تمنع حقوق جزء من الإمبراطورية لتمنحه لجزء آخر متطرف، وأعطِ الجميع حقوقهم بشكل متساوٍ وغير متحيز، ولا تدع قانونا تضـــعه هيئة تشريعية معينة ينتهك حقوق هيئة تشريعية أخرى وحرياتها" [٣]. وفي خاتمته يبين جيفرسون معنى العدل الذي تنشده المستعمرات وهو أن يحكم الملـــك وفقـــا

(1) People of Virginia, Op.Cit, PP. 13-1
(2) Ibid , P.14
(3) People of Virginia, Op.Cit,PP.22-23

لمصلحة المستعمرات والشعب الانكليزي لا أن يفضل مصلحة احد على آخر وإذا لم يفعل ذلك فأن ميزان العدل الذي وضعه الله تعالى في يديه من خلال منصبه كملك، سيفقد توازنه. لذلك فأن آخر نصيحة يقدمها جيفرسون للملك من خلال المؤتمر القاري هي حفظ توازن ميزان العدل لان عليه: " تتوقف سعادتك وشهرتك المستقبلية، وان حفظ الود والانسجام بين المستعمرات وبريطانيا يستطيع أن يضمن لكل من بريطانيا العظمى وأمريكا بقاء المزايا الجيدة التي تنشأ عن ارتباطهما" (١)

وأخيرا يخفف جيفرسون من نبرته الحادة ويقرر ان الملك جورج الثالث ملك للشعب الانكليزي وللمستعمرات الأمريكية، وعلى هذا الأساس يوجه اتهاماته للبرلمان الذي يريد اخذ حقوق الشعب الأمريكي، ويؤكد أن رغبة المستعمرات هي البقاء في حضن الوطن الأم وإنها لا تسعى للانفصال الذي ليس من صالحها، كما أن الشعب الأمريكي مستعد " لان يضحي بكل شيء يتطلبه العقل لإعادة الهدوء والسكينة"، أما من جانب البرلمان ونوابه فيجب أن " يكونوا على استعداد لإقامة الاتحاد بيننا على أساس مشروع يحفظ كرامة الأمريكيين. وليذكروا شروطهم ولتكن عادلة " ، ثم يطلب من الملك أن يوجه اللوم للبرلمان، وان المستعمرات الأمريكية مستعدة لكل تفضيل تجاري فيما يتعلق بالمواد التي تنتج فيها ويستخدمها الانكليز أو في تلك التي تصنع في انكلترا للتصدير إلى المستعمرات، وهنا يطلب من الملك بأن" لا يسمح لهم بأن يفكروا في إبعادنا عن الذهاب إلى الأسواق العالمية لنتصرف بسلعنا التي لا تستخدم في انكلترا أو في تموينا بالسلع التي لا تنتج في بريطانيا، ولا تدعهم يقترحون أن تخضع أملاكنا داخل حدود أراضينا لأي سلطة على وجه الأرض سوى سلطاتنا في تنظيمها أو فرض الضرائب عليها..." (٢). وما أراد جيفرسون قوله أن المستعمرات مستعدة لتصدير التبغ إلى انكلترا وفق شروط الحكومة البريطانية ومستعدة لاستيراد السلع المنتجة في انكلترا كالملابس والأثاث والآلات وغيرها، لكنها غير مستعدة لاستيراد السلع التي لا

(1) People of Virginia, P.23
(2) Ibid, Op.Cit, P.23

تنتج في بريطانيا منها والمقصود بذلك الشاي الذي فرضته الحكومة على المستعمرات وهو ينتج بالهند. وفي الفقرة الأخيرة أشارة واضحة لعدم قبول المستعمرات بقانون كيوبك الذي منح الإدارة البريطانية في شمال أمريكا (كندا) حق التصرف بالأراضي الواقعة جنوب غرب كندا، عادا تلك الأراضي تابعة للمستعمرات داخل حدودها.

ثم يعود جيفرسون إلى نبرته الحادة مرة أخرى ويهدد الملك بعبارات قوية مفادها أن " الله الذي وهب لنا الحياة وهب لنا الحرية في ذات الوقت وان القوة قد تدمرهما ولكنها لا يمكن أن تفصلهما، وهذا يا سيدي قرارنا الذي صممنا عليه" (١) فإذا لم يحقق الملك رغبة المستعمرات في حرية التجارة وحق التصرف بأراضيها فأنهم مستعدون للموت في سبيل ذلك لانه لا حياة بدون حرية، وأخيرا فأن أمريكا البريطانية " تدعو دعاءاً حارا ليتدخل الملك بنفوذه وجهوده لإنصاف مظالمهم الكبيرة ولنشر الأمان بين الرعايا في أمريكا البريطانية، ويخلصهم من مخاوف الاعتداء عليهم مستقبلا، وان يقيم الحب والانسجام الأخوي في أنحاء الإمبراطورية وان يظل على ذلك حتى آخر الزمن " (٢).

لقد وصفت وثيقة جيفرسون بأنها ذات لغة جيدة وأنها من أفضل ما كتبه بل إنها أفضل من إعلان الاستقلال،(٣) وان أفكار جيفرسون في نظرته الموجزة كانت متطرفة إلى حد كبير وهذا جعل المجتمعين في المؤتمر القاري الأول يرفضون تبنيها بياناً لهم(٤). وعلى الرغم من عدم قبول المجتمعين بوثيقة جيفرسون إلا أنها طبعت ووزعت بين الناس وبصورة سريعة ووصلت للرأي العام عن طريق جهود بعض أصدقاء جيفرسون(٥)، بل إن الوثيقة وصلت إلى بريطانيا بسرعة ونشرت هناك عن طريق ادموند بيرك Edmond Burke المعارض الانكليزي الذي استخدمها ضد الحكومة البريطانية، ويعلق جيفرسون في

(1) People of Virginia, P. 23
(2) Ibid , P.23
(3) Hatzenbuehler ,Op. Cit ,P11
(4) Froman , Op.Cit ,P12
(5) Jefferson , Op. Cit , P11

مذكراته على هذا الموضوع قائلا: " ...وجدت الوثيقة طريقها إلى انكلترا وتبنتها المعارضة فعدلها السيد بيرك ليجعلها تخدم أهداف المعارضة وقد نشرت بذلك الشكل بصورة سريعة وبعدة طبعات . وقد اخبرني راندولف أنها قد كسبت لي شرف تقييد اسمي في قائمة طويلة للمطلوبين وصيغت تلك القائمة بشكل قانون للاعدام وحرمان الأسماء الواردة فيها من الحقوق المدنية وقد بدأ عرضه في مجلس من مجلسي البرلمان البريطاني لكنه قمع في مهده لتسارع الأحداث مما جعلهم يكونوا حذرين في مثل هذه القرارات، وكانت الأسماء المذكورة حوالي العشرين اسماً اذكر منهم هانكوك وآدمز وراندولف وباتريك هنري وأنا" [1].

وعلى الرغم من عدم اشتراك جيفرسون في المؤتمر القاري الأول فأنه أصبح من قواد الثورة المشهورين والمنظرين لها وبات اسمه يسمع في المستعمرات الأمريكية على غرار باتريك هنري و بنيامين فرانكلين وجورج واشنطن و جون آدمز، فقد حققت نظرته الموجزة شهرة كبيرة له ليس في داخل المستعمرات فحسب بل وصلت شهرته إلى بريطانيا بوصفه معارضاً لنظام الملك جورج الثالث، واخذ يعرف باسم قلم الثورة، كما أن إدراج اسمه في سجل المطلوبين زاد في شهرته بين المتحمسين للثورة وأعطاه بريقاً دعائياً مجانياً.

وعلى العموم خرج المؤتمر القاري بالعديد من القرارات أهمها رفض الاعتراف بشرعية القوانين القسرية وقانون كيوبك، كما صدر عن المؤتمر ما عرف بإعلان الحقوق والمظالم (الشكاوي) Rights and Grievances ضد الحكومة البريطانية إذ طالبوا بإلغاء كل القوانين التشريعية التعسفية التي أقرتها الحكومة منذ سنة ١٧٦٣، وتكوين لجنة قارية تكون مهمتها تنظيم المقاطعة الاقتصادية للتجارة البريطانية. كما وافق المؤتمر القاري على الاستعداد للدفاع عن المستعمرات وهذا يعني تشكيل جيش من المليشيا المحلية، كما اتفقوا على الاجتماع في العام المقبل وفي المكان نفسه [2].على ان أهم ما صدر من المؤتمر هو القرارات التجارية التي منعت بموجبها المستعمرات من الاستيراد او التصدير

(1) Jefferson, P.11
(2) Alexander Johnston ,American political history , London 1905 , P.53

الى البلد الأم وعقد اتفاقية بين جميع المستعمرات على تفعيل هذا المنع ولإعطاء قوة لهذه الاتفاقية قام المؤتمر بتشكيل جمعية مهمتها تشكيل لجان التفتيش في كل منطقة محلية للتأكد من عدم وجود خرق لهذه الاتفاقية، كما تقوم بفحص السجلات الكمركية ومعاقبة التجار الذين انتهكوا تلك التنظيمات،وعلى تلك الجمعيات تشجيع الصناعات المحلية لأجل تقليل الاعتماد على الصناعة البريطانية.[١] وكانت الغاية من تلك الإجراءات تثبيت سلطة المؤتمر على المستعمرات الأمريكية زيادة على محاولة الاعتماد على الإمكانيات الصناعية للمستعمرات.

لكن قبل انعقاد المؤتمر الثاني بدأت الاشتباكات تقع بين رجال المستعمرات والجيش البريطاني، وأخذت بعض المستعمرات تشتري الأسلحة وتدرب مليشياتها، وقد نمى الى علم قائد الجيش البريطاني في بوسطن توماس جيج Gage Thomas وجود اعتدة كثيرة في مدينة كونكورد فأمر جيشه بالاستيلاء عليها وانطلق الجيش في الثامن عشر من نيسان عام ١٧٧٥ لتنفيذ الأمر، لكن المزارعين كانوا يرقبون تحركات جيج فسارعوا لتسليح أنفسهم وتجمعوا فجرا حاملين بنادقهم وكانت المليشيا تنتشر على طول الطريق[٢]،وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي حاصرت المليشيا قوات جيج البالغ عددها ٨٠٠ جندي واشتبك الطرفان عند مدينة لكسنتون Lexington وقتل ٦٥ جندياً بريطانياً وجرح ١٨٠ ووقع ٢٨ جندياً في الأسر، وفي المقابل قتل ٩٠ رجلاً من المليشيا التي بلغ عددها ٩٠٠ رجل[٣]، وهكذا بدأت الثورة الأمريكية تشق طريقها نحو الحرب مع بريطانيا.

(1) Oscar Handlin, The history of the united states, U.S.A 1967, vol. 1, P. 228
(2) Dorothy Marshall , Eighteenth Century England , 1963 , P. 431
(3) William E. H. Lecky , The American Revolution , New York 1906 , P. 201

ثالثاً: قيام الحرب وموقف جيفرسون

انضم توماس جيفرسون إلى المؤتمر القاري الثاني [١] في الحادي والعشرين من أيار ١٧٧٥، وكان على المؤتمر توضيح أسباب الحرب، ولذلك قدمت في الرابع والعشرين من أيار لجنة من المؤتمر تم تعينها مسبقا، بياناً تبين فيه أسباب حمل السلاح ضد الحكومة البريطانية وكانت تلك اللجنة برئاسة جون رتلج John Rutledge وقد وُضعَ البيان، لكنه لم يَلْقَ قبولا من المؤتمر فأعيد البيان إلى لجنة أخرى في السادس والعشرين من أيار وأضيف جون ديكنسون وتوماس جيفرسون إلى تلك اللجنة[٢] .

اعد جيفرسون مسودة البيان وعرضها على السيد ديكنسون الذي بدت لغة البيان متطرَفة بالنسبة إليه لأنه كان لا يزال يعتقد بأمل الصلح مع بريطانيا ولم يكن يرغب بأضعاف أمله في الصلح بتلك البيانات الهجومية،لذلك رفض مسودة جيفرسون لما تحمله من هجوم على الحكومة البريطانية. ولما كان ديكنسون رجلا أمينا وذا كفاية عالية لذلك "رجوناه أن يأخذ الورق وان يضع البيان في صورة يستطيع الموافقة عليها ففعل ذلك واعد بيانا جديدا كاملا واحتفظ بنسخة من مسودة البيان السابق الذي أعددته، وضمن الفقرات الأربعة والنصف الأخيرة من مسودتي فوافقنا وقدمنا البيان الجديد إلى المؤتمر فقبله" [٣] كما ذكر جيفرسون في مذكراته، وقد صدر البيان بالعنوان التالي "إعلان من قبل ممثلي المستعمرات المتحدة لأمريكا الشمالية المجتمعين في فيلادلفيا لبيان أسباب وضرورة حمل السلاح" وذلك في السادس من تموز عام ١٧٧٥ [٤]، وجاءت أهمية البيان في فقراته الختامية التي كانت من وضع جيفرسون، ولم تشتهر غير تلك الفقرات من البيان لما فيها من تثبيت لحقائق الأمور وتوضيح فعلي لأسباب حمل السلاح ولما

---

(١) اجتمع مندوبو المستعمرات للمرة الثانية قي فلادليفيا بتاريخ ١٠/٥/١٧٧٥، وهو ما عرف بالمؤتمر القاري الثاني،وكان برَئاسة بيتون راندولف ثم رأس المؤتمر في اليوم التالي جون هانكونك التاجر الثري من بوسطن، واستمر برئاسته ، للتفاصيل ينظر:

John Lenderum, History of the American Revolution, Vol, I, U.S.A. 1836, PP.96-97.

(2) Boyd , Op.Cit, P. 187

(3) Jefferson , Op. Cit ,P. 12

(4) Boyd , Op.Cit, P. 213

احتوتهُ من حماسة عالية ولاسيما عند الفقـرتين الأولـى والثانيـة مـن فقـرات جيفرسون التي جاء فيها " إننا أصبحنا متأكدين أن حاكم كندا البريطاني يحـرض الناس والهنود لمحاربتنا وهذا سبب كاف لحملنا السلاح ...إن جـزءاً مـن هـذه المستعمرات يشارك شعوره بالخوف مع كل المستعمرات الباقية من انتقام الوزارة لذلك فقد وجدنا أنفسنا إمام اختيار موقف من اثنـين:الخضـوع غيـر المشـروط لاستبداد الوزراء الظالمين، أو المقاومة بالقوة وقد اخترنا الموقـف الثـاني..فقـد حسبنا ثمن هذا النزاع ولم نجد شيئا أشنع من الاسـتعباد الاختيـاري، فالشـرف والعدل والإنسانية تمنعنا من إن نسلم دون دفاع عن تلك الحرية التي حصلنا عليها من أجدادنا الشجعان والتي لأحفادنا الأبرياء الحق في إن نسلمها لهم . لن نستطيع اختيار العار وجريمة تسليم الأجيال المقبلة لتلك التعاسة التي لا مفر منهـا والتـي باتت تنتظرهم لو إننا سلمنا وقبلنا بخسة توريثهم الاستعباد " [1]

حاول جيفرسون خلق شعور معاد للحكومة البريطانية داخل بريطانيا نفسـها ويتضح ذلك من خلال استهلالته الأولى، اذ عد تلك الحكومة المتمثلة بحاكم كنـدا تثير الناس هناك، وهم الكاثوليك الفرنسيون والهنود الحمر ضد الشعب الانكليـزي البروتستانتي في أمريكا، وذلك الشعب بدأ يشعر بالخوف من انقضاض الكاثوليـك والهنود عليه وهذا ما تشجعه الحكومة البريطانية، وبعد ذلك يحذر جيفرسون تلـك الحكومة من الاستهانة بقوة المستعمرات التي باتت الآن متحـدة وتمتلـك مـوارد وثروات داخلية قوية تؤهلها لمقاومة أعدائها، كما أن تلك المسـتعمرات مسـتعدة للحصول على دعم أجنبي ضد بريطانيا لان :" قضيتنا عادلة واتحادنا تام ومواردنا الداخلية عظيمة ومن الممكن الحصول على الدعم الأجنبي أذا كان ذلك ضـروريا ولكن رعاية الله وعنايته بنا تؤهلنا لخوض هذا الصراع بدون الاستعانة بـالأجنبي ... وبقلوب مؤمنة قوية نعلن أمام الله وأمام العالم أننا سنستخدم أقصى إمكانياتنـا التي انعم الله بها علينا. سنستخدم الأسلحة التي أجبرنا الأعداء علـى اسـتخدامها

(1) Quoted in , Boyd , Op.cit, P. 217

للمحافظة على حرياتنا وسنتحدى أي خطر بثبات وعزيمة لا تهن لأننا برأي واحد وقد عقدنا عزمنا على الموت أحرارا ولن نعيش أرقاء " [١] .

وبعد هذا التحذير الشديد اللهجة ينتقل جيفرسون ليخاطب الشعب الأمريكي والبريطاني معا موضحا أن حملهم السلاح لغاية الدفاع عن الحرية وليس لغاية الانفصال عن بريطانيا العظمى لكنه يؤكد من خلال عباراته التي اختارها بدقة، أن الحالة بين المستعمرات وبريطانيا هي حالة اتحاد وليست اتباع أو تبعية وان ذلك الاتحاد متوقف حاليا، ويتضح ذلك من خلال قراءة الفقرة الثالثة لجيفرسون وهي " كي لا يربك هذا التصريح أفكار أصدقائنا وإخواننا المواطنين في أي جزء من الإمبراطورية فأننا نؤكد لهم إنا لا نقصد إنهاء ذلك الاتحادْ الذي ظل بيننا لوقت طويل والذي نرغب صادقين قي أن نراه يعود. فالضرورة لم تدفعنا بعد إلى اتخاذ إجراء الانفصال كما أننا لن نحرض أي امة أخرى على الحرب ضدهم، أننا لم نجمع الجيش برغبة طامحة للانفصال عن بريطانياَ العظمى وإنشاء ولايات مستقلة . إنا لا نحارب من اجل المجد أو الغزو لكننا نبين للعالم موقفنا من شعب هوجم من أعداء لم يستفزهم ودون أي اتهام أو حتى شك في الاعتداء منهم، أنهم يتفاخرون بحضارتهم وامتيازاتهم لكنهم لا يقدمون لنا ألا شروطا صعبة الاختيار فأما الاستعباد أو الموت " [٢] .

وفي فقرته الرابعة والأخيرة بين جيفرسون سببا منطقيا آخر لحمل السلاح وهو أن الأرض الأمريكية هي أرض الأمريكيين وهم يدافعون عنها كما دافع آباؤهم و أجدادهم عنها ومن ثم فأن الحكومة البريطانية تعتدي على أراض لا تملكها وان الشعب الأمريكي لن يترك سلاحه إلا عندما تتوقف الأعمال العدائية من المعتدين الانكليز وحين " يزول كل خطر باحتمال تجددها وليس قبل ذلك" [٣]، وأخيرا فأن الأمريكان يتضرعون إلى الله تعالى احكم القضاة بأن يحميهم في

(1) Quoted in, Boyd, Op.Cit, P. 217
(2) Quoted in, , Ibid P.218
(3) Quoted in , Ibid, P.218

صراعهم العظيم ضد الحكومة البريطانية وان يقتنع أعداؤهم بقبول صلح معقول لإنقاذ الإمبراطورية من إخطار الحرب الأهلية [١].

لقد كان البيان شديدا في لهجته وجريئا من حيث عد الحكومة البريطانية معتدية على الشعب الأمريكي، فلم يسبق أن خاطب احد ما أو أي لجنة أو مؤتمر أمريكي الحكومة البريطانية بهذه الطريقة، لذا يمكن وصف البيان بأنه إعلان حرب بصورة غير مباشرة على الحكومة البريطانية، وكان كاتبا البيان جيفرسون وديكنسون يمثل كل منهما اتجاها يختلف عن الآخر في طريقة تعامل المستعمرات مع الحكومة البريطانية على الرغم من عدهما مشرعين ممتازين، لكن ديكنسون كان حريصا جدا ومحافظا بينما كان جيفرسون جريئا ومجددا، لذا كان من الطبيعي أن يختلف أسلوبهما، فلما اطلع ديكنسون على وثيقة جيفرسون قال:ـ" لا يا سيدي لا أوافق هذا الفرجيني ذا الرأس الحمراء على دفع المستعمرات إلى الثورة " [٢]. وحينما كتب البيان لم يترك من وثيقة جيفرسون سوى بعض المقاطع التي صنفها في آخر البيان وهي حسب رواية جيفرسون أربع فقرات ونصف فقرة، لكن لم يكن هناك من يؤرخ الأعمال فلم يعرف على وجه الدقة من كتب البيان بأكمله. وهنا لدينا تصريحان كل منهما يختلف عن الآخر فجيفرسون ذكر في مذكراته المنشورة عام ١٨٢٨ أن الفقرات الأربعة ونصف الفقرة الأخيرة من البيان هي من صياغته[٣]، بينما ذكر ديكسون أن البيان برمته هو من صياغته وحده بدون اعتماد أي كلمة أو جملة من شخص آخر ونشر البيان ضمن أوراق وكتابات ديكنسون المطبوعة عام ١٨٠١ [٤]. وفي الحقيقة هناك ميل عام لاعتماد كلام جيفرسون في مذكراته من العديد من المؤرخين، لان ديكنسون كان محافظا والتصريح جاء بلهجة شديدة وجريئة ولا تمكن نسبته إلى محافظ يريد عدم الثورة على الحكومة البريطانية، كما أن هناك تشابها كبيرا في

---

(1) Quoted in , Ibid, P. 218
(2) Quoted in , Lisitzky ,Op.Cit, P. 42
(3) Jefferson, Op.Cit ,P.12

(٤) للتفاصيل عن هذا الموضوع ينظر:
Boyd , Op.Cit , Declaration of the causes and necessity for taking up arms, Editorial note, 26 June to 6 July 1775, PP.187-212

الفقرات التي ذكر جيفرسون أنها من صياغته مع باقي كتاباته ولاسيما نظرته الموجزة وإعلان الاستقلال فيما بعد وهذا الكلام صحيح لدرجة كبيرة، ولكن يبقى سؤال واحد يحتاج إلى إجابة وهو: إذا كان ديكنسون قد نشر التصريح ضمن أوراقه ونسبها له وحده فلماذا لم يعترض جيفرسون الذي كان آنذاك رئيسا للولايات المتحدة على تلك الأوراق؟ ولماذا ترك الموضوع بدون تعليق في مذكراته؟ فهل هي الثقة بالنفس العالية أم انه لم يشعر إن ديكنسون يمثل ندا له؟ ولكنه في مواضع أخرى رد على ريتشارد لي هنري وجون آدمز وغيرهما فيما يخص الاتهامات التي وجهت له بكتابة إعلان الاستقلال، وهذا الإهمال المتعمد من جيفرسون يجعلنا نشك بصحة كلامه ولاسيما انه يثني على ديكنسون ويقدم له كل الاحترام والتبجيل في مذكراته بوصفه " رجلا أمينا وذا كفاءة عالية" (1) ووفق رأي جيفرسون بديكنسون بأنه رجل أمين فهل من الجائز القول إن جيفرسون هو الذي كذب في مذكراته بخصوص هذا الموضوع؟ وإذا أردنا إنصاف الاثنين فيمكن القول أن جيفرسون صادق فيما قاله وانه سلم نسخة لديكسون وان الأخير قد أعاد صياغة عبارات جيفرسون مع عباراته وأخرجها بالشكل التي هي عليه وهذا جعل ديكنسون يقول إن البيان برمته من صياغته، ومن جانب جيفرسون عد بعض الآراء الواردة في البيان قريبة من كتاباته فقال انه كتبها.

بعد إصدار بيان "لماذا نحمل السلاح" قدمت الحكومة البريطانية ما عرف آنذاك بمقترحات اللورد نورث الاسترضائية Lord North Conciliatory (Proposal) وكانت تلك المقترحات تتضمن السماح للمستعمرات بفرض الضرائب على نفسها من خلال مجالسها المحلية في حالة تمكن الحكومة البريطانية من تحديد مقدار الضريبة المطلوبة لكن بشرط موافقة المستعمرات على تموين الجيش البريطاني فيها بالأرزاق، مع رفض اللورد نورث الاعتراف بـ" المؤتمر القاري " وبأي اتحاد بين المستعمرات لذلك وجه مقترحاته إلى كل مستعمرة على حدة وطلب إن تتعهد كل مستعمرة بالعمل على إخماد الاضطرابات التي تنشب فيها زيادة على تعاون المستعمرات لوقف نشاط مستعمرة نيوانكلند

(1) Jefferson , Op. cit, P. 12

التجاري في البحار[١]. وفي الثاني والعشرين من تموز ١٧٧٥ قرر المجتمعون في فيلادلفيا الرد على مقترحات اللورد نورث ووقع اختيار اللجنة المشكلة من بنجامين فرانكلين وجون آدمز وريتشارد هنري لي على تكليف توماس جيفرسون بكتابة الرد، وكان بيتون راندولف آنذاك يحضر اجتماعا مع حاكم مستعمرة فرجينيا اللورد دنمور لدراسة مقترحات اللورد نورث، وكان جيفرسون قد اعد ردا على تلك المقترحات بناءً على طلب راندولف، الذي خشي أنْ يكتب الرد السيد نيكولاس لكونه" لم يرتفع فكره إلى مستوى الظروف" [٢]، ومن ثم فأن جيفرسون قد كتب ردا على مقترحات اللورد نورث، ولما طلبت منه اللجنة كتابة رد على تلك المقترحات اخرج رده الذي أعده عن مستعمرة فرجينيا وقد وافق أعضاء المؤتمر على رده بعد أن" قوبل بشكوك مريبة من قبل السيد نيكولاس والسيد ميرسر وصُب عليها ماء بارد من هنا وهناك مما أضعفها قليلا" [٣] .

لم يأت جيفرسون هذه المرة بشيء جديد فجوابه على مقترحات اللورد نورث كانت تشبه ورقة مختصرة عن نظرته الموجزة للحقوق، ففيه استعراض سريع للمظالم التي طالت المستعمرات من الحكم البريطاني طوال مدة أحد عشر عاما، وجاء في نص الرد مقتطفات من بعض البيانات الشديدة اللهجة التي تهجم فيها رجال الحكومة البريطانية على المستعمرات الأمريكية[٤]. لكن الرد على مقترحات اللورد نورث أصبح مسألة غير مهمة ولاسيما بعد اجتماع المؤتمر القاري الذي كان عليه مواجهة قضية الحرب العلنية التي بدأت تدور رحاها فلم يعن أعضاء المؤتمر القاري بمقترحات اللورد نورث التي كانت شروطها صعبة القبول لذلك لم يصدر رد رسمي من جانب المؤتمر القاري على تلك المقترحات .

عاد جيفرسون بعد ذلك إلى وليامزبورج ليأخذ مقعده بمجلس المواطنين في فرجينا بوصفه عضوا ممثلا لمقاطعة البيمارل، وفي الحال انتُخِب عضوا في مجلس المواطنين والانتخاب كان عن طريق الاقتراع فقد حصل جيفرسون على

---

(1) Lisitzky ,Op.Cit, PP. 40- 41
(2) Jefferson , Op. cit, P. 12
(3) Jefferson , Op. cit , P. 12
(٤) ينظر نص الرد في : Randal , Op.Cit, PP. 119-120

خمسة وثمانين صوتاً وقرر المجلس إرسال جيفرسون ليمثل فرجينيا في الاجتماع القادم بالمؤتمر القاري [١]. وعند عودته لمونتسليو بلغه نبأ سفر صديقه وصهره جون راندولف إلى بريطانيا للعيش فيها استنكارا منه للثورة ضد الانكليز، وقد استاء جيفرسون من تصرف صهره لكنه في الوقت نفسه أرسل له رسالة عبر فيها عن أسفه لسوء حالة المستعمرات التي دفعت صهره للسفر إلى بريطانيا، لكن تلك الرسالة عبرت عن حالة التناقض والتردد التي كان يعيشها جيفرسون في تلك الفترة فيما بين الاستقلال والبقاء في تبعية لبريطانيا، فقد أكد برسالته تلك رغبته بالصلح مع بريطانيا وطلب من جون راندولف بأن يسعى هو ومن معه من الأمريكيين المحافظين المقيمين في بريطانيا للإسهام في الصلح مع بريطانيا وفق شروط مقبولة مؤكدا انه يفضل البقاء مواطناً تابعاً لبريطانيا أذا كانت تلك التبعية محددة تحديدا مناسبا، على أن يكون تابعا لأية امة أخرى في الأرض، أما قصده من التبعية المحددة فهو عدم الخضوع لتشريعات البرلمان البريطاني وإذا ما اضطر لذلك فأنه سيكون واحدا " من الذين يفضلون إغراق الجزيرة البريطانية في المحيط " [٢] .

إن تلك الرسالة تبين عدم الرغبة الحقيقية لقادة الثورة بالانفصال عن بريطانيا في تلك المرحلة وان كل ما يريدونه هو الحصول على الحكم الذاتي وان لم ينطقوا به جهرا وجاء ذلك من خلال رسالة جيفرسون التي طالب فيها بأن تترك الحكومة البريطانية للمستعمرات حق إصدار التشريعات. لكن تعنت الحكومة البريطانية وعدم تقديرها للموقف بصورة صحيحة وتخبطها بإصدار القوانين والبيانات الشديدة اللهجة التي فهم منها المستعمرون أنها تريد القضاء على أي صوت يصدر منهم وقمع أي حرية وتدمير حياتهم الاقتصادية وإجهاض أي حركة سياسية قد تقوم في المستعمرات دفعهم باتجاه الاستمرار بالثورة ومن ثم إعلان الاستقلال،

---

(١) حصل راندولف على ٨٩ صوتاً وأصبح رئيسا لمجلس نواب فرجينيا،وحصل ريتشارد هنري لي على ٨٨ صوتاً وأصبح نائبا لراندولف، وبنيامين هاريسون على ٨٣ صوتاً وتوماس نيلسون على ٦٦ صوتاً وريتشارد ليند على ٦١ صوتاً وجورج ويث على ٥٨ صوتاً، للتفاصيل ينظر:

Forman , Op.Cit , P. 15

(2) Quoted in, Boyd , Op.Cit , P. 241

فبدلا من أن ينظر الملك جورج الثالث إلى مطالب المستعمرات ويحاول التحاور معهم أعلن في آب من عام ١٧٧٥ أن المستعمرات في حالة تمرد وعصيان[١]، وبدأ حاكم مستعمرة فرجينيا بأعماله العدائية ضد المستعمرة ومليشياتها التي كانت متمركزة في مدينة هامبتون Hampton فحاول اللورد دنمور حاكم المستعمرة إحراق المدينة لكنه لقي مواجهة عنيفة من الأهالي والمليشيا وعاد خائبا بعد أن تكبد خسائر فادحة[٢]. وفي مثل تلك الظروف نجد أن مواقف الرجال تتغير تبعا لها فلا نعجب حينما نرى نبرة مختلفة تماما تصدر من جيفرسون في رسالته الثانية إلى صهره جون راندولف التي جاء فيها" إن من سوء حظ الإمبراطورية أن يكون لها ملك بمثل هذه الأخلاق، إننا علمنا واثبت كل شيء صدق ماعلمنا انه ألد أعدائنا وقد أخبرته شكوانا في بداية هذا النزاع ... لكن نصيحتنا انتهت ..وان المستعمرات بعد أن رفعت سلاحها ليس أمامها سوى خطوة واحدة تستطيع أن تخطوها وأنها قد فرضت علينا ..." [٣]. وبهذه الرسالة أشارة واضحة لاستعداد المستعمرات للحرب التي لابد منها لأنها فرضت عليهم فرضا، ويعبر جيفرسون عن موقفه تجاه بريطانيا بالقول " ...ليس هناك شخص في الإمبراطورية يرحب بالاتحاد مثلي ولكن اقسم بالله الذي خلقني أنني سأزيل نفسي من الوجود قبل أن أوافق على اتحاد يقوم بمثل تلك الشروط التي يقترحها البرلمان البريطاني وأنا بذلك اعبر عن عواطف أمريكا" [٤]. لقد عبر جيفرسون بالفعل عن عواطف أمريكا التي رفضت مقترحات اللورد نورث جملة وتفصيلا،وقررت التصدي للجيش البريطاني ونيل الاستقلال مهما كلف الثمن .

في أثناء وجود جيفرسون في فرجينيا اخذ يتنقل بين وليامزبورج والبيمارل حيث عين قائدا لمليشيا مدينة ريتشموند وهي من توابع مقاطعة البيمارل، وكان عليه أن يزور الأفراد المتنفذين وملاطفتهم ومناقشتهم بالحق والمنطق لضمان دعمهم للثورة، وكان عليه جمع المال اللازم لشراء الأسلحة الضرورية لضمان

(١) ديب علي حسن، المصدر السابق، ص ١٢٨

(2) Quoted in, Boyd , P.268
(3) Ibid, P. 269
(4) Ibid, P. 270

الأمن العام في فرجينيا[١] .ولم يقم جيفرسون بأي عمل عسكري يذكر في ذلك الوقت على الرغم من وجوده في عمق الأحداث واتخاذه رتبة عسكرية وهي ملازم (لوتننت) ولم يبد أي ردة فعل تجاه ما قام به الحاكم دنمور بتحريض العبيد الذين قاموا بالاستيلاء على مساحة كبيرة من فرجينيا وكانت مدافن مونتسليو ضمن ما استولى عليه العبيد[٢]. لكن جيفرسون لم يحرك ساكنا ولم يذكر انه حارب الانكليز أو العبيد الذين استولوا على جزء من ممتلكاته وهذا يدل على أن الرجل تقاعس عن القتال مع انه طالما قال انه مستعد للموت في سبيل الحرية والحق والدفاع عن الأرض لكن عند وقت الجد تظهر معادن الرجال الحقيقية، وإذا قارنا جلوس جيفرسون في بيته وقيام باتريك هنري ـــــ الذي أعلن أحد الخارجين عن القانون ـــــ بملاحقة الحاكم دنمور ورجاله وإرغامه على دفع ثمن الذخيرة التي استولى عليها وشحنها بسفينة إلى انكلترا[٣]، نجد أن باتريك هنري رجل أقوال وأفعال بينما جيفرسون رجل أقوال ليس إلا.

رابعاً: جيفرسون يكتب بيان الاستقلال

وصل جيفرسون إلى فيلادلفيا في أوائل أيار عام ١٧٧٦ لشغل منصبه عضواً في المؤتمر القاري الذي بدأ يناقش فكرة إعلان الاستقلال منذ حزيران عام ١٧٧٦ وفي الحادي والعشرين منه أُلفت لجنة من خمسة أعضاء لوضع مسودة الإعلان وتكونت تلك اللجنة من توماس جيفرسون من فرجينيا وجون آدمز من ماساتشوستس وروجر شيرمان من كونيكتيكوت وبنيامين فرانكلين وروبرت د. ليفنجستون من نيويورك[٤] . وقد رغبت تلك اللجنة أن يقوم جيفرسون بكتابة المسودة، وكان جيفرسون آنذاك قد بلغ الثالثة والثلاثين من العمر لكنه اشتهر

---

(1) Lisitzky ,Op.Cit, P. 44; Passos, Op.Cit ,P.47
(2) Ibid , P. 48
(3) Ibid ,P.47

(٤) كان عدد الحاضرين أكثر من ستين عضوا مثلوا المجالس التشريعية للمستعمرات الثلاث عشرة واغلبهم من المحامين والأطباء والتجار ورجال الدين وبعض المزارعين، وبالنسبة للكثير منهم كانت هذه أول تجربة لهم في مواجهة مشاكل الحكم، ينظر:

Samuel L .Mitchill, A Discourse On The Character and Services of Thomas Jefferson ,New York 1826, P. 8;
Passos, Op.Cit PP.50-51; Jefferson,Op.Cit,P .20

بكتابة البيانات والمذكرات المعارضة للحكم البريطاني ومما يذكر هنا أن جيفرسون قد عرض على جون آدمز القيام بكتابة المسودة من قبيل اللياقة لكنه اعتذر عن ذلك فسأله جيفرسون عن السبب فقال له انه لديه العديد من الأسباب التي تدفعه للرفض فقال له جيفرسون ما أسبابك فأجابه قائلا " أولا أنت من فرجينيا ويجب إن يظهر الفرجيني على رأس العمل وثانيا أنا بغيض ومحل شك وغير محبوب شعبيا وثالثا أنت تكتب أفضل مني بعشرات المرات "[1]، وقد كتب جون آدمز فيما بعد عن جيفرسون في أثناء انعقاد المؤتمر قائلا" على الرغم من كونه كان عضوا صامتا الا انه كان صريحا جدا ودقيقا جدا،حازم وبسيط مع المجلس... وسرعان ما احتل مكانة في قلبي"[2].

أكمل جيفرسون كتابة مسودته قي يوم الجمعة الموافق الثامن والعشرين من حزيران عام ١٧٧٦ [3] وعرضها على صحبه في اللجنة فراجعها جون آدمز مبديا إعجابه بأسلوب جيفرسون الرفيع ولم ير من المناسب حذف أي شيء من المسودة واحتفظ بنسخة منها ثم قدم جيفرسون نسخة إلى فرانكلين الذي قرأ المسودة باهتمام كبير ولم يعترض على ما جاء فيها ألا انه فضل إبدال عبارة "نحن نؤمن بأن هذه الحقائق مقدسة لا تقبل الإنكار" بـ "نحن نؤمن أن هذه الحقائق واضحة لا تحتاج إلى بيان " أي انه حذف كلمة مقدسة كما اقترح بعض التعديلات القليلة في الصياغة لكنه كان راضيا جدا عن المسودة وأبدى إعجابه الشديد بها قائلا" وددت لو أني كتبتها بنفسي" واخبر جيفرسون بأن هذا الإعلان سيهز الإمبراطورية وسيصل صداه لمشارق الأرض ومغاربها أما روجر شيرمان فلم يبد أي معارضة عليها وكذلك بقية أعضاء اللجنة[4]

لم يكن جيفرسون في تلك اللحظات الحاسمة يفكر في مصير مسودته التي وضعها فقد كان واثقا من قدرته البلاغية كما زاد عدم اعتراض أعضاء اللجنة على مسودته اطمئنانا كبيرا لنفسه ولكن الشيء الذي كان يشغل باله في ذلك الوقت

(1) Quoted in , Dumas Malone , The Story of the Declaration of independence , New York 1954, P.70
(2) Quoted in, Agar, Op.Cit, P..113.
(3) Jefferson, Op.Cit,P. 20
(4) Quoted in , Malone , Op.Cit ,P 7

هو الانتخابات الدائرة في فرجينيا فهو بعيد عنها فهل سينتخب عضوا مرة أخرى في المجلس التشريعي أم انه سيسقط بالانتخابات. وقد أوضح مخاوفه تلك برسالة بعثها إلى احد أصدقائه القدامى في كلية وليام وماري السيد وليام فليمنج William Fleming المؤرخة في الأول من تموز عام ١٧٧٦، التي جاء فيها" ... لقد سقط هاريسون وبراكستون في الانتخابات واشعر باقتراب ذلك المصير مني، وهذا الشعور أزعجني ... انه موقف مرير أن يكون الإنسان على مسافة ثلاثمائة ميل من وطنه معرضا بذلك للاغتيال السري دون أن يتمكن من الدفاع عن نفسه " (١). ويتضح من خلال هذه الرسالة أن موضوع الانتخابات قد استولى على تفكيره، فهناك ما يقارب الستين عضوا يقومون بترقب مسودة إعلان الاستقلال بلهفة كبيرة ونراه في اليوم الأول من مناقشة الإعلان يخاطب صديقه عن أمر الانتخابات، وكأن لسان حاله يقول إن أمرهم جميعا لا يهمه، لأنه بذل ما في وسعه لوضع الكلمات المناسبة والعبارات الدقيقة مخرجا البيان بأكمل صورة.

وفي الثالث من تموز سلم جون هانكونك رئيس المؤتمر رئاسة الجلسة المنعقدة لمناقشة الوثيقة إلى بنجامين هاريسون لقراءة الوثيقة على الحاضرين وكان عنوانها " إعلان من ممثلي الولايات المتحدة في أمريكا المجتمعين في المؤتمر"(٢) وكانت عبارة الولايات المتحدة تستعمل لأول مرة في التاريخ فلم يسبق لأحد ما أن وصف المستعمرات بهذه التسمية، وبذلك يكون جيفرسون أول من أطلق هذه التسمية على المستعمرات ومن ثم هو الذي أطلق اسم الولايات المتحدة على المستعمرات، وقد استمر هاريسون بقراءة المسودة التي لم يعترض على بدايتها احد ما، لكن الاعتراضات نشأت على مفصلين مهمين في المسودة. وقبل الخوض بتفاصيل الاعتراضات سنقرأ مقدمة جيفرسون التي طالما شك الكتاب فيما بعد في اقتباسها من فلاسفة ومفكرين آخرين. جاء في تلك المقدمة" حينما يصبح من الضروري في مجرى الأحداث الإنسانية على شعب من الشعوب إن يتحلل من الروابط السياسية التي تربطه بشعب أخر، أن يتخذ لنفسه مكانة متكافئة

(1) Quoted in , Boyd , Op.Cit, PP.411-412
(2) Boyd, Op.Cit, Jefferson's" Original rough draught" of the declaration of independence. 423

بين قوى الأرض على قدم المساواة، وفق ما أهلته له الطبيعة وإرادة الله، فأن الاحترام الواجب لعقائد البشرية يقتضي إن يعلن ذلك الشعب الأسباب التي تحتم عليه الانفصال. أننا نؤمن أن هذه الحقائق واضحة لا تحتاج إلى بيان، وهي أن الناس جميعا خلقوا متساوين وان خالقهم منحهم بعض الحقوق التي لا يمكن التنازل عنها ومن بينها حق الحياة والحرية والسعي في طلب السعادة، ولتأمين هذه الحقوق أقيمت الحكومات بين الناس مستمدة قوتها من رضا المحكومين، وحينما يصبح أي شكل من إشكال الحكومات هداما لهذه الغايات فمن حق الشعب أن يغيرها أو يعزلها، وان يشكل حكومة جديدة تقوم على أساس تلك المبادئ وينظم سلطاتها بالشكل الذي يكون أكثر ملاءمة لسلامتهم وسعادتهم" (١) .

لم يعترض أي من الحاضرين على ما جاء في مقدمة الإعلان، فهي تعبير صادق عن حالة المستعمرات وعن ضرورة الانفصال، لكن الاعتراضات نشأت على نقطتين الأولى إشارة جيفرسون في مسودته إلى مسالة الرق وارتباط تلك التجارة بالحكومة البريطانية وبالملك جورج الثالث نفسه، بوصفه مشجعا لتلك التجارة، وكانت الفقرة المعترض عليها كالآتي " لقد شن الملك حربا ظالمة على الطبيعة الإنسانية ذاتها منتهكا أكثر حقوقها قدسية، حق الحياة وحق الحرية لأشخاص ينتمون إلى شعب بعيد لم يغضبه في شيء من قبل، حيث أسروا وأخضعوا للاسترقاق في النصف الآخر من الكرة الأرضية وتعرضوا لمخاطر الموت المأساوي في أثناء نقلهم إلى هنا، إن حرب القراصنة والسلوك المخزي للدول الكافرة هي حرب ملك بريطانيا العظمى المسيحي، وبتصميمه على الإبقاء على سوق تباع فيها الرجال وتشترى، أساء استغلال قدراته التي تمنحه حق الرفض، بهدف قمع المحاولات التشريعية كافة التي تسعى لمنع هذه التجارة البغيضة أو تقنينها. ويبدو من هذه الفظائع العديدة التي لم تتلون بأي صبغة غير واقعها، انه الآن يدفع أولئك الأفراد دفعا لينهضوا من بيننا في ثورة وليشتروا حريتهم التي حرمهم منها بالقضاء على الأفراد الذين فرضهم عليهم وبذلك قد

---

(1) Quoted in, Ibid, PP. 423-424

يكون دفع ثمن جرائمه السابقة التي ارتكبت ضد حيات شعب ما بدفعه لارتكاب جرائم أخرى ضد حياة شعب آخر" (١) .

ما ان سمع مندوبو جورجيا وكارولينا الشمالية هذه الفقرات حتى بدؤوا بالاعتراض عليها لان ذلك يعني إيقاف زراعتهم المعتمدة على العبيد، وقال مندوب كارولينا الشمالية " إن تلك الفقرة يجب أن تحذف بأسرها وإذا بقيت فأن كارولينا الشمالية لن توافق على الإعلان " كما أسرع مندوب جورجيا إلى القول "يجب أن لا يختلط الأمر علينا فقد يكون الرق خطأ ولكن إلغاءه ألان سيكون ظالما كل الظلم بالنسبة إلى جورجيا، انه سيختفي من نفسه بمرور الوقت ولكن زراعة محاصيلنا ألان تتوقف على عمل العبيد ونحن لا نستطيع أن نعمل بدونهم" (٢). ولعل هذا الحديث جاء معبرا بصدق عن واقع الجنوب الأمريكي الذي يعتمد اقتصاده على الزراعة المعتمدة على العبيد ولذلك تقرر إزاء الضغط الذي مارسه مندوبو جورجيا وكارولينا الجنوبية إلغاء تلك العبارة التي كانت ستؤدي إلى تفكك المستعمرات قبل اتحادها. وبهذا الصدد يذكر توماس جيفرسون أن فقرته تلك حذفت لمجاملة كارولينا الشمالية وجورجيا اللتين لم تحاولا مطلقا الحد من استيراد العبيد ولا تزالان ترغبان في مواصلة تلك العملية كما أن الشماليين اسهموا بحذف تلك الفقرة على الرغم من أنهم لا يملكون سوى عدد قليل جدا من العبيد ألا أنهم كانوا يقومون بنقلهم إلى الآخرين(٣).

وبالعودة إلى فقرة جيفرسون المحذوفة نجد فيها تحاملا كبيرا على الحكومة البريطانية التي حملها جيفرسون مسؤولية تجارة العبيد ونقلهم من أفريقيا بطرق وحشية تؤدي إلى موت العديد منهم في الطريق،علما ان الحكومة البريطانية لاتتحمل وحدها تلك المسؤولية على الرغم من اشتراكها بتلك العملية في بداية الأمر لكن من كان يقوم بعملية الاسترقاق هم الأمريكان عامة والجنوبيون خاصة. وإذا أردنا تحميل احد ما تلك المسؤولية فتتحملها المستعمرات الجنوبية وعلى

(1) Quoted in, Boyd, Op.Cit, P. 426.

(٢) نقلا عن : كورنل لنجيل، أربعة أيام من يوليو، ترجمة احمد عبد الرحمن عودة، القاهرة ١٩٦١، ص . ٢٥٠-٢٥١

(3) Jefferson , Op.Cit, P.21

رأسها فرجينيا مسقط رأس جيفرسون المنتخب لتمثيلها في المؤتمر فهم الذين كانوا يشجعون على تجارة العبيد ويتملكونهم ويستخدمونهم في جميع أعمالهم بل إن جيفرسون نفسه كان يملك أكثر من مئة وخمسين عبدا !! فكان الأجدر به قبل أن يتشدق بتلك المبادئ النبيلة أن يطلق سراح عبيده، بل انه لم يخش اللوم ولا التجريح في المؤتمر وهو قادم إليه ومعه عدد من العبيد ليقوموا بخدمته[1]،كما انه حاول إلصاق تهمة تجارة العبيد بالعرب المسلمين في إشارته " حرب القراصنة .. والسلوك المخزي للدول الكافرة" وسمى ملك بريطانيا بالمسيحي الذي يتعامل مع الدول الكافرة، وهذه فلسفة الأمريكان السياسية القائمة على أساس إلصاق التهم بالآخرين وإظهار أنفسهم بأنهم بعيدون عن الأعمال غير الإنسانية وأنهم يسعون لخدمتها .

أما الفقرة الثانية التي أثارت استياء بعض المندوبين فهي حديثه عن شعب بريطانيا وملكها الظالم الذي خاطبه الأمريكان متوسمين فيه السماحة وصلة القربى لكنه صم أذنيه عن نداء العدل والنسب[2]. ونص الفقرة المعترض عليها هي: " وحين أُتيحَت لهم الفرص بالمجرى المنتظم لقوانينهم ليزيلوا من مجالسهم المزعجين لانسجامنا أعادوهم إلى السلطة بانتخابهم الحر وفي نفس الوقت أيضا يسمحون لحاكمهم الرئيس أن يرسل ألينا جنودا لا من دمنا المشترك ولكن اسكتلنديين ومرتزقة أجانب ليغزونا ويدمرونا وان هذه الحقائق قد قطعت حبل الود المعذب بيننا، وتملي روح الرجولة فينا إن نتبرأ من هؤلاء الأخوة المجردين من الحس إلى الأبد وواجب علينا أن ننسى حبنا السابق لهم ونعاملهم كما نعامل بقية البشر، أعداء في الحرب وأصدقاء في السلام وكان من الممكن أن نكون شعبا عظيما حرا ولكن يبدو أن اتحاد العظمة والحرية وتبادلهما تحت مستوى كرامتهم

(١) يحاول بعض الكتاب أبراز الوجه الحسن لجيفرسون من خلال أدراج تعليقات تتعلق بحسن معاملته لعبيده في المؤتمر، كقولهم انه اشترى للعبد الفلاني حذاء او ماشابه ذلك لغرض تمويه القارئ وأبعاد نظره عن تناقض وازدواجية جيفرسون في مسألة العبيد وبالتالي التغاضي عن حقيقة كونه مالكا للعبيد وظل كذلك حتى وفاته، ينظر مثلا : كورنل لنجيل، المصدر السابق، ص ٣٩

(2) Boyd , Op.Cit, P. 426

أمر لا يسعون إليه إذن فليكن ذلك وسيكون لهم ما يريدون فان طريق السعادة مفتوح لنا وسنسلكه بعيدا عنهم" [١].

أثارت عبارة الاسكتلنديين ومن تبعهم من المرتزقة استياء الأمريكيين ذوي الأصول الاسكتلندية فما إن سمع الأب وذرسبون والسيد ولسون وهما من أصول اسكتلندية، حتى نهضا اعتراضا على تلك الفقرة وقال الأب وذرسبون" إنني احتج على تعبير الاسكتلنديين وغيرهم من المرتزقة الأجانب " كما صاح السيد ويلسون "يجب أن تشطب هذه الجملة" [٢]، كما اعترض الكثير من المندوبين على قيام جيفرسون بإلقاء اللوم على الشعب البريطاني بصورة عامة وأفزعهم قوله " فراقنا إلى الأبد" كما أن إلقاء التهم على الملك ووصفه بالعبارات القاسية لم يرض العديد من الحاضرين لذلك صار الرأي حذف تلك الفقرة برمتها. ويعزو جيفرسون حذف تلك الفقرة إلى الاعتقاد المثبط للهمم الذي مفاده أن فكرة ان لنا أصدقاء في انكلترا جديرين بالمحافظة على صداقتهم لم تزل تساور عقول الكثيرين ولهذا حذفت الفقرات التي تضمنت اللوم للشعب البريطاني[٣]. ولهذا لم يرض المجتمعون عن تلك الفقرة وكذلك الفقرة التي تليها والتي حملت المضمون نفسه وهي : " أن الولايات ترفض وتنبذ كل ولاء وخضوع لملوك بريطانيا العظمى وكل الملوك الآخرين الذين قد يدعون الملك بعد ذلك بوساطتهم أو عن طريقهم أو تحت اسمهم، ونحن نحل حلا كليا كل رابطة سياسية قد تكون قائمة بيننا أو بين شعب بريطانيا العظمى أو برلمانها وفي النهاية نصرح ونعلن أن هذه الولايات حرة مستقلة" [٤] .

هذه كانت اغلب الفقرات المهمة التي حذفت من مسودة إعلان الاستقلال ولكن هناك بعض الجمل القصيرة وكلمات تم حذفها أيضا وهي لم تؤثر في المسودة، وهنا لابد من الإشارة إلى انه لم تتم إضافة أي كلمة أو عبارة محل الجمل والعبارات المحذوفة، وأخيرا فأن المناقشات استمرت ثلاثة أيام ابتداء من الثاني من تموز حتى الرابع منه إذ انتهت بمساء ذلك اليوم وقدمت اللجنة الإعلان

---

(1) Quoted in Boyd , Op.Cit , PP. 426- 427

(٢) نقلا عن، كورنل لنجيل، المصدر السابق، ص ٣٥٢

(3) Jefferson , Op.Cit , P.21

(4) Quoted in , Boyd , Op.Cit , P.427

ووافق عليه المؤتمر وخلال الأيام الثلاثة التي استغرقها المؤتمر لقراءة الإعلان كان جيفرسون يلتزم الصمت حيال الانتقادات التي توجه للإعلان من هنا وهناك. ويخبرنا جيفرسون في مذكراته عن تلك المناقشات وموقفه منها انه فضل التزام الصمت وان يكون مستمعا سلبيا لآراء الآخرين وعدهم قضاة ذوي نزاهة عالية لمناقشة ذلك الإعلان كما يذكر انه كان يجلس إلى جوار الدكتور فرانكلين الذي لاحظ " أني أتلوى من اثر الانتقادات اللاذعة لبعض أجزاء الإعلان فأخبرني من باب التهدئة قصة جون تومسون صانع القبعات" .[1] وملخص القصة أن جون تومسون أراد كتابة لافتة لدكانه الجديد فعرضها على أصحابه الذين قاموا بالاعتراض على عبارات اللافتة حتى تحولت من "جون تومسون صانع القبعات يصنع ويبيع القبعات بالنقد" إلى "جون تومسون مع صورة لقبعة" وقد تعلم فرانكلين من هذه القصة قاعدة مفادها تجنب كتابة أوراق تعرض على الرأي العام [2] .

من خلال دراسة وثيقة الاستقلال تتبين لنا عدة أمور أهمها:

أولا: ركز توماس جيفرسون في وثيقته على الملك جورج الثالث وقد صب عليه سيلا من الشكاوي والاتهامات ففي مسودته نجد سبع عشرة تهمة وشكوى ضد الملك أما في الإعلان الرسمي فهناك أربع عشرة تهمة للملك يمكن إيجازها بالاتي :

١) قيام الملك باستدعاء الهيئات التشريعية في أماكن غير عادية وغير مريحة وبعيدة عن مراكز السجلات العامة لغرض إرهاق الهيئات التشريعية لتستجيب لإجراءاته وحل المجالس النيابية بصورة مستمرة لمعارضتها اعتداءاته على حقوق الشعب.

٢) محاولة منع الهجرة إلى المستعمرات .

٣) قيامه بتعطيل إدارة العدالة بإصدار القوانين التي تمنع استقلال القضاء في المستعمرات وإقامة المحاكمات خارج حدود الولايات .

٤) إرسال الجيوش وإبقاؤهم في المستعمرات في أوقات السلم لغاية فرض سلطته .

---

(1) Jefferson , Op.Cit , P.178
(2) Ibid , PP.178-17 9

٥) قطع تجارة المستعمرات مع العالم الخارجي وفرض الضـــرائب دون رضـــاها وسلبها بحارها وشواطئها.

٦) إثارة الفتن الداخلية بين أبناء الشعب ومحاولة جلب سكان الحدود "المتوحشـــين الهنود الحمر الذين لا رحمة عندهم"[١] .

ثانيا:ـ وجه جيفرسون بعد ذلك إعلانه إلى البرلمان البريطاني واهم ما جاء فيـــه "أننا لم نقصر بالاهتمام بإخواننا البريطانيين فقد حذرناهم من وقت إلى آخر مـــن محاولات هيئاتهم التشريعية أن تفرض سلطة لا مبرر لها علينا وذكرناهم بظروف هجرتنا واستقرارنا هنا وخاطبنا عدالتهم وسماحتهم الطبيعية وتوسلنا أليهم بروابط القربى المشتركة بيننا وبينهم أن يرفضوا هذه الاغتصابات التي من شأنها أن تقطع صلتنا ومودتنا" [٢] .

ثالثا:ـ بعد أن بين جيفرسون مظالم الملك والحكومة البريطانية للأمريكيين وعـــدم تدخل الشعب البريطاني لمنع تلك المظالم، جاء في النهاية الإعلان الرسمي عـــن انفصال المستعمرات عن بريطانيا العظمى نتيجة ما عانته من الظلم والاضـــطهاد ولذلك " فنحن ممثلي ولايات أمريكا المتحدة المجتمعين قي المؤتمر العام مبتهلـــين إلى الحكم الأسمى للعالم أن يرشدنا إلى الطريق الصحيح. نحن هنا نقـــوم باســـم وسلطة الشعب الطيب لهذه المستعمرات بالنشر والإعلان في قداســـة وإجـــلال إن هذه المستعمرات المتحدة تكون وينبغي لها عن حق إن تكون ولايات حرة مســـتقلة وأنها قد تحللت من كل ولاء للتاج البريطاني وان كل رابطة سياسية بينهـــا وبـــين دولة بريطانيا العظمى قد انحلت تماما وأنها كولايات حرة ومســـتقلة لهـــا ســـلطة كاملة في إعلان الحرب وعقد التحالفات السلمية وإقامة العلاقات التجاريـــة وكـــل الأعمال والأشياء الأخرى التي تفعلها عن حق الدولة المستقلة ولتأييد هذا الإعلان معتمدين في قوة وأيمان على حماية العناية الإلهية نتعهد بيننا وكل على صـــاحبه شاهد بأن نبذل أرواحنا وأموالنا في سبيل شرفنا المقدس " [٣]

---

(1) Boyd , Op.Cit, PP. 430-431
(2) Quoted in , Ibid, PP. 431- 432
(3) Ibid, P.432

ملاحظات على بيان الاستقلال

لم تتعرض وثيقة تاريخية للنقد والتحليل مثلما تعرضت لـه وثيقـة إعـلان الاستقلال فمنذ صدورها في ١٧٧٦/٧/٤ حتى يومنا هذا مازال الباحثون يتناولون الوثيقة بالبحث والتحليل والنقد ولا يكاد يوجد كتاب ما يتنـاول تـاريخ الولايـات المتحدة في هذه المرحلة إلا وزاد رأي ما على الوثيقـة التـي لا يتجـاوز عـدد صفحاتها أربع صفحات عادية ألا أن ما كتب عنها يتجاوز مئات الصفحات. وقبل الخوض بتلك الانتقادات لابد لنا من معرفة أمر أساسي من بأب إنصاف كاتبها إذ إن الرجل لم يكن يعلم أن مذكرته تلك ستعرض للعالم اجمع وستنال نصيبا كبيـرا من التحليل والمناقشة المستفيضة فقد اعتقد انه يكتب أعلانا عاديا وقد مرت سنون طويلة دون أن يعرف احد ما من كاتب إعلان الاستقلال ولم يهتم به احـد. وقـد ظهر الاهتمام بالإعلان في السنوات الأخيرة من حياته وبدأت معه الاتهامات التي وجهت لجيفرسون باعتباره اقتبس تلك الأفكـار مـن جـون لـوك وغيـره وان جيفرسون نفسه قد اهتم بتلك الاتهامات، ففي رسالة بعثها جيفرسون إلى صـديقه هنري لي المؤرخة في ١٨٢٥/٥/٨ دافع فيها جيفرسون عن إعلانه قـائلا :ـــ " اتفق رأي جميع الأحرار الأمريكان على الحقوق الأمريكية ولكن حين اجبروا على حمل السلاح لأنصاف أنفسهم وجدوا انه لابد من مخاطبة محكمة العـالم كـأجراء ملائم لتبرير موقفنا وهذا هو الغرض من إعلان الاستقلال ولم يكن الغرض منـه اكتشاف مبادئ جديدة لم يفكر فيها احد من قبل ولم يكن كذلك قول أشياء لم يقلهـا احد بل تمثل في وضعنا أمام الناس الرأي البسيط لموضوعنا في عبارات تبلغ من الوضوح والحزم مبلغا يضمن موافقتهم ويبرر أنفسنا في الموقف المسـتقل الـذي اضطررنا لاتخاذه" [1] .

وقد أشار جيفرسون في رسالته إلى موضوعات الاقتباسـات مـن مفكـرين آخرين وما قيل عن إن الأفكار الواردة في الإعلان ليست من أفكاره بأن الإعلان لم يكن يستهدف مبدأ ما أو عاطفة معينة أو أن يكون نسخة من أي كتابـة سـابقة

(1) Quoted in, Adrienne Koch and William Peden, The life and selected writings of Thomas Jefferson, New York 1944, P. 719.

وان ما قصده جيفرسون هو أن يكون تعبيرا عن العقل الأمريكي وان يضفي على ذلك التعبير اللحن المناسب والروح التي تتطلبها المناسبة، لكنه يقر بأن الإعلان اعتمد على " العواطف السائدة في ذلك العصر وسواء تم التعبير عنها في الحديث أو الرسائل أو المقالات المطبوعة أو الكتب الأولية عن الحق العام ككتب أرسطو وشيشرون ولوك وسيدني وغيرهم" [1] أي أن كتابة إعلان الاستقلال جاءت متماشية مع فكر عصر الاستنارة والحقيقة أن تلك الأفكار لم تكن حكرا لأحد بل أنها نتاج إنساني في مرحلة ما، وفي رد جيفرسون على جون آدمز ورتشارد لي هنري وتيموثي بيكرنيج Timothy Pickering " وزير الخارجية في عهد ادمز ١٧٩٦-١٨٠١" الذين اتهموه بالاقتباس من لوك واوتيس قال في رسالة الى جيمس ماديسون بتاريخ الثلاثين من آب عام ١٨٢٣ ما نصه: " إن آدمز وقد بلغ الثامنة والثمانين من العمر،يبدو إن ذاكرته قد أوقعته بالكثير من الأخطاء بخصوص هذا الموضوع... أما عن ملاحظات بيكرنيج وسيد آدمز التي تذهب إلى انه لا يشتمل على آراء جديدة وانه تجميع عادي وان عواطفه ترددت في المؤتمر مدة عامين قبل ذلك وان جوهر الإعلان موجود في رسالة اوتيس، أما هذه الملاحظات فقد تكون جميعا صادقة ولن أكون انأ الحكمُ في ذلك. واتهم رتشارد هنري لي الإعلان بأنه منسوخ من مقالة لوك في الحكومة. واني لم أر أبدا رسالة اوتيس ولا اعرف أن كنت جمعت أفكاري من القراءة أو من التأمل، ما اعرفه فقط أنني لم ألجأ إلى كتاب أو رسالة في أثناءَ كتابة الإعلان ولم اعتبر جزءا من مهمتي ابتكار أفكار جديدة تماما أو أن أقدم عاطفة مبتكرة لم يعبر عنها الشعب من قبل" [2] .

ولنقف عند جملته الأخيرة بأنه لم يعد ابتكار أفكار معينة جزءا من مهمته فلو كان يعلم أن إعلانه سيصل صداه إلى أرجاء العالم، لكان جهز ذلك الإعلان

(1) Quoted in, Adrienne Koch and William Peden, P. 719
(2) Quoted in , Joint Committee of Congress, The Writings of Thomas Jefferson, e-book ,N.D, P.7751; Joyce Appleby & Terence Ball, Thomas Jefferson, Political Writings , Cambridge University Press, United Kingdom 1999,e-book, P.xvi.

قبل شهور ولحاول إظهاره بصورة غير اعتيادية ولو فعل ذلك لما أصبح الإعلان مشهورا لأنه انتشر لبساطة كلماته وسهولة عباراته ووضوحها بحيث لا تحتاج إلى شرح فيفهمها الإنسان العادي بسهولة ويسر. وإذا كان جيفرسون قد اقتبس آراءه من جون لوك أو روسو فهل ابتكر آدمز أو رتشارد هنري لي أو الدكتور فرانكلين مبدءا فلسفيا أمريكيا جديدا للتنظير السياسي؟ ولندع الأستاذ هربرت شنيدر مؤلف كتاب تاريخ الفلسفة الأمريكية يرد على هذا السؤال، فبعد أن يعرف عصر الاستنارة يقول :ـ" لقد جمعت أمريكا في نشاط واحد تأملات وعواطف أجيال عديدة من المفكرين الأوربيين ...وما يحير مؤرخي الفلسفة هو حينما يشيرون إلى جون آدمز وبنيامين فرانكلين وتوماس جيفرسون وجيمس ماديسون كشخصيات عالمية ممتازة معبرة عن عصر الاستنارة، يضطرون بعد ذلك إلى التسليم بأن كتاباتهم مليئة بالأفكار الشائعة وعقولهم محتشدة باللبس والخلط فلم تكن لديهم مناهج للتفكير وكانوا يستعيرون قصدا معظم الأفكار المتفرقة التي يطبقونها في ميدان العمل" (١). فأذن لم يقدم أي من المؤسسين الأوائل للولايات المتحدة ومن ضمنهم جيفرسون فلسفة سياسية جديدة بل كل ما جاؤوا به هو نقل مقصود لأفكار الأوربيين في عصر الاستنارة. وحتى لا نكون مجحفين بحق الآخرين سنتناول موضوع الاقتباسات بحيادية تامة لبيان حقيقة إعلان الاستقلال لكونه القطعة الأدبية والفلسفية التي تمثل قمة النتاج الفلسفي الأمريكي في ذلك العصر.

إن أول من تناول موضوع الاقتباسات في القرن العشرين هو الكاتب الأمريكي هربرت فريدنوالد Herbert Friedenwald عام ١٩٠٤ الذي أكد حتمية قيام جيفرسون بالاقتباس من جون لوك ووضع العديد من المبادئ التي أتى بها لوك في مقالتين عن الحكومة وحدد فريدنوالد الاقتباس بأنه من الرسالة الثانية Second Treatise on Government للوك، وقد خلص فريدنوالد إلى القول إن جيفرسون هو رجل سياسة ولا تربطه أي علاقة من قريب أو بعيد بالفلسفة الأخلاقية (٢) . ثم تأتي دراسة كارل بيكر Carl L.Becker في كتابه الصادر عام

(١) هربرت شنيدر، تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، القاهرة ١٩٦٤،ص ٣٠

(2) Herbert Friedenwald , The Declaration of Independence: An Interpretation and analysis, New York 1904, PP.199-201

١٩٢٢ بعنوان " إعلان الاستقلال دراسة في تاريخ الأفكار السياسية" لتؤكد وجهة نظر فريدنوالد،كما أن بيكر قد آمن أيمانا تاما بأن توماس جيفرسون قد استنسخ أعمال لوك . وقد بنى بيكر اعتقاده على اساس أن معظم الأمريكان المتعلمين كانوا يعرفون جون لوك ويقرؤون كتاباته بل أنهم تشبعوا بها وعدوها نوعا من المزامير السياسية وان جيفرسون اقتبس من لوك أكثر من باقي المفكرين الأوربيين لان أفكار لوك تشربت في أفكار الأمريكيين(١). وفي الدراستين السابقتين اعتمد كل منهما على المنطق وتطابق الأفكار ولم يقدما أي دليل مادي على تلك الاقتباسات وقد اتبعهما المؤرخ هربرت جانتر عام ١٩٣٦ ليأتي بالأفكار نفسها لكنه ذكر بأن عبارة السعادة(٢) والبحث عنها مقتبسة من لوك بدون أي إضافة من جيفرسون كما أكد جانتر أن جيفرسون لم يذهب خارج حقل الأدب الانكليزي ووجد المبدأ الذي يريده ضمن هذا الحقل(٣).

وفي عام ١٩٦١ جاء وليبر هول بفكرة جديدة مفادها أن جيفرسون قد وصلت له أفكار لوك عن طريق أستاذه وليم سمول الاسكتلندي وقال إن الترتيب اللفظي واللغوي يتطابقان مع ترتيب لوك وهذا ما دفع باحثين آخرين للغوص في الفلسفة الاسكتلندية لبيان صحة ما جاء به هول وأكد بعضهم تأثر جيفرسون الشديد بتلك الفلسفة من خلال أساتذته الاسكتلنديين الذين كانوا على علم بأفكار لوك وآرائه ومن ثم تعلم جيفرسون تلك الأفكار من خلالهم في حين أكد آخرون أن جيفرسون

(1) Carl L.Becker, The Declaration of Independence studying the history of political ideas, New York 1922, PP.30-37, 53--79

(٢) إن عبارة السعي وراء السعادة أثارت اهتمام بعض الفلاسفة الأمريكان فيما كان يقصده جيفرسون، وقد ذكرت الفيلسوفة الأمريكية حنة ارندت الألمانية الأصل إن من المحتمل جدا أن جيفرسون نفسه لم يكن واثقا تماما بينه وبين نفسه بشان أي نوع من السعادة كان يعني حين جعل السعي وراء السعادة حقاً ثابتاً من حقوق الإنسان. فهل هو سعادة المرء بالحصول على حقوقه الخاصة ام السعادة العامة والتي تعني ،حسب وجهة نظر الفلاسفة، اشتراك الإنسان في الحكم السياسي, وفي النهاية تؤكد ارندت انه أي" كان القصد فانه مقبول، وان فكرة السعي وراء السعادة هي فكرة أمريكية بحته ، فيما نظر فيلسوف وكاتب أمريكي آخر وهو هوارد جونز الى موضوع السعي وراء السعادة باعتباره وهما وسراباً ، لان من حق الإنسان ان يعيش سعيدا وليس عليه ان يشرع قانونا ليسعى وراء السعادة وقال ما نصه :" ان الحق بالسعي وراء السعادة في أمريكا إنما نشأ في نوبة من نوبات فقدان العقل"، للتفاصيل ينظر:

Hannah Arendt , On Revolution, New York 1963 , PP.176-178; Howard Mumford Jones , The Pursuit of Happiness, Harvard University Press 1953,P.16

(3) Herbrt L. Ganter " Jefferson Pursuit of happiness and some forgotten Men" , WMQ,2d ser, 16(1936), PP.422-434,Quoted in , Hatzenbuehler, Op.Cit , P .12

قد استقى تلك الأفكار من جيمس ولسن James Wilson الذي كتب مقالة بعنوان " اعتبارات حول طبيعة وامتداد السلطة التشريعية للبرلمان البريطاني" عام ١٧٧٤. وكان الكتاب قد اكتشفوا التشابه الكبير بين الفقرة الثانية من إعلان الاستقلال وصياغة العبارة في الصفحات الثلاثة الأولى من مقالة ولسن التي جاء فيها " أن كل الرجال هم متساوون وأحرار بالفطرة ولا يوجد لشخص ما الحق في أن يكون أعلى من السلطة ...وان كل الحكومات قامت بناءا على موافقة المحكومين وان هذه الموافقة قد أعطت تأكيدا لزيادة سعادة المحكومين ...وان النتيجة لذلك ستكون سعادة المجتمع وهي الأساس الأول لكل حكومة ...وان السلطات قد اشتقت من الشعب وبالتالي فأن سعادته هي غاية الحكومات " ، (١) كما أنهى ولسن مقاله هذا بشرح صلاحية الملك وسلطته وعلاقته بالمستعمرات الأمريكية وألقى اللوم على البرلمان البريطاني حول المسائل العالقة بين الحكومة البريطانية والمستعمرات الأمريكية(٢)، فهل نقل جيفرسون تلك الأفكار مباشرة من ولسن ؟ بهذا الصدد يؤكد بيكر أن ولسن نفسه قد ذكر انه اقتبس أفكاره من جون لوك وذكر بيكر أيضا أن جيفرسون لم يقتبس تلك الأفكار من ولسن بصورة مباشرة وإنما كانت تلك الأفكار منتشرة في ستينيات القرن الثامن عشر ومن ثم فأن جيفرسون كتب فيما كان يفكر به الناس في تلك المرحلة(٣) .

من جهة أخرى ذكر مؤرخون آخرون مثل جون فتزباتريك عام ١٩٢٤، بأن إعلان الاستقلال نتج عن فكر فرجيني خالص وليس انكليزياً أو اسكتلندياً وأكد فتزباتريك أن في تلك الفترة ظهرت ثلاث كتابات فرجينية مهمة احدها اتهامات جيفرسون ضد الملك جورج الثالث واستعداده لعمل دستور لفرجينيا، وإعلان جورج مايسون George Mason للحقوق، وقرارات رتشارد هنري لي بشأن وحدة المستعمرات واستقلالها. ورجح فتزباتريك ان يكون جيفرسون قد اقتبس الكثير من الآراء في إعلانه من إعلان الحقوق لمايسون وقد وجد تشابهاً كبيراً في الفقرات الثلاثة الأولى من إعلان الحقوق والفقرة الثانية من إعلان الاستقلال وقال

(1) Quoted in, Hatzenbuehler, Op.Cit , P. 12
(2) Ibid, P .12
(3) Becker, Op.Cit ,PP.109-116

انه بينما كان المؤتمر القاري مجتمعاً وصلت الى جيفرسون نسخة من إعلان مايسون من خلال الطبقات العامة وان جيفرسون بما عُرف من مهارة أدبية استطاع صهر تلك الوثيقة مع الأفكار التي تطابقت في دماغه(١). وقد نالت تلك الفكرة استحسان بعض الكتاب الأمريكان بدءاً من كليبرت شينارد(٢) الذي حذا حذو زميله غير انه توسع في معالجته لوثيقة مايسون واقر بأن جيفرسون قد اقتبس عباراته منها وختم حديثه بالقول " ان جيفرسون عبر عن رأي وفكر زملائه الفرجينيين" (٣) أي أن إعلان الاستقلال وكلماته هو نتاج فرجيني خالص .

وأخيرا في عام ١٩٤٥ قام جوليان بي بويد Julian P.Boyd الذي جمع كتابات وأوراق جيفرسون في ستة وعشرين مجلداً بمتابعة تطور إعلان الاستقلال بصورة منتظمة ومفهرسة وذلك عبر عرض نسخ مسوداته المختلفة. وعلى الرغم من اتفاقه مع شينارد وفتزباتريك في ان جيفرسون " يجب ان يكون قد شاهد إعلان فرجينيا للحقوق في صحيفة Pennsylvania Evening Post في السادس من حزيران عام ١٧٧٦" الا انه ومن خلال متابعته للمسودات جميعها اكد ان كلا من جيفرسون ومايسون قد استنسخا أعمال جون لوك في أفكارهما(٤)

.

ومن خلال ما ذكر(٥) نجد ان جيفرسون قد استنسخ أعمال جون لوك سواء أكان ذلك بصورة مباشرة من خلال مقالة لوك عن الحكومة او بصورة غير

---

(1) John C.Fitzpatrik, The spirit of Revolution :new light from some of The Original sources of American history, Boston 1924,PP.6-7

(٢) طبع الكتاب لأول مرة في بوسطن عام ١٩٢٩ والباحث اعتمد على الطبعة الثالثة الصادرة في بوسطن ايضا عام ١٩٤٣، لذا وجب التنويه

(3) Chinard ,Op.Cit, P.74

(4) Julian P. Boyd ,The Declaration of Independence: The evolution of the Text as shown in facsimiles of various drafts by its author , Thomas Jefferson , Princeton 1945, PP.14-15

(٥) هناك العديد من المصادر الأخرى التي تناولت موضوع الاقتباسات لكن الباحث اعتمد المشهور منها بغية عدم الإطالة، والبعض قد اعطى حكما مسبقا بقيام جيفرسون بالاقباس دون تقديم أي مراجعة او دليل، مثل قوله "من الواضح ان جيفرسون قد اقبس جملا جميلة من جون لوك" ، ينظر:

Martin Diumond ,The American Revolution three Views, New York 1975, PP.63-64.

ومن الملاحظ ان دوماس مالون قد وضع كتابا بثلاثمائة صفحة بعنوان قصة إعلان الاستقلال تطرق فيه للمناقشات التي سبقت الإعلان النهائي بشيء من التفصيل، وموجز حياة الموقعين على الإعلان، لكنه لم يأت على ذكر الاقتباسات في إعلان الاستقلال أبدا ولا حتى تلميحا بسيطا، ينظر :

. Malone، Op.Cit

مباشرة بالاعتماد على مقالة جيمس ولسن او وثيقة جورج مايسون، لكنه في الوقت نفسه نظم اقتباساته وصهرها لتخرج بصورة معبرة عن حقوق المستعمرات للمطالبة بالحرية والاستقلال ولتبيين أسباب الانفصال عن بريطانيا ودواعيه، مسوغة في الوقت نفسه حق الثورة على الطغيان الملكي ولتعطي ذلك الزخم الإعلامي لمواطني المستعمرات المترددين في الثورة على بريطانيا وتشجعهم على الانخراط فيها ودعم قادتها السياسيين لتحقيق مطالبهم. وعلى كل حال نفذ جيفرسون ما طلب منه وقدم بلاغا انسجم بصورة تامة مع مبادئ ذلك العصر (عصر الاستنارة) بوصفه واحدا من سياسييه النشطاء وليس من فلاسفته.

كما ان هناك من اعتبر ان فكرة العقد الاجتماعي برمتها هي فكرة متأصلة بين المستوطنين الأوائل الذين وضعوا تلك الفكرة موضع التنفيذ وليس رجال الثورة، وان أولئك المستوطنين قد طبقوا ذلك " ولم تكن لديهم بالتأكيد أي فكرة عن أي نظرية" وقد اعتمدوا على اتفاقية كامبريدج عام ١٦٢٩ التي كتبها بعض الأعضاء البارزين في شركة خليج ماساتشوستس قبل ان يبحروا الى امريكا، والتي جاء فيها إننا نتعاهد ان نقوم " بشكل ثابت وبوجود الله وحضور احدنا مع الاخر بان نجمع انفسنا في كيان سياسي ٠٠٠واستنادا الى ذلك ان نضع ونكون ونصوغ ما هو عادل ومتساوي من القوانين والأنظمة والدساتير والشعائر من وقت الى اخر مما هو يتفق مع الصالح العام للمستعمرة ٠٠٠" ، واعتبروا ان الولايات المتحدة اذا كانت تدين لأحد فإنها تدين للفكرة وليس لواضعيها، لان الفكرة طبقت في المستعمرات قبل ان تكتب، وقد قدمت الكاتبة والفيلسوفة الامريكية حنة ارندت بحثا فلسفيا وتاريخيا عميقا جدا ومقنعا فيما يتعلق بهذا الموضوع ولمراجعة تلك الطروحات ينظر :-

Hannah Arendt , On Revolution, New York 1963, PP.241-256

المبحث الثاني

جيفرسون عضوا في مجلس فرجينيا التشريعي ١٧٧٦- ١٧٧٩

بعد إصدار إعلان الاستقلال انتدب المؤتمر القاري توماس جيفرسون وبنيامين فرانكلين وسيلاس دين Silas Dean للسفر إلى فرنسا لدراسة عقد تحالف معها[١].وكان قرار المؤتمر على ما يبدو بدون علم جيفرسون وقد جاء فيه : " تقرر تعيين ثلاثة أشخاص يكونون مفوضين في البلاط الفرنسي وبعد الاقتراع تم اختيار السيد فرانكلين والسيد دين والسيد جيفرسون ...وتقرر ان يتم إرسال رسالة مستعجلة إلى السيد جيفرسون لإخباره حول تعيينه وان يتم في ذات الوقت إرسال نسخة من القرار السري له وان تتم مطالبته بإخبار الرئيس عن المكان والزمان الذي سيلاقيه فيه المركب البحري" [٢]. وكانت تلك الرسالة موقعة من جون هانكونك رئيس المؤتمر القاري وصادرة في السادس والعشرين من أيلول عام ١٧٧٦. ويتضح من تلك الرسالة ان فرانكلين وسيلاس دين كانوا على علم بأمر تفويضهم أما جيفرسون فلم يكن على علم بذلك الأمر ولهذا تردد جيفرسون في الذهاب وظل حائرا بين تحقيق حلمه بالسفر إلى أوربا وبين المكوث في فرجينيا لمتابعة أمور داره وزوجته المريضة ولاسيما بعد وفاة ابنته الصغيرة وتعرضه لنوبة جديدة من الحزن وأخيرا قرر الجلوس في داره واعتذر عن السفر وعاد إلى وليامزبورج حيث أعيد انتخابه في أيلول من عام ١٧٧٦عضوا في مجلس ولاية فرجينيا الجديد الذي أصبح برئاسة باتريك هنري[٣]. وعمل جيفرسون خلال ثلاث سنوات على سن وإصدار تشريعات وقوانين جديدة لخدمة الصالح العام في فرجينيا ولإكمال دستور فرجينيا الذي اقر حينما كان جيفرسون يحضر اجتماعات المؤتمر القاري وقد وجد فيه جيفرسون كثيرا من العيوب والنواقص لذلك كافح خلال هذه المدة في سبيل إقرار قوانين الأرض والتعليم وإقامة القوانين الدينية وقوانين الحد من تجارة العبيد وإصدار العديد من

(1) Henry Childs Merwin, Thomas Jefferson, New York 1901, P. 45
(2) Quoted in , Boyd , Op.Cit , P.521
(3) Listitzky, Op.Cit,PP48-49

التشريعات الأخرى حتى بلغ عدد القوانين واللوائح التي صاغها ما يقرب من مئة وستة وعشرين خلال تلك المدة وكانت الغاية من هذه التشريعات إصلاح فرجينيا وتحديثها (١) .

استطاع جيفرسون الحصول على معاونين أكفاء لغرض تمرير تلك المشاريع في الهيئة التشريعية كان أهمهم جورج ويث وجيمس ماديسون الذي وصفه جيفرسون بأنه شاب شديد العزم والكفاية والحماسة، وجورج مايسون وهو من الطراز الأول في الحكمة بين أولئك الذين عملوا على مسرح الثورة،ذو عقل متسع ورأي عميق قوي في المحاججة وكان ملماً بالدستور السابق وذا معرفة تامة به. وفي الخامس من تشرين الثاني ١٧٧٦ وافقت الهيئة التشريعية لولاية فرجينيا على مراجعة القوانين الفرجينية السابقة وشكلت لجنة للقيام بذلك متكونة من جيفرسون وادموند بندلتون وجورج ويث وجورج مايسون وتوماس لي، لكن تلك اللجنة قلصت بعد اعتذار جورج مايسون واستقالته من اللجنة ووفاة توماس لي. وعكفت تلك اللجنة على العمل على تغيير دستور فرجينيا منذ تشرين الثاني ١٧٧٦ حتى آذار من عام ١٧٧٩ إذ أنجزت اللجنة النسخة النهائية من التعديلات وقدمها للمجلس في ١٨تموز ١٧٧٩. ويذكر جيفرسون أنهم اعتمدوا على جميع القوانين البريطانية من الماكناكارتا إلى وقت الثورة وجميع قوانين فرجينيا منذ تأسيس الهيئة التشريعية وقد " رأينا انه ينبغي المحافظة عليها في نطاق مائة وستة وعشرين مشروع قانون مكونة مجلدا مطبوعا من الحجم الكبير في تسعين صفحة"(٢) .

أن مشاريع القوانين التي كتبها جيفرسون لم تلق تأييدا كبيرا في المجلس التشريعي لفرجينيا وبقيت مدة طويلة تراوح مكانها حتى استطاع تلاميذ جيفرسون جيمس ماديسون وجيمس مونرو الحصول على الأصوات اللازمة لتمريرها واغلب تلك المشاريع تمت الموافقة عليها بين الأعوام ١٧٨٥- ١٧٩٦ بجهود مضنية بذلها جيمس ماديسون ومونرو وجورج مايسون أيضا. كما أن اغلبها قد

(١) يمكن متابعة تفاصيل هذه المشاريع في

Boyd ,The Papers, Op.Cit, Vol,2, 1777-1779,PP.336-657

(2) Quoted in , Jefferson, Op.Cit, PP.45-46

قلص وبعضها أصابه التشويه جراء التغييرات التي طرأت عليه وبعضها الآخر رفض تماما وبقي بدون تنفيذ، ولتسهيل دراسة تلك المشاريع سنعمد إلى ذكر المهم منها وعلى النحو التالي:

أولا: قانون الإرث(الابن البكر)

بعد قيام الاستكشافات الجغرافية وتأسيس المستعمرات الانكليزية في قارة أمريكا وزعت الأراضي فيها طبقا للنظام الإقطاعي الانكليزي، أي ان الأرض التي يتملكها أول شخص في أسرة معينة تبقى حكرا لأولاده وأحفاده إلى ما لانهاية. وعند بداية الاستيطان كان باستطاعة النبلاء الحصول على الأراضي لقاء ثمن زهيد اوبدون مقابل وفي حينها حصل بعض الأفراد الحريصين على مساحات شاسعة من الأراضي وطبقا للنظام الإقطاعي الانكليزي أوقفت تلك الأراضي للورثة الشرعيين وهم الأبناء البكر لأصحاب الأرض ومن ثمّ كلّ لابنه البكر وهكذا أوجد انتقال الأرض من جيل إلى آخر،مجوعة من الأسر البارزة التي امتلكت اغلب الأراضي وكونت طبقة من الأثرياء تميز أفرادها بفخامة مساكنهم ومنشآتهم ورفاهيتهم[1]، وهم ما عرفوا فيما بعد بالطبقة الأرستقراطية الفرجينية. وقد وجد جيفرسون أن قوة تلك الطبقة مستمدة من القانون الذي يحميها، وكان من الأفضل أن يملك سكان البلاد المزارع بحرية ولكن هذه المزارع لا يجوز أن تتسع إلى حد أشغالها بمئات العبيد كما وجد في قانون الابن البكر ظلماً كبيراً إذ ينص على انه إذا مات الرجل دون وصية فأن تركته تنتقل إلى ابنه البكر الذكر الذي لا يستطيع أن يعطي منها شيئاً لأخوته ولو أراد لان الإقطاعية متروكة هكذا بمشيئة الجد وجد الجد فهي غير قابلة للتقسيم وعلى الوارث البكر أن يسلمها لابنه البكر، وقد زاد أهالي فرجينيا على ذلك القانون بإرغام العبيد العاملين في الاقطاعات الزراعية على الانتقال بالإرث إلى خدمة الابن البكر الوارث.[2]

ولهذا جاء في مشروع قانون جيفرسون أن توزع الأرض بعد وفاة الأب إلى أبنائه بالتساوي ذكورا وإناثا كي لا يزداد الغني غنىً ولا الفقير فقرا، كما أن ذلك

(1) Dewey, Op.Cit, P.109
(2) Listizky,Op.Cit, P. 51

القانون سيؤدي إلى انقسام الأرض وبمرور الزمن لن يكون هناك مالكٌ واحدٌ لمساحة شاسعة من الأرض ومن ثم يتزعزع نظام ارستقراطية الأرض. لكن مشروع القانون هذا جوبه بمعارضة شديدة حتى من أعضاء لجنة جيفرسون ومساعديه فقد عارضه أستاذه جورج ويث وادموند بندلتون الذي عده جيفرسون من اقدر الرجال البارزين في المناقشة والمحاججة[1]. ولما كان الرجلان شديدي التحمس لوجهتي نظرهما المختلفتين عن وجهة نظر جيفرسون فقد ظهرت الحلول الوسطى وبعد مناقشات حامية وتبادل الآراء اقترح بندلتون العمل بالمبدأ العبراني(اليهودي) الذي يخص الابن الأكبر بحصتين بدلا من واحدة(أي كل وراث يأخذ حصة ألا الكبير يأخذ حصتين). وعلق جيفرسون على اقتراح بندلتون قائلا: "إني أوافق بشرط أن يكون بمقدور الابن الأكبر أن يأكل ضعفي غيره وان يعمل ضعفي غيره ولو حقق ذلك سيكون من حقه الطبيعي الحصول على حصتين لكنه لما كان مساويا لإخوانه وأخواته فيما يتمتع به من قوة فينبغي أن نساوي بينه وبين أخوته عند تقسيم الإرث" [2]. وأخيرا توصل الطرفان إلى حل وسط تمثل بأنه إذا مات الرجل دون وصية فيحق لأبنائه اقتسام التركة فيما بينهم بالتساوي[3]، وبذلك نجح جيفرسون في تحقيق غايته إلى حد كبير ولاسيما اغلب الرجال ما كانوا يرغبون بترك احد أبنائهم يستولي على الأرض والثروة دون إخوته ويتركهم فقراء، وان قبل بذلك احد فأنه لا يمثل سوى نسبة قليلة جدا لن تؤثر في كل المجتمع، وفي الحقيقة كان جيفرسون موفقا إلى حد كبير في إقرار ذلك القانون الذي يمكن ان نسميه بأنه الضربة الحقيقية التي وجهت لارستقراطية الأرض .

(1) Hitchens,Op.Cit, P.43
(2) Quoted in, Dewey, Op.Cit, P.110
(3) Listizky,Op.Cit, P.52

ثانيا: التربية والتعليم

عمل جيفرسون باتجاه الإصلاحات التربوية من خلال لائحة "الانتشار العام الأكثر للمعرفة" the more general diffusion of knowledge التي قدمها عام ١٧٧٩ إلى المجلس التشريعي لولاية فرجينيا وقد شدد جيفرسون من خلال تلك اللائحة على ان التعليم هو أفضل وسيلة لمواجهة الطغيان في الحكم مؤكداً على ان " التجربة أكدت انه في ظل أفضل الأنظمة قد أساء من يملك السلطة استخدام سلطته هذه ، فحولها إلى نوع من الطغيان بمرور الوقت وبالتدريج . وان أفضل طرق الحماية من هذا الطغيان تنوير عقول الشعب عموماً في حدود المتاح، وخاصة تعريفهم الحقائق التي يشير اليها التاريخ كما ان هذه المعرفة بعصور أخرى ودول أخرى قد تمكن الشعب من معرفة المطامع بكل أشكالها، ومن ثم تمكنه من بذل كل الجهود الطبيعية لمكافحتها"[١] أي ان تعليم الشعب سيكون بمثابة دعامة قوية ضد الاستبداد في الحكم وسيكون نصيراً للديمقراطية لان المتعلمين غالباً ما يكونون متنورين ولا يتقبلون الأفكار الاستبدادية، ومن ناحية أخرى شدد جيفرسون على ان الشعوب السعيدة هي تلك الشعوب التي تنعم بأفضل القوانين وتطبقها أفضل تطبيق وان القوانين التي تتشكل وتطبق بحكمة تبعا لحكمة من يشكلها ويطبقها يصبح من الملائم لرخاء الشعب وسعادته ان " يصبح افراده الذين منحتهم الطبيعة الفضيلة والعبقرية مؤهلين لتولي مسؤولية حقوق مواطنيهم وحرياتهم وحمايتها بموجب التعليم الحر، وان من الواجب توليتهم هذه المسؤولية بغض النضر عن ثرواتهم او أصولهم او أي سبب آخر . وحيث ان الفقر يمنع الأغلبية من عامة الشعب من تعليم أبنائهم الذين كونتهم الطبيعة وهيأتهم لخدمة الصالح العام، على نفقتهم الخاصة، فمن الواجب علينا البحث عن هؤلاء حتى نمنحهم فرص التعليم على نفقة الشعب عامة ، فذلك أفضل من ان تقتصر سعادة الجميع على قلة من الضعفاء والأشرار" [٢]. والواضح من مقدمة اللائحة ان جيفرسون سعى إلى تنوير الشعب الأمريكي بالأفكار الحرة من خلال التعليم.

---

(1) Boyd , Op.Cit, PP.526-527
(2) Ibid, P. 527

وقد تضمنت تلك اللائحة مشروع قانون لإنشاء مدارس عامة في مختلف مناطق فرجينيا وضواحيها بناء على حجم السكان في تلك المناطق على أن تقوم تلك المدارس بتعليم القراءة والكتابة والحساب العام وتعرفهم بأحوال اليونان والرومان والانكليز وتاريخ أمريكا، كما أكد في لائحته أن يكون التعليم في تلك المدارس مجانياً لجميع التلاميذ من الذكور والإناث. وقدم جيفرسون في هذه اللائحة دراسة تفصيلية عن الأماكن التي يمكن إقامة تلك المدارس فيها وأشار في دراسته الى نوعية المناهج الدراسية التي يجب أن يدرسها التلميذ فهو يرى ان يُعلّم التلاميذ قواعد اللغة اللاتينية والإغريقية والانكليزية والجغرافية والتاريخ وهذه أساسيات التعليم الابتدائي حسب وجهة نظره(١). كما قدم جيفرسون لائحتين أُخرَيَيْن في العام نفسه احداهما للتعليم الوسطي لتطوير كلية وليام وماري والأخرى لتأسيس مكتبة عامة(٢) .

لم تلقَ لوائح جيفرسون أي موافقة من مجلس فرجينيا التشريعي في البداية، وقد أسهب جيفرسون في شرح نظريته عن التعليم في مذكراته وفي كتابه "ملاحظات عن فرجينيا" Notes On Virginia المطبوع عام ١٧٨٤ (٣). إذ اقترح ثلاث درجات للتعليم، ومدارس أولية لجميع الأولاد على وجه العموم فقراء وأغنياء وكليات متوسطة التعليم لخدمة أهداف الحياة العامة(٤) (التي تسمى في الوقت الحاضر المدارس المهنية). وأخيرا التعليم العالي وقد جاء التفصيل الدقيق للمشروع في ملاحظاته عن فرجينيا مقترحا تقسيم كل مقاطعة إلى مناطق صغيرة تبلغ مساحة كل منها خمسة أميال إلى ستة أميال مربعة وان تقام في كل منها

---

(1) Boyd , Op.Cit, PP.527-531

(2) Ibid,P.535

(٣) ملاحظات عن فرجينيا: كان في الاساس استطلاعاً عاماً يقوم به الدبلوماسي الفرنسي المركيز فرانسوا دي باربيه- ماربوا Marqis De Barbe-Marbois عن فرجينيا وقد أرسل المركيز الى عدد من وجهاء فرجينيا طالبا منهم معلومات عامة عنها،للحصول على وصف كامل للولاية. وكان جيفرسون من بين الأشخاص الذين أرسلت أليهم دعوة الاستطلاع، فقام جيفرسون بوضع معلومات موسعة عن تاريخ فرجينيا الطبيعي ومواردها وعدد سكانها وقوانينها قديمها وحديثها وطبيعتها الاجتماعية والاقتصادية وحتى الدينية، وقد أكمل عمله بين ١٧٨٢- ١٧٨٣، وطبعت على شكل كتاب لأول مرة في باريس عام ١٧٨٤ . وبعد خمس سنوات طبع في بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة، ينظر :- Kock & Peden , Op.Cit , P. 186;
Folyd Ogburn Jr, Structure and Meaning in Thomas Jefferson's "Notes on the State of Virginia" , Early American Literature, Vol. 15, No2 (Fall, 1980) PP. 141-150

(4) Jefferson, Op.Cit, P.50

مدرسة ابتدائية لتعليم القراءة والكتابة والحساب وتقوم المنطقة بدفع نفقات المعلم، ويكون لكل شخص الحق في أن يرسل أولاده لمدة ثلاث سنوات مجانا وان يبقيهم بعد ذلك حسبما يشاء على أن يدفع أجور تعليمهم وتكون هذه المدارس تحت إشراف مشرفين يقومون كل عام باختيار أذكى تلاميذهم المنحدرين من اسر فقيرة لا تستطيع إكمال نفقات الدراسة بعد الابتدائية ويرسلون إلى المدارس الثانوية التي اقترح جيفرسون تقسيم الولاية إلى أربعة وعشرين منطقة تُبْنىَ في كل منطقة منها مدرسة للتعليم الكلاسيكي وفيها يكمل التلاميذ دراسة اليونانية واللاتينية والجغرافيا والتاريخ والحساب العددي وتكون مدة الدراسة فيها ست سنوات، وبعدها يقسم الطلبة إلى قسمين رئيسين :ـ

١) من ينجح بصورة اعتيادية يتوقف عن التعليم بعد التخرج وقد يصبح معلما أو مدرسا حسب درجة نجاحه.

٢) يرسل الطلبة ذوو الأخلاق والشمائل العالية والأذكياء لإكمال الدراسة في كلية وليام وماري لمدة ثلاث سنوات لدراسة الفروع العلمية حسب رغبتهم[١] .

ويشير جيفرسون في ملاحظاته عن ضرورة التعليم الى ان الجزء المهم من المشروع هو انتقاء الشباب الأذكياء من بين جميع الطبقات ولاسيما الفقيرة منها لان الدولة ستنتفع من تلك المواهب التي غرستها الطبيعة في سخاء بين الفقراء ولكنها تضيع دون جدوى إذا لم ينقب عنها. ومن بين أهداف المشروع انه ليس هناك أكثر شرعية من الرأي الذي ينادي بجعل أفراد الشعب حراسا أمناء على الحرية ولتحقيق ذلك الغرض يجب أن تكون قراءة التلاميذ قائمة على أساس التاريخ بوجه خاص لأنه يعلمهم الماضي الذي يمكنهم من الحكم على المستقبل كما انه ينفعهم من خلال دراسة تجارب الأمم الأخرى ويؤهلهم للحكم على أفعال الناس ومن ثم يتمكنون من معرفة الطمع والجشع المختبئين تحت كل ستار وبأي شكل يتخذانه وإذا ما عرفوهما هزموهما[٢] .

(1) Thomas Jefferson, Notes On The State of Virginia, Boston 1832, PP. 153-154; Boyd, Op.Cit, P. 531

(2) Jefferson, Notes, PP.155-156

أن أهم ما جاء في مشروع جيفرسون قد نفذ فعلا وهو التعليم العام للذكور والإناث لمدة ثلاثة سنوات مجانا ولاسيما ان ذلك التعليم لم يكن معتمدا على اللاهوت وانه سيمنح عامة الناس القدرة على القراءة والكتابة وذلك هو الشيء المهم لان تعلم الإنسان سيدفعه لمعرفة العالم وحقائق الأمور كما سيجعله يدرك بعقله معنى الحرية وان أدركها فسيقاتل في سبيلها وحينها سيكون عامة الناس "مأمونين على حريتهم"[1] كما عبر جيفرسون، كما أن انتقاء الأذكياء من الفقراء سيمنح الدولة في المستقبل موردا بشريا مهما لاستكمال نهضتها فهم ربما سيصبحون علماء في عدة فروع يخدمون فيها الدولة بكل طاقاتهم لكونها ذات الفضل عليهم في التعليم والمعرفة زيادة على شعورهم بالأبوة تجاهها وبذلك سيكونون سلاحا للدولة في السلم والحرب. غير أن الملاحظ ان مشاريع جيفرسون للتعليم قد استثنت العبيد وأولادهم وقد يعود السبب لنظرة جيفرسون الدونية للعبيد فعلى الرغم من دعوته لتحريرهم ألا انه ظل ينظر إليهم بوصفهم أغبياء وغير قادرين على التعلم والمعرفة وانه لم يرد لذلك الشر أن يتطور في بلده ويكون من الصعب استئصاله.

عموما كانت مشاريع القوانين التعليمية تشبه ثورة ثقافية علمية وعلمانية بالمستوى الفكري نفسه عند الطبقة العامة من الناس. لكن ثورة جيفرسون التي أراد إشعالها لم تسر في المجتمع لوقوف سادات الطبقة الارستقراطية ضد تلك المشاريع التي لم ينفذ منها سوى ما اتصل بالمدارس الأولية فكلية وليام وماري كانت مؤسسة خالصة من مؤسسات الكنيسة الانكليزية وكان من أهدافها الأساسية إعداد القسس لتلك الكنيسة. وهناك أسباب أخرى ساقها جيفرسون في مذكراته لرفض المجلس التشريعي لفرجينيا لتلك الإصلاحات وهي :" ان أنواع الغيرة الدينية عند المنشقين عن الكنيسة الانكليزية قد ثارت لأنهم خافوا من أن يهدد هذا التشريع سيادة المذهب الانكليكاني ورفضوا العمل بهذا القانون، كما وضعوا مادة في قانون التعليم الأولي لتعطيل تنفيذه إذ تركوا لمحكمة كل إقليم أن تقرر بنفسها الوقت الذي ينبغي أن تنفذ فيه القانون داخل إقليمها، كما ان من مواد هذا القانون

(1) Jefferson, Notes , P. 156

أن نفقات هذه المدارس يجب أن يقوم بها سكان الإقليم كل بنسبة الضريبة العامة المفروضة عليه ومن ثم سيكون على عاتق أصحاب الثروة تعليم الفقراء،ولما كان المشرعون والقضاة يأتون من الطبقة الغنية فقد كانوا غير راغبين في أن يتحملوا ذلك العبء ولذلك لم يسمح لهذا القانون أن ينفذ في إقليم واحد" (١). إن الأسباب التي ساقها جيفرسون مقنعة إلى حد كبير اذ تبرز تلك النزعة الارستقراطية المقيتة التي لم تكن تؤمن أصلا بتساوي الناس فيما بينهم، بينما مثل جيفرسون ذلك الشخص المنشق عن هذه الطبقة الذي سعى جاهدا لتقليل الفوارق الطبقية من خلال تعليم عامة الناس ومن ثم زجهم بالحياة السياسية والاقتصادية لممارسة دورهم فيها بوصفهم العنصر الأساس المحرك لتلك الحياة بالحاضر والمستقبل.وقد نجح جيمس مادسيون فيما بعد في تقديم تلك اللوائح عام ١٧٨٦ وقد قبل منها ما تضمن إنشاء مدارس عامة أي اللائحة الأولى فقط إذ صدر بهذا الخصوص قانون تأسيس المدارس العامة عام ١٧٩٦ (٢) أي بعد عشر سنوات من تقديم اللوائح..

(1) Jefferson , Memoirs, PP. 50-51
(2) Jefferson , Memoirs, P.53

ثالثا: التشريعات الدينية

منذ إنشاء فرجينيا أسست فيها كنيسة أسقفية Episcopal Church على غرار الكنائس الانكليزية وكان معنى ذلك إلزام جميع مواطني المستعمرة بالدفع من اجل الحفاظ على هذه السلطة الكنسية وان كان نصف سكان فرجينيا لا ينتمون إلى تلك الكنيسة لكن القانون يطلب من جميع الناس الحضور للكنائس الأسقفية يوم الأحد للصلاة ويجب أن يدفعوا الضريبة التي تقررها تلك الكنيسة، كما أن الزواج لا يعد شرعيا مالم يعقد فيها(١). ولذلك كان لابد من إصدار تعديل لذلك القانون الفرجيني القديم لمنع حصول الاضطهاد الديني ولإعطاء كل الناس حقوقهم بإتباع المذهب الذي يؤمنون به والعمل بتقاليده ودفع الضريبة لكنيسة المذهب. وقد قدم جيفرسون مذكرته التي عرفت بلائحة تأسيس الحرية الدينية A Bill for Establishing Religious Freedom إلى المجلس التشريعي في فرجينيا عام ١٧٧٩، وقد جاء في مقدمتها:ـ" مع إيماننا التام بان الله القادر على كل شيء قد خلق عقولنا حرة فلا ينتج عن كافة محاولات التأثير عليها سواء بفرض أعباء أو عقوبات دنيوية أو بتعجيزها تعجيزا مدنيا، سوى التعود على النفاق والوضاعة في هذه المحاولات ابتعاد عن الخطى التي رسمها الإله العظيم الذي نعبده والذي مع كونه رب العمل ورب الجسد فانه اختار أن لا ينشر تعاليمه بيننا عن طريق فرضها قسرا على عقولنا أو أجسادنا وكان في مقدوره أن يفعل وان الافتراضات البعيدة كل البعد عن الورع التي وضعها المشرعون والحكام سواء المدنيون أو الكنسيون الذين مع كونهم غير معصومين من الخطأ ولا ملهمين بالوحي فأنهم يفرضون سيادتهم على عقيدة الآخرين معتبرين آراءهم الخاصة وأساليبهم في التفكير هي وحدها الصادقة المعصومة من الخطأ ومن ثم يحاولون فرضها على الآخرين تلك الافتراضات نشأت عنها عقائد زائفة ترعرعت وانتشرت في الجزء الأكبر من العالم في كل الأزمنة" (٢) وما أراد جيفرسون قوله هو ان الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان حرا في تفكيره وان مشيئة الله تعالى هي بقاء العقل حرا فيما

(1) Listizky, Op.Cit, PP.52-53; Hitchens,Op.Cit,P.45
(2) Quoted in, Boyd ; Op.Cit,P.545

يفكر وبما يأمر الجسد بالتصرف في الأفعال وهو حر باعتقاده الديني ولو كان هناك مذهب صحيح وهو من عند الله لأمر عقول الناس بأتباعه، لذلك فالمذاهب الدينية هي من اختراع البشر وهي ليست مقدسة ولا من عند الله فلا يمكن فرضها على الناس .

وإذا كان الإنسان حرا في اتباع المذهب الذي يختاره عقله فحقوقه المدنية لا يمكن أن تعتمد بأي حال من الأحوال على عقائده الدينية،لان الحقوق المدنية تعتمد على " معرفتنا بالفيزياء أو الهندسة وان أراء الناس ليست واقعة تحت سلطان الحكم المدني وانه يكفي لتحقيق الأغراض العادلة للحكم المدني أن يتدخل الحاكمون حينما تحرك المبادئ والعقائد وتدفع المؤمنين بها إلى اقتراف أفعال ضد السلم والنظام وأخيرا أن الحقيقة ستنتشر إن تركت لنفسها" [1]. وتتضح من خلال هاتين الفقرتين نقطتان الأولى هي فصل الاعتقاد الديني والمذهبي عن الحياة العامة والحقوق المدنية التي نادى بها جيفرسون ومن ثم التمهيد لعلمانية السياسة والدولة، والثانية أن جيفرسون كان ربوبيا ــ أي يؤمن بالله لكن يؤمن أيضا بان الله تعالى لا يتدخل في العلاقات الإنسانية ــ وقد وجد الفرصة المناسبة للحد من هيمنة الالوهيين[2] ــ الذين يربطون مصائر الناس بالغيبيات ــ على السلطة العامة

---

(1) Quoted in, Ibid ,PP. 545-546

(٢) يعد جيفرسون ابرز شخصية أمريكية ربوبية ،فهو يؤمن بالله تعالى إيمانا كاملاً لكنه يرفض الإيمان فيما عدا ذلك مما ورد في العقيدة المسيحية فلم يؤمن بان السيد المسيح هو الله وإنما هو يدعو إلى سعادة البشر، بدون ان يذكر جنس "هو" فلا نعرف ان كان يقصد ان المسيح هو بشر عادي لان جيفرسون لم يصرح بذلك علناً، لكنه لم يؤمن بولادة العذراء ولا بالتثليث، وجاء في رسالة بعثها الى جيمس سميث عام ١٨٢٢ ما نصه:" ان مغالطة= =اثناسيوس بان الواحد: ثلاثة ، والثلاثة: واحد ... شيء لا يقبله العقل البشري " وهو بذلك يقترب بشدة من قول الله تعالى في كتابه العزيز {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } المائدة الاية ٧٣ ، وطلب من سميث ان يبقي رأيه سراً كي لا يتعرض للوم ، ومن خلال رفضه لالوهية المسيح رفض أفكار كالفن بل عده رافضاً لتعاليم السيد المسيح لكون كالفن "الوهي جبري"اذا جاز التعبير لأنه يعتقد ان الله تعالى هو الذي يختار الصفوة المتميزة من الناس وهو الذي يقدر شرور البشرية ، بمعنى اخر ان الشر والخير هو مقدر من عند الله وليس من عمل الإنسان، لذلك وصف كالفن بأنه " ذا روح شيطانية شريرة وانه ابتدع ديناً يقوم على مذهب الشر " ثم أضاف " وربما كنا سنعذره لو انه أنكر وجود الله بدلاً من الإساءات البذيئة التي تهجم بها عليه"، ومن جانب اخر يمكن ان نعد جيفرسون ربوبيا الوهيا كونه يؤمن بان لله تعالى وجود مادي، سواء أكان مادي بالمعنى الحرفي للكلمة ام روح، ويتساءل قائلا:" ماذا إذن هو الله .. ان لم يكن جسدا... ومن الذي ينكر ان الله كائن محسوس" وربما نشأت عقيدة جيفرسون الرافضة لإلوهية المسيح ووجود كيان مادي لله تعالى، من خلال علاقته القوية بالعالم الانكليزي جوزيف بريستلي Joseph Priestly مكتشف الأوكسجين ، والذي انشأ مذهبا عرف بالتوحيدية، وكان وما يزال المذهب المسيحي الأوحد الذي لا يؤمن بإلوهية المسيح والذي ينظر إلى يسوع النصراني Jesus of Nazareth باعتباره بشر عادي وليس ابن الرب، وقد تعاهد معه لكتابة أنجيل جديد لكن وفاة بريستلي عام ١٨٠٤ دعت جيفرسون الى كتابة الإنجيل بمفرده، وجاء في رسالة بعثها إلى جون آدمز يبرر كتابة أنجيل جديد :" علينا ان

المدنية ومن ثم فرض فكرة اعتقد بصحتها على آخرين لا يؤمنون بها وهذا أمـر غير مقبول حتى إن كان الالوهيون على خطا ـــــ حسبَ رأيه ـــــ لأنـه يناقض فكرة قانون الحرية الدينية ولاسيما بعد وصف مخالفيه من الالوهيين بأنهم "يتظاهرون بإعلان ولائهم وخضوعهم للدين وأنهم في الواقع مجرمون لا يسـعهم الصمود أمام الإغراءات الدنيوية "[1] وهو بذلك قد اصدر حكما مسبقا على تلـك الطائفة منَ المؤمنين بالألوهية بأنهم مجرمون، ومع إيمان جيفرسون فـي قانونـه الديني بان لا يكره شخص على أن يرتاد أو يعتنق أية عبادة أو مكـان أو كنيسـة دينية مهما كانت أو يجبر أو يقيد أو حتى يزعج أو يضغط عليه في بدنه أو مالـه أو يتعرض لعناء بسبب ارائه أو معتقداته الدينية، فانه أورد نصا قانونيا لمنـع أي دورة تشريعية تنعقد في فرجينيا مستقبلا من إلغاء ذلك القانون وان محاولة إلغائـه تعد" انتهاكا لأحد الحقوق الطبيعية" [2]. وبذلك يكون جيفرسون قد ناقض الغايـة من القانون الني يفترض بها عدم فرض أي رأي أو مذهب معين على الناس ولكن أليس من حق الناس والمشرعين إلغاء ذلك القانون أو تعديله إذا ما وجدوا فيه مـا لا يلبي أغراض حياتهم ومبادئ دينهم وعقيدتهم في المستقبل؟ وربما جاءت تلـك الفقرة من خوف جيفرسون من عودة سيطرة الكنيسة مرة أخرى على رقاب الناس .

نختصر النسخة الحالية [يقصد الإنجيل] إلى تلك النسخة المبسطة التي كتبها المبشرون ونختار الكلمات التي نطقها المسيح فقط .. فقد كتب كُتاب الإنجيل ما اساءوا فهمه على انه من أقوال المسيح وشرحوا للآخرين ما لم يفهموه بأنفسهم بأسلوب غامض .. لقد قمت بتنفيذ هذا الأمر بنفسي وقطعت الآيات اية اية من الكتاب المطبوع واعدت ترتيب مايبدو بوضوح انه من كلام المسيح الذي يبدو مميزا كالماس في كومة روث" وفعلا قدم جيفرسون عملا عظيما من خلال ترتيبه لإنجيل جديد، فقد قام بجلب أشهر واصدق الأناجيل القديمة وقام بتقطيع الآيات منها معتمدا الترتيب التاريخي لكل إنجيل فقد كان يأخذ الآية من الإنجيل الإغريقي ويلصقها ويأخذ نفس الآية من الإنجيل اللاتيني ومن ثم نفس الآية من إنجيل فرنسي قديم كتبه جين فردريك اوسترفالد عام ١٧٢٤ وأخيرا نفس الآية من الإنجيل الانكليزي ويضع تلك الآيات الأربعة في صفحة واحدة لبيان التحريف من خلال الترجمة، واعتقد ان جيفرسون كان يشك بان الإنجيل كله محرف وان لم يصرح بذلك لكنه أراد من خلال إنجيله التاكيد إن الإنجيل الذي بأيدي الناس محرف وربما لو كانت هناك أجواء حرية حقيقية لأعلن جيفرسون ذلك، للتفاصيل ينظر:

Peter Gaws ,Two Centuries of Philosophy in America ,Great Britain 1980 ,PP. 71-73,110- 115; Edgar J. Goodspeed, "Thomas Jefferson and the Bible" The Harvard Theological Review,Vol.40 ,No. 1(Jan,1947),PP.71- 76; Daniel J.Boorstin, The Lost World of Thomas Jefferson, Boston 1960, PP. 151-166;Hitchens,Op.Cit, PP.164-165,170-171

(1) Quoted in ,Boyd, Op.Cit ,P. 546
(2) Ibid ,P. 546

وعلى كل حال لم يلق مشروع جيفرسون تأييدا من المجل
الفرجيني،واقترح باتريك هنري بديلا لذلك القانون لكنه أيضا لم يلق
ضعفه وعدم ملاءمته للواقع لكونه قانونا تعدديا يبحث في إمكانية
الضرائب لكل الكنائس المسيحية وليس إحداها فقط[1]،وهذا شجع جيمس ماديس
على إعادة مشروع قانون جيفرسون وسبقه بمذكرة احتجاجية على التق
الضريبي للدين ولأهمية تلك المذكرة في التأثير على مجلس فرجينيا التشري
سنورد بعض ما جاء فيها:ـ" ...من ذا الذي لا يرى أن نفس السلطة التي بإمكا
توطيد المسيحية دون جميع الديانات الأخرى بإمكانها أيضا وبالسهولة نفسها
تؤسس طوائف؟ وان السلطة نفسها التي تستطيع إجبار المواطن على الاس
بثلاثة بنسات فقط من ممتلكاته لتدعيم مؤسسة بعينها تستطيع أيضا إن تجبره ع
الخضوع لأية مؤسسة أخرى أيا كانت ؟" [2]. أن احتجاج ماديسون كان في م
وهو الذي أنقذ مشروع جيفرسون من الرفض التام للمشروع أو التغيير المش
له،كما زادت محاججات ماديسون وعبارته المنطقية قوة كبيرة للمشروع فق
تساءل ماديسون في مذكرته الاحتجاجية عن مدى نفوذ المؤسسات الكنسية وق
تأثيرها في المجتمع المدني وبين من خلال أمثلته أن " تلك المؤسسات تمار
نوعا من الاستبداد الديني على بقايا السلطة المدنية وتثبت في كثير من المواق
تأييدها لحكم الطغاة من السياسيين وأنها لم تحم يوما من الأيام حرية الشعب
الحكام الذين يتمنون القضاء على الحياة العامة ربما يناسبهم كثيرا أن يتخ
لأنفسهم معاونين من الرجال!! أما الحكومة العادلة التي تسعى لتامين الحري

---

(1) على الرغم مما عرف به باتريك هنري من حس ثوري الا انه كان من اشد المحافظين على النظم الق
وخلال فترات توليه منصب حاكم الولاية بعد الحرب (١٧٨٢-١٧٨٤) عمل على معارضة العديد من المش
الديمقراطية والتحررية التي حاول إمرارها جيفرسون وماديسون وادموند بندلتون وريشارد هنري لي
رفض مشروع التجارة الحرة الذي قدمه ماديسون وسانده هنري لي، الذي كان من المفروض ان يجلب ل
تجارة نشطة بعد بناء ميناء نورفلوك Norfolk، وكذلك وافق على دفع الديون الزراعية لبريطانيا، حيث
المزارعون قبل الحرب يطلبون ما يحتاجوه من الوكلاء في لندن ويدفعون العملة الورقية وقد تضاعفت د
بعد الحرب، الى كميات مدمرة ، وان بعض الديون اصبحت وراثية حيث يرثها الابن من ابيه،لذلك كا
الطبيعي ان يرفض مشروع قانون الحرية الدينية لما عرف به من تشدد ومحافظة، للتفاصيل عن حكم ب
هنري (المحافظ) ينظر:

n Nevins, The American States During and After The Revolution 1775-1789,
v York 1924,PP. 334-338

Quoted in, Hitchens ,Op.Cit, P. 46

وبقائها مستمرة فلا تحتاج إلى هؤلاء" [١]،ومن خلال اجتهاد ماديسون وصبره تم في النهاية إقرار قانون الحرية الدينية بعدما قدم ثلاث مرات إلى مجلس فرجينيا[٢]، وتمت الموافقة النهائية على القانون عليه وصدر في ١٧٨٦/١/١٦ [٣]. لكن بعض أعضاء المجلس حاولوا استبدال عبارة "الله القادر على كل شيء" في ديباجة القانون بعبارة "السيد المسيح Jesus Christ" لكن الغالبية العظمى من الأعضاء رفضوا استبدالها وقد اعتز جيفرسون بهؤلاء الأعضاء وبهذا الرفض عاداً إياه " دليلا على رغبتهم في أن يضم القانون تحت خيمته كل الديانات الأخرى كاليهود والمسيحيين والمحمديين Mahomet an والهندوس وغير المؤمنين من كافة الأجناس والكفار" [٤] .

وعلى الرغم من بعض التناقض الذي جاء في قانون الحرية الدينية يُعَدُّ ركيزة أساسية لقيام الدولة العلمانية الجديدة من خلال سعيه لفصل الدين عن الدولة وعدم تدخل السلطة في عبادة الناس ومذاهبهم المتعددة كما أن ذلك القانون قطع بصورة نهائية العلاقة بين المستعمرات والحكومة البريطانية فقد أعطى القانون شعورا عاما بعدم اعتراف المستعمرين بالكنيسة الانكليزية الأم كنيسة قائدةً لعموم المتدينين .

---

(1) Quoted in, Boyd, Op.C it, P. 46

(٢) للتفاصيل عن محاولات تقديم مشروع القرار ومتابعة مسوداته، ينظر: Ibid, PP. 547- 553

(3) Richard B.Morris, Basic Documents in American history ,New York 1965,P.40

(4) Jefferson , Memoirs, Op.Cit, P. 47

رابعا:ـ قضية العبيد

كان في ولاية فرجينيا في أثناء الثورة الأمريكية نحو مائتين وخمسين ألفاً من العبيد الزنوج وكان جيفرسون نفسه مالكا لنحو مئة وسبعة وثمانين عبدا نقلوا أليه عن طريق الوراثة من أبيه ومن والد زوجته، لكنه كان يعاني من تناقض المبادئ التي حارب من اجلها عام ١٧٧٥ في نظرته الموجزة وعام ١٧٧٦ في إعلانه الاستقلال، ويظهر ذلك التناقض والازدواجية من خلال حديثه عن العبيد في مذكراته فقد قال " أن الإنسان آلة عظيمة وغاية في الغموض فهو يحتمل الكدح والمجاعة والجلد والسجن وربما الموت نفسه دفاعا عن حريته الخاصة، وفي اللحظة التالية يصم أذنيه عن جميع تلك الدوافع التي أيدته خلال محنته ويوقع بنظرائه من بني البشر نوعا من العبودية وفي ظل مناسبة واحدة مشبعة بالبؤس يعرقل ذلك البؤس الذي عانى منه دهورا ثم قام بثورة ليرفضه ويقاومه ولكن علينا أن ننتظر في صبر أفعالا وعناية إلهية سائدة وان نأمل إنقاذ هؤلاء المعذبين من إخواننا الأرقاء حينما يذرفون الدموع الكثيرة وتملا آهاتهم الرب بالظلام.لاشك حينها أن اله العدل سيستيقظ لفاجعتهم وسيظهر بأمور هذا العالم ويريهم أنهم ليسوا متروكين لرعاية قدر محتوم أعمى وحينئذ يفيض عليهم عطفه لنشره النور والسماحة بين مضطهديهم أو بإطلاق الرعد المبيد لإهلاكهم في النهاية " [١].

لاشك أن تلك العبارات تثير العواطف الإنسانية وتجعلنا نعتقد بصحة كل كلمة قالها، لكن الشك يداهمنا على الفور حينما نقرأ تساؤلاته ومناقشاته عن العبيد[٢]، فقد درس جيفرسون أحوال العبيد واقتنع من خلال دراسة التاريخ بان العبودية مع كونها كانت أكثر إرهاقا وشقاء في العصور القديمة هناك العديد من العبيد الذين استطاعوا إنتاج أعمال علمية وفنية خالدة مثل ابكتاتوس Epictetus وترينس Terenceوفايدرس Phaedrus[٣]. وهنا يأتي الشك في نظرة جيفرسون للعبيد إذ

(١) نقلا عن برنارد مايو، المصدر السابق، ص ١٤٤

(٢) وردت تلك التساؤلات والمناقشات في كتابه ملاحظات عن فرجينيا، وقد اقتبس أراء وأشعارا للفيلسوف اليوناني هوميروس كما قارن بين العبيد في زمان اليونان والرومان والعبيد في زمانه من خلال اختلاف ألوانهم وأفعالهم وتصرفاتهم، ينظر:

Jefferson,Notes,PP.149-155

(3) Ibid, P. 150

يستطرد قائلا :ـ" لكنهم كانوا من جنس ابيض" !!! أما بالنسبة للعبيد السود فيقول عنهم "أن السود سواء باعتبارهم جنسا مختلفا أصلا أو بفعل الوقت والظرف فأنهم يقلون شانا عن البيض فيما يتمتعون به من هبات جسدية وعقلية " [1]. وقد دفعه اعتقاده هذا إلى البحث في الميول الجنسية عند السود الذين يُفضّل بعضهم بعضا،ومن ثم مقارنة العبيد السود بإنسان الغابة البدائي وإعتقد أن مشاعر السود باردة وان أحزانهم وقتية وزائلة واستدل على ذلك بسواد وجوههم التي لا تستطيع التعبير عن الانفعالات العاطفية كحالات الحزن والفرح والخَجل، فبشرتهم لا تظهر احمرارا ؟ وذكر قائلا:" أليس ذلك المزيج الرائع من اللونين الأبيض والأحمر والتعبير عن كافة المشاعر بازدياد درجة انتشار اللون أو نقصانها في الإنسان أفضل من ذلك الجمود الأبدي الذي يظهر دائما على ملامحهم ؟ وذلك الستار الأسود الدامغ الذي يغطي مشاعر تلك الأجناس الأخرى" [2] .

إن تلك العبارات الأخيرة تبين نظرة جيفرسون الدونية للعبيد فهم عنده يقلون شانا عن البيض من الناحية الجسدية والعقلية وهم يشبهون إنسان الغاب وهم بدون مشاعر فما الذي تبقى إذن من إنسانيتهم ؟ وبعد ذلك كيف نوفق بين ماجاء في تباكيه الشديد على سوء معاملة العبيد ووصمه لهم باللاإنسانية، ولا يسعنا هنا سوى المقارنة بين مذكراته وكتاباته في "ملاحظات عن فرجينيا" وبين ما كتبه من تشريعات قانونية لولاية فرجينيا، لنصل إلى خلاصة نستطيع من خلالها فهم نظرة جيفرسون الحقيقية للعبيد. ولنعد الآن إلى أول لائحة قدمها جيفرسون إلى مجلس ولاية فرجينيا بتاريخ ١٧٧٧/١/١٦، والتي طلب فيها منع استيراد العبيد والإتيان بهم إلى فرجينيا بتاتا كما طلب أن يعدّ كل العبيد الذين سيجلبون عبر البحار أو اليابسة إلى فرجينيا بعد سريان مشروع لائحته أحراراً لكنه في الوقت نفسه شدد على أن " أي عبد يفر من مالكه في أي من الولايات الأمريكية الثلاث عشرة أو أي ولاية ترتبط معها بمعاهدة صداقة وياتي للولاية وحده أو برفقة مالكه أو جيء

(1) Jefferson, Notes, P. 150
(2) Ibid, P. 150

به خادماً أو تابعاً لأي من الساكنين في الولاية عن طريق الزواج أو الإرث وكذلك من تم استيراده لغاية أخرى غير البيع سوف لن يكون حرا " [1] .

إذن كانت الغاية من اللائحة هي منع استيراد العبيد لغاية البيع أي أن تلك اللائحة لم تطلب منع استيراد العبيد لغاية العمل ومن ثم لم يرد منها تحرير العبيد الموجودين في فرجينيا ولا أولئك الذين سيجلبون لغاية العمل، فما الذي سيربحه التاجر من تحمل نفقة اصطياد العبد ونقله إلى الولاية ثم يصبح حرا ؟ وما الغاية من منع الاستيراد هل هي خوف جيفرسون من استعباد أخيه الإنسان من خلال بيعه أو ضربه بالسياط إذا أبى العمل أو هرب ؟ وقبل الإجابة على هذه الأسئلة لنطلع على قصة احد عبيد جيفرسون المدعو جيم هوبارد Jame Hubbard الذي هرب من سيده ـــ جيفرسون ـــ في أيلول من عام ١٨٠٥،إذ أرسل جيفرسون على الفور احد مقربيه ـ ايشام جيسولم Isham Chisolm ـ للإتيان بالعبد الهارب،لكنه عاد بعد بضعة أيام خالي اليدين ولم يعثر عليه فأعطاه جيفرسون خمسة وعشرين دولارا وهو مبلغ كبير جدا في تلك الأيام، ليذهب وراءه ويجلبه أينما كان وبالفعل عثر ايشام على العبد هذه المرة فامسكه واتى به مكبلا بالحديد أمام جيفرسون الذي أمر على الفور بجلده بالسياط بقوة وقسوة شديدة وأمام رفاقه من العبيد[2]. ولا ادري أين كانت دموع جيفرسون وعواطفه الجياشة تجاه العبيد!! حينما أمر بجلد عبده الفار وأمعن في إهانته بجلده أمام رفاقه من العبيد،ولا ادري أيضا أين كانت مطالباته بمنع بيع العبيد وهو قد مارس تلك التجارة بنفسه وان لم تكن من خارج الولاية لكنه قام بعملية البيع والشراء ويتضح ذلك من خلال أعداد العبيد الذين امتلكهم طوال حياته، فعند وفاة أبيه عام ١٧٥٧ ترك له ٢٠ عبدا وبحلول عام ١٧٧٤ أصبحوا ٤٢عبدا وارتفع ذلك العدد بعد زواجه من مارثا ليصبح ١٣٥عبداً وفي عام ١٧٨٣ كان يملك ٢٠٤عبيد ونجد أن ذلك الرقم قد تناقص بحلول عام ١٧٩٨ إلى ١٤٧ عبداً إذ قام في تلك السنة ببيع خمسين عبدا وفقا لسجلات المزرعة في مونتسليو وزاد العدد إلى ١٩٧ عام ١٨١٠ ثم إلى

(1) Quoted in , Boyd, Op.Cit , PP. 22-23
(2) Cohen, Op.Cit P. 516

٢٦٧عام ١٨٢٢ [١]. وخلاصة القول أن جيفرسون احتقر العبيد وقام بضربهم والمتاجرة بهم مع إعلانه الدائم لحقوق العبيد ومناداته المستمرة بمنحهم الحرية والمساواة والرأفة بهم، وهذا قمة التناقض والازدواجية علما انه لم يقم يوما من الأيام ــ إلا في حالة أبناء سالي ــ بعتق أي من عبيده بل لم يوص بذلك بعد وفاته، والغريب انه في فرجينيا وحدها قد اعتق العديد من ملاك العبيد عبيدهم ووصل عددهم خلال المدة ١٧٨٢ــ ١٧٩٠ إلى عشرة آلاف عبد[٢]،وأخيرا في عام ١٨١٧ توفي صديقه البولندي في سويسرا تاديوس كوشكيوسكو Thaddeus Kosciusko وكان احد أبطال حرب الاستقلال الأمريكية وكان يؤمن بحرية العبيد لذلك أوصى أن تستخدم أمواله وعائدات بيع ممتلكاته لتحرير العبيد، وجعل جيفرسون وصياً على ذلك، لكن "حكيم مونتسليو" كما كان يطلق عليه بعد اعتزاله السياسة بعد عام ١٨٠٨ رفض تنفيذ الوصية بحجة انه أصبح شيخا طاعنا بالسن وقد بلغ الخامسة والسبعين من العمر ولا يملك القوة لتنفيذ تلك الوصية، لكنه في الوقت نفسه كان يعمل بكد على إكمال بناء جامعة فرجينيا[٣] وهذا يؤكد ما ذكرناه آنفا.

وبالعودة إلى مذكرات جيفرسون نجده يفصح عن سياسته الحقيقية تجاه العبيد الذين لا يمكنهم العيش مع الأحرار من البيض في آن واحد ولنقرأ ما كتبه جيفرسون عن ذلك الموضوع" إن أكثر الأمور التي وردت في كتاب الأقدار هي أن أولئك الناس في الأصل أحرار وانه من المؤكد أن هذين العرقين [السود والبيض] اللذين يتساويان في كونهما أحرارا لا يمكن أن يعيشا في ظل الحكومة نفسها فقد رسمت الطبيعة والعادات والآراء بينهما خطوطا من التمييز يستحيل محوها" [٤]. ولما كان لا يمكن أن يعيشوا مع البيض أو الأحرار وان هناك خطوطا من التميز العرقي والعنصري التي يستحيل محوها فانه يبين لنا هدفه

(1) Cohen, Op.Cit, P. 506
(2) Listizky,Op.Cit,P. 55
(3) Why we should all regret Jefferson's broken promise to Kościuszko, Nash&Hodges http://hnn.us/articles/48794.html ; Hitchens , Op.Cit ,P. 175.
(4) Jefferson, Memories, P. 51

الحقيقي تجاه السود وهو تحريرهم لغاية ترحيلهم ونفيهم إلى بلادهم الأصلية أفريقيا لأنه في حالة بقائهم فان الحرب معهم ستحدث عاجلا أم آجلا ومن ثم ستضطر أمريكا حينها إلى ترحيلهم بالعنف هذا إذا ما نجحت في ذلك ولاسيما ان" الطبيعة البشرية يجب أن ترتعد خوفا من هذا الاحتمال القائم ولا ينبغي علينا أن نعد قيام اسبانيا بترحيل أو محو قبائل المورسكيين Moors نموذجا نحتذي به، فان تلك الحادثة التاريخية بعيدة كل البعد عن حالتنا" [1]. فجيفرسون يحذر من احتمال قيام حرب مع السود كما حدث مع المسلمين في الأندلس بعد نجاح الأسبان بتدمير مملكتهم ، على الرغم من إقراره بأن تلك الحالة مختلفة .

وبعد صراع طويل مع المجلس التشريعي الفرجيني استطاع جيفرسون بمساعدة جورج ماسون وجيمس ماديسون واجتهادهما وضع تشريع عملي لتلك المشكلة وهي أن أبناء العبيد يولدون أحراراً ويكونون تحت تصرف والديهم حتى يبلغوا سن الرشد فينقلون على نفقة الدولة إلى مكان ما في أفريقيا وبعد ذلك يعلن ذلك المكان دولة مستقلة بمساعدة الولايات المتحدة وفي الوقت نفسه تبحر المراكب الأمريكية إلى أوربا لنقل مهاجرين بيض أحرار ليسدوا الفراغ الذي سيتركه ترحيل العبيد[2]. وهذه هي خلاصة مشكلة جيفرسون مع العبيد فهو دعا لتحريرهم لغاية ترحيلهم بوصفهم أدنى شانا من الجنس الأمريكي. وهو لم يكن بحاجة إلى ذلك النفاق والتناقض بطرح الآراء والبكاء من اجل تحرير العبيد بل كان الأجدر به الذهاب إلى مجلس فرجينيا التشريعي والإفصاح عن خطته ومخاوفه بصراحة . وأخيرا فضح جيفرسون ذلك الجزء القذر من النرجسية والشذوذ الجنسي الذي شكل جزءا مهما من شخصية الارستقراطيين وملاك العبيد إلا وهي العلاقة الجنسية ـــ الجسدية ـــ بين العبد وسيده وعبر بصراحة مثيرة للإعجاب عن تلك العلاقة قائلا:" أن العلاقة الجنسية بين السيد والعبد بكليتها هي بمنزلة تعبير دائم عن أكثر الشهوات عنفا وقسوة وهي ممارسة متواصلة للاستبداد من جانب والخضوع المهين من الجانب الآخر وان أطفالنا يرون ويتعلمون ويقلدون تلك

(1) Why we should all regret Jefferson's broken promise to Kościuszko, Nash&Hodges http://hnn.us/articles/48794.html , P. 51.
(2) Listizky,Op.Cit,P. 55

الحالة الحيوانية . وتنمو تلك الجرثومة في أطفالنا منذ المهد، فمن مهده إلى لحده يتعلم فعل مايرى الآخرين يفعلونه.وان لم يلتمس الأب دافعاً من إنسانيته او من حبه لذاته لتقييد أهوائه الجامحة ضد عبده فليكن وجود ولده دافعاً كافياً. غير انه ليس كذلك في اغلب الظروف، فحين يهتاج الأب يراقبه الابن وتنتقل عدوى الغضب اليه فيحاكي السلوك نفسه في دائرة العبيد الأصغر،مطلقاً العنان لأسوأ مشاعره وهكذا بعد تنشئته على هذا الاستبداد وتعلمه وممارسته يومياً تنطبع نفسه بهذا السلوك الشاذ الفظيع، وان الرجل الذي ينجح في الإبقاء على أخلاقه وسلوكياته الحميدة دون أن يصيبها الانحراف في مثل هذه الظروف هو معجزة أكيدة "[1]، وقد يحتاج المرء الى شجاعة لبيان تلك الأمور لعامة الناس وللتاريخ وهذا ما تميز به جيفرسون من إبداء رأيه وتعليقه على ما يحيط به دون خوف او خجل.

(1) Jefferson , Notes, Op.Cit, PP. 169- 17

خامساً: قضايا أخرى

وأخيرا كان هناك بعض التشريعات الأخرى المهمة مثل مشروع قانون التناسب بين الجريمة والعقاب، الذي قدمه جيفرسون عام ١٧٧٨ إلى المجلس التشريعي في فرجينيا، وقدم فيه عقوبة الاشغال الشاقة بديلا لعقوبة الإعدام. وعلى الرغم من موافقة المجلس على مشروع القرار بأغلبية كبيرة اذ لم يرفضه إلا صوت واحد، لم يشرع قانوناً إلا بعد عام ١٧٩٦ ولكن بصيغة أضعف. وقال جيفرسون انه على الرغم من ان بيكاريا Beccaria (١) قد اقنع العالم العاقل بعدم شرعية عقوبة الإعدام هناك من لم يقتنعوا به (٢). وقد استمر جيفرسون بالدعوة إلى التفريق بين جريمة القتل العمد والقتل الخطأ، وان عدم التفريق بينهما مأخوذ من ارث الأسلاف وربما استنسخ ذلك الإرث من كتاب القانون لهيبرو Hebrew والذي جاء فيه " العين بالعين والسن بالسن an eye for an eye, a tooth for a tooth " (٣)، فإذا قتل احد ما نتيجة خطأ ودون عمد فأنه يقتل، وفيما بعد عَدّ القتل غير المتعمد قتلاً من الدرجة الثانية(٤)، والحقيقة ان التشريع الإسلامي راعى مسالة القتل العمد كما جاء في قوله تعالى " وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمنا إلا خطأً ومن قتل مؤمنا خطأً فتحرير رقبة مؤمنة وديه مسلمة إلى أهله إلا ان يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما" (سورة النساء، الآية ٩٢) وهذا يدل على التسامح الكبير في قانون الله جل شانه. وبالعودة إلى القانون الذي اقر عام ١٧٩٦، فعلى الرغم من إقراره لم يطبق في جميع أجزائه في ولاية

(١) سيزار بيكاريا : فيلسوف ومفكر ايطالي له بحث مهم عن الجرائم والعقوبات نشر في ميلان عام ١٧٦٤، وكان جيفرسون وآدمز وحتى فرانكلين، متأثرين بأفكاره الى درجة كبيرة، وكان جيفرسون قد نقل اكثر من ستة وعشرين فقرة من ذلك البحث ودونها في كتاب خواطره الخاص، ينظر : Hitchens , Op.Cit , P.49

(2) Jefferson , Memoirs ,Op.Cit ,PP.45-46
(3) Quoted in , Ibid , P. 46
(4) Hitchens , Op.Cit ,P. 49

فرجينيا فلم يشمل القانون جميع من هم من أصول افريقية[١] ، وبقيت جرائم مثل الاغتصاب يعاقب عليها بالإعدام في فرجينيا حتى عام ١٩٦٠ [٢].

لم يقتصر عمل جيفرسون في مجلس نواب فرجينيا على تشريع القوانين بل كان متابعا وبشدة لما يدور من أحداث في عموم الولايات والعلاقات الخارجية مع الدول الأوربية ولاسيما فرنسا.كما اهتم جيفرسون بمحاولة إصلاح الأوضاع في ولاية فرجينيا فقد أراد تطوير عمل البريد وتأسيس دائرة جديدة للبريد السريع ولاسيما ان الأوضاع العامة في فرجينيا كانت مستقرة ولم تصل إليها العمليات الحربية التي كانت تدور في الشمال، وقد أرسل إلى آدمز يخبره بان "الأمورَ في جزئنا هذا من القارة هادئة جدا "[٣] ولذلك فان جيفرسون يطمح لتطوير الولاية، ولاسيما أنّ المؤتمر القاري كان قد اتخذ قراراً بخصوص تطوير البريد وتأسيس البريد السريع لكنه لم يوضع موضع التطبيق، كما إن جيفرسون سَوّغَ طلبه هذا بطول المدة التي يقطعها راكبو الخيل لإيصال البريد إلى الولاية كما ان الناس بحاجة دائمة إلى معرفة المعلومات الخالية من الأكاذيب والشائعات ولن يتم ذلك إلا من خلال إنشاء دائرة للبريد تقوم بنقل البريد السريع بين فيلادلفيا مقر المؤتمر وفرجينيا[٤]. لكن آدمز على ما يبدو لم يقتنع بما أورده جيفرسون من أسباب ضرورية لإنشاء البريد وعَدّ ذلك الأمر من دواعي الرفاهية التي لا يحتاجها الشعب الأمريكي في تلك اللحظة وأرسل إليه في السادس والعشرين من أيار عام ١٧٧٧ يخبره " أن البريد الآن منتظم جدا في الشمال والجنوب على الرغم من انه يأتي مرة واحدة في الأسبوع ...ان بلادك الآن غير أمينة بما فيه الكفاية لكي تبرر تراجعك إلى مباهج الحياة المحلية " [٥] .

ومن الموضوعات المهمة التي شغلت بال جيفرسون في تلك الفترة موضوع التمثيل في الاتحاد الكونفدرالي، وقد بين جيفرسون رغبته في أن يكون التمثيل

---

(1) Hitchens , Op.Cit, P . 49
(2) "history of the Death Penalty" http:// www.deathpenalty info. Org/ article.php. ; "Virgina Executions" Rob Gallagher. http://users. Bestweb.net
(3) Quoted in , Boyd , Op.Cit , P. 19
(4) Ibid , P. 19
(5) Quoted in , Ibid ,PP. 21-22

حسب حجم الولاية فتوجد ولايات كبيرة وصغيرة وليس من المعقول أن يتساوى حجم التمثيل في الاتحاد بين الولايات دون أية ضوابط. كما رغب جيفرسون ان تكون القرارات الصادرة من المؤتمر تحمل طابع الأغلبية، وقد أرسل جيفرسون مقترحاته إلى جون آدمز الذي كان عضوا في المؤتمر ولكن آدمز لم يقدم تلك المقترحات إلى المؤتمر رغم اتفاقه بالرأي مع جيفرسون بأنه يجب إن يكون إصدار القرارات بالتصويت العادل(١) . وفي الحقيقة كان جيفرسون يأمل بتطبيق الديمقراطية الحقيقية في البلاد وان لا يهمل رأي الولايات وشعوبها الممثلين بالمؤتمر عن طريق التصويت بنظام عدد الولايات فكل ولاية كان لديها خمسة ممثلين في المؤتمر وهذا العدد كان اعتباطيا وبدون دراسة ومن ثم يكون لولاية ما لا يزيد عدد سكانها على عشرة الآف خمسة ممثلين في حين يكون لولاية أخرى ربما يزيد عدد سكانها على أربعين إلفاً خمسة ممثلين أيضا، وهذا ما عبر عنه جيفرسون بالولايات الصغيرة والكبيرة، كما أن المؤتمر قد عَدّ تصويت خمس ولايات على قرار ما كافيا لإمراره(٢)، وهذه لا تُعدّ أغلبية كبيرة، وقد عُدّت آراء جيفرسون الديمقراطية بمثابة رفاهية لا حاجة لها في تلك الظروف ولم تؤخذ بنظر الاعتبار ولاسيما من جون آدمز الذي كان يميل بشدة لبسط سلطة المؤتمر على الولايات وحكوماتها المحلية وقد اتضح ذلك جلياً من خلال إقرار الدستور فيما بعد.

اهتم جيفرسون خلال وجوده عضواً في مجلس النواب، بالأمور التجارية ومحاولة تطويرها، فقد كان يرغب بان لا تهرب رؤوس الأموال من الولايات إلى بريطانيا من خلال هروب أصحاب الأموال الخائفين على حياتهم من الحروب الدائرة في الولايات، وكذلك هروب الموالين لبريطانيا من أصحاب الأموال، زيادةً على تدني القيمة الحقيقية للأوراق المالية التي كان يصدرها المؤتمر. لذلك دعا

(1) Boyd , Op.Cit, P. 21

(٢) جاء ذلك وفقا لعدد الولايات التي اعترفت بسلطة المؤتمر وهي تسعة فقط، وبالتالي اعتبرت الخمسة أصوات أغلبية، ينظر : Ibid, P. 22

إلى فتح التجارة الحرة مع دول أوربا ومحاولة عقد معاهدات تجارية مع أي من تلك الدول، كما ان التجارة الحرة ستدفع أصحاب الأموال للبقاء في الولايات لان همهم الوحيد هو جني المال والأرباح وستشجعهم على إبقاء سفنهم لإغراض التجارة. كما أكد ضرورة تدعيم الأوراق المالية الأمريكية وان تم ذلك عن طريق الاقتراض من الدول الأجنبية. وقد اقترح الاعتماد على احد المرابين الايطاليين من دويلة توسكاني، وقال في رسالة بعثها الى آدمز في الحادي عشر من أب عام ١٧٧٧ " لقد تم بحث اقتراض المال من أوربا ولكني أتوقع إن عملك بهذا الأمر مقتصر على فرنسا وهولندا ...وهناك قوة اصغر لكنها تميل الى قضيتنا بشكل جيد وكما علمت أنها تمتلك قدرات لكي تساعدنا في هذا الأمر إنني أتحدث عن دوقية توسكاني ...ولقد علمت من مصادر موثوقة إن ذلك الدوق لديه عشرة ملايين تاج يضعها في صناديق حديدية لحفظ النفائس ...ومن الممكن ان يقرضنا الكثير من المال الشرعي وقد يصل إلى مليون باوند " [١]. وكان جيفرسون قد جمع معلومات عديدة حول هذا الدوق بل انه وجد الرجل المناسب لإرساله إلى توسكاني وهو على معرفة جيدة بذلك الدوق، وانه معروف من بعض ضباط المليشيا الأمريكية، والغاية من ذلك كما يقول جيفرسون " إن الحصول على الأموال بصورة نقدية سيدفع إلى تقليل كمية الأوراق المالية المتداولة والتي سترتفع قيمتها وبالتالي الحصول على ثقة الصناعيين في البلاد " [٢] فإذا قُلّلت الأوراق المالية سيكون بالإمكان التخلص من ذلك التضخم المالي الذي تعاني منه البلاد ولاسيما أن المصانع في الولايات بدأت بالتراجع في إنتاجها بسبب التضخم المالي. ألا أن جيفرسون فشل في جذب نظر المؤتمر إلى اقتراحاته تلك،لكن حاكم فرجينيا باتريك هنري اقتنع بها وعمل على إرسال فلبي مازي الرجل الوثيق الصلة بدوق توسكاني لاقتراض المال لولاية فرجينيا وكان ذلك في بداية كانون الثاني من عام ١٧٧٩ [٣]. كما عمل جيفرسون على استرجاع الديون العائدة للولاية والتي كانت بذمة المواطنين والتجار، واصدر مذكرة بذلك الأمر ووافق

(1) Quoted in ,Boyd ,Op.Cit .P. 27
(2) Ibid , P. 28
(3) Ibid ,P. 29

المجلس على إصدارها قراراً يلزم جميع المواطنين والتجار وغيرهم ممن ابرم صفقة مع حكومة الولاية وقبض مالا ثم تراجع عن الصفقة، بان يسددوا المال بسرعة وعلى الذين امتنعوا عن تنفيذ الصفقات ان ينفذوها بالقوة وذلك في عام ١٧٧٧، وقد تبنى المؤتمر ذلك القرار وتم تعميمه على كافة الولايات في الثامن والعشرين من أيار عام ١٧٧٨ [١] .

وقد عمل جيفرسون خلال سنته الثالثة في مجلس نواب فرجينيا على إنشاء دار للكتبة والمراسلات الأجنبية في ولاية فرجينيا، وقدم مذكرة بذلك إلى المجلس الذي وافق على الفور بإنشاء تلك الدار وذلك في الثامن عشر من أيار عام ١٧٧٨ [٢]. وربما كان تجاهل آدمز لطلب جيفرسون إنشاء دائرة للبريد هو السبب وراء إنشاء تلك الدار التي لم يختلف عملها عن دائرة البريد بكثير، وكان آخر ما حاول جيفرسون إصداره خلال وجوده في مجلس نواب فرجينيا مذكرة تجبر النواب على حضور جلسات المجلس بالقوة، وفيما يلي نص المذكرة " تقرر بان أي عضو لا يحضر في الافتتاح الرسمي للمجلس سوف يدفع مقدار ـــــ لكل يوم يستمر في الغياب فيه لان ذلك يجعل عمل المجلس معطلا لعدم اكتمال النصاب ويتم استرداد الغرامات من خلال المحكمة العامة ما لم يقم العضو بتبرير الغياب بأنه كان محتجزا في عمل عام أو انه أو زوجته او ابنه او احد والديه كانوا مرضى ولا يتم قبول أعذار أخرى ...واذا رحل أي عضو من المجلس قبل نهاية الجلسة بدون اخذ الإذن بذلك فانه يتم سحب كل الأجور التي كان سيأخذها " [٣]، ولاشك ان تلك المذكرة مهمة لمتابعة جلسات المجلس كون الأعضاء ممثلين عن الشعب الذي ينتظر منهم متابعة أموره وقضاياه وليس كسب المال فقط، لكن اغلب النواب رفضوا تلك المذكرة ولم يتم تطبيقها[٤] وهذا يدل على أن اغلبهم لم يكن صاحب قضية ولا يهتم إلا بكسب المال، كما يدل من جانب آخر على حرص جيفرسون على المال العام وعلى تنظيم حركة الولاية وتفعيل دور المجلس النيابي فيها.

---

(1) Quoted in ,Boyd,.P. 183
(2) Boyd ,Op.Cit , P.181
(3) Quoted in , Ibid, PP.188-189
(4) Ibid, P.189

الفصل الثالث

دور جيفرسون في السياسة الأمريكية(الداخلية والخارجية) ١٧٧٩- ١٧٨٩

المبحث الأول

توماس جيفرسون حاكما لفرجينيا ١٧٧٩- ١٧٨١

المبحث الثاني

توماس جيفرسون في فرنسا

أولا: توماس جيفرسون سفيرا في فرنسا

ثانياً: اهتماماته بتطور الأحداث في الولايات المتحدة (موقفه من انتفاضة شايز وكتابة الدستور)

ثالثاً: رحلاته إلى جنوب فرنسا وايطاليا

رابعاً: جيفرسون والثورة الفرنسية

توماس جيفرسون حاكما لفرجينيا ١٧٧٩-١٧٨١

أصبح توماس جيفرسون ثاني حاكم امريكي لفرجينيا خلفا لباتريك هنري الذي حكم فرجينيا لثلاث مرات بصورة متعاقبة ولما كان القانون لا يسمح بانتخاب حاكم أكثر من ثلاث مرات فقد رشح توماس جيفرسون لشغل منصب الحاكم ونافسه على ذلك المنصب صديقه جون بيج[١]. واستطاع جيفرسون الفوز بالمنصب بفارق طفيف، إذ رشح لذلك المنصب زيادة على جيفرسون وجون بيج، توماس نلسون وقد حصل جيفرسون في الاقتراع الأول على (٥٥) صوتاً وحصل جون بيج على (٣٨) صوتاً في حين حصل توماس نلسون على (٣٢) صوتاً،ولذلك أعاد المجلس الاقتراع لعدم حصول أي من المرشحين على نصف عدد الأصوات، مستثنيا المرشح ذا الأصوات الأقل وهو توماس نلسون فجرى الاقتراع الثاني بين توماس جيفرسون وجون بيج وحصل جيفرسون على (٦٧) صوتاً في حين حصل جون بيج على (٦١) صوتاً[٢]. ولم يؤثر فوز جيفرسون في علاقته بصديقه الذي كتب له بشكل ودي وهنأه بالفوز ورد عليه جيفرسون بما يؤكد احترام الصداقة مضيفا" أن ما أسعدني انه لم تكن هناك منافسة بيننا وان اختلاف الأصوات التي قررت اختيار احدنا كان تافهاً ليعطيك الألم أو ليمنحني السعادة وان علاقتنا لا تسمح لذلك الشعور أن يمر"[٣]. وفي الأول من كانون الثاني عام ١٧٧٩ شغل جيفرسون ابن السادسة والثلاثين كرسي الحكم لأول مرة في حياته[٤]. وبهذا التعيين استقال من الهيئة التشريعية لمجلس ولاية فرجينيا[٥] لأنه

(1) George Tucker , The life of Thomas Jefferson Third President of the united states, Philadelphia 1837 , P. 126
(2) Boyd , Op.Cit, P. 277
(3) Quoted in , Ibid , PP.278-279
(4) Randall, Op.Cit , P 239
(5) Jefferson , Memories, Op.Cit P52

لا يجوز الجمع بين تولي منصب حاكم الولاية وعضوية الهيئة التشريعية[١]، وكان على جيفرسون أن يدير ولاية من اكبر الولايات الأمريكية ففرجينيا في ذلك الوقت كانت تمتد غربا لغاية المسيسبي متضمنة ما يعرف اليوم بفرجينيا وفرجينيا الغربية وكنتاكي Kentucky وجزءا كبيرا من أوهايو وأنديانا Indiana والينوي Illinois [٢] .

وقد ألقى جيفرسون بمناسبة تعينيه خطابا مقتضبا لم يعلن فيه عن أية خطط او برامج ينوي عملها للولاية. وفيما يلي مقتطفات من خطاب جيفرسون في الثاني من كانون الثاني عام ١٧٧٩ " أيها السادة ان الشرف الذي كان المجلس العام قد منحه لي من خلال دعوتي إلى ذلك المنصب العظيم كحاكم لهذه الولاية يقتضي شكري وامتناني ...وان ألمي الكبير ان تكون جهودي الهزيلة اقل من التوقعات اللطيفة لبلدي، وبعيدة مثل النزاهة والاهتمام المجهد والشعور المخلص للقضية الأمريكية العظيمة والتي ستجعلني أقوم بواجبات أي منصب ..."[٣] .

كانت أول أعمال جيفرسون حاكماً للولاية المصادقة على معاهدة للتحالف والتجارة مع فرنسا وقد صادق عليها مجلس ولاية فرجينيا في الرابع من كانون الثاني عام١٧٧٩، وأرسل نسخة من ذلك التصديق الى السفير الفرنسي في فيلادلفيا وابلغه بان ولاية فرجينيا قد صادقت على المعاهدة وانه وأعضاء مجلس فرجينيا مسرورون بعقد تلك المعاهدة ويعلقون عليها آمالا كبيرة[٤]. ولم يكن آنذاك ما يمنع من ان تعقد ولاية ما معاهدة خارجية، وعلى الرغم من ذلك يبدو ان المؤتمر او بعض أعضائه قد امتعضوا من تلك المعاهدة وقد علم جيفرسون بالأمر دون ان يكترث به، ويتضح ذلك من الرسالة التي أرسلها وليام فلمنج من فيلادلفيا

---

[١] - بنفس الوقت انتخب جيفرسون في السابع والعشرين من كانون الثاني ١٧٧٩ عضواً في الجمعية الفلسفية الأمريكية،ولم يبرز له نشاطاً ملحوظا في تلك الجمعية الا بعد اعتزاله الرئاسة عام ١٨٠٩ ، للتفاصيل ينظر:

Gilbert Chinard, Jefferson and the American Philosophical Society, Proceedings of the American Philosophical Society, Vol. 87, No.3 (Jul.14, 1943) P.264.

(2) Merwin , Op.Cit,P. 60
(3) Quoted in ,Boyd ,Op.Cit, PP.277-278
(4) Ibid, PP. 290- 291

الى جيفرسون والتي جاء فيها " ان المصادقة على المعاهدة من قبل مجلس فرجينيا كانت مفرحة جدا للسفير الفرنسي ...وان عدداً قليلاً من رجال المؤتمر الذين علموا بالمصادقة على المعاهدة عبروا عن كراهيتهم لها لأنها ضد روح الاتحاد الكونفدرالي على الرغم من انه لم يقل شيء علنا حول الموضوع ...واني اعتقد انها جاءت بالوقت المناسب لكي تنظر فرجينيا إلى أهميتها وتوفر لنفسها أمنها الخاص في حالة الانفصال "[١]. ومهما يكن من أمر فقد نفعت تلك المعاهدة فرجينيا فيما بعد حينما تفاقم الخطر البريطاني إذ أرسلت فرنسا مساعدات عسكرية لها، ولا نعتقد ان جيفرسون كان يفكر بالانفصال عن الولايات الأخرى كما فكر صديقه وابن ولايته وليام فلمنج، لكن جيفرسون في الوقت نفسه اخذ يتعامل مع فرنسا وكأن فرجينيا دولة مستقلة إذ أرسل ممثلا عن الولاية إلى فرنسا، كما سعى لتنفيذ خطته القاضية باقتراض المال من الدول الأوربية ولكن ليس من توسكاني بل من فرنسا. ونقرأ في الرسالة التي بعث بها جيفرسون الى فرنسا ضمن أوراق اعتماد السفير الفرجيني بيتر بنت انه موكل بهدف الحصول على قروض من الذهب والفضة بما لا يتجاوز المائة ألف باوند إسترليني،ويزيد قائلاً "...ويتعهد بدقة المواعيد لتنفيذ الاتفاقيات التي سيقوم بها بما يتناسب مع القرض من الذهب والفضة .واني أعلمكم باني أنا توماس جيفرسون حاكم ذلك الكومنولث ومن خلال مجلس الأمة أصادق وأؤكد على القوة والسلطات الممنوحة لبيتر بنت المحترم من خلال التفويض من قبل الحاكم السابق وأتعهد بعقيدة وإيمان الكومنولث بانجاز كل الاتفاقيات بمواعيدها الدقيقة والتي تم القيام بها او يجب القيام بها من خلال بيتر بنت وبشكل يتناسب مع قرض الذهب والفضة بالطريقة الكاملة الوافرة، وكشهادة على ذلك فاني أقوم بتثبيت ختم ذلك الكومنولث في وليامزبورج هنا في ١٥ تموز في السنة الرابعة للكومنولث وفي سنة سيدنا[يقصد المسيح] ١٧٧٩"[٢] من خلال خطابه هذا نجده مزهوا بنفسه وفرحا بمنصبه، كما نجد نبرة دينية غير مألوفة في

(1) Quoted in , Boyd ,Op.Cit ,Vol, 3 , P. 10
(2) Quoted in , Ibid, P.36

كتابات جيفرسون كانت الغاية منها استمالة آل بوربون الكاثوليك المتدينين، كما نجده يؤرخ الخطاب بعمر مجلس الولاية وهذا ما تفعله الدول الحديثة التكوين[١] .

بدت الأمور زاهية في بداية حكم جيفرسون وكانت واجباته عادية وامتلأت خطاباته بالحديث عن تموين الجيش بالملابس والقمصان والأحذية وكان عليه نقل الرصاص من المناجم وتشجيع الصناع لصنع البارود[٢]. وتفرغ جيفرسون لنقل العاصمة من وليامزبورج إلى ريتشموند وبدا سعيدا بتصميم العاصمة الجديدة لفرجينيا لكنه لم يتمكن من بناء ريتشموند وفق تطلعاته الهندسية لظروف الحرب،ومع ذلك استطاع نقل العاصمة وانتقل بمجلسه إليها ظناً منه أنها مكان آمن لأنها كانت ابعد عن البحر ومن ثم فهي اقل عرضة للهجمات البريطانية في المستقبل[٣] .واستمر الهدوء النسبي في الولاية طوال مدة حكمه الأولى ولم يحدث أي اضطراب أو تلكؤ في أدارة الأمور، وقد تفرغ جيفرسون لتنفيذ بعض ما كان يطمح إليه لتحديث الولاية ووجه نظره صوب كلية وليام وماري محاولا إصلاح الكلية من خلال تنظيمها وإلغاء بعض الأقسام وزيادة أقسام جديدة، إذ اعتقد جيفرسون انه إذا أراد النهوض بالعملية التعليمية فيجب تحديثها وفق رؤى ومناهج جديدة وترك الدراسات القديمة التي لا يمكن من خلالها التقدم لذلك ألغى تدريس القواعد واللاهوت واللغات الشرقية في الكلية وأقام محلها مناهج لتدريس التشريح والطب والرياضيات واللغات الحديثة وركز على دراسة القانون بشكل لافت للنظر فقد انشأ مناهج لدراسة القانون السياسي والطبيعي وقوانين الأمم كما زاد مناهج جديدة لدراسة الآداب مثل الفلسفة الأخلاقية والتاريخ الطبيعي والفلسفة

---

[١] مما يلاحظ على رجال السياسة الأمريكية في تلك المدة ان كل واحد منهم كان يعمل بمعزل عن الأخر، فجيفرسون كان يطلب القروض من فرنسا بدون الرجوع الى واشنطن وبدون علم الآخرين وبنفس تلك المدة كان جون آدمز يبعث بالرسائل الى الشخصيات الفرنسية وخاصة لافاييت طالبا التوسط لمنح الولايات المتحدة قروضا للمساهمة في تطوير عمل المليشيا ، وجاء في إحدى الرسائل الى لافاييت ما نصه:" ... من المؤكد ان القرض المالي هو مطلوب جدا ...ولذلك فان كل خدمة تقدم من اجل الحصول على قرض من هذه المملكة[يقصد فرنسا] او من اسبانيا او هولندا ستكون الخدمة الأكثر إعانة وجوهرية" ينظر:

Stanley J. Idzerda, Lafayette in the Age of the American Revolution, Selected Letters And Papers, Volume II 1778-1780, London 1979, P.234.

(2) Passos ,Op.Cit ,P. 61

(3) Hitchens,Op.Cit ,P50

الطبيعية[١]. كما سعى الى جلب أساتذة أجانب ذوي كفاية عالية للتدريس في كلية وليام وماري وفعلا تم استقدام أستاذٍ للغات الحديثة من فرنسا عام ١٧٨٠ ،[٢] وهذا يعكس فكر الحاكم الجديد للولاية التي كانت على موعد للقتال مع البريطانيين لكن جيفرسون لم يكن قائدا عسكريا ولا متمرسا على القتال وكانت الجبهة الوحيدة التي يعرفها هي الفكر والقراءة والحداثة والتطوير المجتمعي والعمراني، فلم يهتم بتحصين الولاية والاستعداد المادي والمعنوي للقاء البريطانيين في أي وقت بل صرف فكره عن القتال تماما وتصرف كأنه حاكم في زمن السلم وليس في زمن الحرب.

في تلك الإثناء كانت التحركات البريطانية قد بدأت في الجنوب الأمريكي من خلال إرسال فرق استطلاعية لكشف المنطقة ومحاولة حث قبائل الهنود على الدخول معها في الحرب ضد الولايات الأمريكية وكانت تلك القوة بقيادة هنري هاملتون. وقد نجحت الطلائع الفرجينية برصد تحركات هاملتون فأرسل إليه جيفرسون العقيد جورج كلارك مع مئة وثلاثين محاربا للإيقاع به وقد نجح فعلا بالقبض عليه واتي به أسيرا مع جنوده إلى جيفرسون، الذي أرسل إلى واشنطن ليخبره بالأمر فطلب منه الأخير إطلاق سراح الجنود مقابل وعود بعدم الالتحاق بالجيش البريطاني والإبقاء على هاملتون أسيرا. وكانت تلك العملية الوحيدة الناجحة التي أطال في شرحها كتاب سيرة جيفرسون لبيان قدرته العسكرية[٣]. ونحن لسنا بصدد التقليل من شأن الرجل لكن عملية كهذه تحدث في الحروب بصورة دائمة ونادرا ما تذكر على صفحات التاريخ التي تمجد الأعمال البطولية للرجال بما حققوه بأنفسهم فإذا كان ثمة مجد ما بتلك العملية فيجب أن يكون للعقيد جورج كلارك.

اصدر جيفرسون في تلك الأثناء قرارا استبداديا بحق الانكليز الموجودين في فرجينيا وجميع الموالين للحكومة البريطانية وهو طردهم ومصادرة ممتلكاتهم.

---

(1) Jefferson , Memories ,Op.Cit ,P. 52

[2] Merle Curti , The Growth of American Thought , New York 1964 , P. 170.

(٣) ينظر على سبيل المثال:

Merwin,Op.Cit, PP.59-61;Rayner, Op.cit PP.163-164

وكان ذلك القرار من أكثر الأعمال العدائية التي اتخذتها الولايات ضد الشعب والحكومة البريطانية، وقد نص القرار على طرد الرعايا البريطانيين المقيمين منذ بدء العمليات الحربية ، الذين أعلنوا وقوفهم ضد الثورة وموالاتهم للحكم البريطاني في نيسان عام ١٧٧٥، وأضاف القرار"أن كل الأشخاص الموصوفين هكذا والمقيمين الآن داخل الكومنولث يجب طردهم ونفيهم منها ويجب القيام بإجراءات مناسبة لمنع عودتهم وإبعاد الآخرين الذين هم تحت الوصف نفسه وغير المقيمين الآن داخل الكومنولث ...وأطالب هنا كل الأشخاص القادمين في ظل أي صفة من هذه الصفات في القرار أعلاه والموجودين الآن داخل الكومنولث ...بان يكونوا على استعداد للرحيل عن الكومنولث كما تم أمرهم بذلك وإنهم إذا لم يرحلوا فان ذلك سيسبب لهم خطرا اكبر"[١]. ولم يذكر القرار ما الخطر الأكبر، ولكنها إشارة الى ترحيلهم بالقوة او قتلهم لان القرار أعطى العسكريين من المليشيا المدنيين مسؤولية التنفيذ واعتقال هؤلاء، كما منع ذلك القرار كل من يساند بريطانيا من دخول الأراضي الفرجينية [٢]، وعلى الرغم من حالة الحرب المعلنة واحتمال كون ذلك القرار دفاعيا لمنع الموالين لبريطانيا من محاولة إثارة الفتنة والاضطرابات، يبقى القرار جائرا لأنه سمح بتهجير الناس من بيوتهم وديارهم ونهب أموالهم وثرواتهم وتعريضهم للقتل، فلم يفرق القرار بين المتطوعين للقتال إلى جانب البريطانيين ومن يعادون الحكومة الأمريكية بالأفكار بل شمل كل المحافظين المسمين بالتوريز[٣] والذين كانوا لاجئين إلى فرجينيا لبعدها عن العمليات العسكرية، في حين أشار جيفرسون في إحدى رسائله في ذلك الوقت إلى من سماهم "الويك الطيبين" لأنهم يرغبون بنجاح الحكم الأمريكي ويحملون بداخلهم دوافع الحب الحقيقي للبشر[٤].

---

(1) Quoted in ,Boyd ,Op.Cit, PP.22-23

(2) Ibid, P. 23

(٣) انقسم الأمريكيين منذ بداية الحرب الثورية الى فريقين الأول كان مؤيد للانفصال عن بريطانيا والثاني كان ضد الانفصال ، وبعد إعلان الاستقلال بدأ الأمريكيون يسمون من عارض الثورة وبقي موالي لبريطانيا باسم التوري ، وهو مشتق من اسم حزب المحافظين في بريطانيا، وأطلقوا تسمية ويك،وهو مشتق من حزب الأحرار في بريطانيا أيضا، على المؤيدين للثورة والمعارضين لكل ما يمثل بريطانيا .

(4) Ibid, P.29

لم يراع جيفرسون خلال مدة حكمه الأولى مسالة المليشيا وتطوير القدرات العسكرية للولاية من خلال الزيادة العددية في المليشيا او من خلال التطور النوعي بالسلاح او بناء مصانع للذخيرة وغير ذلك ، على الرغم من صدور تحذيرات عديدة من أطراف مختلفة تشير الى نية البريطانيين بالتقدم إلى الجنوب الأمريكي. ويمكن ملاحظة هذه التحذيرات في الرسالة التي أرسلها واشنطن إلى جيفرسون في العاشر من تموز عام ١٧٧٩ يخبره فيها بواقع التحركات البريطانية إذ أشار الى تلك التحركات قائلا:" ان سيادتك قد سمعت بتحركات العدو أعلى نهر هدسون...وان مواقعنا في الأراضي العليا كانت هدفهم وقد استولوا على فيربلانكس وستوني...وقطعوا اتصالاتنا بين الولايات الواقعة شرق وغرب النهر"[١]، وكذلك من خلال رسالة جون جاي في الرابع عشر من آب عام ١٧٧٩، التي جاء فيها تحذير عام للمسؤولين وحكام الولايات كافة بان قوات العدو قد وصلت إليها تعزيزات من أوربا بنحو سبعة آلاف جندي ومن جزر الهند الغربية بنحو ثلاثة آلاف جندي، وقال جاي بالحرف "يجب على الولايات التحضير للعمليات العسكرية الأكثر قوة من خلال ملء كتائبهم واستعداد المليشيا "[٢]، لكن جيفرسون لم يأبه بتلك التحذيرات معتقدا انه وولايته بعيدان عن ساحات القتال.

ومهما يكن من أمر فقد مرت مدة حكمه الأولى بدون مشاكل تذكر، وتم تعيين جيفرسون حاكما لمدة عام آخر من خلال التسوية المتفق عليها في مجلس فرجينيا في يوم الجمعة الموافق الثاني من كانون الثاني عام ١٧٨٠ .ورغم ما ذكرته بعض المصادر من انتخابه حاكما لولاية ثانية بالإجماع[٣] إلا انه لم يعرف من رشح ضد جيفرسون ولا عدد الأصوات التي نالها وان ما ذكرته الوثائق هو "تسوية المجلس العام حول تعيين جيفرسون "[٤] أي أنها لم تذكر انتخابات، والراجح انه لم تحدث انتخابات في تلك السنة او لم يرشح احد فتم اختيار جيفرسون حاكما ومن ثم اصدر مجلس فرجينيا قرارا بالتسوية، والمهم أن

(1) Quoted in , Boyd ,Op.Cit , P.3
(2) Quoted in , Ibid, P.66
(3) Rayner ,Op.Cit ,P. 165
(4) Quoted in , Boyd, Op.cit ,P.410

جيفرسون باشر مهامه حاكماً للولاية في الثاني من كانون الثاني، وبـذلك أصـبح حاكما لسنة أخرى.

كانت ولاية فرجينيا في معزل عن القتال الدائر مع الجيش البريطاني، لكن الأحوال لم تستمر على هدوئها ولاسيما بعد توجه الجيش البريطاني نحو الجنـوب بدءاً من كارولينا الشمالية لان الجنوب قليل السكان وسهل المنال، كما أن التحالف الفرنسي مع ولاية فرجينيا أعطى تأثيرا سلبيا لان ذلك التحالف نص على إرسـال جنود فرنسيين لمساعدة فرجينيا ضد الجيش البريطاني وهـذا اضـعف حمـاس الأهالي للتطوع في مليشيا الولاية لأنهم اعتقدوا أن الجيش الفرنسي سيقاتل بـدلا منهم. ومن جهة أخرى أرعب ذلك التحالف البريطانيين لخوفهم مـن أن تتطـور الأمور فتصبح فرجينيا والولايات الجنوبية مستعمرات فرنسـية[1] . لـذلك وجـه البريطانيون أنظارهم صوب الجنوب الأمريكي الذي كان بعيدا إلى حد مـا عـن واقع العمليات الحربية، فعزم جيفرسون على مقاومة الجيش البريطاني محـاولا ضربه قبل أن يصل إلى فرجينيا وذلك بإرسال مساعدات عسكرية ومادية إلـى كارولينا لتجنب سقوطها ومن ثم ضمان عدم وصول الجيش البريطاني إلى ولايته وأرسل جيفرسون كل ما استطاع توفيره من الرجال والسلاح إلى كارولينا التـي سحقت بيد الانكليز بسرعة كبيرة وبالتالي يكون جيفرسون قد خسر أولى معاركـه مع الجيش البريطاني لأنه أرسل جنده وسلاحه إلى جبهة خاسرة وتم ذلـك بـدون دراسة مستفيضة إذ اعتمد على خطة الجنرال غيتس Gates قائد العمليات الحربية في كارولينا الشمالية إذ اعتقد غيتس أن بإمكانه إيقاف زحف قائد الحملة البريطانية في الجنوب اللورد كورنواليس Cornwallis إذا ما حصل على معونة عسـكرية من ولاية فرجينيا وبذلك يكون عدد جيشه أكبر من الجيش البريطاني أو موازيا له ويذهب لملاقاته مباشرة. ولكن غيتس نسي الوضع المزري لمليشيا الولايـات وإذا أخذنا مليشيا فرجينيا التي أرسلها جيفرسون،مثلا سنجدها مكونة من خمسـة ألاف

(1) Listizky,Op.Cit, P. 59

مقاتل تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والخمسين ولا يحمل سلاحاً الا خمسهم فقط ولم يحصلوا على أية تدريبات عسكرية واغلبهم لا يرتدي زيا عسكريا[١] .

لقد وضع جيفرسون قوات الولاية تحت إمرة الجنرال غيتس الذي تحصن في مدينة كامدين بكارولينا الجنوبية ولقيه كورنواليس وفي معيته ثمانية آلاف مقاتل،وكان ذلك في آب من عام ١٧٨٠ إذ الحق بالمليشيات الأمريكية هزيمة منكرة وسميت تلك المعركة بمعركة كامدين،[٢] وكل تلك القوات ضاعت مع عدتها فلم يبق في الولاية أسلحة كافية لمواجهة الجيش البريطاني الذي بدأ يتقدم باتجاه فرجينيا واخذ جيفرسون يطلب العون من واشنطن فقد كتب إليه قائلا" في الحقيقة ليس هناك شيء ما يقاوم تقدم الأعداء نحو الشمال سوى تكتيكهم العسكري كما أن كارولينا الشمالية ليس لديها سلاح مثلنا لأننا أرسلنا ما نملكه من السلاح بسخاء شديد أليهم ...لقد بعثت إلى المؤتمر ليمدونا بالأسلحة والذخائر العسكرية وورق لفافات البارود والصناديق الخاصة بها لان نقصان هذه السلع سيجعل ذخائرنا تتعرض للتلف وان قلة المال تعرقل كل مجهوداتنا .ان عدد الجنود النظاميين والاحتياط الذين طلبوا من هذه الولاية للالتحاق بالخدمة في الجنوب يقدر بسبعة ألاف، واعتقد أن خمسة ألاف وخمسمائة جندي سيتقدمون فعلا ولكن لدينا أسلحة لثلاثة ألاف فقط ولا نملك التجهيزات من الملابس والخيم والعربات التي يحتاج اليها الجيش، وان جيش الجنوب يعاني من نقص المؤن بسبب صعوبة وسائل النقل..."[٣] . وعلى الرغم من مناشدة جيفرسون لم يحصل على إمدادات عسكرية فقد كان واشنطن بوضع لا يحسد عليه ولاسيما بعد توالي الهزائم العسكرية في الجنوب الأمريكي[٤] كما واجه واشنطن مشكلات الخيانة التي استشرت في جيشه وبين صفوف قادته الكبار أمثال بينديكت ارنولد Benedict

(1) Merwin ,Op. Cit ,P. 61
(2) Johnson ,Op. Cit ,P,74

(٣) نقلا عن، مايو، المصدر السابق، ص ١٤٨

(٤) منذ شتاء عام ١٨٨٠ كان الموقف العسكري في كل الولايات لصالح الجيش البريطاني وكان واشنطن بموقف حرج للغاية خاصة وان غالبية جنوده لم يكن لديهم ما يكفي من الغذاء ولا المال، ولم يكن واشنطن يعتمد الا على المشاعر الوطنية الحقيقية التي كان يحملها رجاله والتطلع بشغف للمساعدة العسكرية الفرنسية التي كلما تأخرت زادت حراجة الموقف الأمريكي، ينظر :

Marshall, Op. Cit, P. 447.

Arnold الذي اكتشفت خيانته في أيلول من عام ١٧٨٠ وكان بينديكت يقود حصنا مهما على نهر هدسون زيادة على تمرد كبير في صفوف الجيش في نيوجرسي[١] .

كان على جيفرسون مواجهة الجيش البريطاني الذي اخذ يتقدم ببطء نحو فرجينيا لصعوبة المواصلات ولبعد المسافة وكذلك للغارات التي كان يقوم بها الفلاحون والعصابات على تلك القوات[٢]. وقد استمر تقدم الجيش البريطاني وأصبحت فرجينيا مهددة من جهة الشمال والشرق حيث دخل أسطول بحري بريطاني خليج تشيزابيك Chesapeake. وفي الثلاثين من كانون الأول عام١٧٨٠ لاحظ جيفرسون بنفسه دخول سبع وعشرين سفينة يقودها المرتد بينديكت ارلوند[٣] الذي قام بإنزال جميع قواته إلى البر وأخذ يزحف بهم نحو ريتشموند، وفي الوقت نفسه استطاع كورنواليس سحق جنود الماركيز دي لافاييت Marquis de Lafayette إلى الشرق من فرجينيا[٤] وبهذا تكون الولاية قد حوصرت تماما ولم تعد أمامها فرصة للنجاة من دخول الجيش البريطاني، ومن ثم لم يكن أمام جيفرسون سوى طلب المعونة من المؤتمر التي لم تأت أبدا وكتب بهذا الخصوص إلى غيتس قائلا " منذ منتصف الصيف وأنا اطرق باب المؤتمر طالبا مساعدات من كل الأنواع خاصة الأسلحة ...وان العدالة تقتضي حقا أن تقدم ألينا المساعدات بقوة ...إن كل لحظة تمر تؤكد وجوب مساعدتنا بواسطة إخواننا الشماليين واعتقد أن ما يقرب من نصف قوة العدو توجد ألان في فرجينيا والولايات التي تقع إلى جنوبها فهل يقع نصف عبء المقاومة على فرجينيا وكارولينا الشمالية ؟"[٥] . لكن دعوة جيفرسون لم تلق أي صدى يذكر، وفكر جيفرسون بعرض مبلغ خمسة آلاف دولار لمن يختطف ارلوند وان تتم العملية

(1) Johnson ,Op. Cit ,P 74
(2) Listizky,Op.Cit,P. 61
(3) Ibid, P.61
(4) Listizky,Op.Cit ,P.61; Hitchens, Op.Cit ,P50
(5) Quoted in , Randall, Op.Cit , P,306

بصورة سرية،لعل ذلك يخفف من وطأة العدو لكن تلك الخطة لم تخرج إلى الواقع وبقيت فكرة ميتة في رسالة إلى الجنرال ميوهلنبورج Muhlenburg.(١)

وجد جيفرسون نفسه وحيدا لان جميع أعضاء حكومته كانوا على جبهات القتال وقوات المليشيا تعجز عن صد جيوش ارنولد، فما كان منه إلا أن يرسل عائلته إلى توكاهو ويركب حصانه متوجها إلى ريتشموند لمراقبة سير الحركات البريطانية فوجد ارنولد قد احتل عاصمة المدينة، وبقي جيفرسون والمليشيا خارج فرجينيا لمدة ثلاثة أيام (٢)، وهو يراقب تحركات العدو فنجده يكتب في دفتر يومياته مايأتي:

الخامس من كانون الثاني ...ذهبت بنفسي إلى ويست هام West ham حيث انتشروا على فرع النهر، بعد ذلك ذهبت إلى مانجستر لرؤية العدو... ودخلوا ريتشموند في الساعة الواحدة بعد الظهر، وواصلت السير فرقة من المشاة وحوالي ثلاثين من الخيالة ودون توقف فدخلوا المشجب واحرقوه كما احرقوا مصنعا ومتجرا وبيتين آخرين .

السادس من كانون الثاني... في الصباح احرقوا بعض البيوت ودمروها وفي الثانية بعد الظهر غادروا ريتشموند.

السابع من كانون الثاني... هطل المطر بغزارة شديدة وتقدمهم ليلا مازال مستمرا إلى حد ألان .وقواتي تكونت من، جيبسون يقود ألف وستيبان يقود ثمانمائة ودايفد مائتين ..."(٣)

وهنا بدأت حركات التمرد والعصيان تظهر بازدياد بين المليشيا التي يقودها وحاول جيفرسون إرضاء المقاتلين بكل الوسائل الممكنة ليتجنب هروبهم أو خروجهم عن الطاعة وكتب قائلا" أن نقصان مؤن الحرب ووسائل الحصول عليها تجعل أوامرنا غالبا غير نافذة وتضطرنا إلى إن نجاري الظروف وعندما لا نستطيع أن ننجز عملا بطريقة ما نحاول انجازه بطريقة اخرى... واني لأشعر بالأسف إذ ظهرت روح العصيان ويجب أن تقمع فالقوانين التي وضعت برضا

(1) Quoted in , Randall ,P.306
(2) Listizky,Op.Cit,P.62
(3) Quoted in, Mazzey ,Op.Cit, P 83

الناس يجب أن لا تداس بواسطة الأفراد وانه من الخير أن يجبر الحقراء على إن يقدموا نصيبهم في العون العام وألا سيصبح العبء عليهم ثقيلا حقا "[١] ولعل هذا النص يصف بوضوح الحالة اليائسة التي وصل إليها جيفرسون فهو محاصر من الجيش البريطاني بدون جيش يعتمد عليه وينتظر حدوث تمرد كبير بأي لحظة وليس لديه أمل بوصول إمدادات لمساعدته وجاء احتلال ريتشموند ليزيد معاناة أخرى لجيفرسون فقد أصبح وحكومته مطاردين وبدون مأوى لذلك نقل جيفرسون مقر الحكم إلى تشارلوتسفيل حيث مسقط رأسه، ومثلما كانتْ تلك المدينة البداية لحياته أوشكت أن تكون النهاية فيها فقد تقدمت فرقة كبيرة من الجيش البريطاني يقودها الملازم باناستر تارلتون Banaster Tarlton بصورة مسرعة نحو المدينة ولعلها كانت على علم بوجود حكومة الولاية والحاكم فيها نتيجة عمل جاسوسي، لكن احد الخيالة الفرجينيين وهو جاك جويت قد رأى تلك الفرقة فانطلق بحصانه بسرعة خاطفة وأبلغ أعضاء الحكومة بتقدم الفرقة، وبشق الأنفس استطاع جيفرسون أن يخلي حكومته إلى مدينة ستانتون Staunton ورأى بعينه جنود تارلتون وهم يقتحمون المكان، وكان ذلك في الأول من حزيران عام ١٧٨١. وقد انتهى حكم جيفرسون قانونيا في الثاني من حزيران وجرى تأجيل إجراء انتخاب الحاكم الجديد لمدة عشرة أيام بسبب ظروف الحرب الطارئة [٢] .

كان موقفا عصيبا بالنسبة لجيفرسون إذ رأى بيته وأمواله تنهب أمام عينيه وهو لا حول له ولا قوة. وتبدو الآم جيفرسون واضحة من خلال وصفه لتلك الحالة فيما بعد اذ ذكرها في رسالة إلى احد أصدقائه هو الدكتور جوردن D.Gordon بتاريخ السادس عشر من تموز عام ١٧٨٨ قائلا: " عسكر اللورد كورنواليس وجيشه على طول مجرى نهر جيمس واتخذ مقرا له في منطقة ايلك هيل Eik Hill ثم اختار بيتي ليكون مقرا له ولقيادته وقد دمر كل محاصيلي الزراعية من الحبوب والتبغ واحرق جميع مخزوناتي من محاصيل العام الماضي بعد ان اخذ ما احتاج اليه من تلك المواد واستخدم كل ما عندي من ماشية وأغنام

(١) نقلا عن، مايو،المصدر السابق، ص ص ١٥٢- ١٥٣

(2) Hitchens,Op.Cit ,P50

وخنازير لتزويد جيشه وحمل معه كل الخيل الجيدة والقوية وذبح الخيول الصغيرة التي لم تكن تصلح للاستخدام واحرق سياج المزرعة لتتعرض للخراب التام بعد انسحابه،كما اخذ معه ثلاثين عبدا من عبيدي ..."[١]. ثم يستطرد جيفرسون شارحا حالة السلب والنهب التي تعرضت لها فرجينيا من اللورد كورنوواليس وجيشه، قائلا" إنني اروي ما شاهدته لأني كنت في ذلك المكان الذي نزل به كورنوواليس حيث عامل بقية جيراني بنفس الطريقة التي استخدمها في بيتي ولكن بدون تلك الروح الشريرة التي دفعته لتدمير ممتلكاتي، وأينما نزل كانت البيوت تنهب من كل شيء ...واني متأكد ان اللورد كورنواليس لن يسأل في انكلترا عن السلب والنهب لأنه هناك فوق مستوى الشبهات ...ومن خلال معلوماتي التي قمت بجمعها في تلك الأثناء فقدت فرجينيا على يد كورنواليس في تلك السنة ما يقارب الثلاثين ألف من الرقيق وان الذين مات منهم نتيجة الجدري والحمى التي كانت منتشرة في معسكر البريطانيين حوالي سبع وعشرين ألفا ...ويبدو ان صفحات التاريخ لن تذكر الأعمال الفظيعة التي قام بها الجيش البريطاني في الجنوب الأمريكي رغم أنهم من بداية هجومهم في منتصف نيسان إلى منتصف تشرين الأول عام ١٧٨١ لم يمكثوا أكثر من ستة أشهر الا أنني اقدرُ خسائرنا في تلك المدة بحوالي ثلاثة ملايين جنيه إسترليني"[٢] .

لم يكن أمام جيفرسون في تلك الساعات الأخيرة إلا الرحيل او البقاء انتظاراً لموت محتم، وبالطبع اختار الرحيل او الهروب كما تروق تسميته لبعضهم،تاركا خلفه بيته وممتلكاته لكورنواليس يعبث بها كما يشاء وحاملا معه همومه وآهاته، إذ توجه صوب عائلته التي وضعها عند توماس راندولف في توكاهو ومن ثم نقلهم إلى مزرعة بعيدة في التلال ورثها من والد زوجته ومكث فيها بضعة أيام[٣].وما أن زال الخطر حتى عاد جيفرسون إلى المجلس الذي تمكن من الاجتماع في السابع من حزيران عام ١٧٨١ وكان التوتر سيد الموقف وبدأت الأصوات تظهر من هنا وهناك مشيرة لوجود خيانة وضعف بالموقف العسكري

(1) Quoted in , Randall, Op.Cit , p340
(2) Ibid , PP. 340-341
(3) Passos,Op.Cit,P.72

وحمل احد أعضاء المجلس وهو جورج نيكولاس George Nicholas توماس جيفرسون مسؤولية الهزيمة متهما إياه بالفرار وترك الولاية بدون حاكم وبدون اتخاذ موقف معين[1]. ولم يكن توجيه الاتهام لأحد ما لتحمل المسؤولية هدف الاجتماع بل كان الهدف هو البحث عن من يخلف جيفرسون في الحكم وفي تلك الظروف الصعبة اخذ البعض بالتفكير بتنصيب حاكم عسكري بدون انتخابات ليتولى إخراج الولاية من وضعها الصعب وإدارة الأمور بشدة وحزم مما لا يفسح المجال أمام التمرد والارتداد. وفكر المجلس بتعيين دكتاتور لهذا المنصب وهنا عارض جيفرسون هذه الفكرة بشدة رغم موافقته على ضرورة انتخاب شخص عسكري لكنه كان يريد ان يتم ذلك الإجراء بالانتخاب للحفاظ على مكاسب الديمقراطية فقام بنفسه بترشيح الجنرال توماس نلسون Thomas Nelson الذي كان يتولى قيادة المليشيات في الولاية، وأدرك جيفرسون ان جمع السلطة المدنية والعسكرية في يد واحدة في هذا الوقت سيسهل الإجراءات العسكرية وفعلا تمت الموافقة على مرشح جيفرسون في الثاني عشر من تموز عام ١٧٨١ [2].

وعلى الرغم من موقف جيفرسون الصعب وما تعرضت له سمعته إلا أننا نجده يقف بحزم وشدة ضد تنصيب حاكم دكتاتوري، وقد كتب جيفرسون بصورة مطولة عن ذلك الموضوع في ملاحظاته عن فرجينيا، ومما قاله:" حينما ساءت ظروفنا اقترح بعض الأعضاء تعيين دكتاتور تمنح له كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية والمدنية والعسكرية، ليخول بأمر حياتنا ووفاتنا وأنفسنا وممتلكاتنا ولم يكن ذلك الاقتراح يحتاج إلا لصوت واحد كي يمر .ان الإنسان الذي يدخل في صراع لأجل الحرية والحقوق والذي يصمم على التضحية ويواجه الأخطار من اجل تثبيت تلك الحقوق وينفق ماله ودمه لن يقبل بتغيير سيد بسيد آخر وإنما قام ليضع سلطات حكيمة في عدد من الأيدي يختارها بنفسه حتى لا يضطهد من الإرادة الفاسدة ...إن مجرد التفكير في هذا الأمر يعد خيانة ضد الشعب وضد البشرية جمعاء ...وان أولئك الذين يرحبون بحق التنازل عن مقاليد

(1) Listizky,Op.Cit,PP.63-64
(2) Jefferson ,Memories, P. 53

الحكم في أية حالة يجب أن يتأكدوا من أن الخرفان التي سيسلموها الى فأس الدكتاتور سيضع رقابهم على منصة الإعدام بمجرد الإيماء لهم ولكن إذا كانت مؤسساتنا النيابية تفترض وجود مثل هذا التسليم في شعبنا فاني آمل أنهم قد اخطأوا في فهم خلق ذلك الشعب"[١]. لقد آمن جيفرسون بمبادئ الحرية والديمقراطية وناضل من اجلها ردحا من الزمن وكان من الصعب عليه رؤيتها وهي تموت أمام عينيه لمجرد هزيمة في معركة وان الديمقراطية لم تكن هي سبب الهزيمة وإنما تجمعت عدة أمور عسكرية ومعنوية وأدت الى تلك الهزيمة، وكان لسان حاله يقول انه مستعد لقبول ما شئتم من التهم والإساءة لسمعتي لكني غير مستعد لفقدان الديمقراطية والحرية.

بعد نجاح واشنطن بمحاصرة كورنواليس في خليج تشيسابيك ودفعه نحو يورك تاون Yorktown وعزله تماما عن أي إمدادات يأمل بالحصول عليها وتفوق جيش واشنطن البالغ تسعة آلاف جندي أمريكي وسبعة آلاف وخمسمائة جندي فرنسي مع مدافع قوية، على جيش كورنواليس المنهك،اضطر بعدها الاخير إلى الاستسلام مع جنوده البالغ عددهم سبعة آلاف ومئتين وسبعة واربعين جنديا مع (٨٤٠) بحاراً[٢] وكانت هذه هي النهاية كما جاء على لسان اللورد نورث حينما وصله الخبر[٣]. وبعد استتباب الأوضاع واستقرارها في فرجينيا وبدء اجتماعات المجلس انهالت على جيفرسون الاتهامات بالخيانة ووصفه بالجبان وأعاد جورج نيكولاس اتهامه لجيفرسون بالجبن مرة أخرى وهنا لم يستطع جيفرسون السكوت وطالبه على الفور بتقديم لائحة باتهامه إلى المجلس بصورة رسمية وقال انه سيجيب عنها جميعها. وبالفعل قدم نيكولاس جملة من الاتهامات بتقرير رسمي إلى المجلس الذي شكل لجنة لبيان التهم الموجه للسلطة التنفيذية المتمثلة بجيفرسون وقدمت اللجنة تقريرها في الثاني عشر من كانون الأول ١٧٨١ ومما جاء في تقرير اللجنة " اجتمعت اللجنة حسب القانون لتلك الغاية ولم يتم تقديم أية معلومات حول هذا الموضوع باستثناء بعض الإشاعات المنتشرة

(1) Quoted in, Jefferson, Notes, PP.131-133
(2) Fiske , Op.Cit , Vol ,II , P. 297; Johnson, Op.Cit, P.76.
(3) Maurois , Op.Cit , P. 388

...وان اللجنة توصلت إلى تسوية قدمتها إلى الموظف المسؤول ...وقد تقرر بان الإشاعات لا أساس لها "[١] كما ان مقدم الاتهامات وهو نيكولاس لم يحضر تلك الجلسة ولهذا اخذ جيفرسون تلك الاتهامات وبدأ يفندها الواحدة تلو الأخرى[٢]. والحقيقة أن الاتهامات التي أوردها نيكولاس لا ترقى لمستوى الأحداث التي دارت في فرجينيا، فقد دارت أسئلته حول إقدام جيفرسون على تزويد واشنطن بالمعلومات الحربية المهمة من عدمه، وعن تعاونه مع الجنرال ولسن من عدمه، وكانت بعض الأسئلة توجه شكوكا مباشرة بتهمة تعمد إخفاء المعلومات والتعاون بصورة غير مباشرة مع الأعداء مثل سؤاله لماذا طبعت رسالة ارنولد "الخائن" بدون طبع جواب نلسن معها ؟ فأجاب جيفرسون بنوع من الاستهزاء قائلا:ـــ فليسأل الطباع !![٣] .

لقد أثرت تلك الاتهامات في نفس جيفرسون وسببت له جروحا عميقة خاصة وإنها صادرة من احد أصدقائه المقربين رغم إن المجلس اقتنع تماما بإجابات جيفرسون وبرأ ساحته واصدر قرارا بذلك وهذا نصه:ـ " تقرر بان يتم تقديم الشكر الخالص من المجلس العام لحاكمنا السابق توماس جيفرسون المحترم لإدارته النزيهة والمستقيمة واليقظة لسلطات الهيئة التنفيذية. وبينما كان في المنصب فان الإشاعات الشعبية التي كسبت درجة معينة من التصديق من خلال الاتهامات الموجهة جعلت من الضروري القيام بتحقيق وبحث حول سلوكه وأخرت ذلك الجزاء للعرفان العام بالجميل الذي يستحقه بشكل بارز ولكن ذلك السلوك أصبح هدفا للتدقيق المفتوح وتم إضافة قيمة مضاعفة للمصادقة القائمة على أساس النقاش الهادئ والمتأنِ ولذلك فان المجلس يرغب بطريقة أقوى بإعلان الرأي والاعتقاد العالي الذي يضمرونه حول قدرة السيد جيفرسون واستقامته وصحة رأيه وأمانته كحاكم أعلى لهذا الكومنولث ويعنون بذلك المجاهدة والإقرار برأيهم لتجنب كل اللوم والتعنيف الرسمي المستقبلي والسابق الذي لا يستحقه وان

---

(1) Quoted in ,Boyd, Op.Cit, Vol. 6, P. 136

(2) Ibid , P. 136

(٣) يمكن الاطلاع على نص تلك الاتهامات وجواب جيفرسون عليها في :

Randal , Op.Cit, PP.353-356

هذه التسوية تمت قراءتها لمرة ثانية وتمت الموافقة عليها من خلال المجلس "[١] إلا أن جيفرسون ظل يعاني لفترة طويلة من حياته ولم يتغلب أبدا على الشعور بالمرارة نتيجة ذلك الاتهام، وقد دافع جيفرسون عن نفسه فيما بعد وذكر انه لم يكن دون كيشوت أو فارسا أسطوريا وهل كان ينتظر منه الجميع أن يحارب جيشا كاملا بمفرده ؟ وعَدّ الاتهامات الموجهة له عبارة عن فبركات قام بها الخصوم السياسيون لينالوا منه[٢] .

ومن خلال عمل جيفرسون حاكماً لولاية فرجينيا لسنتين يمكن أن نستخلص عدة أمور :ـ

أولا:ـ لم يكن جيفرسون ملما بالشؤون الإدارية بصورة كافية لإدارة ولايته المترامية الأطراف وقد وجه اهتمامه إلى تطوير كلية وليام وماري وبناء ريتشموند في ظروف غير مناسبة وهي الحرب، فمن المعلوم أن البلاد التي تخوض حربا ما،عليها أن توجه اهتماماتها إلى الأمور العسكرية والدفاعية لتجنب سقوطها بيد العدو وهذا ما تقاعس عنه جيفرسون ظناً منه انه بمجرد تحويل العاصمة إلى ريتشموند يأمن البريطانيين وما رأيناه كان عكس ذلك فقد استطاع ارلوند اقتحام المدينة بسهولة وبوقت قصير.

ثانيا:ـ وقع جيفرسون أثناء حكمه لفرجينيا بالعديد من الأخطاء العسكرية بحكم عدم خبرته بها، فأن إرسال كل قواته إلى كارولينا الشمالية كان خطأ فادحا لأنه جعل المدينة عرضة للسقوط بسهولة كما أن عدم وجود قوات كافية في مثل تلك الظروف يفسح المجال أمام التمرد والتذمر والخيانة وحدوث الاضطرابات وهذا ما حدث فعلا، وكان الأجدر به إرسال بعض التعزيزات إلى الولاية الجارة وإبقاء فرقة قوية قادرة على مناورة العدو في حال حدوث هجوم مباغت لحين وصول إمدادات من مكان آخر.

ثالثا:ـ لا يتحمل جيفرسون وحده هزيمة الجيش في الجنوب. وفي الحقيقة أن واشنطن نفسه يتحمل جزءا كبيرا من تلك الهزيمة لكونه كان على علم

---

(1) Quoted in ,Boyd ,Op.Cit,PP.135-136

(٢) مايو، المصدر السابق، ص ص ١٥٧-١٥٨

بتفصيلات الاحداث كافة في فرجينيا وقد كان جيفرسون يعلمه بتطور الأوضاع حال حدوثها وأطلعه على حقيقة الوضع تماما كما انه استغاث بواشنطن بوصفه القائد الأعلى للجيش، عدة مرات وطلب منه المساعدات العسكرية لكن بدون جدوى، كما يتحمل القادة العسكريون في ولاية فرجينيا جزءا من تلك المسؤولية لكونهم لم ينصحوا قائدهم السياسي ويوجهوه نحو الصواب من خلال خبرتهم العسكرية المفترضة .

رابعا:ــ أن هروب جيفرسون كان مسوغاً ولا يمكن وصفه هذه المرة بالجبن، لان بقاءه كان سيؤدي إلى اعتقاله أو قتله وفي كلتا الحالتين سيؤدي هذا إلى نتائج سلبية وخيمة على مجرى الأحداث العسكرية لأنه حاكم ولاية مهمة وان البريطانيين قد اعتقلوا هرم السلطة العليا أو قتلوه ، وهذا ما كان سيضعف موقف واشنطن والروح المعنوية للمقاومين. ومن جهة أخرى إذا فرضنا وقوع واشنطن أو غيره من القادة السياسيين في المأزق نفسه الذي وقع به جيفرسون فكيف سيتصرفون بدون جيش أو سلاح ؟ لاشك أنهم سيهربون، كما أن هناك أمراً أخر لابد من ذكره وهو انه لو كان غيتس قد نجح بصد هجوم كورنواليس وأوقفه عند كارولينا الشمالية، حينها سينظر إلى جيفرسون بوصفه بطلا قوميا ورجلا ذكيا لأنه استبق العدو بخطوة، ولكن هذا ما يحدث عند الهزائم فلابد من شماعة ما يعلق عليها الفشل وكان جيفرسون تلك الشماعة .

جيفرسون عضوا في المؤتمر ومشكلة الأراضي الغربية

بعد فترة سنة كاملة قضاها جيفرسون في مزرعته، علم بأن الهيئة التشريعية لولاية فرجينيا قد أصدرت قرارا بتعيينه عضوا في المؤتمر القاري ليمثلها فيه وذلك في السادس من حزيران عام ١٧٨٣ (١). وقد وافق جيفرسون على هذا التعيين على الرغم من إعلانه مسبقا اعتزاله الحياة السياسية، وسافر إلى ترنتون Trenton حيث كان المؤتمر مجتمعا هناك وفي الرابع من تشرين الأول اخذ جيفرسون مكانه في المؤتمر الذي أجّل اجتماعه إلى السادس والعشرين من تشرين الثاني وذلك لمناقشته العملة الأمريكية ووضعها، وكان المؤتمر قد طلب من المالي روبرت موريس Robert Morris دراسة العملات المستعملة في الولايات الأمريكية وان يقدم جدولا بنسبة قيمتها وتقسيمها الحقيقي. وبعد دراسة طويلة أكد موريس أن أفضل طريقة هي تقسيم العملة الواحدة إلى وحدات صغيرة، وكان ذلك حلا مقبولا لكنه غير عملي عند التطبيق لأنه كان من الصعب حسابه سواء أكان بعقل الإنسان أو بالكراسة والأرقام(٢)، فمثلا يصبح ثمن رغيف الخبز ١/ ٢٠ من الدولار وهو يساوي ٧٢ وحدة، وباوند من الزبدة يكون ثمنه ١/ ٥ من الدولار ويساوي ٢٨٨ وحدة، وان حصاناً أو عجلا قيمته ٨٠ دولاراً سوف يكون حسابه بالوحدات رقما من ستة أرقام أي ١١٥٢٠٠.وإذا أريد حساب الدين العام يكون الأمر اعقد كثيراً فلو افترضنا أن الدين العام للدولة هو ثمانون مليون دولار،فسوف يكون حسابه بالوحدات مكوناً من أثنى عشر رقما أي (١١٥٢٠٠٠٠٠٠٠٠) وحدة، وهذا النوع من الحساب لا ينجح في استعمالات المجتمع العادية، لذلك اقترح جيفرسون أن يؤخذ الدولار نفسه وحدة للحساب والدفع وان تكون أقسامه بالنسبة العشرية(٣)، أي النظام العشري الذي يقسم العملة

(1) Henry D. Gilpin , Biographical sketch of Thomas Jefferson , Philadelphia 1828 , P. 292
(2) Jefferson , Memories, P54; Lisitzky ,Op.Cit , P. 69
(3) Jefferson , Memories, , P. 55

إلى عشرات ومئات، وقد وافق المؤتمر على مقترحه بعد مناقشات مع روبرت موريس الذي لم يكن مقتنعا بذلك التقسيم .

كانت مشكلة الأراضي الغربية من أهم المشكلات التي اخذ المؤتمر بمناقشتها قبل وصول جيفرسون إليه، وأن تلك المشكلة تعود إلى ما قبل عام ١٧٦٣ الذي انتهت فيه الحرب الهندية الفرنسية، ففي تلك السنوات ارتفعت أصوات مطالبة بإنشاء مستعمرات جديدة غرب الميسيسيبي، للحد من التقدم الفرنسي وحتى البريطاني صوب الغرب الأمريكي. حتى في خطة فرانكلين للاتحاد عام ١٧٥٤ أشير إلى أن إنشاء مستعمرات جديدة غرب أوهايو والبحيرات الكبرى، سيعمل على كسر السلطة الفرنسية وتعزيز الوجود البريطاني وتوفير الأمن للمستعمرات الأمريكية. وتوقع فرانكلين أن المناطق القريبة من شلالات نياكارا Niagara والى الجنوب من أوهايو هي مواقع محتملة لمستعمرات جديدة[١]. وبعد نهاية الحرب الهندية الفرنسية بدأت أحلام المضاربين العقاريين تتجه صوب كسب أراضٍ واسعة بدون مقابل أو بمبلغ زهيد يدفع للهنود الحمر مقابل التنازل عن الأراضي التي بحوزتهم، كما أن هناك أراضي واسعة لم تكن تتبع الهنود ولم تكن تتبع مستعمرة ما وكلها كانت إلى الغرب والشمال الغربي من فرجينيا(وهي ما تسمى الآن كنتاكي و ويستفاليا وشرق أوهايو والينوي) وهذا ما شجع المضاربين من أصحاب الأموال الفرجينيين على الطمع بتلك الأراضي، لكن أطماعهم تعارضت مع السلطة البريطانية التي كانت تخشى إنشاء مستعمرات جديدة تسيطر على الثروات الغنية في تلك المنطقة وحتى عام ١٧٧٥ لم يستطع المضاربون العقاريون امتلاك أجزاء واسعة من تلك الأراضي. وعند اندلاع الثورة الأمريكية بدأ التقدم البطيء نحو الغرب من قبل المضاربين، ولاسيما عندما بدأت المستعمرات الأمريكية بتشكيل حكومات جديدة، وبدأ المهاجرون الجدد الى تلك الأراضي بتقديم وثائق ومستمسكات لمحاولة إدراج مناطقهم ولاياتٍ جديدة[٢] ، في حين تعارضت تلك الرغبات مع المضاربين الأرستقراطيين، الذين كانوا معتمدين على ما عرف بنظام كراون

(1) Chad J.Wozniak," the new western colony schemes: A Preview of the united states territorial system" , Indiana Magazine of History , No. 68 , 1972 , PP.288-291
(2) Reginald Horsman , "Thomas Jefferson and the Ordinance of 1784 ", Illinois Historical Journal , Vol. 79 , No. 2 (summer,1986), P. 100

Crowns Land Ordinance الذي اقره مجلس فرجينيا زمن الحاكم البريطاني اللورد دنمور عام١٧٧٤ [١]الذي أتاح للمضاربين بالأراضي من البريطانيين والأمريكيين التحرك نحو استملاك الأراضي غرب فرجينيا. ومن هنا بدأ الصراع على الأراضي بين المهاجرين الجدد المستوطنين لتلك الأراضي وبين المضاربين. وفي تلك الفترة حاول جيفرسون فيما بعد عام ١٧٧٦ منع تلك المضاربات العقارية من خلال وضع خطة من شقين الأول منح كل نازح إلى الغرب تخويلاً رسمياً لشغل الأراضي التي يحتاجها وحمايتها وبذلك سيحمي الأرض التي يحصل عليها والشق الثاني أن يكون سعر الأرض التي سيحصل عليها مناسبا لحالة الأرض وسعرها الحقيقي على أن يكون المبلغ المدفوع غير مكلف قدر الإمكان للمستوطنين الجدد مع تمتع أولئك المستوطنين بنوع من المساواة والحرية السياسية تمهيدا لحصولهم على الحكم الذاتي من ولاية فرجينيا التي عليها أن تدافع عن " المستعمرات " الجديدة ذات الحدود المرتفعة، كما دعا إلى إعطاء المتطوعين في القتال ضد الجيش البريطاني أراضي بصورة مجانية لغاية تشجيعهم للانخراط في صفوف الجيش ولضمان معارضتهم للبريطانيين لأنهم سيشكلون حائطا لحماية فرجينيا من الهنود والانكليز[٢].

لكن ذلك لم يرض المضاربين بالأراضي الذين كانوا يقدمون الآلاف من الوثائق واغلبها مزورة للبرهنة على امتلاكهم للأرض عن طريق شرائها من الهنود الحمر. لذلك دعا بعض أعضاء مجلس فرجينيا التشريعي، مثل جورج ماسون إلى عَدّ " كل عقود الأراضي التي تم شراؤها من الهنود ملغاة وباطلة"[٣]. وبدأت المطالباتِ بان تتخلى ولاية فرجينيا عن المطالبة بتلك الأراضي، وجراء ذلك استمر الصراع بين

(١) طالب ذلك القانون بمسح جميع الأراضي غير المقررة ولم ينظر الى الأراضي الخصبة المتاخمة للأراضي المسجلة او الأراضي البور البعيدة عن تلك المسجلة على حدة بل حدد جميع تلك الأراضي بسعر واحد وفرض عليها ضريبة واحدة وقرر بيعها بسعر يبدأ من ستة بنسات ومن ثم يتم تسجيلها وتمليكها، بمعنى اخر فسح ذلك النظام المجال لارستقراطيي الأرض لشراء اكبر مساحة من الأراضي الخصبة المتاخمة لحدود أراضيهم القديمة بسعر بخس وجعل مناطق الحدود وأراضيها البور عرضة للمضاربة العقارية والذي ينتج عن ذلك حرمان المستوطنين الجدد من تلك الأراضي لأنهم لم يدفعوا الضرائب وليس لديهم أموال لشراء تلك الأراضي وان رغب بعضهم بذلك وجد نفسه يشتري أرضا بور على حافات الحدود، للتفاصيل ينظر:

Carl H.Laub," Revolutionary Virginia and Crowns lands", 1775-1783, William and Mary quarterly(Williamsburg) Vol,xi(October 1931)PP.304-314

(2) Anthony Marc Leeies, "Jefferson and Virginia Pioneers,1774-1781", The Mississippi Valley historical Review,Vol.34,No.4(Mar.1948) PP.551-556

(3) Horsman , Op.Cit , P. 103

الأطراف المتعددة لاستملاك الأراضي حتى عام ١٧٨٤ إذ أصبح جيفرسون عضوا في المؤتمر، ولما كان جيفرسون على اطلاع على تلك القضية فقد قرر المؤتمر تشكيل لجنة برئاسته لدراستها وتقديم مشروع قانون لحلها، وتشكلت اللجنة زيادة على جيفرسون، من السيد جرمياه تونلي جاز Jeremiah Townley Chase مندوب ولاية ميريلاند والسيد ديفد هويل David Howell مندوب ولاية رود ايلند[١]. ومما يجدر ذكره هنا أن المؤتمر لم يكن بإمكانه البت بتلك المشكلة إلا بعد توقيع معاهدة الصلح مع بريطانيا التي كانت قواتها موجودة على حدود تلك الأراضي إلى الجنوب من كندا، لذلك شكلت تلك اللجنة بعد توقيع المعاهدة عام ١٧٨٣ [٢]، إذ أصبحت تلك المناطق تابعة رسميا للولايات المتحدة ومعترفاً بها دوليا. وقد استطاع جيفرسون في مدة لا تتجاوز ثلاثة أسابيع تقديم مشروع قانون لتنظيم تلك الأراضي الجديدة وكان ذلك المشروع يقضي بان كل البلاد الجديدة التي تملكها الجمهورية ينبغي إن تقسم إلى ولايات أمريكية لها من الحقوق وعليها من الواجبات ما لباقي الولايات المتحدة، وبذلك يبقى المجال مفتوحا لزيادة مساحة الدولة ونموها واحتفاظها بوحدتها في آن واحد، وكما جاء في نص المشروع " يزداد عدد الولايات بقدر ما يشاء على أن تبقى الهوية واحدة للكل "[٣]. ويخول ذلك القانون شعوب الولايات التي تريد أن تصبح ولايات اتحادية، تأليف حكومات ديمقراطية ذات سلطة داخلية (حكم ذاتي) ولكن بعد تحقق الشروط الآتية:-

١) أن تبقى تلك الولايات الى الأبد جزءا من الاتحاد الكونفدرالي الذي تؤلفه الولايات المتحدة الأمريكية .

٢) إن تلك الولايات بما تحويه من مواطنين وأراضٍ ستكون خاضعة لحكومة الولايات المتحدة المتمثلة بالمؤتمر، ولقوانين الاتحاد الكونفدرالي .

---

(1) Horsman,P.105 ; Randall. Op.Cit , P. 389

(٢) اعترفت بريطانيا من خلال تلك المعاهدة باستقلال المستعمرات وحقوقها في الإقليم الواقع جنوب كندا وجنوب فلوريدا وغرب المسيسبي، ونصت المعاهدة أيضا على حصول الولايات المتحدة على حق صيد الأسماك في الأراضي المكتشفة حديثا وكندا وان يوصي المؤتمر الهيئات التشريعية في الدولة بإعادة ممتلكات الموالين لبريطانيا وان يتم فتح الملاحة في المسيسبي للأشخاص من كلا الدولتين، ينظر:

Harold C. Syrett, American historical documents , New York 1873, P. 94

(3) Lisitzky ,Op.Cit , P. 70

٣) تقوم تلك الولايات بدفع جزء من الديون الفدرالية السابقة واللاحقة وان تقسم عليها عن طريق المؤتمر طبقا للقواعد والمقاييس العامة نفسها التي تحدد نصيب الولايات الأخرى من الدين العام .

٤) تكون التشكيلة الحكومية في تلك الولايات وفق النظام الجمهوري، ولا يسمح بمن يحملون ألقابا وراثية (الكونت، الايرل، اللورد ..الخ) بان يحملوا جنسية تلك الولايات.

٥) تتعهد الولايات الجديدة أن تنهي نظام الرق والاستعباد غير الاختياري بعد عام ١٨٠٠ [١].

ويحق لكل ولاية جديدة المساواة بالولايات الأصلية الثلاث عشرة حينما يصبح عدد سكانها الأحرار موازيا لعدد سكان اصغر ولاية اتحادية أصلية، وقد تمت الموافقة على مشروع القرار في المؤتمر لكن بعد حذف شروط الألقاب الوراثية وإلغاء الرق[٢]. وقدم جيفرسون مجموعة من الأسماء المقترحة لتلك الولايات الجديدة، وكل الأسماء كانت تحمل طابعا يونانيا مثل (Metropotamia ,Cherronesus, Assenisipia) لكنها رفضت لأنها صعبة اللفظ وغريبة على الناس الذين لم يفهموا معناها، وبهذا الصدد يذكر احد الكتاب المعاصرين انه " كان من الرحمة لنا إن تلك الأسماء التي اقترحها جيفرسون قد رفضت"[٣]. ولابد من الإشارة هنا الى ان ذلك القانون قد رسخ القواعد الديمقراطية في تلك الولايات الجديدة إذ منح كل الأحرار من الذكور البالغين حق الانتخاب[٤]، وان التسوية النهائية للقرار تمت في الثالث والعشرين من نيسان عام ١٧٨٤ وهذا ما عرف بمرسوم عام ١٧٨٤ The Ordinance of 1784،وأخيرا فان هذا المرسوم لم يعالج مشاكلات الأرض غير المملوكة وكيفية امتلاكها، وقد تمت معالجة تلك المشاكل في قانون عام ١٧٨٥ حينما كان جيفرسون في فرنسا، لكن ذلك القانون كان يشبه الى درجة كبيرة قاعدة كروان فقد قسم الأراضي المشاعة إلى مناطق مساحة كل منها ستة أميال مربعة وتنقسم كل

(1) Randall , Op. Cit , P. 398
(2) Ibid, P. 398; Gilpin, Op. Cit , P 293
(3) Quoted in , Hitchens,Op.Cit, P. 60
(4) Randall , Op. Cit , P. 398

منطقة إلى ستة أمثال بمساحة ميل مربع لكل قسم وكل قسم من الأقسام الستة يباع بمزاد علني بواقع دولار واحد في الأقل ثمنا لكل أيكر واشترط القانون ان اقل مساحة تباع لا تنقص عن ٦٤٠ أيكر وهذا كان مناسبا فقط لمضاربي الأرض وشركات الأراضي لأنهم الوحيدون الذين لديهم عملة نقدية لمثل هذا النوع من الشراء وبهذا حرم القانون العمال وصغار المزارعين من التمليك [١].

وأخيرا جاء تدفق المستوطنين عبر جبال الليجاني Alleghenies ونهر المسيسبي وادعائهم بأحقيتهم بالأراضي الغربية التي سكنوها، لتظهر مشكلة أخرى تمثلت بمطالبة المستوطنين الجدد ولاسيما من أوربا ومن كندا بالحصول على الجنسية الفرجينية لتأكيد استيطانهم فيها[٢]. وقد حل جيفرسون مشكلة الأجانب ونجح في تشريع قانون يقضي بمنح كل أجنبي تزيد مدة إقامته عن سنتين الجنسية الفرجينية وتمنح زوجته وأولاده البالغين تلك الجنسية ويصبح الأولاد اليتامى والقاصرون المنتقلون إلى الولاية مواطنين عند بلوغهم السن القانوني[٣] .

(١) محمد محمود النيرب، المصدر السابق، ص. ١١١

(2) Nevins, Op.Cit ,P.346.

(3) Listizky,Op.Cit, P.52

المبحث الثاني

جيفرسون سفيرا في فرنسا ١٧٨٤-١٧٨٩

قرر المؤتمر في السابع من أيار عام ١٧٨٤ أن يعين وزيرا جديدا في أوربا زيادة على جون آدمز وبنجامين فرانكلين للدخول في مفاوضات مع الدول الأجنبية بغية عقد معاهدات معها وقد وقع اختيار المؤتمر على توماس جيفرسون للقيام بهذه المهمة، ووافق جيفرسون على تلك المهمة واستعد للسفر إلى باريس، حيث ركب في الباخرة سيرز Ceres التي أبحرت من ميناء بوسطن في الخامس من تموز ووصلت إلى فرنسا في السادس والعشرين منه، واتجه مباشرة إلى باريس التي وصل اليها في السادس من آب عام ١٧٨٤ (١).

اصطحب جيفرسون في رحلته إلى باريس ابنته الكبرى باتي(٢)، تاركا البنت الصغرى بولي في فرجينيا لان حالتها الصحية لم تكن تسمح لها بالسفر. وحال وصوله إلى باريس اندهش جيفرسون وابنته مما يريان فباريس كانت اكبر مدينة يرونها وقد امتلأت شوارعها بالعربات وكانت النافورات والحدائق الخضراء المربعة تثير إعجابهما الشديد. وجاءت هتافات الباعة المتجولين وصراخ أصحاب العربات وصوت أقدام الخيول لتضيف رهبة للمكان الغريب. ويبدو أن جيفرسون قد شعر بالغربة الشديدة حال وصوله، لذلك توجه صوب بيت فرانكلين في مدينة باسي Passy ولما لقيه ابلغه بما كلف به ثم باشر بالكتابة إلى جون آدمز ليلحق بهما وقد كان حينها في لاهاي The Hague (٣) وقد ابلغه بالمهمة التي حددها

---

(1) Jefferson, Memories, ,P. 63;Richard L.Wilson ,American Political Leaders ,Library of Congress 2002, P. 233

(٢) حال وصول جيفرسون إلى باريس ادخل ابنته في مدرسة للراهبات بمدينة اباي رويال دو بانتيمونت Abbay Royale du Panthemont لتتعلم فيها اللغة الفرنسية، ولكن سرعان ما تأثرت بمبادئ الكاثوليكية وكتبت لأبيها بأنها ترغب في أن تصبح كاثوليكية وان تنذر نفسها لتكون راهبة، وما كان من جيفرسون إلا الإسراع بإخراجها فورا من تلك المدرسة وإبقائها في البيت معه، وهذا يدل على عنصرية جيفرسون تجاه مذهبه الديني فلم يرض ان تتحول ابنته لمذهب آخر، رغم مناداته بالحرية الدينية!!!، ينظر:
Hitchens,Op.Cit,P.63

(3) Passos, Op.Cit, PP.80-81 ;Jefferson , Memories, P.63

المؤتمر لكليهما وهي عقد المعاهدات التجارية وما تتضمنه من تسهيل لحركة التجارة البحرية ومرور السفن التجارية غير المسلحة بين الدول التي ستعقد معها المعاهدات[١] .

وصف السياسيون الأمريكيون الثلاثة في أوربا بكونهم " أعظم فريق جمعته يوما الدبلوماسية الأمريكية"[٢]. وقد شارك الثلاثة بإنشاء نصوص معاهدات مقترحة وتقديمها إلى دول أوربا بأشراف فرانكلين الذي كانت الاجتماعات تعقد في بيته. وقد أنجز هؤلاء مسودات للمعاهدات المطلوب عقدها طبقا لتعليمات المؤتمر وقام فرانكلين بطباعتها وإرسالها إلى الدول الأوربية المختلفة، وقد نجحت تلك الجهود الدبلوماسية في توقيع معاهدة مع فردريك الكبير ملك بروسيا فقط ولم تكن بروسيا في ذلك الوقت تملك أي قوة بحرية تجارية او عسكرية[٣]، ويذكر جيفرسون مهمات ذلك الفريق وما عمله في فرنسا بأنهم قاموا بإجراء دراسة عن "اتجاهات وزراء الدول الأوربية وبحثنا عن ميولهم نحو التجارة المتبادلة وكيفية تشجيعها بعقد معاهدات لحمايتها فقابلنا فردريك الكبير ملك بروسيا وكانت مقابلة جيدة ودخلنا مع الدنمارك وتوسكاني Tuscany في مفاوضات أما الدول الأخرى فبدت غير مكترثة ولم نر من المناسب أن نضغط عليها كما أنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عنا سوى أننا ثرنا على موطننا الأم وكانوا يجهلون تجارتنا التي كانت تحتكرها انكلترا"[٤]، ألا أن ذلك الفريق لم يستمر وقتا طويلا فقد أصاب فرانكلين العجز والضعف وراح يتمنى العودة إلى دياره وقرر المؤتمر الأمريكي عودته والإبقاء على آدمز في لندن وجيفرسون في فرنسا[٥] .

لم يستطع ذلك الفريق الدبلوماسي إقناع اغلب الدول الأوربية بعقد معاهدات مع تلك الدولة الجديدة التي لم يهتم لها احد على الرغم من أنهم وضعوا مواد جيدة فيما يتعلق بالتجارة الدولية مثل وضعهم مادة تمنع إزعاج صيادي

---

(1) Heritage ,Op.Cit ,P. 68
(2) Quoted in , Hitchens,Op.Cit , P.61
(3) Heritage ,Op.Cit ,PP. 68-70
(4) Jefferson, Memories, P65
(5) Hitchens,Op.Cit , P.61

الأسماك والفلاحين والمواطنين غير المسلحين العاملين في أماكن غير محمية، ومادة أخرى تقضي بمعاملة أسرى الحرب معاملة إنسانية وطالبوا بإقرار مبدأ "سفن حرة وبضائع حرة"[١] على غرار مبدأ آدم سميث "دعه يعمل دعه يمر"،ولكن تلك المبادئ لم تكن مقبولة لدى غالبية الدول الأوربية التي كانت تسعى لحماية صناعتها من البضائع الأجنبية وكانت تسير وفق مبدأ حماية التجارة وتقييد الاستيراد، لذلك لم تلق مسودات المعاهدات التي وُضعت من هؤلاء صدى كبيراً،كما أن مركز الولايات المتحدة في أوربا كان ضعيفا للغاية ولاسيما ان الصحافة البريطانية التي كانت واسعة الانتشار في أوربا، قامت بتصوير تلك الجمهورية الجديدة على أنها دولة همجية فوضوية تجتمع فيها أسباب الفشل كافة ، وزيادة على ذلك كانت التجارة الأمريكية ضعيفة وقدراتها العسكرية لا تذكر، وكان من الصعب عليها الحصول على رصيد من العملات الصعبة نتيجة لديونها الخارجية الهائلة بسبب حرب الثورة إذ اضطرت الدبلوماسية الأمريكية آنذاك إلى التذلل لأصحاب البنوك في أوربا ولاسيما في أمستردام ومناشدتهم لمد مهلة سداد الديون الأمريكية[٢]. إن دولة بمثل تلك المواصفات لا يمكن أن تثق فيها حكومات الدول الأوربية في إقامة معاهدات تجارية كبيرة معها، زد على ذلك أن مبدأ الربح كان سيد الموقف في المعاملات التجارية لتلك الدول، فما الذي ستربحه تلك الدول من عقد اتفاقية مع دولة لا تملك حتى أسطولا تجاريا مقارنة بأساطيل الدول الأوربية. وأخيرا فان بعض الدول الأوربية كانت تخشى من التعامل مع تلك الدولة الجديدة خوفا من تعكر علاقاتها مع بريطانيا،وبعضها كانت لديه مستعمرات في القارة الأمريكية كاسبانيا والبرتغال وخشيت من انتقال حمى الثورة والمطالبة بالاستقلال الى مستعمراتها.

عموما بعد رحيل فرانكلين كان على جيفرسون تولي المهام التي كان يتولاها، بوصفه مفوضا رسميا لدى الحكومة الفرنسية إذ قدم جيفرسون أوراق اعتماده إلى الملك الفرنسي لويس السادس عشر في الرابع عشر من حزيران عام

(1) Jefferson,Op.Cit,PP.64-65
(2) Hitchens,Op.Cit , P.62

١٧٨٥، ولما سأله وزير الخارجية الفرنسي الكونت دي فرجن De Vergennes " أنت من حل محل الدكتور فرانكلين ؟ " أجابه جيفرسون "لا يا سيدي لا احد يمكن أن يحل محل فرانكلين، أنا فقط خليفته"(١).وذكر في مناسبة أخرى ان فرانكلين لم يكن يمثل الولايات المتحدة في فرنسا وإنما لما كان في فرنسا "كأن أمريكا نفسها كانت في فرنسا"(٢). وبهذا يؤكد جيفرسون احترامه الشديد لفرانكلين كما يؤكد قوة شخصية فرانكلين وقدرته السياسية .

لم تكن مهام جيفرسون في باريس صعبة، بل كانت واجباته محصورة في موضوعات قليلة، كتصدير زيت التمساح والسمك والملح واللحوم المملحة من فرنسا إلى الولايات المتحدة والحصول على شروط مناسبة لتلك العملية، واستيراد الرز الأمريكي ومعاملته بشروط مساوية لما يعامل به رز بيدمونت Piedmont ومصر وبلاد الشام Levant، وتخفيف احتكارات التبغ الأمريكي عن طريق مجلس المزارعين والسماح الحر للمنتجات الأمريكية الأخرى في الجزر التابعة لفرنسا ومن ثم فان واجباته الأساسية كانت تجارية محضة. ويؤكد جيفرسون ذلك بقوله"كانت الأهداف التجارية الرئيسة هي وحدها التي تتطلب الاهتمام "(٣)، ولم يكن جيفرسون وحده في فرنسا بل كان يحصل على العون الكبير من الماركيز لافاييت الذي استخدم نفوذه القوي لتسهيل مهمات جيفرسون التجارية(٤).

بعد انقضاء عام كامل على الدبلوماسية الأمريكية في أوربا لمس جون آدمز قبولا في انكلترا وأحس بإمكانية الحصول على معاهدة تجارية مع الوطن الأم ولذلك كتب إلى جيفرسون بان يسرع إليه للتباحث معه لدراسة وضع المعاهدة وفعلا غادر جيفرسون باريس في الأول من آذار عام ١٧٨٦ متوجها إلى لندن، ولما وصل اليها التقى على الفور بجون آدمز واتفقا على معاهدة موجزة واقترحا تبادل الجنسية لكلا الشعبين وكان اقتراحهما يشبه اقتراح وحدة جديدة ففضلا عن

(1) Quoted in , Beloff, Op.Cit, P. 88
(2) Quoted in ,George Otto Trevelyan ,The American revolution , New York 1964 , P.347
(3) Jefferson , Memories ,P 67
(4) Ibid, P. 67

تبادل الجنسية للناس اقترحا تبادل الجنسية للسفن والمنتجات أيضا[١]. وربما كانا يسعيان للحصول على اتحاد فدرالي ولكن عناد جورج الثالث وعجرفته منعا حصول ذلك، فعلى الرغم من استقبالهما في بلاطه كان ينظر إليهما نظرة دونية، ولم يحصل أي اتفاق على الرغم من مكوث جيفرسون سبعة أسابيع في لندن مما حدا به الى مغادرتها إلى باريس. وقد كتب جيفرسون عن ذلك اللقاء قائلا: "عند تقديمي إلى الملك والملكة في استقبالهما الرسمي كان من المستحيل أن يوجد شيء ابعد عن تكرمهما بإبداء ملاحظتهما عني وعن السيد آدمز ورأيت في الحال أن التقرح في العقل الضيق لذلك الكائن الشبيه بالبغل لم يترك خيارا نتوقعه من هذا الاستقبال"[٢] وقد ترك ذلك الاستقبال أثرا بالغا في نفس جيفرسون وبالتأكيد انه ترك الأثر نفسه في نفس صاحبه، وكان الأجدر بجورج الثالث أن يقابلهما وان يستمع منهما ويحاول ترسيخ علاقة بريطانيا بتلك الدولة الجديدة لا أن يترك الحقد يسيطر عليه، فلا عجب من ان نسمع جيفرسون يقول إن تلك الأمة تكرهنا وكذلك وزراؤها وملكها[٣] .

في تلك المرحلة بدأ جيفرسون يطلع على الأحوال السياسية في أوربا والعالم واخذ يهتم بالأحوال السياسية لدول شمال أفريقيا وقوتها البحرية وسيطرتها على التجارة في حوض البحر المتوسط. وعلم أن ملك انكلترا جورج الثالث وغيره من ملوك أوربا يقومون بدفع جزية إلى حكام المغرب والجزائر وتونس وطرابلس، عند دخول سفنهم عبر البحر المتوسط وعلى السفن الأمريكية أن تدفع هي أيضا أذا أرادت المرور بذلك البحر. عندها استشاط غضبا وكتب إلى جيمس مونرو الذي أصبح عضوا في المؤتمر بضرورة عمل شيء ما حتى لا تُدْفَعَ تلك الرسوم على السفن الأمريكية المارة، لكن فرانكلين وآدمز حاولا تهدئته كما فعل المؤتمر أيضا لان ضعف أمريكا يدفعها للمفاوضة معهم[٤]. وقد بذل جيفرسون جهودا حثيثة للكشف عن المبالغ التي تعطيها الدول الأوربية لدول شمال أفريقيا

(1) Jefferson , Memories, P.66
(2) Ibid,P .66
(3) Ibid,P.66
(4) Heritage ,Op.Cit, PP, 68-69

العربية لتشتري سلامة سفنها وعلم من خلال بعض التلميحات من هنا وهنـــاك أن المبالغ كبيرة،ومن ثم خمن أن تلك الدول ستفرض على السفن التجارية للولايـــات المتحدة مبلغا قد يصل إلى ثلاثمائة ألف دولار سنويا، وقال " إن شعبنا لـــن يـــدفع هذا وفي هذه الحالة أليس من الأفضل أن نقدم لهم معاهدة تقـــوم علـــى المعاملـــة بالمثل وإذا رفضوا ذلك لماذا لا ندخل في حرب معهم ؟ وينبغي علينا بنـــاء قـــوة بحرية إذا كنا نريد مواصلة تجارتنا وهل نستطيع أن نبدأها في مناسبة اشرف من هذه المناسبة أو مع عدو اضعف من هذا العدو ؟ فاني أرى أن بول جونز Paul Jones يستطيع بستة بوارج أن يحطم تجـــارتهم تحطيمـــا كـــاملا"[١]. يبـــدو ان جيفرسون استهان بقوة تلك الدول البحرية وكان يعتقد انه يمكن ان يحقق نصـــراً سهلا عليها وحينها ستحترمهم الدول الأوربية الأخرى وتقيم لهم وزنـــا، ويتضـــح ذلك من خلال ما جاء بخاتمة كلامه من " أن اصغر دولة في أوربا وكـــل دولـــة تملك سفينة واحدة من سفن الحرب قد تملي علينـــا مطالبهـــا وتنفـــذها بإعمـــال الاستيلاء على تجارتنا ولهذا فان وجود قوة بحرية ضروري إذا أردنا أن نكـــون امة تجارية ...وثق من إن ما تظهره أمم أوربا في الوقت الحاضر من عدم احترام لنا لا مفر من إن يفضي إلى اعتداءات تورطنا في حرب لا مبيد عنها"[٢] .

اخذ جيفرسون يفكر بتكوين حلف أوربي ضد دول شمال أفريقيا، ولاســـيما بعدما فشل بإقناع المؤتمر بخوض حرب معها، وقد سوّغ ذلك الحلف بأنه لم يكـــن يرغب بان تذل الدول الأوربية من "قراصنة البربر" ودفع الجزية لهم، وقد اقتـــرح جيفرسون خطة عمل لتلك الدول وتكونت خطته مـــن احـــد عشـــر بنـــدا وهـــي كالآتي[٣]:

أولا:ـــ تقوم الدول المتحاربة مع "قراصنة دول البربر" في عقـــد معاهـــدة تكون بموجبها مستعدة للقيام بعمليات ضد تلك الدول وتكون تلك العمليات بالتوالي وتبدأ بالجزائر.

(١) نقلا عن، مايو، المصدر السابق، ص. ١٧٢
(٢) نقلا عن، المصدر نفسه، ص.١٧٢

(3) Jefferson , Memories , PP.68-69

ثانيا:ــ يجب أن تبقي تلك المعاهدة الباب مفتوحا لأي قوة أخرى قد تنضم إليها في المستقبل، ويكون لتلك الدول الحق في فرض شروطها وزيادة تلك الشروط حسب ضرورات الوقت الذي ستفرض به.

ثالثا:ــ يجب أن يكون موضوع المعاهدة، إجبار دول القراصنة على سلام دائم، يحدث بدون تكلفة.

رابعا:ــ العمليات التي ستحرز السلام يجب أن تبقى متواصلة على سواحلهم مع قوة بحرية تفرض عليهم الموافقة، وتلك العمليات تحتاج لنصف دزينة من البوارج الحربية مع بعض المراكب والسفن من نوع اكسبس Xebecs (سفن ذات ثلاث صوارٍ) وبينما تقوم مجموعة هذه السفن بتلك العمليات تستريح الأخرى وهكذا.

خامسا:ــ وحتى تكون تلك القوة التي ستجري الموافقة عليها فعالة، يجب ان تنظم وان يكون عملها وفق جداول وحصص ثابتة لتكون مستعدة للعمل الجماعي وان لا تتخلى عن مسؤولياتها .

سادسا:ــ يجب تقرير حصص المدفوعات المالية التي ستقع على عاتق الدول المتحاربة، كما يجب مراعاة التناغم والانسجام بين جنود الأمم المختلفة لان الإخفاق غالبا ما ينبثق من غياب الانسجام .

سابعا:ــ يجب الانتباه إلى الصعوبات والمشاكلات اليومية وتنظيم إدارة العمليات، فإذا كانت الإدارة منفصلة كُلاً من بلاطه، فستكون غير قادرة على الاجتماع للتشاور والتباحث، لذلك فأنه من الأفضل منح كافة الصلاحيات لسفراء تلك الدول ـــــ لهذا الغرض فقط ـــــ لإقامة مجلس ثابت في أوربا يقوم بتشكيل لجنة للمصادقة على تلك المعاهدة، ويفضل أن يكون المجلس في فرساي Versailles بسبب مجاورتها للبحر المتوسط كما أن جميع القوى المعنية تقع هناك هي على الأرجح ستدخل المعاهدة .

ثامنا:ــ لضمان عدم إرباك عمل المجلس من خلال الإغراءات الشخصية للمناصب، ولضمان العمل المشترك يجب أن لا تؤسس مكاتب ووظائف بجانب

المجلس مثل اللجان والسكرتارية أو أي شكل آخر وان لا تكون هناك رواتب ومنح أو مكاسب أخرى .

تاسعا:ــ إذا ما نشأت حرب بين دولتين داخلتين في المعاهدة وَجَبَ أن لا تعوق تلك الحرب هذا المشروع.

عاشرا:ــ عند إذعان الجزائريين للسلام حينها يجري التوجه للدول الأخرى فإذا رفضت منع قراصنتها حينها سيجدد العمل بتلك المعاهدة وستحقق نجاحاً آخر وسيكون أفضل من الأول.

حادي عشر:ــ حينما تتداخل هذه المعاهدة مع معاهدات معقودة مع دول البربر فسيكون الانحياز لتلك المعاهدة.

لم يلق مشروع المعاهدة أو التحالف قبولا في أوربا التي كانت تحارب بعضها بعضا، لكن ذلك المشروع كان الأول من نوعه في التاريخ الحديث، فجيفرسون أراد توحيد الجهود الأوربية لكسر شوكة العرب في البحر المتوسط وجعل أوربا والولايات المتحدة الأسياد الجدد لذلك البحر الحيوي.ولتحقيق ذلك يجب تفريق تلك الدول وعدم الدخول في حرب واسعة ضدها بل واحدة تلو الأخرى وهذه سياسة استعمارية واضحة. ويمكن القول إن جيفرسون كان أول أمريكي يفكر بغزو بلاد العرب، وعلى الرغم من عدم تحقيق هدفه ظل يفكر بذلك الأمر حتى أصبح رئيسا للولايات المتحدة إذ وضع خطته تلك موضع التنفيذ.

لم تكن السياسة همه الأول في باريس بل كان يذهبُ لرؤية الجامعات الفرنسية ومتابعة المطبوعات الحديثة وآخر التطورات العلمية في مختلف الفروع،وقام بإرسال سيل من المعلومات العلمية من فرنسا إلى الجامعات الأمريكية، وكان يراسل بانتظام كلية وليام وماري وهارفارد ويال Yale وكلية فيلادلفيا وأعضاء في الجمعية الفلسفية الأمريكية،وقام بإرسال بعض الأدوات العلمية التي لم تكن متوافرة في بلده مثل الترمومتر والمنقلة الهندسية والتلسكوب والمجهر الشمسي والقيثارة البيانية، كما أرسل الموسوعة المنهجية Encyclopedie Methodique إلى الكليات كافة وبعض أصدقائه،كما أن جيفرسون كان أول من أرسل إلى الولايات المتحدة خبر نجاح محرك واط

البخاري الذي شغل قوة حصان بكيلو ونصف من الفحم الحجري، وتابع وبشكل مستمر اكتشافات البالونات وطيرانها في الهواء وأرسل إلى بلده تخطيطات رسمها بيديه عن البالون والمنطاد الذي يحمل شخصاً وأكثر. ونتيجة لمتابعاته العلمية منحته كلية يال عام ١٧٨٦ درجة فخرية إقرارا بفضله وتقديرا منها لجهوده وفي السنة التالية أهدته هارفارد درجة فخرية للسبب نفسه(١) .

وعلى الرغم من اهتماماته العلمية والثقافية لم يكن يشجع الأمريكيين على الدراسة في أوربا بشكل عام ويتضح ذلك من خلال نصيحته لصديقه الشاب جون بانستر John Bannister الذي طلب مشورته للدراسة في أوربا فأرسل إليه جيفرسون رسالة طويلة بتاريخ الخامس عشر من أيلول عام ١٧٨٥ شرح فيها طبيعة الدراسة في أوربا وفروعها الإنسانية والعلمية وما يتعرض إليه المرء من مغريات وملهيات تمنعه من الدراسة. ثم قارن جيفرسون دراسة الفلسفة واللغات والقانون والرياضيات والكيمياء وغيرها في الولايات المتحدة وتحديدا في كلية وليام وماري، مع دراسة تلك الفروع في أوربا وخلص إلى القول بان الدراسة في الولايات المتحدة أفضل من أوربا باستثناء دراسة الطب. ومن اللافت للنظر في تلك الرسالة انه تحدث عن التعليم في انكلترا وعيوبه قائلا:ـ" أن الذي يذهب إلى انكلترا فانه يتعلم شرب الخمر وسباق الخيل والمصارعة وتلك هي خصائص التعليم الانكليزي"(٢) . وإذا نظرنا إلى الأمور التي ذكرها جيفرسون فنجدها كلها موجودة في فرجينيا ولعله يقصد ان الموجود في فرجينيا موجود في بريطانيا فلا ضرورة للسفر والتعلم فيها. ثم يشير إلى الدراسة في أوربا عامة بان الدارس فيها " يكتسب ولعا بالترف الأوربي والانهماك في الملذات ويفتن بامتيازات الارستقراطيين ويصاب بعدوى التحيز للارستقراطية الملكية...ويقاد بأقوى العواطف البشرية إلى روح التآمر النسوي وهي مدمرة لصحته الخاصة ولسعادة الآخرين أو انه ينجرف في شهوته إلى البغايا وهي مدمرة لصحته " (٣). وأخيرا يفصح جيفرسون عن رأيه بالدراسة في أوربا بصراحة قائلا:ـ" يبدو لي أن

(1) Heritage ,Op.Cit, P.70; Listizky,Op.Cit,P.74
(2) Quoted in , Koch & Peden ,Op.Cit, P. 386
(3) Quoted in , Ibid,P.387

الأمريكي الذي يأتي إلى أوربا للتعلم يخسر في علمه وفي صحته وفي عاداته وفي سعادته"[١]. ومع طول الرسالة لا تعطينا صورة واضحة عن الدراسة في فرنسا المقيم فيها على الرغم من شرحه للدراسة في بريطانيا وايطاليا وسويسرا،وان كان شرحا عابراً.

انبهر جيفرسون بالحضارة الأوربية والفرنسية خاصة، إلى حد وصف نفسه بالأمريكي الهمجي، فكتب في رسالة بعثها من باريس إلى احد أصدقائه قائلا:ـــ "لعلك شغوف بان تعرف الانطباع الذي تركه المشهد الجديد هنا في ذهن رجل همجي من جبال أمريكا ...ولو أنني أردت أن اشرح لك إلى أي حد طربت لفن عمارتهم وتماثيلهم وصورهم وموسيقاهم لما وجدت من الألفاظ ما يكفي لذلك، إنهم يتألقون في هذه الفنون ولا يمكنك أن تقدر مدى ما نشعر به من حرمان في فن الموسيقى بصفة خاصة. وأكاد أجرؤ على القول بأنها الشيء الوحيد الذي أغبطهم عليه من أعماق قلبي والشيء الوحيد الذي اشتهيه رغم نواهي الوصايا العشر"[٢]. وتوضح تلك الرسالة مدى إعجاب جيفرسون بالتقدم الحضاري الأوربي ورقي مجتمعاتهم .

ومن الأمور التي أولاها اهتماما خاصا في فرنسا متعته الخاصة بالبحث عن عشيقة جديدة وقد وجدها فعلا وهي ماريا كوزوي Maria Cosway زوجة الفنان الأمريكي ريتشارد كوزوي. وكانت ماريا شابة جميلة ورسامة مشهورة وهي من أصل ايطالي ولديها العديد من المواهب الموسيقية وقد تعلق بها جيفرسون عند إقامتها مع زوجها في باريس لمدة قصيرة ولما عادت إلى انكلترا عام ١٧٨٦ كتب إليها جيفرسون خطابا طويلا كان على شكل قصة أو مقالة وقال انه حينما عاد إلى بيته وجلس مع نفسه بعد أن ودعها وهي مسافرة إلى بريطانيا مع زوجها، بدا يتأمل حوارا مفترضا بين عقله وقلبه، وقد أصبح يطلق على ذلك تلك المحاورة المفترضة اسم الحوار بين العقل والقلب Dialogue Between Head and Heart . وأخذت تلك المحاورة اهتماما كبيرا بين المؤرخين

---

(1) Quoted in ,Ibid ,P387

(٢) نقلا عن، اموري د. رينكور، القياصرة القادمون، ترجمة، احمد نجيب هاشم، القاهرة ١٩٧٠، ص. ١٤٣

والمهتمين بسيرة جيفرسون من الأمريكان وغيرهم عـل لأنهـا أروع مـا كتبـه جيفرسون في الأدب والفلسفة، ولذلك سنورد جزءا من تلك المحـاورة لأهميتهـا الأدبية ولكونها تعكس بعض الصور لشخصية جيفرسون المركبة، قال جيفرسـون :ـ"لما قمت بالعمل الأخير المحزن وهو توديعكمـا وأنتمـا تركبـان عربتكمـا ...ورايت عجلات العربة تدور انقلبت على عقبي ومشيت وأنا اقرب إلى المـوت مني إلى الحياة نحو الباب المقابل حيث كانت عربتي في انتظاري... وذهبت إلـى بيتي وجلست إلى جوار مدفأتي وحيدا حزينا وحدثت المحاورة الآتية بـين عقلـي وقلبي :ـــــ

العقل ـــــ يبدو انك في حالة جيدة .

القلب ـــــ بل أني في الحقيقة أكثر المخلوقات يأسا على وجـه الأرض، وما يغمرني من حزن وما أحسه من اختلاج في كل ذرة من كياني اكبر مـن أن تتحمله قواي القلبية الطبيعية وذلك ما يجعلني ارفض أي حزن آخر لا يترك لي ما اشعر به أو أخافه بعد اليوم .

العقل ـــــ هذه هي النتائج المتوقعة من اندفاعاتك وعواطفك الحارة، فهذه إحدى المصائب التي تقودنا إليها دائما. وعلى الرغم من اعترافك بحماقاتك لكنـك لا تزال تحتضنها وما دامت عزيزة عليك فليس بك أمل في الإصلاح لأنك غيـر نادم.

القلب ـــــ آه يا صاحبي العزيز أهذا وقتٌ مناسبٌ لتلوم ضعفي ؟ أننـي ممزق الأوصال من شدة الحزن وإذا كان لديك بلسما فصبه على جرحي وان لـم يكن فلا تأتيني بعذاب جديد. والآن ابتعد عني في هذه اللحظـة العصـيبة وانـي سأستمع لمواعظك واصبر عليها في وقت آخر."[1]

وبعد محاورة طويلة عن عذابات الحب، ينتقل جيفرسون بـنفس الحـوار للحديث عن سمعة الشعب الأمريكي في أوربا وما تصوره الصحافة البريطانية من كذب قائلا:ـ

(1) Quoted in , koch & Peden ,Op.Cit,PP.400

العقل ـــــ دعنا نضع أمكانية الاختبار في موضوع ثان، عندما نتعرف على الصورة التي صورتها صحف لندن الكاذبة عن شخصية بلادنا، وحين ننظر لأوربا نجدها تعتقد أننا قطاع طرق وخارجون على القانون وتعمنا الفوضى المطلقة واحدنا يقوم بقطع لسان الأخر ونقوم بالسلب بدون أي تمييز، وحين تنظر لهذا الأمر بعمق فهل تعتقد أن أي إنسان عاقل سيجازف ليكون وسطنا ؟

القلب ـــــ ولكننا نعرف أن هذا كذب، وليس هناك وطن على وجه الأرض يستقر فيه هدوء اكبر مما نتمتع به فقوانيننا معتدلة ومطبقة فيما بيننا ولكل منا اهتماماته الخاصة ولا يتدخل في عمل غيره ونحن نستقبل الضيوف بطريقة أفضل ويعاملون عندنا بكرم واحترام وقداسة .

العقل ـــــ بالفعل أنا وأنت نعلم ذلك ولكن هل يعلمه أصدقاؤك ؟

القلب ـــــ إن الذين يعتقدون بداخل أنفسهم أنهم عقلاء سيسالون الأجانب النزيهين الذين عاشوا معنا، فيما اذا كانوا قد رأوا أو سمعوا خلال إقامتهم ببلدنا عن أي مثال للفوضى وهم الذين سيحكمون بان الشعب الذي يعمل ما نعمله من شق الأنهار والقنوات الملاحية وتعبيد الطرق وبناء المدارس العامة وتأسيس المعاهد العلمية وإقامة التماثيل لعظماء رجالنا وحماية الحرية الدينية وإلغاء العقوبات الدموية وإصلاح القوانين وتطويرها، حينها سيحكمون فيما بينهم وبين أنفسهم إذا كانت هذه هي أعمال شعب في بحبوحة من العيش، وان لم يكن هذا خير إثبات لواقعنا الحقيقي فالدليل الذي تقدمه الصحف اللندنية المدفوع لها كي تكذب لا يمكن استخراج أي حقيقة منه إلا بقلب كل ماتقول.[١]

ثم تنتقل المحاورة مرة أخرى لتتحدث عن الحب وعذاباته وعن قيمة الصداقة الحقيقية، وبعد صراع ومناقشة طويلة يسرد خلالها قلب جيفرسون حكاية حزينة حدثت في أثناء الثورة الأمريكية ثم ينتفض قلبه على عقله ليعلن بان القلوب هي التي تحدث التغيير وليست العقول وان انتصار الثورة حدث بعدما كسبت قلوب الناس لها[٢] .

---

(1) Quoted in , koch & Peden, Op.Cit, PP.400-401
(2) Ibid, PP. 401-405

إن تلك المحاورة بين العقل والقلب تكشف جانبا مهما من الصراع الداخلي الذي كان يعتري جيفرسون، إذ كان دور العقل قول ما يرغب الناس بسماعه ورؤيته من التصرفات الحسنة والأخلاق الحميدة التي تعكس شخصية الإنسان في عيون الناس، أما القلب فهو موطن الاختلاجات والعواطف الجياشة والأسرار العميقة التي إن ظهرت للملإ تسمى اندفاعات أو تهورات لأنها تعبير دائم عن الرغبات الإنسانية المدفونة التي يحاول أن يسيرها العقل وفقا لنظرة الناس، وفي النهاية لا ينجح بذلك لأنه لا يستطيع قتل قلبه وإيقاف مشاعره. هذه هي خلاصة الصراع بين العقل والقلب حسب تفكير جيفرسون وهي صحيحة إلى حد ما، ولكن ألا يمكن للإنسان أن يوازن بين ما يميل إليه قلبه من رغبات وعواطف جياشة وبين ما يريده عقله من اتزان وحكمة في التصرفات والأفعال ؟ وبالطبع لا يمكن للشخصية البشرية أن تحكم إحدى وظائفها دون الأخرى فإذا ترك قلبه ومشاعره سيصبح جامداً مثل الآلة وإذا لم يحكم عقله بمعظم الأمور سيكون معتوها، وأخيرا يستطيع الإنسان السيطرة على القلب وما يصدره من انفعالات من خلال العقل والإدراك التام بان ليس كل ما يريده القلب أو النفس يمكن تحقيقه، ومثلما قال الشاعر العربي :

والنفسُ كالطفلِ إن تَتْرُكْهُ شَبَّ على حُبِّ الرَّضاعِ وان تفْطمهُ يَنفطِمَ .

اهتمامات جيفرسون بتطور الأحداث في الولايات المتحدة

على الرغم من بعد جيفرسون عن بلده كان متابعا للإحداث السياسية كافة التي تحدث هناك وكان يراسل بصورة ثابتة ماديسون ومونرو وجون بانستر وغيرهم. وفي إحدى رسائله طلب من جون بانستر ان يراسله بصورة منتظمة وان يخبره بالتطورات كافة في جميع الولايات الأمريكية وان لا ينسى أن يكتب أي حدث سواء أكان صغيرا ام كبيرا [١]. ولما حدثت انتفاضة ماساشوستس أو ما سُمي فيما بعد بثورة شايز Shays [٢] كان لجيفرسون رأيه الخاص بها وبطريقة التصرف تجاهها وقال في رسالة إلى جيمس ماديسون في الثلاثين من كانون الثاني عام ١٧٨٧ " إن قيام ثورة صغيرة من وقت لآخر شيء محمود وضروري في عالم السياسة"[٣] فما الشيء الضروري الذي ينتظره جيفرسون من تلك الثورة؟ ونجد رد جيفرسون على هذا السؤال في الرسالة التي كتبها إلى آبيجايل Abigail زوجة جون آدمز بتاريخ الثاني والعشرين من شباط عام ١٧٨٧:ـــ"إن الله قد حمانا من أن نبقى مدة عشرين عاما من غير ثورة على هذا النحو[٤]، فالشعب لا

---

(1) Boyd , Op.Cit , Vol , 13 , Aug.9. 1788. P. 484

(٢) كانت تلك الانتفاضة بقيادة دانييل شايز Daniel Shays النقيب السابق في جيش واشنطن، وحدث استياء كبير من الضرائب المبالغ فيها التي فرضتها الحكومة الفيدرالية على المزارعين وغيرهم لسداد ديونها الخارجية، كما سعت بنفس الوقت للمطالبة بالديون للأفراد الذين لم يكن لديهم ما يدفعوه للحكومة او للأغنياء من الملاك والتجار الكبار، وقد التف المعارضون لتلك الضرائب حول شايز بين عامي ١٧٨٦و ١٧٨٧،وانتشرت الاضطرابات في نيو هاميشاير ورودايلند، مما شجع مجلس نواب ماساشوستس على إن يرفض بأغلبية ٨٦صوتاً ضد ١٩صوتاً، قرارات الحكومة الفيدرالية بخصوص الضرائب والديون، وتمكن شايز من تسليح عدد كبير من الرجال، لكن انتفاضته أخمدت عام ١٧٨٧ نتيجة خطأ تكتيكي لأحد ضباطه مما فسح المجال أمام جيش واشنطن لسحق الثوار، للتفاصيل، ينظر: كلود جوليان، المصدر السابق، ص ص. ٦٢-٦٣

(٣) نقلا عن، مايو، المصدر السابق، ص ٢٠٣

(٤) يمكن القول أيضا إن رغبة جيفرسون بحدوث تغير سياسي او ثورة كل عشرين عاما نابعة من فلسفته السياسية التي اعتبر فيها الأرض ملكا للأحياء وليس للأموات وبالتالي فان لكل جيل حق المنفعة في الأرض خلال فترة استمراره فيها ، وعندما يتوقف هذا "الاستمرار فان حق المنفعة يتحول الى الجيل اللاحق بحرية وبدون ان يثقل بأعباء الجيل السابق وهكذا بشكل متناوب من جيل الى أخر للأبد، ويجب ان نعتبر كل جيل كأمة منفصلة لها الحق ، على أساس الأغلبية للترابط مع أنفسهم وليس مع جيل ماضي" وخلاصة نظريته السياسية، هو ليس من حق جيل ماضي حكم جيل حاضر وليس المقصود بالحكم هو الحكم الفعلي التطبيقي بل الذي يقصده جيفرسون هو حكم المبادئ والأفكار أي لا ان يفرض بعض الناس أراء جيل مضى واندثر على ابناء الجيل الحاليين. للتفاصيل ينظر:

Saul K. Padover ,Thomas Jefferson on Democracy, New York 1959, P. 15

يمكن أن يكون دائما على علم تام بشؤونه إذا لم يقم بمثل هذه الثورات الصغيرة وان الذين يخطئون في فهم الأمور العامة سوف يسخطون على قدر أهمية الحقائق التي يسيئون فهمها ولو استمروا في هدوء في ظل مثل هذه الآراء الخاطئة فان هذا يكون خمولا ورائد موت للحريات العامة ...فدعهم يحملون السلاح ...وان العلاج لذلك هو تصحيح أفكارهم بالحقائق والصفح عنهم وتهدئتهم "[1]، إن مبدأ جيفرسون بضرورة قيام ثورة هنا أو هناك كل عشرين سنة، يمكن عَدّهُ صحيحا وان اختلفنا في تحديد المدة فقد تكون عشرين عاماً أو ثلاثين أو أربعين ، المهم أن تقوم ثورة ما ضد الحكام لتذكيرهم بواجباتهم تجاه الناس وبصلاحياتهم حتى لا يتمادوا باستخدام الحق الذي منحتهم إياه الشعوب. ومفيد أيضا للشعوب كي لا يقبلوا الذل ولا يصمتوا على الباطل مهما كان نوعه. أما بخصوص المدة التي حددها جيفرسون فهو يقصد تغيير الجيل ومجيء جيل جديد له مفاهيم وأفكار أخرى عن الحرية وطريقة الحكم المتغيرة وفقا للزمان والمكان. ولكن هل استغرق الأمر عشرين عاما منذ قيام الثورة الأمريكية حتى قيام انتفاضة شايز ؟ بالطبع لم تستغرق نصف هذه المدة، وهذا يدل على أمرين، أولهما أن الثورة الأمريكية لم تكن تراعي مصالح الشعب فما إن استقرت لها الأمور حتى تصرفت كبريطانيا بل زادت من حجم الضرائب على عاتق الفقراء، والثاني هو أن الظلم لا يعرف زماناً أو مكاناً وحينما يقع تسقط كل المبادئ التي لا خير فيها إن لم تنصف الناس، والأقنعة الزائفة التي يتشبث بها الظالمون وان ادعوا الدفاع عن الحرية أو الحقوق الإنسانية،ولذلك بعد وصول الأنباء إلى جيفرسون التي كشفت عن حجم الدماء المسكوبة لإخماد الانتفاضة قال بنوع من عدم المبالاة والبرود الشديد، برسالة إلى وليام أس سميث William S.Smith زوج ابنة جون آدمز، في الثالث عشر من أيلول " ما هي أهمية ضياع أنفس قليلة قي قرن أو قرنين ؟ فان شجرة الحرية يجب أن تنتعش من وقت لأخر بدم الوطنيين والطغاة، انه سمادها الطبيعي"[2]. صحيح أن للحرية ثمنا صعبا ولكن هل يجب أن ننظر للمطالبين بها وبحقوقهم

(1) Quoted in , Boyd , Vol , 11 , P. 174
(2) Quoted in , Rayner , Op. Cit , P. 231

بعدم المبالاة ؟ وبان نساوي بين صاحب الحق الوطني وبين الطغاة، وهل كان جيفرسون ليقبل بان تمزج دماؤهُ بالبريطانيين الذين حاربهم لأجل الحرية والمطالبة بالحقوق ؟ ويبدو أن جيفرسون قد تحيز هذه المرة لأبناء جلدته من الارستقراطيين الذين عملوا جهدهم على قمع تلك الانتفاضة التي كان يقودها الفقراء من أبناء الشعب، وعَدّ المؤرخ الأمريكي الآن نفينز الرجال الذين قاموا بالانتفاضة أنهم " كانوا يعتنقون ما يسمى الآن آراء شيوعية وقالوا إن عقيدتهم أن ثروة الولايات المتحدة قد صينت من أن تصادرها بريطانيا بفضل الأعمال المشتركة التي قام بها الجميع، ومن ثم فينبغي أن تكون ملكا مشاعا للجميع "(١) وهذا ما لم يسمح الارستقراطيون بان يحدث، فهم في الأصل قاموا بالثورة على البريطانيين لحماية مصالحهم التي تضررت بالضرائب التي فرضتها الحكومة البريطانية، ولهذا لم تتحرك روح الحقوق الإنسانية التي طالما نادى بها جيفرسون إزاء هذه الانتفاضة .

كان من ابرز النتائج المباشرة لانتفاضة شايز الدعوة لوضع دستور للبلاد خوفا من تجدد الثورة أو حدوث ثورات مشابةٍ لها، ولاسيما بعدما أثبتت تلك الانتفاضة ضعف الحكومة الاتحادية التي كان عليها السعي لإيجاد طرق شرعية وقانونية لحماية نفسها والمحافظة على السلم العام. وهنا طرح جيفرسون سؤالا مهما وهو،ما السبيل الأمثل لحفظ السلم ؟ هل يكون بتقوية الحكومة أم بتنوير الشعب ؟ وأجاب على هذا السؤال بقوله " الشعب على وجه التأكيد هو آلة الحكومة وأكثر آلات الحكم شرعية فإذن يجب تثقيف غالبية الشعب وتنويره "(٢) أي إن ضمان السلم يعتمد على وعي الناس وثقافتهم أكثر من قوة الحكومة، وبعد أن يحدد جيفرسون مواطن الخلل ويصف لها العلاج يقول انه يؤمن بالمبدأ القائم على أساس إرادة الأغلبية التي يجب أن تسيطر، ولذلك فإذا أريد إقرار الدستور المقترح بجميع أجزائه فسوف "أوافقهم عليه بسرور على شرط إن يعدل متى ما استدعت الحاجة وأحس واضعوه بخطأ ما "(٣) ثم يستطرد بالحديث عن موقفه من الدستور

(١) نقلا عن، الان نفينز وهنري ستيل كوماجر، المصدر السابق، ص. ١٢١

(2) Quoted in , Dewey , Op.Cit ,PP. 78-79

(3) Quoted in , Ibid ,P.79

قائلا:ـــ" لقد وافقت منذ اللحظة الأولى على العديد من المواد التي جاء بها الدستور الجديد من أغراض تقوية الحكومة وتنظيمها في هيئات تنفيذية وتشريعية وقضائية وتقسيم الهيئة التشريعية وتوفيق المصالح بين الولايات الكبيرة والصغيرة باختلاف طريقة التصويت في المجالس النيابية المختلفة والاقتراع بواسطة الأشخاص بـــدلا من الولايات ومنح الهيئة التشريعية في الولاية حق الرفض المشروط للقوانين وان كنت أفضل مع ذلك أن تشترك معها الهيئة التشريعية للمؤتمر في هذا الحق كمـــا هو الحال في نيويورك، وسلطة فرض الضرائب وكنت أرى فـــي أول الأمـــر أن تحدد هذه السلطة"[١]. ولكن جيفرسون لم يوافق على إمرار مشروع الدستور بمـــا يحويه من عيوب ونواقص، وقد وجد أنه قد أغفل العديد من الأمور المهمة وهي " فقدان بيان للحقوق يحمي الحرية ضد فروع الحكومـــة مـــن الهيئـــة التشـــريعية والتنفيذية، واعني بذلك ضمان الحرية في الدين وحرية الصحافة والحريـــة مـــن الاحتكارات والحرية من السجن غير القانوني والحرية من تـــأليف جـــيش دائـــم والمحاكمة بوساطة هيئة محلفين في جميع القضايا التي يمكن الفصل فيها بقـــوانين البلاد "[٢]. زيادة على تلك الأمور أعرب جيفرسون بصراحة عن رفضه لإعـــادة ترشيح رئيس الجمهورية لأكثر من مرة، لكنه أكد في الوقت نفسه إن رأيه هذا لا ينطبق على جورج واشنطن بوصفه رئيساً وانه لا يود تغيير ما جاء بالدستور من مادة تسمح لرئيس الجمهورية باعـــادة الترشـــيح فـــي حيـــاة "زعيمنـــا العظـــيم واشنطن"[٣]، ولا اعتقد أن جيفرسون كان بحاجة إلى ذلك التملـــق لإبـــداء رأيـــه بالموضوع، ولم يعط بديلا مقنعا، فقد كان رأيه أن ينتخب الرئيس لمـــدة واحـــدة مقدارها سبع سنوات فقط يستطيع خلالها وبمســـاعدة الهيئـــة التشـــريعية إقامـــة الإصلاحات اللازمة في الدولة، لكنه في النهاية تراجع عـــن رأيـــه وأعلـــن فـــي مذكراته أن نظام الانتخاب لمدة أربع سنوات هو أفضل من اقتراحه[٤] .

---

(١) نقلا عن، برنارد مايو، المصدر السابق، ص ص ٢٠٤-٢٠٥

(2) Quoted in , Rayner, Op.Cit ,P.243

(٣) نقلا عن، المصدر نفسه، ص ٢٠٥

(4) Jefferson ,Memories, P.82

إن موافقة جيفرسون على مشروع الدستور المقترح كانت تشبه الموافقة الدبلوماسية فهو لم يشأ منذ البداية الاعتراض على المشروع برمته وقد أيقن أن معارضته المشروع برمته سوف تعقد الأمور وتجعل مطالبته بالإصلاحات غير ممكنة لذلك أعلن موافقته المشروطة لضمان تحقيق مبادئه التي يؤمن بها. كما أيقن جيفرسون أن إعلان رفضه لمشروع الدستور لن يؤثر في إمراره لكونه كان خارج البلاد وهو ليس عضوا بالهيئة التي أُلفت لوضع الدستور[١]. وقد مارس جيفرسون تأثيره من خلال رسائله لجيمس ماديسون الذي كان عضوا في المؤتمر والذي اسند إليه وضع مسودة للدستور على غرار دستور فرجينيا الذي وضعه بنفسه كما أن ماديسون كان واقعا تحت تأثير جيفرسون بشكل واضح، وقد أكد لجيفرسون ان مشروع الدستور جيد وان جورج واشنطن يتمتع بعقل قوي ويحمل أفكارا عظيمة[٢] ومن ثم لا ضير من الموافقة على المشروع، وبالوقت نفسه عبر جيفرسون عن أسفه لبعده عن وطنه في أثناء المناقشات لإقرار الدستور، لكنه استاء بشدة من قرار المؤتمر الذي جعل الجلسات سرية وأوصد الأبواب أمام إعلان المداولات وقال برسالة إلى جون آدمز في آب عام ١٧٨٧ " انه ليحزنني أنهم باشروا مداولاتهم بمثل هذه السابقة غير المقبولة وهي صم أفواه الأعضاء فلا يوجد مبرر لذلك إلا أذا كانت نواياهم بريئة وربما هم يجهلون أهمية المناقشة العامة ولا يساورني شك في إن كل الإجراءات الأخرى التي سيتخذونها ستكون حكيمة لأنه بحق اجتماع لمجموعة من إنصاف الآلهة"[٣] . وبعد ذلك أرسل خطابا إلى جورج واشنطن في الثاني من أيار عام ١٧٨٨ بين فيه موقفه من الدستور، فبعد أن أعلن ترحيبه بالدستور أكد لواشنطن أن هناك أمرين لا يرغب فيهما في الدستور وهما عدم وجود وثيقة للحقوق، واقترح على واشنطن إلحاقها بالدستور

(١) لم يشارك العديد من رجال الثورة وخطبائها بوضع الدستور مثل جيفرسون وجون آدمز الذي كان في لندن ورفض باتريك هنري عضوية تلك اللجنة التي كانت تمثل الأغنياء ، ولم يدع إليها صومائيل آدمز وتوماس بين باعتبارهما من المتطرفين، اما ابرز الحاضرين فكان فرانكلين وجيمس ماديسون وجورج ويث وادموند راندولف ورجل المال روبرتس موريس، للتفاصيل ينظر:- الان نفينز وهنري ستيل كوماجر، المصدر السابق، ص ١٢٥- ١٢٦

(2) Quoted in , Johnson ,Op.Cit ,P. 83

(3) Quoted in , Hitchens ,Op.Cit.P. 75

وان تصدر بصيغة إعلان، والثاني خشيته من السماح بإعادة ترشيح الرئيس خوفا من إن يتطور الأمر تدريجيا فيصبح أشبه بالملكية التي يكرهها واشتد كرهه لها كما يقول بصورة اكبر لما لمسها على ارض الواقع في أوربا[١]. وأخيرا عارض جيفرسون أي محاولة لجمع السلطات الثلاث بيد واحدة ودعا الى خلق سلطة تنفيذية تقوم بتقييد البرلمان ومن ثم ستقيد الهيئة التشريعية وان ذلك سيمكن رأس السلطة(الرئيس) من ممارسة سلطات أقوى على الاتحاد ويعطل الهيئات الأخرى. وحسب وجهة نظره فان السلطة التنفيذية هي " عدم الرجوع الى تلك القوى المحاربة تحت سلطة الحكومة السابقة التي كان يديرها التاج البريطاني، واعتبارها حق امتيازي ... لقد أعطيناهم [يقصد الحاكمين] السلطات الضرورية لتنفيذ القوانين وإدارة الحكم والتي هي بطبيعتها(أي السلطات) أما شرعية او قضائية"[٢]. لكنه في النهاية كان إلى جانب الدستور وان تخللته بعض الأخطاء، وقد رحب بفصل السلطات الثلاث وأصبح مطمئنا على مستقبل الولايات إذ شعر أن مصالحها توازنت على نحو جيد[٣]، وفي النهاية بارك جيفرسون صدور الدستور وأرسل خطابا إلى واشنطن لتهنئته بتلك المناسبة[٤].

رحلاته إلى جنوب فرنسا وايطاليا

قرر جيفرسون القيام برحلة إلى جنوب فرنسا والدويلات الايطالية ليتعرف على أحوالها وتطورها العمراني، ولكن السبب الحقيقي كان رغبته الشخصية بزيارة أوربا والاطلاع على حضارتها وتعود تلك الرغبة إلى أيام صباه وقد وجد الفرصة سانحة وبمتناول اليد لذلك غادر باريس في الثامن والعشرين من شباط عام ١٧٨٧متوجها بواسطة نهر السين إلى الجنوب من فرنسا، مارا بسهول شمبانيا وبروغندي الجميلة Champagne and Burgundy [٥]، وهناك كتب

(1) Boyd , Op.Cit , Vol , 13 , P. 128
(2) Quoted in , Boyd , Op.Cit , Vol.6,PP.298-299
(3) Hitchens ,Op.Cit.P.76
(4) Rayner , Op.Cit , P.243
(5) Jefferson , Memories, P.75

الى صديقه شورت، قائلا:ـ" أنا ألان في ارض القمح والعنب والزيت والشمس الساطعة، فما الذي يطلبه الإنسان أكثر من السماء ؟ فإذا مت في باريس فأرجو أن تنقل رفاتي إلى هنا وتعرض للشمس،حينها أنا متأكد بان الحياة ستدب فيّ مرة أخرى "[١]. ثم انتقل الى ليون Lyons ووصل اليها في ١٧٨٧/٣/١١ ومكث فيها أربعة أيام وغادرها متوجها نحو نيسم Nisem وقضى فيها أربعة أيام أخرى إذ راح يتأمل عظمة الفن الروماني، وكاد يغشى عليه لما رأى تمثال ميزون كوريه Maison Quarree وانتصب واقفا عدة ساعات وهو يحدق به حتى ظن الناس انه احد الانكليز المكتئبين الذين يودون الانتحار، حسبما جاء في رسالة بعثها من هناك الى خالة زوجة لافاييت مدام الكونتس دي تيس Contesse de Tesse معلقاً "هذه المرة الثانية التي اغرم فيها منذ إن تركت باريس. كانت الأولى في قصر دهلاي ... ولقد غذيت روحي من ليون إلى نيسم بآثار الجلال الروماني ...وإذا حاولت أن أراسلك بانتظام فيجب علي إن أقص لك قصصا عمرها ألف سنة حيث تفاصيل مؤامرات بلاط القياصرة وكيف تؤثر فينا هنا واضطهادات حكامهم وولاتهم والى غير ذلك واني لغارق في الآثار من الصباح حتى المساء وبالنسبة لي تمثل روما بالفعل كل بهاء إمبراطوريتها ويملؤني الذعر للهجمات المفاجئة التي يشنها علينا كل يوم القوط الشرقيون والقوط الغربيون والوندال خشية ان يغزونا مرة ثانية ويعيدونا إلى وحشيتنا الأولى ..."[٢]، إن انبهار جيفرسون بالحضارة الرومانية يبدو واضحا فهو لم يعتد على رؤية تلك الآثار العظيمة في بلد جديد بلا حضارة ولا تاريخ مثل الولايات المتحدة التي أتى منها والتي لم يتعلم أهلها شيئاً غير قتل الهنود الحمر واخذ أراضيهم، فهم كانوا لا يزالون متخلفين جدا عن أوربا ذات البعد الحضاري والتاريخي وان كانوا قد اقتبسوا بعضا من زخارف الحياة الأوربية إلا أنهم ظلوا بعيدين كل البعد عن الحضارة والتقدم العمراني وظلت أوربا بالنسبة لهم مثلا عاليا يحاولون الوصول إليه، ولعل التخلف في جميع نواحي الحياة في الولايات المتحدة هو الذي دفع جيفرسون للقيام بتلك

(1) Quoted in , Passos, Op.Cit , P. 84
(2) Quoted in , Rayner ,Op.Cit, PP.252-253

الرحلة للتعرف على الحضارات العالمية وأسلوب حياتهم وأسباب تقدمهم ورقيهم العمراني والفكري .

استمر جيفرسون برحلته التي كان هدفها المعلن الوصول إلى البحيرة الكبريتية في شمال ايطاليا التي تدعى ايكس Aix وذلك لغرض علاج يديه التي كسرت في باريس وهو يحاول عبور سياج طويل لمحاولة إبهار مدام كوزواي، وقد وصل الى البحيرة في الخامس والعشرين من آذار لكنها لم تشف يديه، ثم واصل رحلته متجهاً الى شمال ايطاليا فوصل الى مرسيليا وبقي فيها بضعة أيام ثم انتقل إلى طولون ثم مكث بضعة أيام أخرى واتجه صوب نيس في التاسع من نيسان ثم استمر حتى ميلان وجنوه التي وصل اليها في الخامس والعشرين من نيسان[١]. وكان جيفرسون قد حرص على الكتابة الى ابنته مارثا التي تركها في باريس، في كل مدينة يصل اليها فيكتب عن تلك المدينة ويصفها الى ابنته بلغة أدبية غالبا ما تكون كالاوصاف التي نقرؤها في الروايات والقصص. وفيما يلي إحدى تلك الرسائل التي تميزت بالسرد الطويل، ففي الخامس والعشرين من أيار كتب لها قائلا :ـ "عزيزتي باتسي اكتب إليك من جدول لانجيدوك Languedoc التي مازلت أبحر فيه منذ أسبوع وهنا السماء صافية من أعلى والمياه هادئة من تحت وعلى كل جانب سرب من البلابل وكأنها تغرد في فرقة موسيقية كاملة ولقد أعطتني تلك الطيور الممتعة غذاء غنياً قبل ذلك عند نبع فوكليوز Vaucluse ...وذهبت لأرى هذا النبع وهو نبيل في ذاته ومشهور إلى الأبد لما كتبه بترارك Petrarch الذي عاش بالقرب منه ...وهو يتفجر في حجم نهر من وادي معزول من وديان الجبال..."[٢]. وهكذا يستمر جيفرسون بالسرد عن ذلك الجدول والبلابل التي تروح وتغدو اليه، وكأنك تقرأ كتابات لأحد الأدباء في عصر الاستنارة،لكن سرعان ما تسري حمى الملل إليك للتكلف الهائل بالأسلوب الذي سرعان ما تحكم عليه بأنه أسلوب سيئ ورديء .

---

(1) Randal , Op.Cit , PP. 468-472
(2) Quoted in , Ibid, PP.474-475

ولكن ما الغاية من تلك الرحلة التي على مايبدو كانت على نفقة الدولة. وهذا سؤال مهم أجاب عنه جيفرسون قائلا:ـ " لقد تحدثت عن خلع رسغي فأنني لا استطيع إن أقوم بأقل استعمال له فيما عدا موضوع الكتابة الوحيد رغم انه ظل على هذه الحالة خمسة أشهر ...واني لقلق قلقا عظيما خشية إلا استعيد أبدا مقدرتي الكاملة على استعماله وسأقوم بناء على نصيحة الجراحين الذي يعالجونني برحلة إلى مياه ايكس..."[١]. ولكن الرحلة لم تكن إلى مياه ايكس فقط بل تعدتها ليطوف جيفرسون بشمال ايطاليا وجنوب فرنسا، ليكتب بعد ذلك مذكرة إلى واشنطن بتلك الرحلة[٢] . ويبدو ان الأخير لم يقراها لأنه لم يرد عليها بشيء ولأنها مملة وهي لا تمت بأي صلة لواجبات السفراء وتقاريرهم فتجده يتحدث عن القمح تارة وعن البيض تارة أخرى وعن الزيتون وهكذا. ومن ثم فان اغلب حديثه تركز إضافة إلى الوصف الاثاري للمدن التي زارها،على الزراعة وأساليبها[٣].وعلى الرغم من أنها قد لا تخلو من فائدة زراعية معينة، لم تكن بالولايات المتحدة حاجةٌ إلى تلك النصائح أكثر من حاجتها إلى المعلومات السياسية عن تلك الدويلات ومحاولة الحصول على اعتراف سياسي منها باستقلال تلك الولايات أو في الأقل محاولة جرها إلى اتفاقية تجارية يمكن إن ينتفع منها البلد. والملاحظ على تلك الرحلة ان جيفرسون لم يقم خلالها بزيارة أمير ما أو ملك أو رئيس ولا موظف رسمي في تلك الدويلات. وإذا تصورنا فرانكلين وهو يقوم بتلك الرحلة كنا في الأقل سنراه قد عقد معاهدات تجارية عدة وتحالفات سياسية مختلفة وهذا هو عمل السفير، الذي لم يكن جيفرسون قد أتقنه بعد.

---

(١) نقلا عن، مايو، المصدر السابق، ص ٢٠٠

(2) Rayner, Op.Cit , P.252

(٣) ينظر نص المذكرة في :-
Koch & Peden ,Op.Cit,PP.135-146

جيفرسون والثورة الفرنسية

عُرف جيفرسون في الولايات المتحدة الأمريكية بأنه المفسر الأمريكي للثورة الفرنسية، ولاسيما ان اسمه اقترن بلافاييت ومجموعته من الجمهوريين، وعزز ذلك بعلاقته القوية بكوندرسيه Condorcet ومبادلته بعض الرسائل معه ومع آبي مورليه Abbe Morellet الذي تعرف عليه من خلال فرانكلين. وعمل مع ديونت دي نيمورس Du Pont de Nemours في مجموعة من المسائل التجارية،وهؤلاء جميعا كانوا من الشخصيات المعروفة بالمجتمع الفرنسي،كما كان لفرانكلين دور كبير في تقديم جيفرسون إلى المجتمع الباريسي من خلال صداقاته واتصالاته الواسعة. وقد استطاع شيئا فشيئا توطيد علاقاته مع العديد من رجال السياسة والفكر في فرنسا حتى انه شارك بكتابة بعض التقارير في المجلات الدورية وفي موسوعة ديدرو Diderot Encyclopedie [١]. ومن خلال علاقاته تلك ومشاهداته للأحداث في سنته الأولى في باريس كون انطباعا جيدا عن الملك الفرنسي ويبدو ذلك واضحا من خلال رسائله العديدة التي كان يرسلها إلى أصدقائه ومعارفه، ففي رسالة موجهة إلى السيدة تريست Trist كتب يقول " من الصعب الاقتناع كيف إن الناس طيبين للغاية وكذلك الملك وهو حاكم جيد بشكل عام، والمناخ هنا معتدل والأرض خصبة وكل هذا يسبب سعادة للبشر"[٢] أي أن الناس سعداء بواقعهم وبملكهم،ثم يتطرق إلى الحكومة الفرنسية ويحملها مسؤولية الفساد ومعاناة الناس ويقول " إن الحكومة سيئة على الرغم من لطافة الحكام لكن الناس يعانون من فساد الحكومة،فمن ضمن عشرين مليون شخص في فرنسا هناك حوالي تسعة عشر مليون شخص بائس بكل معنى الكلمة حتى أنهم أكثر بؤسا من سكان الولايات المتحدة ..."[٣]، أي إن جيفرسون لم يتخذ خلال سنته الأولى أي موقف عدائي تجاه الملك الفرنسي وحَمَّل الحكومة الفساد ، كما انه

---

(1) Chinard ,Op.Cit, P. 215; Beloff , Op.Cit ,P. 89
(2) Quoted in , Chinard, Op.Cit, P. 216
(3) Ibid, PP. 216- 217

أحب الشعب الفرنسي بشدة وكتب إلى آبيجايل زوجة آدمز يقول " إنني أوثر إلا استبدل إقامتي مع هذا الشعب المهذب والمنكر للذات والحساس والكريم والمرح ...لا أرضى استبدالهم بعشرات الحيوانات الغنية المغرورة والمشاغبة المحبة للنزاع تلك الحيوانات الضارية الذين يسمون انكليز ممن تعيشين معهم .. أنني أحب الشعب الفرنسي من كل قلبي، واعتقد انه يدين اليوم بدين أفضل ويتمتع بشكل أفضل من الحكم وانه بفضل حاكميه الحاليين ستكون بلدهم محسودة على ما فيها "(١) .

بهذه الطريقة دافع جيفرسون عن الفرنسيين شعبا وملكا وهو لا ينسى أبدا استقبال الفرنسيين له بالاحترام والتقدير، على عكس ذلك الاستقبال الجارح والمهين الذي حصل معه في بلاط جورج الثالث، لذلك نجده يصف الشعب الانكليزي بالحيوانات المغرورة. وظل رأي جيفرسون ثابتا حيال الشعبين لنهاية عمره وكان دائما يقول " إن لكل إنسان وطنين أحدهما وطنه الأصلي والأخر فرنسا " .

لكن رأي جيفرسون بالسلطة الحاكمة بدأ يتغير شيئا فشيئا حسب طول بقائه في فرنسا ورحلاته العديدة إلى شمال فرنسا وجنوبها ومخالطته الناس من مختلف الطبقات، فقد اخذ يتعرف على شقاء المجتمع الفرنسي وغلاء المعيشة، كما بدأت بعض الأحداث تثير نزعته الديمقراطية مثل اعتقال رئيس تحرير جريدة باريس Journal de Paris ورميه في سجن الباستيل. وبدأت فرنسا تتغير بعينه فقد أصبحت مثلا مخيفا، لذلك دعا جيفرسون إلى ضرورة نشر المعرفة العامة التي ستحمي الناس من الملك والنبلاء ورجال الدين، وكتب إلى جورج ويث يقول "إن الناس هنا يعيشون بشقاء الملوك والنبلاء ورجال الدين "(٢). واخذ جيفرسون يحث رجال السياسة وأصحاب النفوذ الفرنسيين على متابعة أحوال شعبهم ورؤية أوضاعهم المعيشية، ففي رسالة إلى لافاييت في التاسع عشر من نيسان عام ١٧٨٧ اخبره بأنه تجول في مدن فرنسا ليدرس الزروع وأنواعها ثم يقول: " كثيرا

(١) نقلا عن، مايو، المصدر السابق، ص ١٧٧

(2) Quoted in , Chinard ,Op.Cit, P. 218

ما تمنيت بان تفعل ما افعل وسوف يكون من دواعي الراحة العظيمة لك بان تعرف من خلال بحثك الخاص حالة جميع أقاليم بلدك ...وعليك أن تكون متنكرا ولا يعرفك احد فتعيش مع الناس في أكواخهم كما فعلت أنا وان ترى ما يطبخون وتأكل خبزهم وتنام على فراشهم لتكتشف هل هي ناعمة ؟ وسوف تشعر بلذة حينما تستطيع فيما بعد بتطبيقك لدراستك أحوال الناس وتستخدمها بجعل فراشهم ناعماً وتلقي قطعة من اللحم في قدورهم "[١]. ويبدو إن جيفرسون كان يعتقد انه سيكون للافاييت دور سياسي كبير في فرنسا وانه سيقود أي تغيير لإصلاح الحالة المعاشية للناس، لذلك خاطبه بلغة مستقبلية ليحثه فيها على الإصلاح.

وكلما طالت مدة بقائه في فرنسا كان يكتشف الفساد الكبير الذي يعانيه النظام الملكي الفرنسي، من خلال تعامله مع مجلس " عموم الفلاحين Farmers-General" الذي كان عبارة عن مجموعة سرية من أصحاب الأملاك المدعومين من الدولة، أصبح لها الحق في جباية الضرائب والرسوم. وكان من ضمن واجبات جيفرسون بوصفه سفيراً فتح السوق الفرنسية أمام الواردات الأمريكية ولاسيما التبغ، لكن احتكار التبغ بقي في يد ذلك المجلس، وقد أكدت سلسلة المفاوضات المتعبة حول التبغ وغيره من البضائع في تدعيم قناعة جيفرسون بأن النظام الملكي فاسد من أساسه، من خلال ربط ذلك المجلس بالبلاط الملكي[٢]. ومن خلال متابعاته المستمرة للحالة الاقتصادية والسياسية بدأ جيفرسون يكون انطباعا جديدا عن النظام الملكي والملك في فرنسا يختلف عن انطباعه في السنة الأولى، فتراه بعد ذلك يكتب " أن النظام الملكي في هذا البلد مركز تركيزا مطلقا في أيدي قليلة جدا ...وان عدم المساواة بين الناس قد أدت إلى البؤس الأليم الذي حاق بعامة الناس ...ولو إن أحدا من الناس يرى إن الملوك والنبلاء والقسس هم حفظة أمناء على سعادة الشعب فليرسلهم إلى هنا فهذا المكان هو خير مدرسة في العالم لشفائه من ذلك الجهل لأنه سيرى بعينيه أن هذه الألقاب التي وضعوها لأنفسهم ما هي ألا تحالف رذيل ضد سعادة عامة الناس "[٣]. وسمى جيفرسون

(1) Quoted in , Rayner , Op.Cit ,PP.251-252
(2) Hitchens ,Op.Cit.P. 63
(٣) نقلا عن، مايو، المصدر السابق، ص ٢٠٣

الطبقة العليا في فرنسا بالذئاب والطبقة العامة بالخراف وقال " ماذا تستطيع الخراف عمله ضد الذئاب سوى الخضوع في معاناة لعدم قدرتها على تغيير النظام الموجود "[١]. لكنه مع تغيير وجهة نظره بالنظام الملكي برمته في فرنسا، لم يحاول إثارة الناس من معارفه الفرنسيين على الملك والملكية لكونه سفيرا لدولة أجنبية أسهم النظام الملكي الفرنسي نفسه بقيامها ودعم استقلالها، وان مجرد التفكير بالمساعدة على قلب النظام سيعد عملا تخريبيا لا يرضى عنه الفرنسيون ولا الحكومة الأمريكية التي يمثلها جيفرسون لذلك ظل يعبر عن مشاعره تجاه الحالة البائسة للفرنسيين عن طريق الرسائل لأصدقائه فقط وكان حريصا على ألاّ يحدث أحدا لا يثق به برغبته بإصلاح الأوضاع السياسية في فرنسا.

لكن صوت جيفرسون بدأ بالانطلاق عند سماعه لدعوة الملك لانعقاد مجلس الطبقات States General الذي لم ينعقد منذ عام ١٦١٤، وسرعان ما بدأت ملاحظاته عن أمكانية تقديم بعض التعديلات في النظام الموجود، وقال " إن هذا الحدث الذي أثار الانتباه في أمريكا هو الحدث الأهم الذي حدث في حياتهم المدنية خلال القرن الحالي "[٢]. وقد أسره كثيرا ما فعله لافاييت الذي كان يحتفظ بنسخة من إعلان الاستقلال الأمريكي ووضعها للعرض أمام منزله ضمن إطار من نصفين وترك النصف الثاني فارغا بانتظار إعلان استقلال فرنسا[٣]. وبدأ يرسم صورة أخرى للويس السادس عشر فقد كتب إلى جون جاي قائلا:ـ " إن الملك لا يضع نفسه بموقعه الحقيقي فهو يقضي نصف يومه مخمورا، وفي النصف الأخر يغني ما يشاء ولا يهتم لشيء حتى الإصلاحات التي هي الأهم عند الفرنسيين تبدو له شيئا غير مهم "[٤]. وعند عقد مجلس الطبقات في الخامس من أيار عام ١٧٨٩ دُعِي جيفرسون للحضور وقد جلس في المكان المخصص للسفراء، وقد وجد أن المجلس لن يقدم شيئاً إلى فرنسا وفي رسائله إلى جون آدمز وجون جاي قال أن الملك فض الاجتماع بعد أن قيد نفسه بمجموعة من الحقائق أولها انه لم يكن يقبل

(1) Quoted in , Chinard , Op.Cit ,P. 219
(2) Quoted in , Ibid, p. 219
(3) Hitchens ,Op.Cit.P. 64
(4) Quoted in , Chinard , Op.Cit , p.224

أية نتائج كبيرة من ذلك الاجتماع كما انه كان شاكا في كفاية الأعضاء المجتمعين[١]. ومع اتضاح موقف الملك اقترح جيفرسون على لافاييت وعدد من الأعضاء الآخرين إعداد مشروع وثيقة حقوق الإنسان ليعلنها الملك بنفسه إشارةٍ لحسن النية، ولما تلقى إشارة ايجابية عمل جيفرسون على إعداد تلك الوثيقة[٢]، وركز فيها على الأمور الآتية :

١) حق المحبوسين بالمحاكمة[٣]
٢) حرية الضمير الإنساني
٣) حرية الصحافة
٤) تتم المحاكمات عن طريق هيئة المحلفين
٥) إنشاء هيئة تشريعية نيابية
٦) إقامة اجتماعات سنوية
٧) اقتراح القوانين
٨) الحق الخاص في فرض الضرائب والامتلاك
٩) مسؤولية الوزراء[٤]

لكن تلك المقترحات لم تلق قبولا، فقد كان في الجمعية الوطنية الفرنسية مفكرون وفلاسفة كثيرون قادرون على وضع بيانات وخطابات أكثر قوة في التعبير عما يستطيع جيفرسون كتابته، وربما قبلوا في بداية الأمر مقترح جيفرسون بكتابة شيء ما من باب المجاملة ليس إلا .

أن مقترحات جيفرسون لم تشر إلى وضع العائلة المالكة الفرنسية فهو لم يكن يعتقد بإنهاء النظام الملكي في فرنسا وعلى الرغم من انتقاده للملك اعتقد إن السبب وراء ضعفه هو الملكة ماري أنطوانيت التي قال عنها إنها"شديدة الكبرياء وتحتقر كافة القيود وتنتقم من كل من يعارض تنفيذ رغبتها وتتهافت على تحقيق لذاتها وكان لديها من الحزم ما يكفي للتشبث برغباتها حتى الموت ...وانني لطالما

(1) Chinard , Op.Cit ,P. 220
(2) Hitchens ,Op.Cit.P.64
(3) Jefferson ,Memories, PP. 96-97
(٤) أي ان يتحمل الوزير مسؤولية أخطائه وليس الوزارة او الحكومة برمتها

آمنت بأنه لولا وجود الملكة لما قامت أية ثورة "[١]. وقد وقفت تلك الملكة ضد جميع الإصلاحات وعرقلت فكر مليكها الذي لم تكن له عشيقةٌ غيرها وهام بها حبا، ثم يضيف قائلا :ـ " كان علي حبس الملكة في احد الأديرة حتى ينزع عنها سلطانها وقدرتها على إلحاق الأذى، ووضع الملك في موقعه مع الحد من السلطات الممنوحة له، التي اعتقد بيقين كامل انه كان سيستغلها بأمانة وفقا للمبادئ التي يعرفها "[٢]. ويفهم من تلك العبارات الأخيرة رأي جيفرسون الحقيقي تجاه ما يجب حصوله في فرنسا فهو لم يكن يشجع أو يدعو إلى الجمهورية أو قتل الملك ولا تنحيته وتنصيب غيره، وخلاصة رأيه هو إقامة ملكية مقيدة بدستور وبرلمان.

تلقى جيفرسون دعوةً من رئيس اساقفة بوردوكس Archbishop of Bordeaux في العشرين من تموز ١٧٨٩ لحضور اجتماع لمناقشة وضع دستور جديد لفرنسا لكنه رفض الحضور متعذرا بكون ذلك يتجاوز صلاحياته،لكنه مع ذلك قبل فيما بعد طلباً من لافاييت سأله فيه عن أمكانية قيامه باحتضان اجتماع سري في بيته ، واخبره لافاييت بأنه سيحضر إلى داره ومعه بعض أعضاء حزبه وهم مابين ستة أشخاص إلى ثمانية[٣] وهنا وافق جيفرسون على الفور[٤]،وقد حضر لافاييت فعلا ومعه شخصيات قيادية كما يذكر جيفرسون في مذكراته معلقاً أن تلك الشخصيات كانت " دوبورت Duport وبارنف Barnave و الكسندر لا ميث Alexander La Meth وبلاكون Blacon ومونيه Mounier وداجوت Dagout وهؤلاء قادة من مختلف الأقسام لحزب الإصلاح وكانوا ذوي شرف وعقل ومستعدين لتقديم التضحيات "[٥]. وهنا يجب أن نطرح السؤال الآتي، ما أسباب الاجتماع في بيت جيفرسون ؟ وفي الحقيقة أن جيفرسون نفسه لم يجب عن

---

(1) Jefferson ,Memories , PP. 104- 105

(2) Ibid , P.105

(٣) لم يذكر جيفرسون او احد من المؤرخين تاريخ ذلك الاجتماع ، مكتفين بالإشارة الى ماذكره جيفرسون في مذكراته عن ذلك الاجتماع وفيما يلي جزء من ذلك النص" وصلني في احد الأيام استعلاما من المركيز دي لافاييت بانه يرغب بان يحضر للعشاء في منزلي مع بعض أعضاء حزبه وهم من ستة الى ...."، للتفاصيل ينظر:

Ibid, P. 108

(4) Ibid , P.107

(5) Ibid , P 108

هذا السؤال ولا من كتب عن هذا الموضوع مكتفين بالإشارة إلى الدور العظيم الذي اداه جيفرسون بالثورة الفرنسية مصورين للقارئ وكأن جيفرسون قائد لتلك الثورة دون ذكر عمل معين او حتى خطبة ما ألقاها. والغريب إن جيفرسون نفسه يقول انه كان ملتزما الصمت ويستمع لما دار من حديث ومناقشات في بيته[١] ولم يذكر الرجل انه قام بدور عظيم بتلك الثورة. وبالعودة إلى السؤال المطروح ومن خلال ما ذكره جيفرسون يمكن الاستنتاج ببساطة أن لافاييت أراد جوا هادئا لمناقشة الوضع مع أعضاء حزبه بنوع من السرية،ولاسيما ان الأوضاع كانت مضطربة جدا في فرنسا والناس تتجول في الشوارع ويكاد المرء لا يجد مكاناً يجلس فيه،وإذا جلس في داره سيُعلم أمر الاجتماع، كما أن جيفرسون لم يذكر أن لافاييت أو احد أعضاء حزبه قد طلبوا منه ولو للمجاملة أبداء رأيه في الموضوع بل كان جيفرسون شبه المضيف المخلص وهذا ما أراده لافاييت[٢].

وسنترك جيفرسون يروي لنا ما دار في بيته خلال هذا الاجتماع، يقول جيفرسون " بدأت المناقشات في الساعة الرابعة وانتهت في الساعة العاشرة مساءا وخلال ذلك الوقت كنت مستمعا لرباطة الجأش والصراحة في محاججاتهم غير الاعتيادية، بدون الخوض في الآراء السياسية المتضاربة وبتفكير منطقي ونزاهة وبلاغة عالية بدون أي بهرجة تافه وكاذبة، وتلك المناقشة تستحق بجدارة لان ترتفع لأعلى وأسمى مستوى في حوارات العصور القديمة كما قدمها لنا زينوفون Xenophon وافلاطون Plato وسيشرون Cicero، والنتائج كانت انه ينبغي ان يكون للملك الحق في نقض القوانين، وان تكون السلطة التشريعية هيئة منفصلة ومنتخبة من قبل الشعب "[٣]. هذا ما ذكره جيفرسون عن تلك المناقشات التي لم

---

(1)Jefferson ,Memories , P. 108

(٢) يذكر راينر، أن لافاييت وأعضاء حزبه طلبوا خلال الاجتماع، من جيفرسون إن يقوم بدور الوساطة باعتباره السفير الأمريكي، ولم يذكر نوع الوساطة ؟ ولكن هل كانوا بحاجة الى وساطة مع ملكهم الذي كان مصيره معلقا بأيديهم ؟ ولا يشير راينر إلى المصدر الذي اخذ منه هذه العبارة المهمة ولو كانت صحيحة لطبل وزمر لها المؤرخون الأمريكان، ينظر :
Rayner ,Op. Cit ,P. 261

(3) Jefferson ,Memories ,PP.108-109

يتدخل فيها، ونحن لا نرغب في تقليل دوره في الثورة الفرنسية وان مجرد احتضانه لهذا الاجتماع كان شجاعة بالغة في ذلك الوقت العصيب الذي كانت تتطاير رقاب الناس فيه لمجرد الشك، لكنه قطع علاقاته بالثوار في صباح اليوم التالي إذ زاره وزير الخارجية الفرنسي الكونت مونتمورين Montmorin قائلا له انه يعلم بكل ما دار في بيته وطالبه بالتزام حدود صلاحياته بوصفه سفيراً. وقد شرح له جيفرسون ظروف تلك المأدبة وقال انه لم يتجاوز صلاحياته، لكنه على ما يبدو قد خاف فعلا وقال بعد الاجتماع مع مونتمورين " قمت بقطع علاقتي بالثورة الفرنسية "[١] وهكذا انتهى كل دور لجيفرسون بالثورة الفرنسية وبدأ يستعد للرحيل من فرنسا ألا انه لم يقطع علاقاته بالثوار كافة ولاسيما لافاييت الذي استمر بمراسلته بعد وصوله للولايات المتحدة [٢].

وقبل ان نسدل الستار على وجود جيفرسون في فرنسا نذكر انطباعاته التي سجلها عنها في أواخر أيامه حيث هم بالرحيل فكتب في نهاية أب عام ١٧٨٩"لا استطيع ان أغادر هذا البلد العظيم دون ان اعبر عن إحساسي بتفوق ذلك الخلق على أمم الأرض الأخرى فلم اعرف شعبا أكثر منه كرما أو أعظم إحساسا أو أعظم ولاء لصداقات أفراده المختارين، وان كرمهم على الغرباء يفوق كل وصف بل ان كرم باريس فوق ما كنت انتظره من مدينة كبيرة، كما ان تفوقهم في العلم وميول علمائهم للمشاركة في حقول تجاربهم وعاداتهم المهذبة وسهولة حديثهم وحيويته كلها تعطي سحرا لمجتمعهم لا يوجد في مكان آخر. وبعد ذلك سنسال المواطن الرحال في أي امة من بقاع الأرض يحب ان يعيش فيها ؟ حينها سيرد قائلا بالتأكيد في وطني حيث يوجد أصدقائي وأقاربي وأول حب في حياتي والذكريات الجميلة، ثم نسأله ما هو الوطن الثاني الذي تختاره ؟ حينها سيرد عليك قائلا فرنسا"[٣]

(1) Jefferson , Memories ,P. 109
(2) Hitchens ,Op.Cit.P.66
(3) Jefferson , Memories , PP. 110-111

الفصل الرابع

توماس جيفرسون وزيرا للخارجية و نائبا للرئيس جون آدمز

المبحث الأول
جيفرسون وزيراً للخارجية والصراع مع هاملتون ١٧٩٠- ١٧٩٤

أولا: قضية الديون الفيدرالية
ثانياً: تأسيس المصرف والمشاريع الصناعية والانشقاق السياسي
ثالثاً: الموقف من فرنسا
رابعاً: قضية الإبحار في المسيسبي

المبحث الثاني

جيفرسون نائباً للرئيس جون آدمز ١٧٩٦- ١٨٠٠

جيفرسون وزيرا للخارجية والصراع مع هاملتون

تسلم جيفرسون وهو في طريق عودته للولايات المتحدة خطابا من الرئيس جورج واشنطن يعلمه فيه بأنه تم اختياره لمنصب وزير الخارجية في أول حكومة أمريكية رسمية. ولم يكن جيفرسون على استعداد تام لقبول ذلك المنصب الجديد فقد ترك في فرنسا أثاثه المنزلي وكل متعلقاته على أمل العودة إليها مرة أخرى،وبينما هو في حيرة من أمره وصله خطاب آخر من واشنطن يؤكد فيه رغبته القوية بقبول جيفرسون لذلك المنصب(١)، وقد اظهر جيفرسون تردده على عادته حينما يعرض عليه منصب ما، فهو كان يعلن دوما منذ عام ١٧٨١ انه سيعتزل السياسة لكنه في النهاية يقبل المناصب مضحياً بحياته الخاصة في سبيل الوطن(٢). وهكذا قبل جيفرسون المنصب وأرسل خطابا إلى واشنطن يعلمه بموافقته على التعيين في الرابع عشر من شباط عام ١٧٩٠(٣). وفي آذار من العام نفسه جلس جيفرسون في مكتبه في نيويورك(٤) ليكون أول وزير خارجية للولايات المتحدة.

كانت المشكلة الخطيرة متمثلة بتعيين وزيرين كل منهما له توجهات ورؤى مغايرة تماما للآخر في نظرته لحل مشكلات الجمهورية الجديدة وهما توماس جيفرسون والكسندر هاملتون وزير الخزانة، مستبعدين الوزير الثالث في حكومة واشنطن الأولى هنري نوكس وزير الحربية الذي ركز اهتمامه بشؤون وزارته فقط دون الاهتمام بالسياسة العامة للدولة،والذي لم يكن له أي تأثير يذكر في رسم

---

(1) Jefferson , Memories , PP. 111-112

(٢) يذكر في مذكراته انه كان قد أعطى وعدا على نفسه للانسحاب من الحياة السياسية والاستمتاع برفقة أسرته وأصدقائه والتفرغ للدراسة العلمية، ويذكر بنفس الوقت انه كان عائدا الى وطنه على أمل ان يتم تعيينه مرة أخرى سفيرا في فرنسا !!!، ومن خلال أقواله يمكن الاستنتاج بانه كان مترددا باستمرار بخصوص اعتزاله السياسة فقد أحب جيفرسون المناصب السياسية في قرارة نفسه والدليل الكبير على صحة هذا الكلام هو قبوله الدائم لكافة المناصب التي انيطت به، كما ان جيفرسون نفسه أعلن حبه البروز من خلال رسالته الى جيمس ماديسون في التاسع من حزيران عام ١٧٩٣ اذ قال فيها :"ان الهتاف والتهليل والاحترام الذي يبديه العالم ... أنها كانت أعلى قيمة في نظري من أي شيء آخر "

Quoted in , Arendt , Op.Cit,PP. 184-185

(3) Boyd , Op.Cit , Vol , 16 .P.184

(4) Edward S. Ellis ,Thomas Jefferson, a Character Sketch, e-book , Release Date: January 21,2006 , P.13/55

سياسة الدولة، وكان تأثير هاملتون واضحا عليه أي انه كان في ركب هاملتون، كما ان الوزير الرابع ادموند راندولف وزير العدل، كان من أنصار جيفرسون ومن ثم فان وزارة واشنطن الأولى تأثرت بأفكار وأراء جيفرسون وهاملتون،وما دام الرجلان مختلفين في كل شيء فقد برزت تلك الاختلافات على السطح بسرعة. فحال حضور جيفرسون الى دار الرئاسة كانت الأحاديث عن الملكية ونظامها تدور بصورة واضحة كما كان بعضهم من رجال الثورة الأمريكية قد استهوته العادات الملكية البريطانية وأصبح لقاء واشنطن والترحيب به والتكلم معه يتطلب ترتيبات معينة واختيار ألفاظ جديدة تليق بمقام الرئيس، فمثلا كان جون آدمز مشغول الفكر وهو في بوسطن بماذا سينادي واشنطن فقد وجد كلمة سيد واشنطن لا تليق بمقامه، وحسبما يذكر في كتاباته انه ظل يفكر بذلك الموضوع طويلا واحتار بين ان يسميه " صاحب السعادة" او " صاحب السمو" لكنه في النهاية اهتدى الى تسمية أخرى وهي "صاحب السمو،رئيس الولايات المتحدة وحامي حرياتها". [1]وعلى ما يبدو فان تلك العبارة الطويلة تصلح للملوك أكثر من الرؤساء لذلك قال عنها جيفرسون أنها من أسخف ما يكون. [2]وهو محق بذلك. وأخيرا وافق الجميع على رأي جيمس ماديسون وهو ان ينادى واشنطن بالسيد الرئيس وان يخاطب بالأوراق الرسمية بالسيد رئيس الولايات المتحدة [3].

وكان من الطبيعي إن يُصدم جيفرسون ذو الفكر الجمهوري بمثل تلك الأفكار التي لا تمت للجمهورية بأي صلة. وإذا كان نائب الرئيس يفكر بهذه الطريقة فان وزير المالية كان ابعد فكرا من آدمز فقد كان رأيه ان تجعل رئاسة الجمهورية في مكان بعيد لا يطاله الشعب مثل ملك انكلترا وإذا حدث ان دعا الرئيس كبار القوم لوليمة ما فلا ينبغي ان يجلس معهم على المائدة الا لمدة قصيرة جدا ولما كان أعضاء المؤتمر بمثابة اللوردات تجاه الملك فان بإمكانهم رؤية ومحادثته الرئيس وجها لوجه اما أعضاء مجلس النواب فلا يحق لهم ذلك كما لا

(1) Quoted in , Claude G.Bowers, Jefferson And Hamilton The struggle for Democracy In America, New York 1941, PP.4-5
(2) Hitchens ,Op.Cit, P. 82
(3) Lisitzky,Op.Cit, P. 78

يجوز لأي أجنبي دون رتبة سفير ان يواجه الرئيس [١]. ولم يكن هاملتون يخفي آراءه الملكية وكان يعتقد ان النظام الجمهوري معرض للفساد أكثر من النظام الملكي لان النظام الجمهوري لا يقبل بان تكون هناك سلطة تنفيذية قوية وشديدة وهذا ما سيجعل الحكم ضعيفا وسيئا، ولذلك لا بد من دعم الملكية وان تكون الارستقراطية موجودة وفاعلة وحاكمة [٢]. وقد استغرب جيفرسون من تنامي مثل هكذا أفكار في بلده وقال في ملاحظاته المعروفة بـ The Anas [٣]" لقد وجدت الأمور هنا على حالة لم أكن أتصورها او أتوقعها قط " وأضاف قائلا:" كان من الواضح ان تفضيل نظام الحكم الملكي على الجمهوري هو العاطفة المفضلة وما كنت لاستطيع أن أكون مرتدا او منافقا ووجدت نفسي اغلب الوقت المدافع الوحيد عن الجمهورية ..." [٤] وعلى الرغم من قبول اغلب السياسيين ولو بصورة مبدئية، المظاهر الملكية وربما سرت العدوى الى نَفْسْ الرئيس واشنطن، وان لم يفصح عن ذلك الا انه لم ينكر تلك المظاهر ولم يمنعها، ألا أننا نجد جيفرسون هنا يقف بحزم ضد تلك المظاهر، ولم يتردد في محادثة واشنطن في العديد من المناسبات عن خيبة أمله في تلك المظاهر التي تدل على تغيير في المبادئ، كما عبر له عن رأيه المعارض لتلك " الطقوس التي وجدتها سائدة في استقبالات رسمية وأعياد ميلاد وركب فرسان الى دار الرئاسة عند اجتماع المؤتمر وتوجيه خطاب رسمي من العرش وموكب المؤتمر في هيئة ليعيد ألقاء الخطاب أجابة عليه وغير ذلك من الأمثلة التي لا تتفق وبساطة الحكم الجمهوري والتي تبدو كأنها تحن الى طقوس ومراسم البلاطات الأوربية التي تعد تشجيعا للروح التي

---

(1) Lisitzky,Op.Cit, PP. 78

(2) Bowers, Op.Cit ,P. 31

(٣) وهي عبارة عن ملاحظات ومذكرات عن التنافس بين الأحزاب والصراع بينه وبين هاملتون وبدأ بكتابة القسم الأول منها عند توليه منصب وزير خارجية، وقد امتد القسم الأول من عام ١٧٩٠ حتى عام ١٧٩٣ويمكن اعتبار القسم الأول أشبه باليوميات ويمكن الاعتماد عليه كمصدر مهم في الدراسات التاريخية،لكن القسم الثاني منه لم يبدأ بكتابته الابعد توليه منصب الرئاسة للمدة الثانية أي بعد عام ١٨٠٤ وقد امتد هذا القسم من عام ١٧٩٣ الى عام ١٨٠٩ وفي القسم الثاني بعض الهفوات، وأخيرا ان تلك المذكرات او الملاحظات لم تطبع في حياته وتم تجميعها وطبعها بعد وفاته، للتفاصيل ينظر :

Franklin B. Sawvel ,The Complete ANAS of Thomas Jefferson, New York 1903,P.10

(4) Quoted in , Ibid, P. 31

كانت تدعو للملكية حينذاك ".[١] هذه المعارضة من توماس جيفرسون كان لهـا أثرها البالغ في نفس واشنطن الذي كان على علم بالدور الكبير الذي يمكن ان يقوم به جيفرسون ضد هذه الآراء وقدرته على تحشيد الجماهير ضـدها لـذلك أعلـن قائلا:ـ " إنني أرى كل الرأي، أن الذين يميلون الى الملكية، لم يستشيروا الـرأي العام، وأننا لم نأخذ زمنا نستطيع فيه الأخذ بالنظام الملكي، إلا بتزعزع السلام في هذا البلد،حتى أسسه، إنما ينبغي إصلاح النظام الحالي وإذا ما استمر بعد الإصلاح على نقص فاعليته فسيسود الاعتقاد جميع طبقات الشعب ان التغييـر ضـروري عندئذ.وعندئذ فحسب نستطيع تجربة النظام الملكي، كما أرى، دون انـدلاع نـار حرب أهلية "[٢]، ومن الواضح ان واشنطن كان متقبلاً لفكرة الملكية لكنه لم يكـن يرغب فيها لأنها ستخلق معارضة قوية من الطبقات الشعبية التي قد تثـور عليـه وتحدث حربا أهلية لذا فان الرجل قد فعل الصواب بعينه بعدم الاستماع لهـاملتون الذي ظل متمسكا بفكرة الملكية وضرورة حكم الارستقراطيين للدولة إذ قال عـام ١٧٩٤ في خطاب له في الجمعية الدستورية استمر لمدة خمس ساعات، انه يقترح انتخاب رئيس لمدى الحياة، وكذلك أعضاء مجلس شيوخ يختارون من كبار الملاك ويبقون أعضاء مدى الحياة وحكومة يسميها الرئيس لمدى الحياة أيضا...الـخ[٣] من الآراء التي لا تمت للديمقراطية بأية صلة والواضح إن هاملتون كان يرغـب بشدة في النظام الملكي وزاد على ذلك النظام بتكوين حكومة تبقى مدى الحياة، ولا يوجد ذلك حتى بأعتى الممالك الأوربية، كما ان هاملتون كان ينظر الـى عامـة الناس نظرة اشمئزاز وان عبارته الشهيرة " ان شعبك يا سيدي عبارة عن وحوش كبيرة"[٤] التي قالها للرئيس واشنطن تدل على خوفه الشديد من الشعب ولاسـيما الطبقات الفقيرة والمتوسطة التي يمكن ان تعوق أياً من أفكار هـاملتون وأحلامـه بعودة الملكية وتحكم الطبقة الارستقراطية في حكم الناس.

---

(1) Quoted in , Ibid,P.32

(٢) نقلا عن، جوليان، المصدر السابق، ص ٦٥

(٣) نقلا عن، المصدر نفسه، ص ٦٤

(4) Quoted in , Leland Dewitt Baldwin, The Meaning of America, Essay Toward understanding of the American Spirit, university of Pittsburgh press 1955,P.76

إن الدعوة الى الملكية لم تكن إلا بداية لصراع طويل بين جيفرسون وهاملتون، أدى في النهاية الى قسم البلد نصفين احدهما مؤيد لجيفرسون والثاني مؤيد لهاملتون، وقد برز ذلك الانقسام من خلال تعامل كل منهما مع القضايا الحيوية لسياسة الدولة الداخلية والخارجية. ولإيضاح ذلك يجب دراسة كل قضية وموقف الخصمين منها، وسنبدأ بدراسة القضايا حسب تسلسلها الزمني، وهي كالآتي:

أولا: قضية الديون الفيدرالية

كان على الدولة الجديدة دفع ديونها الخارجية والداخلية (وهي الديون الفيدرالية للولايات) وجاءت تلك الديون نتيجة إقرار المؤتمر العام إصدار سندات بقيمة ٢ مليون دولار أمريكي عام ١٧٧٥ وسميت في ذلك الوقت بـ "Continentals" والغاية من تلك السندات هي تمويل حرب الثورة. وتوسع المؤتمر في اصدار مثل هذه السندات بحيث وصلت قيمتها في نهاية عام ١٧٧٩ الى ٢٤١,٦ مليون دولار أمريكي. ونتيجة لهذا التضخم الهائل لم يعد لسندات الاعتماد أية قيمة حقيقية لذلك وفي عام ١٧٨٢ وجد المؤتمر ان ديونه بالعملة الصعبة تساوي ٢٧ مليون دولار أمريكي وكان عليه الاستمرار في إصدار المزيد من السندات لسداد الفوائد المستحقة لان المؤتمر لم تكن له صلاحية فرض الضرائب. ومع بداية عام ١٧٩٠ بلغت الديون الداخلية للحكومة الفيدرالية ٤٠ مليون دولار أمريكي و١٣,٢ مليون دولار أمريكي ديونا خارجية وتدهور سعر السند الواحد لتصبح قيمته الحقيقية ما بين ١٥و ٣٠ سنتاً عن كل دولار(١).

ولحل مشكلة الديون قدم هاملتون تقريرا أوليا إلى المؤتمر في الرابع عشر من كانون الثاني عام ١٧٩٠. وقد عبر في تقريره عن اعتقاده بأنه يمكن تحويل الدين العام للولايات المتحدة على صعيد إجمالي من خلال المؤتمر او على صعيد حكومة كل ولاية على انفراد ـ الى رأسمال متداول من خلال تعهد وطني برصد مبالغ لدفع فائدة الدين بالقيمة الاسمية، وتقديم الحكومة سندات مالية تؤكد قدرتها على تسديد الفوائد وهذا يعزز الثقة ويجذب أرصدة المستثمرين الأجانب

(1) Johnson,Op.Cit ,P. 94

والمحليين على حد سواء.(١) ومما جاء في تقريره عن الدين العام قوله "من المعروف انه في الدول حيث يتم تمويل الدين الوطني كما ينبغي، يكون الأمر دافعا لثقة راسخة بالاقتصاد مما يفي بالغرض ...وتعزز التجارة من هذا المنطلق بسبب توافر رأسمال اكبر، ويمكن للتاجر إذاك العمل لتحقيق أرباح اقل"(٢) وبعبارة أخرى تقوم الحكومة بتحمل جميع الديون الداخلية والخارجية وهي تلك الأموال التي اقترضتها الولايات إبان فترة الحرب من الحكومة الاتحادية. وكان ذلك التقرير رائعا من الناحية النظرية ولكن من أين ستأتي الحكومة الفيدرالية بالأموال اللازمة لسداد الديون، مع العلم ان تقرير هاملتون أشار إلى تسديد جميع الديون بقيمتها الحقيقية مع دفع الفائدة ؟. لقد اعتمد هاملتون في تقريره على قانون التعرفة الكمركية الصادر عام ١٧٨٩ الذي بموجبه فرضت رسوم كمركية قيمتها ستة سنتات على حمولة الطن الواحد على السفن الأمريكية الراسية في الموانئ الأمريكية وخمسين سنتاً للطن على السفن الأجنبية(٣).

ما إن طرق الموضوع في أروقة المؤتمر حتى تسرب خبر تسديد الديون بين أوساط المضاربين بصورة سريعة جدا،وعلى الرغم من تأكيد العديد من المؤرخين الأمريكان على نزاهة هاملتون وعدم احتمالية قيامه بتسريب الخبر، هناك شكوك تشير بأصابع الاتهام إلى هاملتون، فكيف تلقف المضاربون ذلك الخبر وعملوا على شراء السندات من الجنود السابقين وغيرهم من الفقراء وبصورة سريعة جدا بحيث لم يشعر هؤلاء بتلك اللعبة القذرة، كما أنهم اشتروا السندات بعشر قيمتها.(٤)والشيء المثير فعلا أن المضاربين قاموا بتلك العملية قبل إن يقر مشروع هاملتون بأكثر من سنة ؟ فما الذي جعلهم متأكدين من إقرار المشروع؟ والأمر الآخر هو أن حما هاملتون كانت لديه عند إقرار القانون سندات بقيمة ستين ألف دولار وقال حينما شعر بمعارضة المشروع إن شعر رأسه وقف

---

(١) ستيف فرايزر، غاري غرستل، الطبقة الحاكمة في أمريكا، تاثير الاثرياء والنافذين في دولة ديمقراطية، ترجمة حسان البستاني، بيروت ٢٠٠٦، ص ٥٦

(٢) نقلا عن، ستيف فرايزر، غاري غرستل، المصدر السابق، ص ٥٦

(٣) جوردون، المصدر السابق، ص ٩٠

(4) Lisitzky,Op.Cit, P.82

"كما لو أن الهنود أطلقوا عليه حرابهم"[١]، وسواء كان لهاملتون يد فيما حصل ام لا فان المضاربين قد قاموا بعملهم على أكمل وجه واستعدوا لنهب أموال العامة بطريقة سهلة جدا وهذا ما دفع كلا من جيفرسون وماديسون إلى الغضب الشديد والنظر الى الموضوع باشمئزاز كبير ومعارضته بشدة وقال جيفرسون عن المشروع ان له غرضين " أولهما أن يكون غامضا ليتفادى فهم الشعب واستفساره وثانيهما أن يكون أداة لإفساد الهيئة التشريعية لأنه كان يذهب الى أن الإنسان يمكن حكمه بواحد من دافعين فقط: القوة أو المصلحة ...ويجب الاعتراف مع الأسى والعار بان أداته[يقصد هاملتون]، لم تكن تخلو من التأثير ...وظهر أن بعض الأعضاء[اي اعضاء في الحكومة] قد بلغوا من الخسة مبلغا أدى بهم الى أن يستخدموا وظائفهم لتحقيق مصالحهم ويفضلوها على المصلحة العامة "[٢]ولما لم يكن جيفرسون وقتذاك قد تسلم منصبه بعد فقد ترك الأمر لتلميذه ماديسون الذي كان عضوا في مجلس النواب إذ دعا الى التمييز بين الملاك الأصليين للسندات والملاك الحاليين لهذه السندات، وقال أن الملاك الأصليين يجب إن يحصلوا على مكافأة لالتزامهم الوطني بوقت الأزمة،لكن المضاربين المخادعين الذين اشتروا السندات بفوارق كبيرة لا يجدر بهم الاستفادة من السندات بطريقة منحرفة [٣]. كما اقترح بعض الأعضاء أن تدفع السندات حسب سعرها في السوق المحلية، لكن الاقتراحين رفضا[٤].

ويبدو أن هاملتون كان وراء معارضة المقترحين، وهذا يجعلنا نشك بأنه وراء تلك اللعبة بكل تفاصيلها، ولاسيما انه بعد أن اطلع على كل تفاصيلها لم يعارضها بل أصر على تصديق القرار كي " تكسب الدولة صداقة الطبقة الثرية وصداقة الأغنياء وذلك خير لها من صداقة الفقراء "[٥]. ومن خلال هذا النص

---

(١) نقلا عن، جوردون، المصدر السابق ، ص ٩١

(2) Quoted in , Sawvel ,Op.Cit ,P.31

(٣) للتفاصيل عن موقف ماديسون ومعارضته للمشروع ينظر:
Drew R. McCoy, The Elusive Republic: Political Economy in Jeffersonian America, New York 1980,PP.146-152

(4) Lisitzky,Op.Cit P.83

(5) Quoted in, Ibid, P.83

تتضح نظرة هاملتون لعامة الناس الذين ينحدر منهم، ولنطلع على موقف جيفرسون المنحدر من الطبقة الارستقراطية إذ جاء في ملاحظاته " The Anas إن المصاعب المالية التي وقع فيها عامة الناس أجبرتهم على ان يتنازلوا عن سنداتهم مقابل نصف ثمنها او خمسه وحتى عشره وقام المضاربون باختلاسها من حامليها بأنواع الطرق الخادعة وأوهموهم بأنه لن تدفع السندات بقيمتها ابدا.ولم يفرق هاملتون في قانون تمويل هذه السندات ودفع قيمتها بين حامليها الأصليين ومشتريها المخادعين، فنشأ خلاف كبير وكان عادلا بين الطبقتين من الدائنين وبذلت جهود لدفع الحق لأصحابه الأصليين وللطبقة الثانية ثمن ما دفعوه فقط مع الفائدة ولكن كان هذا يمنع اللعبة التي دبرت بمهارة واعدت من اجلها عقول الأعضاء الفاسدين"(١). وقد كان جيفرسون على قناعة تامة بان هاملتون وراء تلك اللعبة بكل تفاصيلها فقد قال " لقد اختلست بهذه الطريقة مبالغ هائلة من الفقراء والجهلاء وجمعت ثروات بواسطة أولئك الذين كانوا من قبل فقراء، وان الناس الذين أصبحوا أغنياء عن طريق مهارة قائد ما سوف يتبعون بالطبع الرئيس الذي كان يقودهم إلى الثروة وبالتالي يكونوا أدوات متحمسة لكل مشروعاته"(٢). والحقيقة انه لا يوجد سبب آخر غير الذي ذكره جيفرسون بصراحة عن هدف هاملتون من تلك اللعبة، وهو أن يسحب أصحاب الأموال الى جانبه ليساندوه فيما بعد فلم يكن تاريخ هاملتون السياسي والثوري يقارن بتاريخ جيفرسون او مادسيون او آدمز او غيره من قادة الثورة الأمريكية،وهذا يعطيه أملا بتقلد مناصب سياسية كبيرة ولاسيما ان خطته لتحويل نظام الحكم الى الملكية ودعوته لاختيار حكومة مدى الحياة قد فشلت، لذا وجب عليه لتحقيق طموحاته ان يجذب تلك الطبقة الارستقراطية إليه من باب المنفعة المتبادلة.

وعلى اية حال تمت الموافقة على مشروع هاملتون دون الأخذ بعين الاعتبار ما يحمل ذلك المشروع من غبن للطبقات العامة من الشعب. وهنا لابد من القول ان الرئيس واشنطن كان له دور كبير بإمرار المشروع، وتمثل ذلك

---

(1) Quoted in , Sawvel ,Op.Cit ,PP.31-32
(2) Quoted in , Ibid,P. 32.

الدور بصمته وعدم مناقشته للموضوع وكان بإمكانه آنذاك ان يرفض المشروع أو يطلب تعديله بما له من احترام وهيبة عظيمة بين الأمريكيين بطبقاتهم الاجتماعية والسياسية كافة.ولم يكن بإمكان جيفرسون ان يتحرك ضد المشروع بصورة مؤثرة لكونه لم يكن داخل الحكومة فجرت كل هذه الأمور قبل ان يتسلم منصبه بشكل رسمي، وإنما مارس ضغطه من خلال جيمس ماديسون .ولذلك فقد أصر جيفرسون حينما أصبح وزيرا رسميا في الحكومة على معارضة مشاريع هاملتون الأخرى.

كانت المسالة المهمة الأخرى هي عملية تسديد الديون الداخلية فقد قدم هاملتون مشروع قرار يقضي بان تسدد الحكومة الفيدرالية ديون الولايات التي بذمتها للحكومة وذلك المشروع يبدو للوهلة الأولى حسنا ولكنه حمل في طياته مخاطر كبيرة على الدولة الجديدة هددت بانفراط عقد الاتحاد فيما بين الجنوب والشمال والسبب في ذلك يعود الى ان الولايات الجنوبية كانت قد سددت ديونها كاملة الى الحكومة الاتحادية وهذا يعني أنها خسرت الأموال المدفوعة للحكومة التي لم يكن بالإمكان إعادتها، ومن جانب آخر فان الأموال التي سيتم تسديدها عن طريق الحكومة ستؤخذ من شعب الولايات الثلاث عشرة عن طريق الضرائب الجديدة وبمعنى آخر فان الجنوبيين سيقومون بدفع الديون مرة أخرى ولكن بطريقة غير مباشرة. وقد تم إمرار مشروع القرار في الجلسة السرية للمؤتمر، لكنه اسقط في الجلسة العلنية عند التصويت عليه في المجلسين فقد صوت لصالحه ٢٩ عضواً وصوت ضده ٣١ عضواً وأدى ذلك إلى انقسام المؤتمر الى فئتين شماليين وجنوبيين ونتيجة ذلك تعطلت الجلسات لمدة أربعة أيام على أمل حدوث اتفاق سياسي خارج المجلس لكن ذلك لم يتم [١].

في تلك الأثناء كان جيفرسون قد وصل الى الولايات المتحدة وتجهز للجلوس خلف مكتبه وزيراً للخارجية، وقد انتقد جيفرسون مشروع هاملتون، عادا إياه لعبة جديدة ومناورة مالية قال إنها عرفت باسم"الانتحال او الاضطلاع

---

(1) Lisitzky, Op.Cit , P.85

Assumption"[1]. وملخص العملية حسبما يذكرها جيفرسون، بأنه كان على الولايات ديونٌ ثقيلة ومنفصلة عن الحكومة الاتحادية جراء الحرب الثورية وان هاملتون جمع دينا ليكتسب من ورائه أصحابه المرتزقة، وإذا كان ادعاء هاملتون صحيحاً بان المال قد انفق في الآغراض العامة فينبغي إن يدفع من خزانة الدولة العامة،وسبب رفض جيفرسون هو عدم معرفة أحد بنوعية تلك الديون ولا قدرها او طريقة أدائها، ولاسيما إنها قدرت بعشرين مليون دولار، ويزيد جيفرسون أنه "لم يعرف من بين هذه الديون المقدار الذي يدفع لولاية ما والمقدار الذي يدفع لولاية أخرى وهنا بدأ التخمين ونشأ تسابق أخر بين الولايات المختلفة ...وكان الهدف الأساسي قد تحقق اذ حصلت وزارة المالية على كتيبة جديدة من الجنود واحدث هذا الأجراء اشد واعنف نزاع عرف في المؤتمر ...وقد وصلت وسط هذه المعمعة ...وكنت غائبا لمدة طويلة أفقدتني كل إلمام بالموضوع "[2] وفعلا لم يكن جيفرسون ملما بهذا الموضوع وهنا اخذ هاملتون يستغل الظرف جيدا فقد كان على يقين بان ما من احد يستطيع حل الموقف غير جيفرسون الذي يكن له اغلب أعضاء الجنوب الاحترام والتقدير وانه سيؤثر في قرارهم. وما ان وصل جيفرسون الى دار الرئاسة حتى تأبط هاملتون ذراعه بنوع من ود المحتالين الذي لا يعرفه الفلاحون ودار به أمام دار الرئاسة ذهابا وإيابا وهو يشرح له الحالة السياسية المتأزمة بوصف مؤثر وما قد ينجم عنه من انفصال الاتحاد وقال له حسبما يذكر جيفرسون " انه ينبغي لأعضاء الوزارة أن يعملوا في تضامن وانه بالرغم من ان هذا الموضوع ليس من اختصاص وزارتي الا ان الواجب المشترك ينبغي ان يجعله جديرا بالاهتمام المشترك وان من المحتمل ان نداء مني لمخاطبة بعض الأصدقاء قد يحدث تغييرا في نتيجة التصويت "[3]. ولم يكن جيفرسون ليرفض مودة هاملتون لكنه فضل عدم ابداء رأي معين لكونه غير ملم بحيثيات الموضوع لذلك دعاه بنية صافية للعشاء في منزله مع دعوة بعض أصدقاء جيفرسون الملمين بالموضوع لمناقشته بهدوء، وفعلا حضر هاملتون في اليوم

(1) Sawvel, Op.Cit , P. 32
(2) Quoted in , Sawvel, Op.Cit, P. 32
(3) Quoted in , Ibid, P. 33

التالي وبدأت المناقشة التي لم يشترك فيها جيفرسون لأنه على مايبدو لا يـزال لا يجيد المناقشات الشفوية على الرغم من تعليله انه كان يجهل ظروف الموضـوع، لكنه في ذلك العشاء أدى دور الحكم بين هاملتون وماديسون، إذ تقرر في النهايـة ان يحصل هاملتون على عدد أصوات أكثر مما يسـتطيع كـل مـن ماديسـون وجيفرسون ان يضمناه (١) .

كان المقابل الذي حصل عليه جيفرسون وماديسون هو أن تؤسس العاصمة في الجنوب على ضفاف نهر البوتوماك Potomac، وهذا كان سيهدىء الجنوبيين نوعا ما، فضلا عن المنافع الاقتصادية التي ستعود على المنطقة من خلال العقود الضخمة التي ستوزعها الحكومة الفيدرالية لبناء العاصمة(٢) وطبعا سيحصل عليها الجنوبيون، وهل من الجائز هنا القول ان جيفرسون قد تغاضـى عـن مصـالح الطبقات الفقيرة التي سيقع عليها عبء دفع الضرائب والتي لن تستفيد من انتقـال العاصمة للجنوب لأنها بالتأكيد لن تحصل على العقـود التـي سيسـتولي عليهـا أصحاب الأموال ؟ أم إن جيفرسون قد ضحى بمصالح تلك الطبقات الفقيرة لأجـل الاتحاد وعدم الانفصال ؟ ذلك ما عبر عنه جيفرسون بقوله " إن الاحتفاظ بالاتحاد الأمريكي والتصالح بين الولايات أكثر أهمية "(٣). على الرغم من انه شعر فيمـا بعد بان هاملتون قد أوقعه بفخ إذا صح التعبير وقد استنكر جيفرسون بنفسه الدور الذي لعبه لإمرار تلك الصفقة قائلا إنها أدت إلـى تقويـة هـاملتون إذ " جـرت الموافقة على اضطلاع الحكومة العامة بالدين وقسمت قيمة الأسهم وهي عشـرون مليونا من الجنيهات بين الولايات المفضلة وألقيت كطعـام لقطيـع المضـاربين بالأسهم والأوراق المالية وقد أضاف هذا إلى عدد أنصار وزارة الماليـة وجعـل رئيسها سيد كل صوت في الهيئة التشريعية مما قد يعطي للحكومة التوجه المناسب لآرائه السياسية"(٤). ويبدو ان جيفرسون قد وقع فعلا في فخ هاملتون، وقد اعترف لاحقا بأن هاملتون استطاع أن يتلاعب به وقال "لقد جعل مني أداة في يده واستغل

---

(1) Hitchens, Op.Cit , P. 84
(2) Ibid, PP.84-85
(3) Quoted in , Sawvel , Op. Cit P. 34
(4) Quoted in ,Ibid , P.34

جهلي وبراءتي ووضعني في رأس المؤامرة"[١]. وربما يعود السبب في ذلك إلى رغبته فعلا ببقاء الاتحاد او انه كان ساذجا للغاية وصدق كلام هاملتون على الاتحاد وشعر أن بالإمكان العمل معه في المستقبل. أما التشكيك بنزاهة جيفرسون فلا يصح في هذا الموضع لكون الرجل لم يحصل على أي مقابل مادي من خلال العقود للعاصمة الجديدة ولم يعرف انه حصل على عقد ما منها.

وفي النهاية يمكن الاستنتاج ان جيفرسون لم يستطع التمييز بين مصالح الطبقات الفقيرة والمصلحة العامة للاتحاد الأمريكي ولم يجد حلا وسطا لهذه المشكلة، وكان بإمكانه عدم الضغط على ماديسون والدفع باتجاه الرئيس واشنطن ليحل المسالة وان كان موقف واشنطن غامضا نوعا ما لأنه كان على علم بتلك المضاربات وقد خاطبه احد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي في أثناء انعقاد المجلس في الثامن والعشرين من كانون الثاني عام ١٧٩٠، قائلا :ـ" ثلاث سفن ياسيدي قد أقلعت خلال الأيام الخمسة عشر الأخيرة لتذهب إلى حيث تشتري سندات الدولة الموجودة بين أيدي مواطنين غير مطلعين على ما يجري إلا أنهم مواطنون شرفاء في كارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية وجورجيا، وان نفسي لتثور اشمئزازا واستنكارا حيال تلك الخسة الجشعة وغير الخلقية التي ينم عنها سلوك دنيء كهذا"[٢] ولكن واشنطن لم يبد أي اهتمام بالموضوع ولم يحاول حتى إصدار قرار ما يقلل من حجم خسائر المواطنين وربما كان واشنطن على علم بتفاصيل العملية منذ البداية. وما يثير الشك فعلا في هذه القضية هو لماذا تحمس هاملتون لوفاء ديون الولايات المتحدة ؟ ومن ثم وفاء ديون الولايات بهذه العجالة غير المسوّغة، فمن المعروف أن الدول تبقى مدينة لعشرات السنين وتبحث عن أسهل الطرق لتسديد ديونها بما فيها طريقة المقايضة كأن تدفع حبوباً زراعية أو مواد خاماً أو مصنعة حسب ما تمتلكه تلك الدولة من ثروات، ولاسيما اذا علمنا أن الدول الدائنة لم تكن تطالب الولايات المتحدة بدفع ديونها ولاسيما فرنسا وعلى ما يبدو أن هاملتون وعدداً من المنتفعين الآخرين أرادوا تحقيق أمرين عن طريق

---

(١) نقلا عن :- كلود جوليان، المصدر السابق، ص ٧٥
(٢) نقلا عن، كلود جوليان، المصدر السابق، ص ٧٢

الدعوة لتسديد الديون، أولهما أن تلك العملية ستجر أرباحا هائلة لهم عن طريق المضاربة وهذا ما حدث، أما المتضرر فهو المواطن الفقير الذي استُغفِلَ مرتين الأولى بشراء سنداته بثمن بخس والثانية بقيامه بدفع الضريبة إلى أولئك الذين احتالوا عليه، والأمر الثاني الذي أراد تحقيقه هو التخلص من الديون الفرنسية بسرعة لعدم الاضطرار فيما بعد إلى الوقوف بجانب فرنسا في المستقبل .

ثانيا:ـ تأسيس المصرف والمشاريع الصناعية والانشقاق السياسي

كانت النقطة الأخرى في سياسة هاملتون المالية هي تأسيس مصرف مركزي يسمى مصرف الولايات المتحدة على غرار مصرف انكلترا، وكان هاملتون ينتظر من المصرف المركزي القيام بثلاث وظائف رئيسة، أولاها أن يكون خازنا للأموال الحكومية ويعمل على تسهيل انتقالها بين أرجاء البلاد،وثانيتها إن يكون مقرضا للحكومة الفيدرالية والمصارف الأخرى، وأخيرا أن يقوم بتنظيم عرض النقد من خلال الرقابة على المصارف الأخرى في الولايات المتحدة[١].

كان هاملتون قد اعد تقريرا خاصاً عن المصرف الذي يروم إنشاءه في الولايات المتحدة، وقدم ذلك التقرير إلى المؤتمر في الرابع عشر من كانون الأول عام ١٧٩٠ وقد تمت الموافقة عليه في مجلس الشيوخ بأغلبية ٣٩ صوتاً ضد ٢٠ صوتاً[٢]، ومما جاء في ذلك التقرير " لإعطاء ثقة كاملة لهكذا شركة، فمن الضروري جدا ان تكون إدارتها خاصة وليست عامة لأنه في حالة الطوارئ ستتعرض للتأثير الشديد إذا تمت أدارتها بصورة متعسفة"[٣] أي انه دعا الدولة الى إنشاء مصرف وان تترك أدارته للمختصين بالأمور المالية من غير الموظفين بالحكومة، وان يكون رأسمال المصرف عشرة ملايين دولار تقسم إلى خمسة وعشرين حصة وتبدأ كل حصة بأربعمائة دولار وتكون قابلة للزيادة منذ اللحظة الأولى لافتتاح المصرف، على ان تمتلك الحكومة عشرين في المائة من رأسمال المصرف ومن ثم سيكون لها عشرون بالمائة من مجلس إدارته وسيكون لوزير

---

(١) جوردون، المصدر السابق، ص ٩٣

(2) William Macdonald, Select documents illustrative of the history of the united states 1776-1861, New York 1905, No.9,P.67

(3) Quoted in , Ibid, P.68

المالية الحق في فحص سجلات المصرف متى شاء[١]. ومن خلال ذلك كله يتضح ان هاملتون أراد مصرفا تديره وتمتلكه الطبقة الارستقراطية الغنية ولن تكون لمؤسسات الدولة أي سلطة رقابية عليه، كما ان الحصة الصغيرة المقترحة لا يمتلكها إلا الأغنياء من الشماليين الذين كانوا وحدهم يملكون السيولة النقدية الكافية لشراء تلك الحصص .

لكن التقرير لم يحصل على الموافقة في مجلس النواب إذ هوجم بشدة من قبل جيمس ماديسون الذي قال " إن سلطة تأسيس مصرف اتحادي لم تكن مدرجة ضمن السلطات التي يمنحها الدستور للهيئة التشريعية في الولايات المتحدة" كما رفض الرأي القائل بان هذه السلطة كان قد أشير إليها ضمنا في الفقرات التي تجيز للكونكرس رفع الضرائب واقتراض المال،محذرا من أن مبدأ الإشارة الضمنية ملائم للتسبب بالإساءات والفقدان المحتمل لكل القيود المفروضة على الحكومة[٢]، وفي تلك الأثناء قدم كل من توماس جيفرسون وادموند راندولف ملاحظات منفصلة عن المصرف إلى الكونكرس وكانت وجهات نظر راندولف غير مهمة فأُهملت، في حين بقيت أراء جيفرسون في مسالة المصرف مشهورة لأهميتها وعدها واحدة من أقوى المناقشات في زمن الحكومة الفيدرالية [٣].

بني تقرير جيفرسون على أساس ان الدستور لا يمنح الكونكرس الحق بإنشاء مصارف، وجاء في تقريره ما نصه :ـ" أعتقد ان الدستور قد قام على قاعدة تقول "إن جميع السلطات غير المفوضة الى الولايات المتحدة بوساطة الدستور او غير المحرمة بوساطة الدستور على الولايات يُحتفظ بها للولايات او للشعب (التعديل الثاني عشر)[٤] أما الرجوع خطوة خلف الحدود المرسومة بصورة خاصة حول صلاحيات المؤتمر فيعد استيلاء على وسط السلطة لا على حد من حدودها ولا يخضع لتعريف ما "[٥] أي انه ليس من صلاحيات الحكومة

---

(1) Macdonald , Op.Cit, PP. 71-74

(٢) نقلاً عن , ستيف فرايزر, غاري غرستيل، المصدر السابق، ص ص ٦١-٦٢

(3) Ibid, No. 10, P.76

(٤) الأقواس أصيلة

(5) Ibid , P.77

إنشاء مصرف مركزي بل ان ذلك الأمر من صلاحيات الولايات، وزاد ان "إنشاء المصرف والسلطات المستمدة من القانون الذي منح الامتياز لمصرف الولايات المتحدة، هي سلطات لم يمنحها الدستور للولايات المتحدة" أي ان تلك السلطات منحت للولايات بصورة منفردة فليس من حق من يمثل كل الولايات ولا حتى الكونكرس ان يقوم بانشاء المصرف المركزي، وقد تناول جيفرسون نقطتين مهمتين في الدستور الامريكي ارتكز عليهما هاملتون لتاسيس المصرف وهما :

اولاً: السلطات التي حددها الدستور بنحو خاص (الحالات الاستثنائية) وهي ثلاثة ناقشها جيفرسون كُلاً على حدة وهي كالاتي[1]:

١) سلطة " فرض الضرائب بهدف تسديد ديون الولايات المتحدة" ورد جيفرسون على تلك النقطة بالقول" غير انه لا يوجد أي دين تسدده هذه المسودة ولا أي فرض لضريبة. وان كانت مسودة تهدف الى جمع المال فقيامها في مجلس الشيوخ يجعلها محل ادانة"

٢) بند " اقتراض المال" ورد جيفرسون على ذلك البند قائلاً" فلا تقترض هذه المسودة المال ولا تضمن اقتراضه. والعملية المقترحة في المسودة بمنح مبلغ مليونين اولاً ثم اقتراضه ثانياً ، لا تغير طبيعة العملية المذكورة فسوف تظل دفعاً لا قرضاً مهما اطلقنا عليها من اسماء".

٣) " تنظيم التجارة مع الدول الاجنبية وبين الولايات ومع القبائل الهندية" ورد جيفرسون بان اقامة مصرف امراً مختلفاً تماماً عن تنظيم التجارة.

ثانياً: هي ليست ضمن مفهوم أي من الفقرتين الآتيتين :ــ الاولى هي فرض الضرائب لتوفير الرفاهية العامة للولايات المتحدة، أي ان فرض الضرائب هو لغرض توفير الرفاهية العامة، ففرض الضرائب هو السلطة، والرفاهية العامة هي

(1) Macdonald ,Op.Cit, PP. 77-78

الغرض الذي تمارس من اجل تحقيقه السلطة "[١] ومن ثم لا يجوز فرض الضرائب بدون تقديم خدمات ملموسة الى الشعب. اما الفقرة الثانية التي ناقشها جيفرسون فهي " وضع جميع القوانين الضرورية والمناسبة لتنفيذ السلطات المذكورة" أي ان الدستور الأمريكي يخول الحكومة وضع كل ما تراه مناسبا من القوانين التي تهدف لتحقيق الرفاهية للشعب، ومن ثم ما دام المصرف سيحقق تلك الرفاهية للشعب فمن حق الحكومة إصدار قوانين خاصة به، وقال جيفرسون ان جميع تلك القوانين الضرورية والمناسبة لتحقيق الرفاهية " يمكن تنفيذها بدون إنشاء مصرف ...وان الحالة الآنية هي حالة حق باق تماما مع الولايات وبالتالي فهي حق من الحقوق التي قصد الدستور ان توضع تحت حمايته " [٢] أي ان ذلك من حق الولايات فقط ويجب على الدستور حماية ذلك الحق، وقد أبدى جيفرسون في ذلك التقرير مخاوفه من حالة الغضب، الشديدة التي ستظهر في الولايات الجنوبية المعتمدة على الزراعة ففي حالة الموافقة على المصرف وما يتبعه من ضرائب مفروضة فان تلك الولايات لن تنتفع بالمصرف بشيء بل ستدفع ضرائب بدون فائدة لأنهم لا يضاربون بالأسهم والأوراق المالية [٣].

عندما قدم جيفرسون اعتراضاته على تأسيس المصرف مدعيا انه مخالف للدستور، أرسل هاملتون إلى جورج واشنطن يقول " إن عدم وجود فقرة تحريمية في نص الدستور يمكن ان يقوض المسلمات التي هي وليدة المفهوم العام للحكومة"[٤] مؤكدا ان للكونكرس الحق في تقرير الوسائل اللازمة والضرورية إذ كتب قائلا:ـ" ان الحكومة الوطنية، مثلها مثل أي حكومة أخرى، يجب ان تحدد في المقام الأول الاستخدام الأنسب لصلاحياتها"[٥] وأخيرا اقتنع الرئيس واشنطن بوجهة نظر وزير ماليته الكسندر هاملتون واقر مشروع تأسيس المصرف، على أن ذلك الأمر لم يؤد الى توتر العلاقة بين واشنطن وجيفرسون [٦].

---

(1) Quoted in, Ibid , P. 78
(2) Quoted in , Macdonald ,Op.Cit, PP. 78-79
(3) Ibid , P. 79
(٤) نقلا عن، جوردون، المصدر السابق، ص ٩٥
(٥) نقلا عن،المصدر نفسه ، ص ٩٥
(6) Forman, Op.Cit,P. 43

وبعد نجاح هاملتون في إنشاء المصرف قدم تقارير أخرى عن النقود وعن الصناعات في الولايات المتحدة وطرق تشجيعها،ففي كانون الثاني من عام ١٧٩١ اقترح هاملتون سك نقود مستقلة للولايات المتحدة تقوم على أساس قاعدة الذهب والفضة، وفي تقريره عن الصناعات دافع هاملتون عن فرض ضرائب كمركية للنهوض بالصناعات الأمريكية الناشئة(١). لقد أراد هاملتون بناء الاقتصاد الأمريكي على الصناعة والتجارة والاستثمار، وعدم الاكتراث بالزراعة لأنها صفة الدول المتخلفة، ولا يمكن من خلالها إنشاء طبقة من التجار والصناع الأثرياء الذين من خلالهم يمكن مقارعة التجارة والصناعة البريطانية ومن ثم السيطرة على اقتصاديات العالم. ومن ذكاء هاملتون الشديد انه اعد العدة لهذه المشاريع قبل كتابته التقرير الخاص عن الصناعات، فقد علم بان المعارض الأول سيكون جيفرسون الذي ربما سيؤثر في واشنطن لذلك قام بأخذ الاثنين(جيفرسون وواشنطن) بجولة واسعة في ولاية نيوجرسي ليشرح لهما طريقته في تطوير صناعة النسيج باستخدام الطاقة المولدة من الماء، وليريهما النول الجديد المكتشف عام ١٧٩٠، حتى إذا ما انبهر احدهما او كلاهما فلن تتم معارضة المشروع الذي رسم ليكون نسخة سيئة من التجربة الانكليزية، فلقد أعجب هاملتون ذلك الشخص الرأسمالي الجشع بكمية الأرباح الهائلة لمعامل النسيج في انكلترا التي كان السبب المباشر لأرباحها اعتمادها على الأطفال القاصرين من الذكور والإناث والنساء الفقيرات، وجاء في تقريره" إن أربعة من سبعة عمال في مصانع القطن في انكلترا هم من النساء والأولاد وان أكثر هؤلاء في سن الحداثة الأولى ...وان النساء والأولاد أصبحوا أكثر نفعا للتصنيع وفي الأخص الأولاد"(٢) وهذه هي طريقة الرأسماليين في استغلال الآخرين وان كانوا أطفالا فالمهم الربح ثم الربح، وذلك ما كان يعارضه جيفرسون الذي كان يرفض حتى استغلال أطفال العبيد ولعل ذلك يبين الفارق الكبير بين الرأسمالي ومالك الأرض الذي غالبا ما وصف بالقروي الساذج .

---

(١) الان نفينز، هنري ستيل كوماجر، المصدر السابق، ص ١٦٢؛ لويس هايكر، المصدر السابق،ص ٧٠

(٢) نقلا عن، كلود جوليان، المصدر السابق، ص ٨٠

كان هاملتون يمتاز بذهن صافٍ وذكاء بـراق وشخصـية قويـة جذابـة ومحبوبة، وكان يعتقد انه لا يمكن للولايات المتحدة بناء أي قـوة بـدون المـال والصناعة وحتى تصبح دولة عظمى يجب عليهـا ان تـنهج الـنهج البريطـاني بحذافيره. وقد سعى من خلال برنامجه المالي والاقتصادي الـى تسـريع عملية إضفاء الطابع الانكليزي على المجتمع الأمريكي، وكان يحلم بقيام طبقـة حاكمـة وطنية مماثلة لتلك الموجودة في بريطانيا التي تجمع النبلاء الرأسـماليين التجـار والتي من شانها الترويج لسيطرة النخبة، أي ان لا تتدخل الطبقات الدنيا فـي أي دور سياسي او اقتصادي لحكم الدولة،لذلك نظر بامتهان الـى مفهـوم "الحكومـة الشعبية" كما ان ملاك الأراضي لم يقوموا بدور ملموس بعملية التقدم البريطـاني، وكان يرى ان التجارة والصيرفة والصناعة هي العوامل الأساسية التـي أمـدت بريطانيا بثروة طائلة وإمبراطورية عظمى[1]،وأخيرا كان هاملتون لا يثق بالشعب أبدا ولا باختياراته وقال ذات مرة وهو يخاطب الرئيس واشنطن " إن شـعبك يـا سيدي هو وحش كبير " وقارن الشعب الأمريكي بالشعب الياباني الذي عَدَّهُ "كتلـة بشرية متقدة الذكاء مليئة بالنشاط والحيوية والحياة، تتوق للتميز ومتعطشة للنجاح وهي في حالة تأهب دائم وعمل دائم وبنفس الوقت متواضعة ومطأطئة رؤوسـها إلى حكامها بنوع من الورع".[2] ذلك هو الشعب الذي يريده هاملتون شعبا عاملا بدون كلل ولا ملل ولا شكوى وينصاع لأمر قادته بدون إبداء أي رأي أو تعبيـر معارض .

أما رأي جيفرسون بخصمه اللدود هاملتون الذي ذكره في ملاحظاته The Anas فهو " كان هاملتون مؤمنا بملكية مؤسسة على الفساد ...لكنـه كـان حقـا شخصية فريدة، فلقد كان ذا إدراك نافذ ونزاهة عالية وكان أمينا شريفا في جميـع الإعمال الخاصة محبوبا في المجتمع ويقدر الفضيلة، ومع كل ذلك بقـي مفتونـا ومضللا بنمط الحكم البريطاني إلى درجة جعلته يعتقد اعتقادا تاما بان الفساد أمر

---

(١) ستيف فرايزر، غاري غرستيل، المصدر السابق ص، ٥٥-٥٦ ؛ فرانك ثيسلويت، الثورة العظمى، ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين، د.ت، د.ط، ص ٥٠ -٥١

(2) Quoted in , Baldwin, Op.Cit, P. 76

جوهري بالنسبة لحكم الأمة"(١). لقد كان جيفرسون حياديا في وصفه لهاملتون فلا تراه يضمر حقدا مُرّا على ذلك الخصم الجدير بالاحترام، والحقيقة ان تلك واحدة من سمات جيفرسون الأخلاقية التي طالما عدها بعضهم توجهات مثالية خيالية لا تجد لها ارضاً صلبة بواقع الحياة العملية المبنية على المصالح والمنافع.

في المقابل كان لجيفرسون وجهات نظر مختلفة تماما عن نظرة هاملتون لطبيعة الحكم والحياة بوجه عام، فقد كانت المصارف بالنسبة إليه تمثل أبشع صور الاستغلال المالي التي كان يمقتها بشدة وكتب إلى جون آدمز بعدئذ "لطالما كنت عدوا للمصارف ومتحمسا جدا في محاربة هذه المؤسسات كما كنت صريحا جدا في معارضة تأسيس مصرف الولايات المتحدة،مما جعلني عرضة للاتهام بالجنون من قبل عصبة من أرباب الصيرفة المتشدقين الذين كانوا يسعون لابتزاز الأرباح من العامة بطرق الخداع ومن دون وجه حق"(٢). لقد كان جيفرسون يخشى من هيمنة رأس المال وأصحابه على الطبقات العامة في الولايات المتحدة التي اثبت التاريخ القريب أنها عرضة للابتزاز والخداع من المضاربين والصيارفة،وخشي ان تصبح الولايات المتحدة مثالا سيئا للتطور الاقتصادي الأوربي، الذي خلق فوراق واسعة جدا بين الطبقات الاجتماعية، وبوصفه مزارعا ومواطنا فرجينيا كان يرى الحياة الريفية هي الحياة الفاضلة وان" الفلاحين هم شعب الله المختار ــــ ان كان هناك شعب مختار ــــ فتجد في صدورهم النقاء الخالص وكأنما اختار الله هذه القلوب لتكون المركز التي تحفظ فيه النار المقدسة لتبقى حية ولا تختفي عن وجه الأرض" فلا تجد في الفلاح الا صدق الحديث وحسن النية وفضائل الأخلاق. ويعتقد جيفرسون ان أولئك الذين يعيشون في الأراضي الزراعية ولا يعملون بالزراعة هم مفسدون، ويقول " إن فساد الأخلاق بين جمهرة الصناع المقيمين مع المزارعين ظاهرة ليس لها مثال في أي عصر من العصور او امة من الامم. وما هي الا سمة من سمات أولئك الذين لا يتوجهون مثل الفلاح بإبصارهم الى السماء والى أرضهم التماسا لأقواتهم، بل

---

(1) Quoted in , Sawvel, Op.Cit, PP.36-37

(٢) نقلا عن، جوردون، المصدر السابق، ص ٩٤

أعماله الاقتصادية بالهدامة[١]، إلا أن جيفرسون لم يكابر طويلا حينما اكتشف ان هناك خطأ في رأيه بالصناعات فقد أعلن قائلا عام ١٨١٦ " لقد علمتني التجربة ان الصناعات هي الان ضرورية لاستقلالنا قدر ضرورتها لرفاهيتنا"[٢]. وقد يقول بعضهم ان ذلك التراجع ليس له قيمة لان جيفرسون كان خارج السلطة، والرد على ذلك هو بالقول ان جيفرسون لما نادى بأفكاره تلك كان خارج السلطة أيضا، كما أن تأثير جيفرسون وآرائه استمر حتى مابعد وفاته وتقلد تلامذته للحكم، جيمس ماديسون (١٨٠٩-١٨١٧) وجيمس مونرو(١٨١٧-١٨٢٥) حتى ان تلك الحقبة التاريخية سميت سياسيا وفكريا باسمه " الجيفرسونيون "Jeffersonian .

كان من النتائج المباشرة لقضية تأسيس المصرف انشقاق السياسيين الامريكيين إلى معسكرين الأول كان معارضا لإنشاء المصرف وما تبعه من مشاريع صناعية قدمها هاملتون الى الكونكرس وتكون هذا المعسكر من ملاك الأراضي في الولايات الجنوبية الذين يمكن تسميتهم بالارستقراطيين القدماء، والذين وجدوا في توماس جيفرسون زعيما سياسيا يمكن ان يقفوا خلفه لتحقيق مصالحهم، وقد سمي هؤلاء باسم الجمهوريين Republicans لأنهم كانوا ضد الأفكار الملكية التي تسربت عند بدء تشكيل حكومة جورج واشنطن الأولى، وسموا بالمعادين للفدرالية Anti-Federalists لأنهم وقفوا ضد تكوين دستور اتحادي قوي، في حين تشكل المعسكر الثاني من المرحبين بتأسيس المصرف من الشماليين الذين كان اغلبهم من أصحاب التجارة والصناعة الناشئة في الولايات المتحدة والذين يمكن ان نسميهم بالأرستقراطيين الجدد والذين وجدوا في الكسندر هاملتون ومشاريعه المالية والصناعية ما يحقق مصالحهم في الكسب والثروة، وقد سموا بالفيدراليين او الاتحاديين لأنهم أرادوا اتحادا ذا سلطة مركزية قوية من خلال دستور قوي[٣].

---

(١) اعد جوردون مبحثا كاملا لبيان "صنائع جيفرسون الهدامة"في الاقتصاد الأمريكي محملا إياه مسؤولية تعرض الاقتصاد الأمريكي بعد عام ١٨١١ الى أزمات اقتصادية كل عشرين عاما والتي لم يتعاف منها، والسبب في ذلك هو عدم تطبيق رؤية هاملتون الاقتصادية برمتها، للتفاصيل ينظر: المصدر نفسه، ص ص ١٣١- ١٧٢

(٢) نقلا عن، اموري د. رينكور، المصدر السابق، ص ١٦٢

(٣) اميل هوبنر، النظام السياسي في الولايات المتحدة الأمريكية، ترجمة : عدنان عباس علي، ابو ظبي ٢٠٠٩، ص ٧٧-٧٨

إن بعضهم يعدّ ولادة الأحزاب السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن مرتبطة بصورة مباشرة بالصراع بين جيفرسون وهاملتون وإنما كانت فكرة الأحزاب موجودة لكنها لم تتبلور إلا بعد الصراع بين الاثنين، وان تلك الفكرة كانت تلاقي ترحيبا بين أوساط المثقفين الأمريكيين الذين تبنوا المتغيرات التاريخية البريطانية حتى قبل الاستقلال الأمريكي واتخذوا من الأحزاب البريطانية (الويك والتوري) قاعدة لتوجهاتهم الفكرية بل إن اغلبهم حاول استنساخ أفكار الحزبين البريطانيين وتطبيقها في الولايات المتحدة[١]، إن تلك النظرية صحيحة إلى حد كبير ليس فقط لكون الحزبين الأمريكيين في تلك المدة قد تبنيا وجهات نظر متقاربة جدا من أفكار الحزبين البريطانيين، بل لان الاختلاف الفكري قد تزامن ظهوره مع الثورة الأمريكية فكان هناك المحافظون الذين لم يرغبوا بقطع علاقاتهم مع الوطن الأم والتاج البريطاني على الرغم من مشاركتهم بالثورة وقد ظل أولئك متمسكين إلى حد بعيد بالأعراف السياسية والاقتصادية والاجتماعية البريطانية وشكلوا فيما بعد الحزب الفيدرالي الشبيه بحزب المحافظين البريطاني (التوري). وبرز تيار او حزب ثوري يعارض كل ما هو محافظ ويرفض كل أشكال القمع ويسعى للحرية والديمقراطية والإصلاح الاجتماعي عن طريق رفض الارستقراطية، وهو الحزب الجمهوري الذي كان يشبه حزب الأحرار (الويك) البريطاني. وبالنسبة لجيفرسون فانه اعتقد أن الانقسام السياسي يعود في الأصل إلى طبيعة الإنسان وكتب قائلا :ـ" الأحزاب السياسية نفسها التي هيجت الولايات المتحدة وجدت في كل الأزمنة ... حتى إن مصطلحات مثل ويك وتوري تعود إلى التاريخ الطبيعي وكذلك ترجع لتاريخ المدنية الإنسانية وجاءت نتيجة اختلاف مزاجات الناس وعقولهم"[٢] وكلامه هذا يؤكد ان الأحزاب الأمريكية جاءت نسخةً غير مطابقة تماما للأحزاب البريطانية.

وكان من نتيجة الانشقاق السياسي ان يقوم كل طرف بتتبع أخطاء الآخر ليبان صحة رأيه، وهذا اظهر تنافسا كبيرا أدى في النهاية إلى نسيان الأهداف

(1) Gary J. Schmitt ," Jefferson and Executive Power: Revisionism and the Revolution of 1800" , Oxford Journals , Vol. 17,No.2(Spring, 1989) , P. 8
(2) Quoted in , Schmitt , Op.Cit, P. 9

العامة الداعية لتقدم الولايات المتحدة، وملاحقة الفشل أينما وجد ليس لغاية إصلاحه بل لغاية التشهير بالآخر. وفي الحقيقة كان جيفرسون أول من بدأ بملاحقة هاملتون وأصحابه، فقد استخدم جيفرسون عضوا في مجلس ولاية فرجينيا يدعى وليلم برانش جيلز،وكان هذا يعد من أتباع ماديسون، ويتمتع بأسلوب حاد ولاذع ولديه قدرة على إحراج أي خصم، وكان جيفرسون يؤمن بوجود شيء غير أخلاقي (كرشاوى أو اختلاسات كبيرة) في قضية النقود الورقية والاقتراض وهنا بنيت الخطة على قيام جيلز باقتراح عدد من القرارات التي تلزم هاملتون بإصدار كميات من البيانات الخاصة بوزارة المالية (كشوفات حسابية) في اقصر وقت ممكن. وكان الاعتقاد السائد ولاسيما عند أهالي فرجينيا ان السرعة التي نقل بها هاملتون الأموال والحسابات تخفي وراءها أمورا مثيرة للشك والريبة، لكن وزير المالية هاملتون استطاع تقديم بيانات حقيقية غير قابلة للشك ومتوافقة مع الموعد النهائي الذي حدده الكونكرس بصورة صدمت جيفرسون وأنصاره. وبعد ذلك مباشرة قدم جيفرسون اقتراعا عاما لسحب الثقة من هاملتون لسوء إدارته للوزارة، وقام بتلك العملية النائب جيلز، لكن الاقتراح رفض[١]. وبهذا الصدد يذكر المؤرخ الأمريكي هيتشنز ما نصه" يمكن القول من خلال رفض الاقتراح بان أفكار هاملتون التجارية العصرية قد تغلبت بسهولة شديدة على مفاهيم جيفرسون القروية،عن النزاهة المالية"[٢]. لقد اعتقد جيفرسون ببساطة أن الأحزاب التي وجدت في الولايات المتحدة كانت ذات أهداف مادية بحتة وأنها طمعت بالحصول على المناصب السياسية في الدولة للاستحواذ على ماليتها، وهو يبرئ حزبه من هذه الصفة ويصف الفيدراليين وان لم يسمهم بالمحتالين ولذلك على الرجال الشرفاء (الجمهوريين) أن يأخذوا دورا صارما وحاسما لأنهم الرجال الأمناء[٣]

وكان جيفرسون غالبا ما يظهر شماتته بنوع من البرود عند حدوث أي إرباك في السوق المحلية، فقد طربت نفس جيفرسون عند انهيار بورصة نيويورك

(1) Hitchens ,Op.Cit .P.92
(2) Ibid , P.92
(3) Forrest McDonald , The Presidency of Thomas Jefferson , Kansas 1976 , PP.20-33

الحديثة التكوين وأعلن قائلا:ـ "وأخيرا انفجرت فقاعتنا الورقية، فان إفلاس دوير Duer [1]في نيويورك قد جر الإفلاس على آخرين وهؤلاء جروه على غيرهم مثلهم في ذلك مثل تسعة دبابيس يهدم كل منها الأخر حتى أصبح الإفلاس في ذلك المكان امرأ عاما فكل شخص متصل بتجارة الأوراق قد أفلس...وقدر ان هناك خسارة حقيقية في نيويورك تعادل حوالي خمسة ملايين دولار وهي تساوي قيمة جميع مباني المدينة"[2]. ويبدو التهكم واضحا جدا في هذا النص وكأن المال الذي ضاع هو لعدو خارجي، وهذا ما يؤخذ على جيفرسون، لان ذلك المال في النهاية هو للدولة ومواطنيها، ولم يكتف جيفرسون بهذا القدر بل راح يعلن بنوع من الكبر والخيلاء بأنه بوصفه مفكراً كان يعلم بان ذلك سيحدث، وهذا ما يتضح من تكملة قراءة النص الآتي " وما كان أي رجل مفكر اهتم بفقاعة البحر الجنوبي في انكلترا او فقاعة لو Law في فرنسا واستفاد من دروس الماضي ليعجز ان يتنبأ بتلك النتيجة"[3].

لقد أدى ذلك التنافس المحموم إلى تدخل الوزراء بأعمال لا تخص وزاراتهم، ولم يكن الرئيس واشنطن يبالي بالصراع الدائر بين أعضاء حكومته، لذلك وصفه مدير البريد العام في ذلك الوقت تيموثي بيكرينج Timothy Pickering، بانه"كان كثيرا ما يغفو في مجلس الوزراء ولم يكن يقرأ التقارير،بل انه كان يحتاج إلى علامات ترسم بالطبشور على الأرض تحدد له أين يقف في الحفلات الرسمية،وانه بصورة عامة شخص جاهل وغير كفء وعديم الشأن يرتفع على أكتاف فريق عمله"[4].وربما يكون ذلك الكلام فيه تحامل كبير على واشنطن لكن بيكرينج عبر عما كان يراه بعينه.أما جون آدمز فكانت رؤيته مختلفة

---

(١) وليام دويرَ William Duer :- كان موظفا في وزارة المالية واحد أركانها، عمل سكرتيرا مساعدا لهاملتون في وزارة المالية، لكنه استقال منها بعد تأسيس مصرف نيويورك حيث تكالب المضاربون على شراء أسهمه لاعتقادهم ان مصرف الولايات المتحدة سيشتري مصرف نيويورك، واتهم دوير بانه من اصدر هذه الشائعات للحصول على أرباح هائلة وسريعة، لكن خطته فشلت وانهار المصرف وتم سجن دوير، لما تسبب به من انهيار المصرف، وكتب هاملتون عن تلك الحادثة قائلا: ((حان الوقت لتمييز الشريف عن المحتال وحملة الأسهم والمتعاملين النزيهين عن المقامرين الذين تعوزهم مبادئ الشرف))، نقلا عن، جوردون، المصدر السابق، ص ٩٦-٩٧ ؛ Michael Schwarz, "The great divergence Reconsidered : Hamilton, Madison, and U.S-British Relation 1783-89" , Journal of Early Republic, Vol.27,No.3, Fall 2007 , P.433.

(٢) نقلا عن، برنارد مايو، المصدر السابق، ص ٢٢٥

(٣) نقلا عن، المصدر نفسه، ص ٢٢٦

(4) Quoted in , Johnson, Op.Cit, P. 98

على الرغم من اتفاقه مع مدير البريد في ان الرئيس هو عبارة عن "غبي مسن" لكن آدمز اعتقد أن الرئيس كان ممثلا بارعا أراد إيصال فكرة مفادها انه غير منتبه ولا يعلم ماذا يدور لكنه "كان ممثلا يؤدي دور رئيس يدير دولة لا يحكم قبضته عليها تماما، لكننا جميعا اتفقنا على تصديقه وان نجعل العالم اجمع يصدقه"(١). وجاء في وصف جيفرسون للرئيس واشنطن، بأنه كان حصيفا ونزيها وشخصا رقيقا وفارسا شجاعا، لكنه في النهاية يستدرك ويقول أنه كان غير مكترث (٢)، ويمكن القول إن وصف آدمز هو الأقرب لشخصية واشنطن الحقيقية فواشنطن كان يعلم بكل تفاصيل الأمور وما يحدث في حكومته من صراع، وكان يميل بشدة إلى آراء هاملتون(٣)،لكنه كانت به حاجة إلى ذلك النوع من التمثيل الفني وليس السياسي ليوهم به الأضداد، بأنه لا يميل إلى أي الفريقين ولا يعلم ماذا يحدث حتى لا يتهم بأنه يناصر ذلك الطرف على حساب الأخر، ولذلك باءت جميع محاولات جيفرسون الداعية إلى تنبيه الرئيس واشنطن،الى الحالة المالية والاقتصادية التي يعاني منها البلد، بالفشل، لان الرئيس كان على علم بتلك التطورات وكان سكوته عنها هو الدليل الأكبر على قبوله بتلك الأوضاع،ومما حاول جيفرسون التنبيه إليه هو :ـ" من المستحيل أن يتكهن احد إلى أي مدى ستقف شهوة المقامرة ،ومن الراجح أن تتحول مصلحة الأراضي والمدينة الفيدرالية وبعض المشاريع الصناعية إلى لقمة بفم تلك الشهوة الجامحة "(٤). ثم يتحدث عن ما آلت أليه الأمور نتيجة المقامرة والمضاربة بالأموال قائلا:ـ" إن السفن تقف في الأرصفة بدون عمل والبناء متوقف ورؤوس الأموال سحبت من التجارة والصناعة والفنون والزراعة لتستخدم في المقامرة ونشر الرفاهية العامة الذي يكاد لا يقارن بأي بلد ...ولا يستطيع احد أن يتنبأ بالوقت الذي سيقف عنده هذا التيار لان روح المقامرة أذا ما استولت على شخص لا يمكن الشفاء منها،

---

(1) Quoted in,op cit, P. 98

(٢) جاء ذلك الوصف خلال رسالة بعثها جيفرسون خصيصا لوصف شخصية جورج واشنطن، الى الدكتور والتر جونز Walter Jones، عام ١٨١٤، ينظر : Peden&Koch, Op.Cit , PP.173-176

(٣) كلود جوليان، المصدر السابق، ص ٤٢

(٤) نقلا عن، برنارد مايو، المصدر السابق، ٢٢٥

فالخياط حينما يكسب الآلاف بيوم واحد إن خسر في اليوم التالي لا يستطيع أبدا إن يرضى بمكاسب أبرته البطيئة والمعتدلة"[١]. ولعل ما كان يمارسه جيفرسون في شبابه من الميسر(المقامرة على الخيول) دفعه إلى الخوف على مستقبل الولايات المتحدة، واتخاذ القمار والمضاربة في الأموال وسيلة وحيدة لكسب المال السريع،الذي يدفع إلى الكسل وعدم العمل ويضعف النفوس ويهوي بالإنسان نحو الرذيلة والفساد.

لم يكتف جيفرسون بالتصريحات والتنبيهات بل أرسل إلى واشنطن لعله يغير موقفه أو يضع حدا لتلك المضاربات التي عمت في البلاد، وذلك في الثالث والعشرين من أيار ١٧٩٢. ومما جاء في تلك الرسالة " إن كل الأموال المستخدمة في عمليات المضاربة بالأوراق المالية غير مثمرة ولا جدوى منها كما إن تلك الأموال لا تضيف شيئا إلى ذاتها كما هو الحال على طاولة القمار، وقد حرمت التجارة والزراعة من ذلك المال الذي كان يمكن إن يضيف المزيد إلى الكتلة العامة"[٢].كما لم يفته في تلك الرسالة إن يحذر مرة أخرى من خطورة التفكير بالحكم الملكي، لأن الغاية من تلك المضاربات والمشاريع المالية والصناعية حسب رأيه، هي " التمهيد لتغيير الصيغة الحالية للحكم الجمهوري إلى حكم ملكي يكون فيه الدستور الانكليزي النموذج الذي يحتذى"[٣]. وبالطبع يكون ذلك عن طريق خلق طبقة ثرية تمسك مقاليد الأمور بيد من حديد، وفي الحقيقة أن ذلك ما كانت تفعله جميع تلك المشاريع.

---

(١) نقلا عن، المصدر نفسه، ٢٢٥

(2) Quoted in , Peden&Koch , Op.Cit , P.512

(3) Quoted in , Ibid , P. 512

ثالثا: الموقف من فرنسا

كان وزير الخارجية يطمح إلى مساندة دولته للثورة الفرنسية واعتقد انه من الواجب رد الدين إلى الفرنسيين الذين لم يبخلوا بمال أو رجال أو سلاح للمساعدة على استقلال الولايات المتحدة، وهذه كانت سياسة جيفرسون منذ اللحظة الأولى التي تولى فيها منصبه إذ أرسل إلى لافاييت في الثاني من نيسان عام ١٧٩٠ يخبره قائلا :ـ"ها أنا ياصديقي العزيز قد أصبحت وزيرا للخارجية بدلا من عودتي إلى منصبي القديم الذي كان يلائمني كثيرا .. وسأكون مخلصا بصداقتي لك ولامتك حيثما كنت،كما اعرف جيدا مع الآخرين بان الأمم التي تحكم مصالحها الخاصة لابد أن تعرف طريقها الصحيح في نهاية الأمر ولابد لها أن ترد الجميل وان تحتفظ بوعودها تحت أسوأ الظروف بشرف وكرم على الدوام"(١). وبهذا يكون جيفرسون قد رسم لنفسه سياسة مفادها مساعدة فرنسا ضد خصومها وذلك معناه مقاطعة البريطانيين ومن يحالفهم لكونهم ضد الثورة، وفي تلك المدة كانت هناك قوى ثلاث تحاول سحب الولايات المتحدة الحديثة التكوين الى جانبها في الصراع للسيطرة على أعالي البحار في قارة أمريكا الشمالية وهي بريطانيا وفرنسا واسبانيا، أما في الأراضي الغربية والأجزاء الداخلية من الولايات المتحدة الأمريكية فكانت القبائل الهندية المختلفة مستعدة للتحالف مع أي طرف من تلك الإطراف تعتقد انه في الجانب الرابح(٢)، ومن ثم يجب رسم سياسة خارجية ذكية للتعامل مع تلك القوى ومحاولة عدم معاداة إحداها على حساب الأخرى وتجنب عقد تحالفات عسكرية مع أي منها ضد الأخرى وعدم الدخول في حرب لا طائل منها، وهذه المشكلة الأولى التي واجهتها الولايات المتحدة إبان تعيين جيفرسون وزيرا للخارجية .

من جهة أخرى كان الكسندر هاملتون ينظر إلى الثورة الفرنسية تلك النظرة الانكليزية الساخطة على مجموعة الرعاع التي تريد حكم البلاد، وكان يأمل فشل الثورة ومساندة بريطانيا للأسرة البوربونية في القضاء على الغوغاء. وبعد تطور

---

(1) Quoted in , Boyd , Op.Cit , Vol . 16, PP. 292-293
(2) Hitchens ,Op.Cit, P. 82

الأوضاع في فرنسا وإعدام لويس السادس عشر وماري أنطوانيت هبت عاصفة مدوية في أرجاء الممالك الأوربية وعلى رأسها انكلترا، وبدأت في الولايات المتحدة الأحاديث عن تشجيع الجمهورية الفرنسية والترحيب بها بالنسبة للمؤيدين، أما المعارضون وعلى رأسهم هاملتون، فأرادوا تبني الموقف البريطاني من الثورة الفرنسية كنموذج للتعامل مع أولئك الغوغاء وفي تلك المدة أصبح التحزب السياسي امراً مفروغا منه وانقسمت البلاد إلى نصفين مؤيد للثورة ومعارض لها. وكنتيجة طبيعية للتحزب السياسي ظهرت على الفور الصحف الحزبية التي أخذت تنشر ما تؤمن به من معلومات وان كانت غير صحيحة ومقالات وأخبار، وبرزت في الساحة الأمريكية ثلاث صحف هي اقرب للنشرات او الإصدارات الدورية الأولى كانت "جريدة الولايات المتحدة" Gazette of the United States ويحررها جون فينو John Fenno والثانية كانت "الجريدة الوطنية" National Gazette ويحررها فليب فرينو Philip Freneau والثالثة كانت "المخبر العام General Advertisert" ويحررها بنجامين فرانكلين باك وهو ابن أخ بنجامين فرانكلين، وكانت الأولى قريبة جدا من الفيدراليين أما الثانية فكانت تشبه الصحيفة التجارية تنشر لمن يدفع والثالثة كانت معارضة لجورج واشنطن وقريبة من الجمهوريين (١).

بدأ هجوم الصحافة الذي ألقى بظلاله على الساحة السياسية الأمريكية، مع تحزب المفكرين الذين كانوا يُنّظرون سابقا للثورة الأمريكية، واحتدم الصراع بين ادموند بيرك السياسي البريطاني الذي تطابقت أفكاره مع هاملتون، وتوماس بين الذي تطابقت أفكاره مع جيفرسون، ففي عام ١٧٩٠. نشر ادموند بيرك كتابه "ملاحظات أو تأملات عن الثورة الفرنسية"(٢)، شرح فيه آراءه المعارضة للثورة الفرنسية فهو لم يقبل بنظرية العقد الاجتماعي ولا سيادة الشعب وشدد على أن

---

(1) Hitchens ,Op.Cit ,P.86

(٢) طبع كتاب بيرك إحدى عشرة طبعة بغضون سنوات قليلة جدا وبيعت منة ثلاثين ألف نسخة، وحصل بيرك من خلال كتابه هذا على احترام وتبجيل الشخصيات الأوربية أمثال جورج الثالث الذي أرسل له كتاب تهنئة مبينا فيه مقدار فرحته لما اطلع على الكتاب كما أرسلت له كاترين الثانية إمبراطورة روسيا ميدالية ذهبية، للتفاصيل ينظر:- ناظم فخري العاني، ادموند بيرك والثورة الفرنسية، مطبعة الرحاب، بغداد ١٩٥٧، ص ٣- ٧

العقل والنظرية ليسا سندين صالحين لحياة المجتمعات وآمن بيرك بان الدساتير لا تصنع بل تتنامى عبر العصور كما عد تعاسة الفقراء أمراً ربانياً ولا يمكن لأي مرسوم بشري أن يعالج هذا البؤس، وتهكم بيرك على إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي أعلنته الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، ولم يقبل بالمساواة أبدا وعدها ضد الطبيعة، وقال انه ليس من حق كل إنسان مناقشة الشؤون العامة ولا من حقه المشاركة في الحكم بل فقط له الحق بوجود حكومة صالحة تكون ارستقراطية ويستنكر بيرك قائلا:ـ" أيمكن أن يصبح الملك إنسانا والملكة امرأة " كما ثار بيرك ضد الجمعية الوطنية الفرنسية التي دعت إلى تقنين التنظيم الإداري والمالي للملكية، وأخيرا فان الحريات حسب مفهومه لا يمكن أن تكون إلا ثمرة ارث[١].وقد أعطى ادموند بيرك تحذيرا صريحا بان أفكار الثورة الفرنسية إذا لم تُمنع فإنها ستكون في ليلة وضحاها منتشرة وستدمر قيم ونظام المجتمع الغربي[٢]

لاقت آراء بيرك ترحابا كبيرا من الكسندر هاملتون الذي سعى لنشرها بسرعة في الولايات المتحدة، وأخذت صحيفة الجازيت التي يحررها جون فينو المدعوم من هاملتون، تنشر مقالات تهلل وترحب بهذا الكتاب وتنشر بعض ما ورد فيه[٣]. وبعد نشر الكتاب قام توماس بين بنشر كتابه الجديد حقوق الإنسان The Rights of Man عام ١٧٩١[٤] وكان الكتاب برمته ردا على كتاب ادموند بيرك، وبنى توماس بين رده على أساس إنكار قاعدة بيرك التي تقول " بإلزام الخلف والتحكم فيهم الى نهاية الزمان"[٥] لان ذلك معناه إنكار حقوق الأجيال القادمة من الخلف بل التخلي عنها للأبد،وحقوق الإنسان هي حقوق كل الأجيال من البشر وليست حكرا للجيل الأول فقط وإلا لن يبقى للخلف إلا

---

(١) جان توشار، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة، علي مقلد، بيروت ١٩٨١، ص ص ٣٦٩- ٣٧٣ ؛ العاني، المصدر السابق، ص ٧- ١٤

(2) Harold J. Schultz , History of England , New York N.D , P. 183

(3) Lisitzky , Op.Cit , P. 91; Hitchens , Op.Cit , PP.87-88

(٤) طبع الكتاب لاول مرة في لندن، وكتب توماس بين عام ١٧٩٢ جزءه الثاني، وكان إهداء الكتاب الى الرئيس جورج واشنطن، ينظر: Ibid, P.88;
فريال حسن خليفة، حقوق الإنسان ونظام الحكم والسلام عند توماس بين، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٩

(٥) نقلا عن، المصدر نفسه، ص ١١

العبودية.ويذكر بين ان حقوق الإنسان اشتعل لهيبها ولن ينطفئ وتلك الحقوق تتقدم من بلد الى آخر ومن امة الى أخرى بعملية هادئة يجد الإنسان فيها نفسه متغيرة ونادرا ما يدرك كيف وهو يكتسب معرفة حقوقه يكتشف أن قوة الطغيان تكمن تماما في الخوف من مقاومته ولذلك وحتى تكون حرا يكفي أن تكون لديك الإرادة لمقاومة الطغيان. وهاجم بين أنظمة الحكم الملكية والطبقة الارستقراطية التي تتكئ عليها، وإنها تستنزف أموال البلاد والعباد في حروب لأجل رفاهيتها، لذلك فهؤلاء عبارة عن مجموعة طفيلية تعيش في رخاء على حساب الشعوب، وهنا لا يبقى أمام تلك الشعوب المقهورة إلا الثورة لتغيير تلك الأنظمة من اجل سعادتها. واخيرا يناشد توماس بين الشعوب بان تكون :ـ" حكيمة ومتعقلة ولا ترضى أن تكون محكومة مثل الحيوانات من اجل سعادة من يركبها "(١).

نزلت كلمات بين كالبرد على قلب جيفرسون الذي عبر له في رسالة ودية عن سعادته بهذا المؤلف مذكرا إياه بان " لدينا طائفة تدعو الى ملكية ولوردات وتشتاق رؤوسها الى التيجان"(٢). وذلك إشارة واضحة الى دعاة الملكية، وزاد قائلا:ـ" كان لهذا المؤلف الفضل في التمييز بين القمح والتبن واثبات بان الأخير وان طاف على السطح فإنما هو زبد وحسب لان الجسم الموجود في أسفله سليم ومعافى. افعل في قلمك ما كان يفعل بالسيف بالأزمنة الغابرة وبين كيف ان الإصلاح الذي يبنى على التأثير على عقل الإنسان يكون اشد قوة من ذلك الذي يؤثر في البدن"(٣). ويبدو أن جيفرسون كان سعيدا جدا بصدور الكتاب وسعد أكثر حينما اطلع على محتواه، فأرسل الى احد أصدقائه الانكليز قائلا:ـ" توجد لدينا بعض الأسماء الرفيعة المستوى التي ارتدت عن الإيمان الحقيقي، لكنها في الواقع قلة، أما شعبنا فهو نقي ويعلو فوق مستوى الشبهات في رعاية النظام الجمهوري . وسوف يكون رد السيد بين على بيرك رشة من الماء لتنعش عقولهم"(٤). ويبدو أن فرحة جيفرسون بذلك الكتاب قد جعلته ينسى وظيفته وزيراً خارجية، وان كل

---

(١) نقلا عن، فريال حسن خليفة، المصدر السابق، ص ١٠-١٢

(2) Quoted in , Forman , Op.Cit , P.307

(3) Ibid, Op.Cit, P.307

(4) Quoted in , Hitchens , Op.Cit , P. 89

كلمة يقولها وكل تصريح يصرح به يبنى عليه موقف معين، ولم يتوقف عند هـذا الحد بل اخذ النسخة التي كانت بحوزته وكان ماديسون قد أهداها له وأرسل تلـك النسخة إلى مطبعة في فيلادلفيا مصحوبة برسالة توضيحية كتب فيها انه بصـفته وزيرا للخارجية قد " أسعده بشدة ما تناهى لعلمه بان الكتاب سيعاد طبعـه هنـا، وأخيرا فان هناك ما سيذاع علنا ضد الهرطقة (الزندقة) السياسية التي تفشت بيننا وانه بدون أي شك سيحتشد شعبنا مرة أخرى حول مبادئ المنطق السليم"(١).

اخذ صاحب المطبعة تعليق جيفرسون على الكتاب ليكون مقدمـة لطبعـة الكتاب الجديدة، فخرج الكتاب وفي مقدمته تلك الرسالة وتحتها اسـم جيفرسـون وتوقيعه، وكأول رد فعل على ذلك زاره النائب العام ادموند راندولف وسأله بنوع من الصدمة هل وضع توقيعك بموافقة منك ؟ هنا شعر جيفرسون بخطئه الجسـيم وأنكر أن يكون الأمر مقصوداً، وإذا كان راندولف قد صدقه فان آدمز لم يسـتطع هضم الموضوع وقال ان جيفرسون كان يقصده عندما تحدث عن الزندقة السياسية التي تفشت بيننا وعلى الرغم من محاولة جيفرسون تـدارك الموضـوع وتأكيـده لآدمز بان نشر تلك الرسالة لم يكن مقصودا كما انه لم يقصد بعبارة الزندقة السيد آدمز،لكن الأخير لم يصدقه وعدّ الأمر متعلقا بمبادئ الشرف وهاج ومـاج وعـد القضية كلها مؤامرة عليه واخذ ابنه جون كوينسي آدمز بنشر سلسلة من المقالات للطعن بجيفرسون وتوماس بين والطعن بتلك الديمقراطية التي لا تحترم الشـرف، ورفض آدمز تبادل الرسائل مع جيفرسون لمـدة طويلـة جـدا(٢). والحقيقـة أن جيفرسون قد ارتكب غلطة كبيرة سيدفع ثمنها بالمستقبل القريب، عند إرساله لتلك الرسالة او الملحوظة على الكتاب،ومن الممكن القول انه كان صادقا بعدم علمـه أنها ستنشر، ولكن ذلك لا يغير الكلمات التي اختارها جيفرسـون ليصـف فيهـا مشجعي الملكية بالزنادقة أو المرتدين، وقد وضع جيفرسون نفسه فـي موقـف لا يحسد عليه.

---

(1) Quoted in ,op cit, P.89
(2) Hitchens , Op.Cit ,P.89 ; Lisitzky , Op.Cit, P. 92

استغل هاملتون على الفور تلك الرسالة وغضب آدمز منها وأسرع بكتابة المقالات في الصحيفة الموالية له للتنديد بجيفرسون، وكان هاملتون يكتب بأسماء مستعارة منها An American وتهجم على جيفرسون ثم اتهمه بأنه استخدم أموالا من خزينة الدولة للإنفاق على صحيفة تعمل ضد الدولة(١). في إشارة منه إلى صحيفة "الجريدة الوطنية" National Gazette التي يحررها فيليب فيرنو،والتي ظهر عددها الأول في الحادي والثلاثين من تشرين الأول عام ١٧٩١ وفيها مقالات كثيرة لمدح جيفرسون والجمهوريين، وهاجمت ادموند بيرك وسياسة هاملتون ونشرت في أعدادها التالية أسماء العديد من النواب الأمريكيين الذين أصبحوا أثرياء من خلال تأييدهم لسياسة هاملتون(٢). وهكذا اخذ الوزيران يتبادلان الاتهامات والشتائم عبر الصحف، وكانت تلك المجادلات الصحفية الأولى من نوعها في الولايات المتحدة الأمريكية، والبداية الحقيقية لسعي الأحزاب والشخصيات المتنفذة للسيطرة على الإعلام الأمريكي الذي أخذ يتجرد من المبادئ والقيم وينزلق باتجاه الكسب المادي عن طريق تبني وجهة نظر من يدفع أكثر، ومهما قيل دفاعا او هجوما عن الطرفين فأنهم كانوا يدفعون المال لتكتب تلك الصحف ما يرغبون فيه .

أغضبت تلك المهاترات السياسية في الصحف الأمريكية الرئيس جورج واشنطن الذي لم يكن يرغب في ان يصل الخلاف بين الرجلين إلى الحد الذي تظهر فيها حكومته منقسمة على بعضها، فكتب إلى الاثنين يرجو منهما تقدير صعوبة الموقف الذي بدأ يحرجه شخصيا وان يحلا المسالة برحابة صدر في سبيل الصالح العام للأمة. وفي رد هاملتون للرئيس كتب له إن جيفرسون ما برح يهاجمه منذ قدومه من باريس وانه أنشا صحيفة" الجريدة الوطنية" مخصوصةً لمعارضته وركز عمله لكي يجعل منه شخصا مكروها شعبيا، ولهذا السبب كتب مقالات في الصحف الأخرى واعترف بأنه كتبها بأسماء مستعارة(٣). اما

(1) Christopher James Riethmuller , The life and times of Alexander Hamilton , London 1864 , PP.294-295
(2) Lisitzky , Op.Cit, P.93
(3) Ibid, P.93

فحسب بل أغرقته بكثير من الحفاوة والتقدير"[١]، ومع ذلك تعهد جيفرسون في تلك الرسالة بالتوقف عن ما اسماه " المخاصمات الصحفية" لأنه يريد الفرصة المناسبة للاستقالة من الحكومة وانه يتطلع وسط هذه الظروف والاتهامات الموجهة له لترك منصبه ويرجو من واشنطن أن يقبل استقالته[٢].

لم يكن باستطاعة واشنطن في تلك الفترة ان يقبل استقالة جيفرسون لان ذلك معناه الانحياز التام إلى سياسة هاملتون الذي كان سينفرد بالحكومة ولاسيما ان آدمز قد بدأ يأخذ جانبه بصورة كبيرة، ومن ثم ستكون حكومة واشنطن خالية من ابرز قائد للجمهوريين، لذلك لم يكن واشنطن يرغب في استقالة جيفرسون، وفي اللقاء المعقود بين الاثنين في تشرين الأول عام ١٧٩٢ في مونت فيرنون Mount Vernon اخبره بأنه لا يستطيع إيجاد شخصية أكفأ منه لشغل ذلك المنصب وعبر عن قلقه الشديد للخلاف القائم بينه وبين هاملتون وطلب من جيفرسون ان يحافظ على الحد من أرائه في الإدارة الحكومية لإبقاء الأمور في مجراها المناسب، وقد قبل جيفرسون في النهاية البقاء في وزارته [٣]، إلا أن رغبة واشنطن في بقاء جيفرسون في وزارته لم تكن نابعة من كونه أكفأ شخص لذلك المنصب كما قال بل لان الجمهوريين كانوا على درجة كبيرة من القوة السياسية والشعبية التي تمنع واشنطن من قبول الاستقالة والظهور بمظهر المعادي للجمهوريين، كما ان الاندفاع الشعبي العارم في الولايات المتحدة لتأييد الثورة الفرنسية وكل من يشجعها في الداخل الأمريكي، أعطى زخماً هائلاً لشعبية جيفرسون والجمهوريين بصفة عامة.

لم يكن الصراع بين هاملتون وجيفرسون مقتصرا على العلاقات السياسية بين الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، بل شمل كافة العلاقات الأخرى ولاسيما العلاقات التجارية. وكانت العلاقات التجارية الأمريكية الفرنسية قد نشطت إبان الثورة الأمريكية لكنها بدأت بالتراجع بعد اتخاذ الجمعية الوطنية في فرنسا موقفا معاديا من التجارة الحرة، فقد اضر ذلك الموقف بتجارة التبغ الأمريكية إذ فرضت

(1) Quoted in , Ibid, P.521
(2) Ibid , PP. 517-518
(٣) برنارد مايو، المصدر السابق، ص ص ٢٤٤- ٢٤٦

فرنسا ضريبة على الحمولات التجارية القادمة من الولايات المتحدة، وأدى ذلك إلى تفجر جيفرسون من الغضب فلم يكن يصدق بان ثورة متحررة قد تتحول الى رجعية في السياسة التجارية، لكنه مع ذلك أصر على تشجيع التجارة مع فرنسا وضرورة عقد معاهدة تجارية بين البلدين(١)، وفي مقابل دفاع جيفرسون عن التجارة الفرنسية كان يعارض باستمرار التجارة البريطانية التي يمكن وصفها بالقمعية، فحقيقة فرض ضرائب من فرنسا على التبغ الأمريكي لم تكن أكثر تأثيرا من السياسة التجارية البريطانية التي لم تكن تشتري الا القليل جدا من ذلك التبغ وفي ذلك يقول جيفرسون في تقريره عن مصائد الأسماك والحيتان الذي قدمه في الأول من شباط عام ١٧٩١ ما نصه:ـــــــ"الى جانب خمسة أثمان من زيت حوتنا وثلثين من سمكنا المملح اخذوا [أي البريطانيون] منا ربعا واحدا من تبغنا وثلاثة أرباع من مخزوناتنا الحية.. وجزءاً مهماً من رزنا ومؤناً كبيرة بين الفينة والفينة من الحبوب الأخرى"(٢)أي ان البريطانيين يحصلون على زيت الحوت والحبوب الأمريكية التي يحتاجون اليها بضرائب بخسة فيما يتم فرض ضرائب كبيرة على التبغ وهو المحصول الأكثر في الولايات المتحدة. كما ان جيفرسون قد حصل على تقرير بريطاني سري يشير الى ان التجارة مع الولايات المتحدة أصبحت ذات فائدة اقتصادية كبيرة أكثر من التجارة معها قبل الاستقلال، هذا زيادة على ان جيفرسون بات مقتنعا تماما بان السفير البريطاني هاموند يلعب بالتجارة الخارجية الأمريكية كيف يشاء بمساعدة هاملتون الذي ما فتئ يعمل على ربط التجارة الخارجية الأمريكية بالبريطانية ولو كان ذلك على حساب بلده. وقد قدم مجلس النواب بعد تقرير جيفرسون لائحة غايتها منع استيراد السلع غير البريطانية بواسطة سفن بريطانية وكانت اللائحة قد حصلت على موافقة ضمنية من الرئيس، لكنها حرفت عن مسارها وأُهملتْ تدريجياً (٣). ولا نستطيع ان نرى

---

(1) Merrill D. Peterson , Thomas Jefferson and Commercial Policy , The William and Mary Quarterly, Third Series , Vol.22,No .4 (Oct, 1965) , P.606

(2) Report on the Cod and Whale Fisheries , Feb.1,1791, Joint Committee of Congress, The Writings of Thomas Jefferson, e-Book ,N.D, P.1031

(3) Peterson, Op.Cit , PP .605-606

تلك اللائحة تهمل بدون تدخل هاملتون الرافض لأي مشروع يستهدف بريطانيا او تجارتها.

على الرغم من استمرار معارضة هاملتون لسياسة جيفرسون التجارية لم يستسلم الاخير بسهولة وقدم في السادس عشر من كانون الأول عام ١٧٩٣ تقريره الشهير عن التجارة الخارجية للولايات المتحدة، الذي قدم فيه زبدة أفكاره التجارية التي لم تختلف كثيرا عن مبدأ آدم سميث في حرية التجارة، فقد جاء فيه ما نصه:"بدلا من إلحاق الضرر بالتجارة من خلال جملة من القوانين والقواعد الكثيرة من الواجبات والمحرمات فانه يمكن إزالة القيود التجارية في جميع أنحاء العالم بحيث تقوم كل دولة بوضع ترتيباتها الخاصة التي تلائم طبيعة منتجاتها بشكل مناسب وكل دولة تكون حرة في تبادل الفائض مع الدول الأخرى حسب الحاجة لذلك التبادل ...وان ذلك سيحقق منفعة لقسم عظيم من الناس لأنهم سيسهمون بشكل فعال في الحياة الإنسانية وسيجلب ذلك السعادة للبشرية ويؤدي الى زيادة عدد السكان وستكون الاوضاع أفضل "[١] ومن خلال هذا النص يتبين لنا أن جيفرسون كان يدعو إلى التجارة الحرة بصورتها البدائية غير المعقدة وهي تلك التجارة التي بنيت على أساس التبادل العيني وليس النقدي، فتقوم كل دولة بإرسال فائضها مما تنتج مقابل الحصول على فائض تلك الدولة من إنتاجها المغاير وهكذا، لكنه بالوقت نفسه يشدد على أن الدول التي "تُعمل عكس طموحات شعبنا ورغباته وتريد تحقيق منافع خاصة بها من خلال الأنظمة الصادرة منها التي قد تشمل بعض القيود والقواعد، ففي تلك الحالة يتحتم علينا العمل على حماية مواطنينا وتجارتنا، وقوانين الإبحار الخاصة بنا وبمواطنينا من خلال وضع قيود وقواعد من قبلنا تقابل تلك التي وضعتها الدول الأخرى أي أن نعاملهم بالمثل"[٢].

وقد يبدو كلامه متناقضا فمرة يدعو لحرية التجارة ومرة يدعو لفرض قيود عليها، وفي الحقيقة لم يكن جيفرسون يفكر مثل آدم سميث، الذي رغب بتجارة حرة غير مقيدة، بدون أن يذكر أن المنتفع من تلك التجارة الحرة ستكون الدول الصناعية

---

(1) Quoted in , Peden&Koch ,Op.Cit , P. 320
(2) Ibid, P. 320

الكبرى ولاسيما بريطانيا، أما جيفرسون فقد رغب في تجارة حرة متكافئة فان لم تكن متكافئة فلن تكون هناك أي تجارة حرة، ولهذا يقول جيفرسون:_" انه لا يوجد تجارة حرة وإبحار حر مقابل قيود وقواعد ومحرمات مضادة ...فعندما تقوم دولة بفرض ضرائب كمركية علينا وعلى منتجاتنا أو تقوم بمنع دخول منتجاتنا فانه من المناسب لنا تطبيق مبدأ المعاملة بالمثل"[١]، وفي حالة استمرار فرض الضرائب على المنتجات الأمريكية[٢] فيجب فرض الضرائب على المنتجات الأجنبية للنهوض بالصناعة المحلية وتطويرها التي لا يمكن النهوض بها ضمن المنافسة غير المتكافئة مع المنتجات الأجنبية(يقصد البريطانية). وأخيرا يدعو جيفرسون الى رفع الظلم عن المحاصيل الزراعية الأمريكية وإنقاذها من الاتكال على المجالس المحلية وتصرفات وسلوك الآخرين[٣]، أي الدعوة لتدخل حكومي حاسم من اجل فرض ضرائب على المنتجات البريطانية او أن تقوم بريطانيا بالغاء الضرائب والرسوم التي تفرضها على المنتجات الزراعية الامريكية.

وبالعودة الى التطورات السياسية الخارجية،فقد استطاعت الحشود الثورية التي كان يتألف منها الجيش الفرنسي في أوائل عام ١٧٩٣ صد هجمات ملوك أوربا المذعورين من مبادئ الثورة، وتعهدت تلك الحشود ومن يقف خلفها من اليعاقبة بتأييد كل شعب يثور على حكامه المستبدين، وجاء رد فعل الشعب الأمريكي منسجما مع تلك الشعوب الأوربية المقهورة ومؤيدا بحماسة شديدة لما أعلن عن تصدير الثورة، وعدّ إعدام الملك لويس السادس عشر في شباط،لا يتعدى كونه نوعا من العدالة الطبيعية [٤]. وكلما تقدمت الثورة الفرنسية خطوةً نحو الأمام أصاب الفيدراليين ودغاة الملكية في الولايات المتحدة، الهم والحزن وتصاعدت شعبية الجمهوريون وجيفرسون، ووصل الصراع الداخلي بين

---

(1) Quoted in , Peden&Koch ,Op.Cit, P. 321

(٢) عانى الأمريكيون من التبعية الاستعمارية وخاصة التجارية، نفسها التي كانت قبل الثورة وبات من الواضح بصورة متزايدة ان بريطانيا رغم خسارتها المستعمرات كانت مصممة على إبقاء الأمريكيين في عبودية تجارية واثبت الايرل شيفيلد Sheffield مدى سهولة عمل ذلك من خلال استغلال ضعف الفيدرالية واستغلال سيطرة التجار البريطانيين على السوق الأمريكية، للتفاصيل ينظر:

Peterson , Op.Cit , P.589

(3) Peden&Koch ,Op.Cit , P. 322

(4) Hitchens, Op.Cit , P. 94

الأحزاب إلى داخل فرنسا حيث السفير الأمريكي روبرت موريس المؤيد لهاملتون والفيدراليين ونائبه وليام شورت الجمهوري المؤيد لجيفرسون، وكان للتقارير التي يبعثها الاثنان دور كبير في التأثير على مجرى الأحداث السياسية في الداخل الأمريكي، لذلك لم يشأ جيفرسون أن يسمع من مندوبه في فرنسا،إذا جاز التعبير، وليام شورت إلا الأخبار الجيدة، وان يتحسس البعد المستقبلي للثورة ولا يحكم على الأحداث من منظور وقتي، فبعد ان أصيب جيفرسون بحالة من القلق والأسى نتيجة رسائل شورت التشاؤمية(١) وهو يصف مجرى الأحداث في فرنسا، كتب إليه في الثالث من كانون الثاني عام ١٧٩٣ قائلا:ـ"إن أسلوب الرسائل المرسلة من قبلك جعلني اشعر بالألم ... أنا اعدُّ تلك الفئة مثل الوطنيين الجمهوريين في الولايات المتحدة ...ربما تكون تجربة اليعاقبة في الإبقاء على رئيسهم المتوارث قد فشلت ولو أنها استؤنفت لكادت أن تتسبب في عودة الاستبداد وقد أدرك اليعاقبة ذلك كما أدركوا إن التخلص من ذلك الزعيم يعد ضرورة قصوى وقد وافقهم الشعب في الرأي ومهما كان موقف الشعب سابقا من تأييد الدستور الذي أعلنه المجلس الأول فقد تحول ذلك الموقف الان عن إرساء الأمل فيه وصار الشعب ألان كله يعاقبة".(٢)

في الحقيقة أن تلك الرسالة تكشف لنا بوضوح موقف جيفرسون من الثورة الفرنسية واليعاقبة وموقفه بصورة عامة من الجمهورية، أكثر من أي وثيقة أخرى لكونها جاءت في خضم الصراعات العالمية والداخلية الأمريكية التي كانت في تلك المدة مرتبطة ارتباطا وثيقا بتطور الثورة الفرنسية،وربما جاء تشبيه اليعاقبة بالجمهوريين الأمريكيين من قبل جيفرسون ليعطي دليلا على أن الثورة الأمريكية ما زالت مستمرة كما أن محاولات إجهاضها من الملكيين الفيدراليين ما زالت مستمرة أيضا، وان ثبات اليعاقبة على موقفهم قد جعل الشعب كله يعاقبة مما يبشر بان يصبح الشعب الأمريكي كله جمهورياً. أما عن حالات القتل والإعدام المتزايدة

---

(١) كان شورت يرسل رسائل عاجلة لجيفرسون يحذره فيها من ان بعض أصدقائه القدامى مثل لافاييت يجري القضاء عليهم بفعل عملية جرائم قتل الزفاق بعضهم لبعض، ينظر:

Hitchens, Op.Cit,P. 90

(2) Quoted in , Peden&Koch , Op.Cit, P 521

في فرنسا وما أثارته من ضجة داخل الولايات المتحدة وطبل لها زعماء الفيدرالية على أنها إعمال ضد الإنسانية، فموقف جيفرسون منها يتبين من خلال رسالته السابقة التي جاء فيها " في أثناء ذلك النضال الذي كان لا بد منه سقط الكثير من المذنبين دونما محاكمة وسقط معهم بعض الأبرياء وإنني لأرثي أولئك الأبرياء كما يفعل أي شخص غيري ولسوف ارثي بعضهم حتى أخر يوم في عمري وأنني ارثيهم كما لو أنهم سقطوا على ارض المعركة، لقد كان استخدام قوة الشعب كسلاح امراً ضروريا ...لكن في ذات الوقت فان الزمن والحقيقة (الإيمان) سينقذان ما تبقى من ذكرى أولئك الأصدقاء ولسوف يبقيانها في مأمن، في الوقت الذي ستتمتع فيه الأجيال اللاحقة بتلك الحرية التي لم يكونوا ليترددوا لحظة واحدة في التضحية بأرواحهم في سبيلها. أن حرية الأرض ومن عليها كانت تتوقف على نتيجة ذلك الصراع وهل يعقل الفوز بمثل هذه الجائزة الثمينة مقابل حفنة قليلة كهذه من دماء الأبرياء ؟ لقد نزف قلبي دما على بعض الشهداء في هذه القضية لكنني أفضل رؤية نصف هذا العالم يتحول إلى برية مقفرة عن رؤية فشل هذه القضية. فلو لم يتبق سوى ادم وحواء على ارض كل دولة، وكانوا أحرارا لكان الوضع أفضل مما هو عليه الان"[1]. ومرة أخرى يذكرنا جيفرسون بان دماء الناس لا قيمة لها أمام تحقيق غاية كبيرة مثل الحرية، فان لم يكن غير الدماء سبيلا لتحقيقها وكسبها فلا باس من إراقتها لإرواء شجرة الحرية.

وفي تلك الرسالة المهمة نفسها نجد أن جيفرسون يعبر عن موقف واشنطن تجاه الثورة الفرنسية قائلا لشورت " لقد أرادني [يقصد واشنطن] أن اكتب أليك بصدد هذا الموضوع وأضاف انه يعتبر (فرنسا بمنزلة مرساة الأمان لهذه الدولة وصداقتها من الأهداف الأساسية)[2] ولكن هناك بعض الشخصيات في الولايات المتحدة تعتنق مبادئ مغايرة وبعض تلك الشخصيات لديها مناصب عالية في الدولة والأخرى تملك ثروات طائلة ولكنهم جميعا معادون لفرنسا ويتطلعون بشغف إلى انكلترا بوصفها عماد آمالهم، وقد أخبرتك بأسماء هؤلاء سابقا، ومن

---

(1) Quoted in , Ibid , PP 521-522

(٢) الاقواس اصيلة

المؤكد أن آمالهم قد خابت وباستثناء هؤلاء فان الدولة جمهورية قلبا وقالبا وشعبها صديق للدستور وحريص على المحافظة عليه وتطبيقه وفق المبادئ الجمهورية أما تلك الشرذمة فأنهم يؤيدون الدستور فقط بوصفه جسرا إلى الملكية ولذا فقد سعوا عند تطبيقه إلى تقريبه لذلك النظام ليتيسر لهم تحويله في النهاية،لكن نجاح النظام الجمهوري في فرنسا أصاب آمالهم بضربة قاضية وأتمنى أن يكون قد أصاب خططهم كذلك"(١). وربما يكون ذلك الموقف هو موقف جيفرسون وليس موقف واشنطن كما قال، فلو أراد واشنطن لكتب بنفسه مباشرةً إلى سفيره في فرنسا وليس لنائبه، وربما يكون واشنطن الذي كانت سياسته مبنية على التمثيل قد اراد فعلاً ان يصرح وزير خارجيته بمثل هذا التصريح الذي لم يكن هو يستطع التعبير عنه بصراحة لحساسية الموضوع تجاه أوربا الملكية عامة وبريطانيا خاصة، ومن خلال الجملة الأخيرة نستطيع أن نفهم السبب الرئيس الذي دفع جيفرسون لتشجيع الجمهورية الفرنسية ألا وهو ضمان بقاء نظام الحكم الجمهوري في الولايات المتحدة الذي لم يكن معمولا به بغير الولايات المتحدة، فأن نجاحه في فرنسا وامتداده إلى أوربا يعني بقاءه في الولايات المتحدة .

لم تستمر نشوة جيفرسون طويلا فقد اعدم الثوار الملك والملكة وصور ذلك الإعدام للعالم من خلال الصحف الأوربية المحافظة كمشهد تراجيدي شديد التأثير، وأعلنت بريطانيا الحرب على فرنسا نتيجة إعدام الملك وكأن الانكليز لم يعدموا ملكهم شارل الأول عام ١٦٤٩ (٢). وقد تسببت تلك الأحداث بإرباك الساحة السياسية الداخلية في الولايات المتحدة لدرجة كان من الصعب فيها اتخاذ قرار الانحياز إلى طرف ما. ومما اسهم بإرباك الوضع الداخلي وصول سفير الجمهورية الفرنسية إلى الولايات المتحدة، الذي كان كثير الكلام والعبث ولا يعرف شيئا عن حسن التصرف ولا يمت بأي صلة لما يسمى سياسة أو

---

(1) Quoted in , Hitchens ,Op.Cit , P96

(٢) اعدم لويس السادس عشر بتاريخ ١٧٩٣/١/٢١ بساحة الجمهورية في باريس، لكن بريطانيا لم تعلن الحرب لأجل إعدام الملك بل لأجل سيطرة الفرنسيين على نهر الراين واستيلائهم على بروكسل ومن ثم إعلانهم لفتح نهر الشلد لجميع أنواع التجارة الأمر الذي ترى فيه انكلترا تهديدا خطيرا لمصالحها التجارية في تلك الأقاليم، للتفاصيل ينظر، عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة الى مؤتمر فينيا،د.ت، ص ٤١٢

أعمالها مع الأمم الأجنبية عن طريق أي عضو تراه مناسبا سواء أكان ملكا أو مؤتمرا أو مجلسا أو لجنة أو رئيس جمهورية أو أي شيء تختاره هي، فإرادة الأمة هي الشيء الوحيد الذي نضعه في الاعتبار "(١) أي أن الولايات المتحدة ستتعامل مع فرنسا وكأنه لم يتغير بها أي شيء لان التغييرات الحاصلة هي داخلية تخص فرنسا وحدها وان يتصرف السفير الأمريكي على هذا الأساس، أما المعاهدات السابقة فلم يشر إليها جيفرسون لان تغيير النظام لا يبطل تلك المعاهدات وهذا ما هو معمول به في كل العالم .

والخلاصة أن هاملتون أراد الوقوف إلى جانب بريطانيا في الحرب وإنكار المعاهدات السابقة مع فرنسا، وان لم يكن قد أعلن رغبته بان تعلن بلاده الحرب الى جانب بريطانيا ولكنه أراد من الرئيس واشنطن أن يعلن الحياد وذلك سيمنح هاملتون والموالين لبريطانيا فرصة تقديم المساعدة الاقتصادية الممكنة لبريطانيا، أما جيفرسون فقد أراد الوقوف الى جانب فرنسا التي وقفت الى جانب الولايات المتحدة خلال حرب الاستقلال، ولكنه كان أكثر حرصا على مصالح بلاده من هاملتون، لذلك أراد الحياد لتستفيد الولايات المتحدة من الحرب بإمداد الطرفين بالضروريات، أما الرئيس واشنطن فقد أعلن أن الولايات المتحدة غير متحيزة في هذه الحرب وشدد قائلا :ـ" إن الحياد في مصلحة أمريكا التي يجب أن تلتزم به بينما تحافظ على جميع حقوقها"(٢).

أعلن الرئيس الحياد قبل وصول السفير الفرنسي إلى العاصمة المؤقتة فيلادلفيا، وكان هاملتون قد اعد بضعة أسئلة وقدمها إلى الرئيس واشنطن الذي طلب هو ايضاً من أعضاء حكومته الاجتماع لمناقشة قبول اعتماد السفير الفرنسي من عدمه، لمناقشتها في الوزارة وكانت الأسئلة كالآتي :ـ

السؤال الأول : هل نقبل جنيت وندعه يصل ؟

أجاب هاملتون نعم ولكن بشروط

وأجاب جيفرسون نعم وبدون شروط

---

(١) نقلا عن، مايو، المصدر السابق، ص ٢٤٧

(2) Quoted in , Johnson , Op.Cit , P. 109

وأردف نوكس نعم بشروط

وأجاب راندولف نعم بدون شروط

السؤال الثاني : هل نتعامل مع جنيت إذا قبلناه ؟

هاملتون ـــــ حكومة الثورة لم تثبت أن إعدام الملك كان بحق فلماذا نندفع نحن للتعامل معها ما دامت الدول المحترمة تقاطعها ؟ لذلك سنقبله لكن لن نتعامل معه بوصفه سفيراً

جيفرسون ـــــ إذا قبلنا السفير فقد اعترفنا بحكومته. كيف نعترف بوجود دولة بقبول سفيرها ثم نأبى التعامل معه ؟ حتى لا نعترف بدولته ؟

السؤال الثالث : ما الموقف من المعاهدات القديمة مع فرنسا ؟

هاملتون ـــــ لقد عقدنا المعاهدات مع الملك والان لا يوجد ملك فالمعاهدات أصبحت ملغاة.

جيفرسون ـــــ المعاهدات عقدت مع الشعب الفرنسي عندما كان يدير شؤونه بواسطة الملك. أما من يدير شؤونه اليوم فليس من شأننا ويجب أن نتذكر أننا قمنا بتغيير حكومتنا بعد توقيع المعاهدات، فالأشخاص والحكومات تتغير لكن الشعوب والمعاهدات لا تتغير[1].وفي نهاية الأمر قبل الرئيس واشنطن استقبال السفير الفرنسي وتقديم أوراق اعتماده، لكن من جهة أخرى توضح تلك الأسئلة مدى تأثر واشنطن بسياسة هاملتون وأفكاره الذي اعد الأسئلة سلفا وأعطاها الرئيس ثم أجاب عنها، وكأن العملية كلها كانت عبارة عن مسرحية معدة من قبل هاملتون وواشنطن لدفع الوزارة باتجاه رفض السفير الفرنسي، لكن تلك المسرحية لم تنطل على جيفرسون الذي كانت أجوبته بسيطة لكن مقنعة.

أما جنيت الذي كان يقوم بجولة مظفرة بين الشعب الأمريكي الذي استقبله استقبالا لم يشهد له مثيل في تاريخ الولايات المتحدة فقد عبر الشعب بأغلبيته من خلال هذا الاستقبال عن رغبته بنصرة فرنسا، وقد وصل إلى فيلادلفيا حيث استقبله جيفرسون بحفاوة. وحينما تقدم للرئيس واشنطن فوجئ باستقبال بارد، وهنا

(1) Bowers , Op.Cit, P. 215 ; Charles Clinton , Memoirs of The Hon. Thomas Jefferson , Secretary of states , Vic-president and president , New York 1809, Vol . 1, PP. 113-115

صدم جنيت الذي لم يفهم لماذا يقف الرئيس وبعض وزرائه ورجال المؤتمر، موقف الحذر والعداء من حكومة الجمهورية الفرنسية في حين استقبلته الجماهير الأمريكية الغفيرة في كل مكان لتعلن تأييدها لحكومة الجمهورية الفرنسية، لكنه مع ذلك شرع بالعمل الذي أتى لأجله فور وصوله إلى فيلادلفيا حيث صرح بان لفرنسا الحق بمطالبة الولايات المتحدة بضمان جزر الهند الغربية الفرنسية، ولوح الى المعاهدة الفرنسية الأمريكية عام ١٧٧٨، وقام بإرسال دعوات وإعلانات تدعو الشعب الأمريكي للتطوع في جيش الجمهورية الفرنسية، وقد تم تكوين أكثر من ثلاثمائة جمعية منظمة بشكل سري للمساعدة بعملية الدعم والتطوع [١].

أثارت تصرفات جنيت الرئيس جورج واشنطن، ولاسيما ان جنيت كان يدلي بتصريحات نارية حيثما ذهب فكان يدعو الأمريكيين إلى " تشييد معبد الحرية على أنقاض القصور والعروش" وهو الأمر الذي لم يستسغه واشنطن فلا توجد عروش في الولايات المتحدة، إذن الدعوة كانت إلى محاربة الارستقراطية ولاقت ترحيبا في الولايات المتحدة، كما أن جنيت اتخذ من جريدة "النشرة الوطنية" لفليب فرينو قاعدة لتصريحاته وإعلاناته، وكان مقر تلك الجريدة بالقرب من بيت الرئيس واشنطن، ومما أثار حفيظته أيضا نشره في تلك الجريدة دعوة الكنديين ممن ينتمون إلى جذور فرنسية بأن يكسروا قيد الهيمنة البريطانية وتسليح أهالي كنتاكي واقترح القيام بحملة بحرية لتسهيل الهجوم على نيو اورليانز[٢]، التي كانت تتبع اسبانيا في تلك المدة ولما جاء الإعلان عن التحالف الاسباني البريطاني، أراد جنيت شغل اسبانيا من حدود لويزيانا وذلك باستغلال مغامري كنتاكي المتعطشين لامتلاك الأراضي ليقوموا بتلك المناورة بدلا عنه، وقد لاقت تلك الفكرة ترحابا من جيفرسون الذي كان صبره قد نفذ من بطء المفاوضات مع اسبانيا بخصوص الملاحة في المسيسبي. وهنا وقع جيفرسون بخطأ جسيم إذ اكتشفت السلطات الاسبانية قيام العديد من أصدقاء جيفرسون المقربين بمراقبة حدودها وأبلغت الجانب الأمريكي وهنا كان على جيفرسون ان يصدر أوامره بمنع قيام مثل تلك

(1) A Citizen of Maryland , Notes on Thomas Jefferson , Philadelphia 1885 , P 107; Lisitzky , Op.Cit, PP.96-97

(2) Johnson , Op.Cit , P.110

الأنشطة [١]، وكانت تلك العملية قد أضعفت مركزه كما تسببت بضياع آماله ولو مؤقتا بالسيطرة على حوض المسيسبي.

في تلك الأثناء كان جنيت يجمع المتطوعين من الجند والبحارة الأمريكان، وكانت المدمرة الفرنسية لامبوسكاد LAmbuscade التي وصل على ظهرها جنيت تقوم بمراقبة المياه الأمريكية بدون إذن من الحكومة الأمريكية وقد استطاعت اصطياد السفينة البريطانية سارة الصغيرة Little Sarah واستولت عليها وأنزلت إعلامها البريطانية ووضعت محلها علم الجمهورية الفرنسية أمام أنظار الشعب الأمريكي في الميناء الذي كان يصفق ويهلل عند إنزال العلم البريطاني، وقام جنيت بنفسه بتعميد تلك السفينة وتحويل اسمها إلى الديمقراطي الصغير Le Petit Democrat واخذ جنيت يجهزها للإبحار بدون علم الحكومة الأمريكية، وكان جيفرسون قد اخطر جنيت بان لا يدع السفينة تتحرك قبل عودة واشنطن الذي كان في بيته في جبل فرنون، لكن جنيت تصرف من تلقاء نفسه وأبحر في السفينة[٢]. وعلى الرغم من عدم معرفة جيفرسون بتصرفات جينت إلا انه كان مغتبطا جدا باستيلاء الفرنسيين على تلك السفينة، وان مشاعره تلك كانت واضحة برسالة بعثها إلى جيمس مونرو حيث جاء فيها " إن الروح التي انبثقت عام ١٧٧٦ قد استيقظت من جديد وترى ذلك واضحا من حماسة الصحف من بوسطن إلى جارلستون، وحتى الصحف المناصرة للحكم الفردي اضطرت ان تكتب اشد المقالات لمهاجمة انكلترا، فقد أخذت بارجة فرنسية سفينة بريطانية ...وحين اقتربت من الشاطئ وأمكن رؤيتها احتشد آلاف وآلاف من العامة في المدينة وملاءوا أرصفة الميناء ولم ير مثل هذه الجماهير المحتشدة من قبل وحين نكست الأعلام البريطانية ورفعت محلها الأعلام الفرنسة انفجرت الحشود بالتهليل والتصفيق"[٣]

ولكن لما علم واشنطن بالأمر استشاط غضبا وبعث إلى جيفرسون رسالة شديدة اللهجة وفيها توبيخ لجيفرسون الذي كان يمر بنوبة من نوبات الصداع

(1) Hitchens , Op.Cit , P. 99
(2) Clinton , Op.Cit , P 134 ; Lisitzky , Op.Cit, P.97
(3) Quoted in , Forman , Op.Cit , P. 51

النصفي التي أجلسته في الفراش، ومما جاء في تلك الرسالة " ما الذي ستفعله بقضية سارة الصغيرة ؟ هل سيتحدى سفير الجمهورية الفرنسية قرارات هذه الحكومة وبدون عقاب ؟ ومن ثم يهدد السلطة التنفيذية بعرض القضية على الشعب ؟ ماذا سيظن العالم بمثل هذا التصرف، وبحكومة الولايات المتحدة بخضوعها له ؟ "(١). كان وقع ذلك الخطاب مؤلما على جيفرسون الذي سارع بكتابة رسالة إلى السفير الأمريكي في باريس طالبا منه ان تقوم الحكومة الفرنسية باستبدال جنيت (٢)، وقبلت الحكومة الفرنسية على الفور لان اليعاقبة كانوا مسيطرين على الحكومة وكان جنيت واحدا من الجيروندبين فكان الاستدعاء من دواعي سرورهم لكن جنيت توسل إلى واشنطن للبقاء في الولايات المتحدة خوفا من أن تطير رقبته لو عاد إلى فرنسا وقبل واشنطن وتركه يعيش في الولايات المتحدة (٣).

أما جيفرسون فقد عبر برسالة إلى جيمس ماديسون عن رأيه بجنيت قائلا "لم يحدث أبدا تعيين محفوف بالمخاطر والنكبات مثل تعيين السفير الحالي لفرنسا هنا فهو خيالي وثائر وليس لديه رأي وعاطفي ولا يحترم رئيس الجمهورية بل انه غير مهذب في جميع خطاباته الشفوية والمكتوبة ...لقد جعل مركزي بغاية الحرج"(٤)وفعلا أصبح موقف جيفرسون بغاية الحرج ولم يجد بداً من ترك الحياة السياسية، وعبر عن حزنه العميق لذلك الموقف المحرج وما تركه في نفسه من هم وحزن، برسالة طويلة إلى جيمس ماديسون قائلا :ـ" أنا اعمل ولا زلت اعمل لمدة تزيد على أربعة وعشرين عاما وقضيت أكثر من نصف هذه المدة بالانشغال بشؤون الناس والحكومة دون الاكتراث بشؤوني الشخصية ...لقد كانت هناك قيم واحترام في هذا العالم اكبر بكثير مما نحن عليه ألان ولكن العمر والتجربة بينت ألان إن القيم في الوقت الحاضر خاصة بساعتها ...لم تعد حركة دمي تساير صخب العالم وهي تقودني إلى التماس السعادة عند أسرتي وجيراني وكتبي حيث

(1) Quoted in , Clinton , Op.Cit , P. 140
(2) Paul Leicester Ford , The Works of Thomas Jefferson , New York 1904, Vol . VIII, PP 4-5
(3) Johnson , Op.Cit, P.111
(4) Quoted in , Forman , Op.Cit , P. 230

انشد الراحة ...بعد إن كنت ملتزما بتنفيذ طلبات الرأي العام ...حتى إن وقت الراحة المخصص لي كنت اقضيه لتحقيق الرفاهية للشعب في ذلك الوقت الذي كنت اقتطعه من راحتي وراحة أسرتي لتحقيق راحة العامة ومصالح الناس وباختصار لقد تنازلت عن كل ما أحب مقابل كل ما اكره، ولكن بدون شكر أو امتنان بالمقابل سواء في الماضي أو في الوقت الحالي..."[1]. لقد كان من الصعب جدا على شخص بحجم جيفرسون أن يُنظر إليه بازدراء واستخفاف شديدين وان يحمل مسؤولية أخطاء السفير الفرنسي،لمجرد كونه يساند فكر الجمهورية الفرنسية، لذلك لم يتحمل كثيرا ذلك الموقف فقدم استقالته إلى الرئيس واشنطن بتاريخ الحادي والثلاثين من تموز عام ١٧٩٣ وقُبلت في كانون الأول من عام ١٧٩٣[2] لإكمال السنة المالية وإنهاء الحسابات الموسمية [3].

رابعاً: قضية الإبحار في المسيسبي

حاول جيفرسون في بداية عمله وزيرا للخارجية أن يحصل من اسبانيا على حق الملاحة في نهر المسيسبي الذي كان آنذاك يمثل الحد الغربي للولايات المتحدة الأمريكية، وأصر في الوقت نفسه على أن تتنازل اسبانيا عن نيواورليانز New Orleans إلى الولايات المتحدة الأمريكية[4]، ويكمن السبب الأساسي في ذلك في إدراك جيفرسون ان الفائدة الكبرى من التجارة ستأتي من التجارة الغربية التي يجب إن تتدفق بذلك الاتجاه ومن ثم يجب الحصول على حرية الملاحة في

---

(1) Quoted in , Peden&Koch , Op.Cit , PP. 523-525

(٢) تم تعيين ادموند جينينجز راندولف ليخلف جيفرسون في الوزارة وكان من الجمهوريين وقد سارع الفيدراليون لتلفيق تهمة له وهي استلام أموال كرشاوى لدفع السياسة الأمريكية في اتجاه فرنسا ولذلك اتهمه واشنطن بالخيانة، واغلب الظن انه كان بريئا، وكان تصرف واشنطن مع راندولف مثالا صارخا على ظلم واشنطن واخذ يتعرض لهجمات الصحف التي نددت بسياسته واتهمت واشنطن بصورة مباشرة بسحب أموال تتجاوز راتبه الحقيقي والميل إلى عقد اتفاقية مخزية مع بريطانيا وانه الأب غير الحقيقي لأمريكا ...الخ، للتفاصيل ينظر : Johnson , Op.Cit ,PP.111-112

(3) Peden &Koch , Op.Cit ,P. 526

(٤) برنارد مايو، المصدر السابق، ص ٢١٢

المسيسبي لضمان تلك التجارة[١].وقد توقع جيفرسون حدوث حرب بين بريطانيا واسبانيا، لذلك نشطت وزارة الخارجية الأمريكية لمحاولة الحصول على حق الملاحة في المسيسبي، وقام جيفرسون بخطوات جادة ووضع خطة لغرض الحصول على ميناء في الأراضي الاسبانية، وجاء في تقرير خاص عن ما اسماه جيفرسون "قضية المسيسبي" Mississippi Question عام ١٧٩٠. ان "حقوق مواطنينا في المسيسبي يجب أن تؤخذ إما بواسطة القانون الطبيعي أو بواسطة مفاوضات...إن نصف الإقليم الواقع في الولايات المتحدة هو مصدر مياه النهر وان مئتي ألف من مواطنينا قاطنون هناك ..."[٢]، ويفصل جيفرسون خطته ويقسمها إلى قسمين بعد طرح السؤال الأتي : كيف نكون أسياد الملاحة ؟ ويجيب في تقريره انه يمكن تحقيق ذلك عن طريق القوة أو المفاوضات[٣]، والمهم هو الحصول على حق الملاحة مهما كلف الثمن، لكن ذلك التقرير لم يلق آذاناً صاغية.

لم يتراجع جيفرسون عن مشروعه[٤] بالسيطرة على الملاحة في المسيسبي والحصول على ميناء في ضفته الغربية، وذلك وفق قاعدة استعمارية جديدة وهي انه يأمل "بان العالم الجديد يجب أن يسمن على حماقات العالم القديم"[٥] الذي لم

---

(1) Merrill D. Peterson , Thomas Jefferson and Commercial Policy , The William and Mary Quarterly, Third Series , Vol.22,No .4 (Oct, 1965) , P.602

(2) Quoted in ,Boyd , Op.Cit , Vol, 17, P. 113

(٣) للتفاصيل عن تلك الخطة ينظر : Ibid , PP. 113-116

(٤) في الحقيقة كانت الرغبة في السيطرة على الملاحة في المسيسبي وسيلة لتحقيق هدف جيفرسون الكبير وهو الاستيلاء على كامل الضفة الغربية للنهر وهي إقليم لويزيانا التابع لاسبانيا وقد حقق جيفرسون ذلك الهدف فيما بعد، حيث اشترى ذلك الإقليم بعد ان أصبح تابعا لفرنسا في عهد نابليون بونابرت عام ١٨٠٣ واتم جيفرسون تلك الصفقة بدون الرجوع الى الكونكرس الامريكي خشية عدم الموافقة على دفع مبلغ الشراء الذي بلغ خمسة عشر مليون دولار امريكي، وتمت العملية بدون مفاوضات طويلة فقد حسم الامر وعقدت معاهدة الشراء باقل من ثلاثة اسابيع، للتفاصيل عن شراء لويزيانا وموقف الكونكرس منه ينظر:

Milford F . Allen ,Thomas Jefferson and the Louisiana – Arkansas Forntier, The Arkansas Historical Quarterly, Vol. 2 , No.1 (Spring.1961), PP.39-64;

D.D..Wallace,Jeffersons Part in the Purchase of Louisiana, The Sewanee Review , Vol.19,No.3(Jul.1911)PP.328-338.

(٥) نقلا عن، برنارد مايو، المصدر السابق، ص ٢٢٦

يعد قادرا على إدارة مستعمراته في القارة الأمريكية،وانه يجب استغلال الخلافات الأوربية لتحقيق ذلك الهدف. ولما كانت بوادر الحرب بين بريطانيا واسبانيا قد لاحت في الأفق لم يكن بد من عمل سريع لاستغلال تلك الحرب لصالح الولايات المتحدة،لذلك نرى جيفرسون قد نشط سياسيا خلال شهر آب من عام ١٧٩٠. وعمل على التفاوض قبل وقوع الحرب مع الأطراف المتحاربة، وهي اسبانيا وبريطانيا، وفرنسا التي كان احتمال دخولها الحرب الى جانب اسبانيا أمراً شبه أكيد، ففي الثاني من آب عام ١٧٩٠ أرسل جيفرسون إلى وليام كارميشيل William Carmichael القائم بالأعمال الأمريكية في مدريد قائلا له " إن بوادر الحرب بين جارتينا اسبانيا وانكلترا تثير اهتمامنا الشديد فحالة عدم الاستقرار لنزاعنا مع اسبانيا قد تأخذ منحى مختلفاً جدا عما كنا نرغب، ومن المهم جدا أن تخبرنا وبصورة تامة عن الاتجاه الذي يجب أن نفكر به بخصوص هذا الموضوع"[١] ولما كان القائم بالاعمال يملك معلومات عن الأوضاع السياسية والاقتصادية الداخلية للبلد، كان عليه إيجاد وسيلة ضغط ليستخدمها جيفرسون لتحقيق هدفه، ثم يضيف قائلا :"أنت تعلم إن الملاحة لا تتحقق إلا بوجود مرفأ، وان الاتفاق على مرفأ مناسب تتمتع عملياته المعتادة بدرجة من الحرية يتطلب مفاوضات بناءا على ما ستقرره الحوادث. كما أن هناك خطراً آخر وهو محاولة إرسال مفاوض إلى هنا لان ذلك معناه القضاء على فرصة المفاوضة بحفظ السلام"[٢] لان إرسال مفاوض إلى الولايات المتحدة قد يؤخر المفاوضات ويعطي الأسبان فرصة للتفكير بالموضوع[٣] لذا عليه ان يطرق الحديد وهو حار، ولذلك أرسل إليه جيفرسون ممثلا عن الإقليم الغربي هو دافيد هومفريز David Humphreys، وطلب منه أن يتعاون معه للضغط على الحكومة الاسبانية والدخول معها بمفاوضات سريعة جدا[٤] لأجل الحصول على حق الملاحة

---

(1) Quoted in ,Boyd , Op.Cit,P.111

(2) Ibid, PP.111-112

(٣) جيفرسون هنا يتكلم عن حالة مستقبلية، فجميع توجيهاته بنيت على أساس قيام الحرب، أي انه على القائم بالإعمال التصرف وفق هذه الخطة في حالة قيام الحرب المفترضة.

(4) Ibid , P.111

والمرفأ المفترض في نيو اورليانز، اعتقاداً منه بانها ستكون مستعدة لقبول أي عرض لأجل الحصول على الحياد الأمريكي في الحرب المفترضة التي كان جيفرسون مؤمناً بوقوعها لدرجة انه يبلغ القائم بالأعمال بالآتي :ـ" إننا نطالب بهذه الأمور بحرارة وعزم مدفوعين بفكرة إن الحرب بين اسبانيا وبريطانيا ستبدأ قبل إن تتسلم هذا الخطاب وان مثل هذه اللحظة يجب أن لا نضيعها "(١).

أما في حالة عدم وقوع الحرب وتوصل بريطانيا واسبانيا إلى اتفاق،وهذا ما حدث فعلا، فهل على القائم بالإعمال عدم إثارة الموضوع'؟ يجيب جيفرسون عن هذا السؤال قائلا" إن حدث اتفاق بينهما فإننا نحتفظ بهدفنا نفسه وبالقرارات نفسها دون أي تغيير ولكن عليك بتلك الحالة إن تتبع الحكمة وان تطالب بأهدافنا بأسلوب لين وان يطغى الصبر والمودة على مناقشاتك حتى ينشأ ظرف آخر قد يمكننا من استعمال وسيلة أخرى لبلوغ هدفنا فنحن مصممون في النهاية على الحصول عليه مهما كلفنا الأمر من مخاطر"(٢). بعبارة أخرى إن جيفرسون كان يحاول الاصطياد بالماء العكر لتحقيق أهداف السياسة الأمريكية بالتوسع غربا.

أما بخصوص فرنسا فقد أعطى جيفرسون تعليماته إلى السفير الأمريكي في باريس وليام شورت، وقد وصلت التعليمات إلى شورت في العاشر من آب ١٧٩٠، وبنيت تلك التعليمات على أساس الحرب المفترض وقوعها بين بريطانيا واسبانيا، لان فرنسا ستنجر إلى تلك الحرب بوصفها حليفاً وعلى الأغلب ستكون حليفة لاسبانيا، وفي تلك الحالة فان فرنسا ستطلب من اسبانيا تقليل عدد أعدائها(٣)، ويقصد جيفرسون بذلك أن فرنسا ستطلب تحييد الولايات المتحدة بتلك الحرب، وبهذا الخصوص يقول جيفرسون ما نصه " لن نستطيع الشك في أننا سوف نكون من بين ذلك العدد إن هي لم تسلم بحقنا في الاستعمال الحر للمسيسبي ووسيلة استعماله وضمانه"(٤) أي إن بلاده لن تكون محايدة ما لم تحصل على حرية الملاحة في المسيسبي، وليس هذا فحسب بل إن ثمن الحياد الأمريكي أغلى بكثير

(1) Quoted in , Boyd , Op.Cit , P.112
(2) Ibid, , P. 112
(3) Ibid, P.121
(4) Ibid , P. 121

فلن تكون حرية الملاحة وحدها كافية بل يجب الحصول على ميناء قريب من مصب النهر، على أن لا يكون ذلك الميناء تابعا لإقليم تابع لاسبانيا بل :-"نؤكد ضرورة انفصاله انفصالا تاما عن أقاليم اسبانيا ودائرة سلطانها حتى نتفادى خلق المنازعات والمخاصمات اليومية التي سوف تنتهي بالحرب بيننا"(١). ومن الملاحظ هنا أن جيفرسون في خطاباته يتحدث وكأن أمر الحصول على حرية الملاحة وميناء ومن ثم إقليم سيحدث فعلا، والحقيقة أن خطته كانت قابلة جدا للتنفيذ لو أن الحرب وقعت فعلا فلن يكون أمام اسبانيا حينها إلا الحصول على الدعم الأمريكي أو حيادها في الحرب، لأنها إن لم تحصل على الحياد الأمريكي فسيكون عليها مواجهة القوات البريطانية على طول حوض نهر المسيسبي، وستكون خسارتها في الحرب شبه أكيدة لان أسطولها لا يمكن أن يصمد أمام الأسطول البريطاني ومن ثم ستكون معرضة للهزيمة المنكرة وخسارتها لمعظم حوض نهر المسيسبي، وهذا ما كان يعلمه جيفرسون ويقدره، لذا فأن تنازلها عن إقليم واحد سيحمي بقية الأقاليم من سيطرة الاحتلال البريطاني لها، فحينها لن تستطيع القوات البريطانية الدخول إلى تلك الأقاليم من جهة الحدود الشرقية، ولو خسرت اسبانيا الحرب ستكون تلك الأقاليم مؤمنة لعدم قدرة القوات البريطانية على الدخول إليها.

لم يترك جيفرسون شيئا للصدفة أو ما ستقرره الأحداث لاحقا بل رسم خطة محكمة حدد معالمها ووسائل تحقيقها، وحدد المنطقة التي يريد سلبها من اسبانيا، مدعيا أنها ضمن الجغرافية الطبيعية للولايات المتحدة وهي إقليم نيواورليانز. وجاء ذلك التحديد برسالته السالفة الذكر لوليام شورت، فقد قال "لقد قررت الطبيعة ما سوف تكون عليه جغرافية ذلك [الإقليم] في النهاية مهما كان في البداية بما قامت به من قطع شريط طويل ضيق من الأرض يسمى جزيرة نيواورليانز وفصله عن الإقليمين المجاورين فلوريدا ولويزيانا، وان فكرة التنازل عن هذه الجزيرة لا يمكن أن تترك لتصرف اسبانيا وحدها فلن تقبل ذلك لأول وهلة لان هذه الجزيرة بمدينتها تكون في الوقت الحاضر موطن استقرارهم الرئيس، ومع

(1) Quoted in , Boyd , Op.Cit , P. 121

ذلك فان العقل والحوادث قد تعودهم قبول هذه الفكرة شيئا فشيئا"[1]. ومع اعتراف جيفرسون بان تلك الجزيرة هي موطن استقرارهم الرئيس ألا انه يصر على أن الطبيعة حددت معالم تلك الجزيرة سابقا فلا تفصلها حدود طبيعية عن الولايات المتحدة بل إنها امتداد طبيعي لها، لكنه لم يلتفت إلى واقع استقرار الناس في ذلك الإقليم وكيف يمكن انتزاع ارض من أناس قاطنين فيها فعلا ؟ فهل يشفع القانون الطبيعي لسلب الناس أرضهم ؟ هذا ما لم يهتم به جيفرسون فمصلحة بلاده فوق كل الاعتبارات والحقوق الطبيعية للناس التي طالما نادى بها لكنها حقوقٌ للأمريكيين فقط وغيرهم ليس لديهم حقوق .

من جهة أخرى كان لابد من متابعة الموقف البريطاني، ولاسيما ان بريطانيا لم يكن لها سفير في الولايات المتحدة[2]، وقد ناط جيفرسون مهمة متابعة الموقف البريطاني بالقائم بالأعمال الأمريكي في لندن جوفرنيور موريس[3]، وبدأت بريطانيا آنذاك بالتحرك نحو إقامة علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة لتوتر الوضع مع اسبانيا، فأرسل جيفرسون إلى موريس في الثاني عشر من آب عام ١٧٩٠ رسالة وضح فيها تعليماته بشأن التعامل مع بريطانيا بصورة عامة وفيما يتعلق بموضوع المسيسبي بشكل خاص، ومما جاء في تلك التعليمات " إنهم يتحدثون عن تبادل سفير وعقد معاهدة تجارية وحلف وإذا كان غرض الاقتراح نزيها فهو غير مفيد أما إذا كان غير نزيه فهو غير مقبول. وتثبت اتصالاتهم أنهم يرون أن قيام الحرب أمر ممكن وتدل بعض الدلائل على وجود تدبيرات ضد الممتلكات الاسبانية المجاورة لنا وان نتائج حصولهم على جميع الأقاليم على حدودنا من سانت كروكس St. Croix إلى سانت ماري St. Mary's تبدو واضحة وضوحا لا يحتاج إلى شرح، وسوف ترى مباشرة الآخطار التي ستحيط

---

(1) Quoted in, op cit, P.122

(٢) كان الرائد جورج بيكويث George Beckwith يقوم بالأعمال البريطانية في الولايات المتحدة وبصفة غير رسمية وكان جيفرسون يرفض التعاون معه باعتباره مندوباً غير رسمي، لكن بيكويث كان يتعامل مع الكسندر هاملتون فيما يتعلق بالشؤون الخارجية البريطانية والمقيمين الانكليز، ينظر،
Lisitzky , Op.Cit , P. 89

(٣) حل محل وليام شورت فيما بعد ليصبح السفير الأمريكي في باريس

بنا في تلك الحالة.نحن نرغب في أن تخبرهم بأننا لا نستطيع أن نقابل مشروعات من هذا النوع بعدم الاكتراث وأننا سننظر إلى تغير جيراننا بقلق عظيم .نحن نرغب بالحياد وسوف نكون محايدين إذا نفذوا المعاهدة [يقصد معاهدة ١٧٨٣] بنزاهة ولم يحاولوا القيام بغزوات مجاورة لنا"[١]. كان جيفرسون على حق فيما يتعلق بنزاهة الاتصالات البريطانية لغاية إقامة علاقات دبلوماسية فبريطانية كانت لا ترغب بمثل تلك العلاقات، لكنها اضطرت لذلك بسبب الحرب المحتملة مع اسبانيا، ومع ذلك فان جيفرسون يصر على بيع الحياد الأمريكي لأي دولة تمنحه المسيسبي فانه مستعد للتعاون مع بريطانيا في حال تنفيذ معاهدة ١٧٨٣ التي تضمن حرية الملاحة في المسيسبي للولايات المتحدة .

وعلى الرغم من عدم وقوع الحرب المفترضة لم يترك جيفرسون مشروعه، لكن سياسته تجاه تلك القضية تغيرت فبدأ ينظر للأمر بوصفه قضية جغرافية توافق القانون الطبيعي وجاءت تلك الأفكار بتقرير كتبه في الثامن عشر من آذار عام ١٧٩٢ بعنوان "وثائق حول حقوق الملاحة في نهر المسيسبي" وقد بنى جيفرسون ادعاءاته على أساس القانون الطبيعي وقانون الأمم، كما جاء في مقدمة التقرير[٢]، إذ إن الأنهار الموجودة في العالم هي لجميع الساكنين عليها وطبقا لذلك فان"كل شبر في ارض البلاد الممتدة بنفس المجتمع السياسي ...يكون لاولئك السكان وعندما تدخل الأنهار في حدود مجتمعات أخرى تكون عائدة لتلك المجتمعات "[٣] أما إذا اخذ مجتمع ما في أعلى النهر حق التصرف بالنهر من أعلاه إلى أدناه فان ذلك يدلل على سيطرة المجتمع القوي على الضعيف وهذا ما يؤدي إلى الاستنكار من الإنسانية جمعاء[٤]، وهذا كلام جميل ولا يختلف عليه اثنان، ولكن اسبانيا لا تسيطر على نهر المسيسبي من أعلاه إلى أدناه، ويذكر جيفرسون ذلك ويقول إن الولايات المتحدة تسيطر على ستمائة ألف ميل مربع من

(1) Quoted in , Boyd , Op.Cit ,P.127
(2) Paper on rights to navigate the Mississippi , March 18 , 1792, Peden&Koch , Op.Cit, P. 316
(3) Ibid , P.316
(4) Ibid, P. 317

الأراضي المسكونة على النهر وفروعه وروافده[١]، فما قصد جيفرسون إذن ؟ وقبل الإجابة عن هذا السؤال علينا أن نعرف أن نهر المسيسبي يفصل الأقاليم الأمريكية لتكون شرقه والأقاليم الاسبانية لتكون غربه، زيادة على وجود إقليم نيواورليانز الواقع عند مصب النهر، وهو تابع إلى اسبانيا بضفتيه، أي إن السكان الأمريكيين في الضفة الشرقية من النهر يحملون منتجاتهم وبضائعهم عبر النهر بدون أي صعوبة أو ضريبة ولكن عند مصب النهر(يصب المسيسبي في خليج المكسيك) يجب إن يدفعوا ضريبة لإيصال تلك المنتجات إلى البحر حيث ميناء نيواورليانز التابع لاسبانيا، إذن تكون الإجابة على السؤال هو إن جيفرسون عدّ من حق السكان القاطنين عند أعلى النهر استخدام أسفله، وبهذا الصدد يذكر في تقريره " أن هذه الأجزاء الواسعة التي تقع في الحدود الأمريكية حيث لا توجد منافذ لمنتجاتهم خاصة وان تلك المنتجات من النوع الضخم جدا والمتراكم ...وان الممر الخاص بهم يقع في الطرف الجنوبي من النهر ... إن الأهمية والمصلحة الحقيقية لجميع السكان سواء كانوا في أعلى النهر أو أدناه، تؤكد حقيقة أن لكل جزء من هؤلاء السكان حقاً في النهر سواء كان في أعلى النهر أو أسفله"[٢] .

أما بشأن الاتفاقيات والمعاهدات والمواثيق الدولية المتعلقة بهذا الموضوع، فان جيفرسون يصر على احترامها، لان الولايات المتحدة قد عقدت معاهدات بشان الملاحة بنهر المسيسبي مع فرنسا قبل أن تصبح الضفة الغربية للنهر من الممتلكات الاسبانية[٣]، وسواء عقدت تلك المعاهدات والاتفاقيات من ولاية معينة أو وكالة معينة أو مجلس أو من يمثل السكان آنذاك فإنها لا تعد باطلة بسبب الاتحاد كما لا تعد باطلة بسبب تغير المالك من الجهة الأخرى وأخيرا فهي لا تعد باطلة بسبب تغير النظام الذي تم عقد المعاهدة معه، وذلك إشارة إلى تغير النظام الفرنسي من الملكي إلى الجمهوري، فجيفرسون يؤكد أن الشعب في تلك الأقاليم لم

---

(1) Paper on rights to navigate the Mississippi , P.317

(2) Peden&Koch , Op.Cit, P.317

(٣) أصبحت تلك الأقاليم ملكا لاسبانيا بعد انتهاء حرب السبع سنوات عام ١٧٦٣، ينظر : الان نفيز المصدر السابق، ص ٧٤

يعقد معاهدة مع لويس بل عقدها مع فرنسا[١]، وان ذلك كله هو ضمن "القانون الأخلاقي لطبيعتنا"[٢]. وإذا كان الحديث عن المصالح الأمريكية فان جيفرسون يتملص بكل بساطة من ربوبيته،ومن تلك الاتهامات التي ساقها لهم في قانون فرجينيا للحقوق الدينية[٣]، المهم ان جيفرسون شرح في تقريره المقصد من القانون الأخلاقي للطبيعة البشرية، مؤكداً:ـ" أن القانون الأخلاقي الذي يخضع له الإنسان من قبل خالقه وجزء منه ضميره ومشاعره هو عبارة عن مشاهد ودلالات وضعها الخالق في البشرية ...وان الواجبات الأخلاقية بين الإفراد والآخرين في حالة الطبيعة سترافقهم إلى حالة المجتمع "[٤] أي ان العلاقات بين الأفراد تبنى على مشاعر وواجبات الفرد تجاه الأخر وهي من وضع الخالق، وان تلك العلاقات تنتقل لتطبق على المجتمعات، وبناءً عليه فان "مابين مجتمع وآخر توجد واجبات أخلاقية...ولكن في حالة عدم وجود مجتمع او تنظيم اجتماعي ... حينئذ يكون الاتفاق أو الميثاق بين دولة وأخرى ويكون ملزماً لكلا الطرفين كما هو الحال بالنسبة إلى الالتزامات الموجودة بين الأفراد أنفسهم وبالقانون الأخلاقي نفسه "[٥] وخلاصة ما أراد جيفرسون قوله إن المنطقة تخضع لقانون الجغرافية الطبيعية ولا يمكن فصل بعضها عن بعض بأي حدود مصطنعة تضعها السلطات المتعاقبة على حكم تلك المنطقة وتقسمها وفق ما تشاء، وان حدث ذلك فانه يعارض القانون الطبيعي الأخلاقي الذي وضعه الله تعالى في تحكمه بالعلاقات الإنسانية والجغرافية الطبيعية وهذا يخالف تماما نظرة الربوبيين.

---

(1) Ibid , PP. 317-318
(2) Ibid , P.318

(٣) يراجع الفصل الثالث

(4) Peden&Koch , Op.Cit , P. 318
(5) Ibid, PP. 318-319

جيفرسون نائبا للرئيس جون آدمز ١٧٩٦ ــ ١٨٠٠

بعد استقالة جيفرسون من منصبه وزيراً للخارجية، عاد إلى بيته في مونتسليو وبدأ يهتم بأوضاع مزرعته، وقال انه اعتزل الحياة السياسية بصورة كاملة ولم يعد يرغب بأي عمل سياسي من شأنه أن يعكر صفاء ذهنه، وكتب إلى آدمز في الخامس والعشرين من نيسان عام ١٧٩٤، قائلا:ــ" أنني سأعود إلى حقلي ومزرعتي التي لم أتمكن في شبابي من الاستمتاع بهما، كما استفاض حبي للدراسة فبدلا من كتابة عشر رسائل أو اثنتي عشرة رسالة في اليوم كما تعودت فعله بطبعي فاني أؤجل الإجابة على رسائلي على نهج الفلاحين حتى يأتي يوم ممطر... وأظن أن مونتان Montagne هو الذي قال إن الجهل انعم وسادة يستطيع الإنسان أن يسند رأسه عليها واني متأكد من أن هذا الكلام صحيح بالنسبة لكل شيء سياسي وسأحاول أن ابعد نفسي عن كل شيء من ذلك النوع "[١]، ولكنه على الرغم من ذلك التصريح كان يتدخل بالأمور السياسية ولو من بعيد ونستطيع لمس توجيهاته وإرشاداته إلى ماديسون وغيره من الجمهوريين طوال السنتين التي قضاها في مونتسليو، فهو لم يكف عن التدخل بالشؤون الخارجية ولاسيما فيما يتعلق بفرنسا فتراه يصرح في الأول من مايس عام ١٧٩٤ قائلا:" إني مقتنع تماما بان الفرنسيين سيحققون نصرا كاملا على القوى الأجنبية، والنتيجة فضيحة الطغاة والمستبدين الغزاة وذلك كفيل باشعال نار من سخط الشعوب الأوربية ضد أولئك الذين يجلبون الشرور وان يرسلوا في النهاية الملوك والنبلاء والقسس إلى المشانق التي غمروها طويلا بالدم الإنساني ... ولعمري مازلت اشعر بالحرارة كلما فكرت في هؤلاء الأوغاد"[٢] .

لم يستطع جيفرسون السكوت وهو يرى كيف تتطور الأحداث السياسية الدولية والحرب على فرنسا، وتحيز الفيدراليون إلى بريطانيا والسعي لعقد معاهدة معها، لذلك فان ما يعلنه السياسيون الأمريكيون من أنهم يحاولون تجنب الحرب

---

(1) Ford , Op.Cit .PP.144- 145
(2) Quoted in , Peden&Koch , Op.Cit , PP. 528-529

وعدم الدخول فيها امر صحيح ولكن يجب عدم السكوت على حساب العقيدة والإيمان والكرامة، ولاسيما أن الرأي العام الأمريكي اخذ يشعر بان كرامته بدأت تتداس وان الشعب مستعد " لتحقيق واستعادة السيادة والكرامة ولو من خلال الحرب إذا ما تطلبت الضرورة"[1]. ورغم إعلانه دائما انه رجل سلام ولكن السلام لا يتحقق عندما يكون على حساب معتقدات الإنسان ومبادئه وكرامته، ومع ذلك فان الناس يشعرون بشكل كبير بانهم منهكون من الحرب وإنهم اخذوا يهتمون بشؤونهم الخاصة أكثر من أي وقت سبق بسبب الأذى الذي لحق بهم أيام الحرب الأولى، لذلك فمن الأفضل إن تقوم الحكومة بقطع جميع الاتصالات والعلاقات مع الدول التي تتعامل بوحشية وتتصرف بأعمال شريرة تجاه الأخرين[2]، والآخرون هنا هم الفرنسيون .

وعند قيام الحكومة بالتعرض إلى الجمعيات الديمقراطية المنتشرة بكثرة في الولايات المتحدة واتهامها بأنها مشابهة لنوادي اليعاقبة في فرنسا، وإنها قامت بالتحريض خلال ما عرف بالتاريخ الأمريكي بثورة الويسكي[3]، وقيام الحكومة بإرسال خمسة عشر ألف جندي بقيادة هاملتون لسحق تلك الثورة ، ثار جيفرسون

(1) Quoted in , Peden&Koch, P. 529
(2) Peden&Koch , Op.Cit , P. 529

(٣) ثورة الويسكي : نتجت ثورة او عصيان الويسكي نتيجة ضريبة الإنتاج التي أصدرها هاملتون عام ١٧٩١، وكان المزارعون من أهالي ولاية بنسلفانيا وفرجينيا وكارولينا الشمالية يعجزون عن نقل منتجاتهم من الحبوب بسبب وعورة الطرق، فبدوا شيئا فشيئا بتقطير حبوبهم وتحويلها إلى مشروب (الويسكي) لسهولة نقله وبيعه، وكان هؤلاء يصنعون الويسكي في البيوت وبالتالي فان القانون لا يعفيهم من الضريبة كما يعفي اصطحاب المعامل الكبيرة لتشجيع الصناعة، وفي عام ١٧٩٣ هاجم الفلاحون الغاضبون مندوبي الحكومة لجمع الضرائب وقاموا بقتل احدهم بطريقة بشعة، وكان عدد أولئك الفلاحين ثلاثة آلاف ثاروا ضد القانون، فجهز واشنطن جيشاً تعداده ١٥٠٠٠ ألف مقاتل اغلبهم من الطبقة الارستقراطية التي رأت في الثورة تهديدا لمصالحها، وتم سحق الثورة بسرعة، ومن الملاحظ ان عدد الجيش الذي استخدمه واشنطن مقارب لذلك العدد الذي استخدمه للتغلب على اللورد كورنواليس عام ١٧٨١، ومن الجدير بالذكر ان الفلاحين كانوا متأثرين الى حد بعيد بالثورة الفرنسية، حتى ان قادة الثورة أطلقوا على أنفسهم " لجنة الأمن الشعبي" وفق تسمية اليعاقبة في فرنسا لما استلموا الحكم، للتفاصيل ينظر:

كلود جوليان، المصدر السابق، ص ١٧٨-١٨٠ ; Hitchens, Op.Cit, P.106

لهذه الإجراءات القمعية التي لا تمت للنظام الديمقراطي بأي صلة، وكتب خطابا إلى ماديسون تعرض فيه لشخص الرئيس واشنطن وكانت تلك المرة الأولى التي ينتقد فيها جيفرسون الرئيس واشنطن ولم تكن الأخيرة. ومما جاء في خطابه المرسل في الثامن والعشرين من كانون الأول عام ١٧٩٤ "إن شجب الجمعيات الديمقراطية هو احد الأعمال الجريئة التي رأينا صدور الكثير منها من قبل عصابة الاستبداديين وانه لأمر عجيب حقا أن يسمح الرئيس لنفسه بان يكون أداة لمثل هذا الهجوم على حرية المناقشة والكتابة والرأي والطبع والنشر "[١] ثم استنكر تلك الازدواجية في التعامل مع الجمعيات الديمقراطية ومع جمعية السينسيناتي Cincinnati[٢] التي ينتمي إليها الكسندر هاملتون، وزاد قائلا:—"إن الفاصل الذي يريدون وضعه بين الجمعيات الديمقراطية التي يقوم هدفها على تغذية المبادئ الجمهورية في دستورنا وبين جمعية سينسيناتي، وهي جمعية خلقت نفسها بنفسها[٣] ووضعت لنفسها امتيازات وراثية، ويقلل أعضاؤها دائما من شأن دستورنا ويجتمعون معا في جميع أجزاء الاتحاد الأمريكي خلف أبواب مغلقة ويجمعون رأس مال في خزانتهم الخاصة ويتبادلون الرسائل سرا وبانتظام وأشخاصها الذين يتهمون الديمقراطيين هم أنفسهم آباء الاتحاد الأمريكي ومؤسسوه وضباطه الكبار"[٤]، يبدو من تلك الرسالة أن جيفرسون كان حانقا بشدة على الفيدراليين وعلى الرئيس جورج واشنطن الذي اخذ يدور في فلكهم وعلى جمعيتهم

---

(1) Quoted in , Ford , Op.Cit, P156

(٢) جمعية السنسيناتي : وهي جمعية كونها كبار الضباط الارستقراطيين الذين شاركوا بحرب الاستقلال ومن ضمنهم الكسندر هاملتون، وحددت أهداف الجمعية في بيان أصدرته خلال شهر أيار من عام ١٧٨٣ وهي ((الدفاع عن الحقوق التي قاتلوا من اجلها وتدعيم وحدة الولايات والشعور القومي الذين لا بد منهما لسعادة الإمبراطورية الأمريكية ومكانتها في المستقبل والمحافظة على الود والصداقة التي توحد الضباط))، وكان لتلك الجمعية دور بارز في الدفاع عن مشروعات هاملتون المالية ومن ثم المشاركة بالقضاء على ثورة الويسكي، للتفاصيل ينظر، كلود جوليان، المصدر السابق، ص ٦٨– ٦٩

(٣) اشارة الى ما أورده الرئيس واشنطن ضد تلك الجمعيات الديمقراطية التي قال عنها انها خلقت نفسها بنفسها، كما أعلن الكسندر هاملتون وجون آدمز نفس الشيء، لذلك أصبحوا يطلقون عليها اسم ((الجمعيات التي خلقت نفسها بنفسها))، ينظر: Hitchens , Op.Cit, P. 106

(4) Quoted in , Ford , Op.Cit , PP.156- 157

التي كانت تجمع المال من الضرائب المفروضة على الشعب، لتكون عروشا ملكية كانوا قد انبهروا بـ" تلألؤ تيجانها"(١)، وندد بما تفعله الحكومة من أعمال كبت ضد أصدقاء الحرية، وفي المقابل تسمح " لأولئك الذين يريدون قصر تلك الحرية على القلة بان يستمروا في مبادئهم وأعمالهم "(٢).

وفي أثناء قمع ثورة الويسكي كان المفاوض جون جاي الذي أرسله الرئيس واشنطن للتفاوض بشان معاهدة مع بريطانيا، يوشك أن يوقع تلك المعاهدة وقد وقعها فعلا وذلك في العشرين من تشرين الثاني عام ١٧٩٤(٣) ،وما إن أعلنت بنودها حتى اشتعلت الجماهير غضبا على تلك البنود، وكتب جيفرسون يصف المعاهدة قائلا "إني أرى تلك المعاهدة شيئاً لعيناً ... وهي ليست أكثر من معاهدة تحالف بين انكلترا وأتباعها في هذه البلاد وهي ضد الهيئة التشريعية وضد شعب الولايات المتحدة "(٤)، وبالطبع لم يقبل جيفرسون تلك المعاهدة ومن ورائه الجمهوريون الغاضبون الذين أطلقوا عليها معاهدة كرنفيل(Grenville) Treaty، اشارة الى أنها معاهدة كتبها الانكليز لأنفسهم وهي تضمن مصالحهم وليس للولايات المتحدة أي نفع منها، في حين أطلق عليها الفيدراليون بمعاهدة جاي(٥)،وزاد التناحر السياسي بعد عقد تلك المعاهدة وبدت المعارك الحزبية على أوجها في الولايات المتحدة، وكتب جيفرسون يقول "إن أشهر حدث سياسي هو عقد المعاهدة مع بريطانيا التي لا يوجد أي رجل في الولايات المتحدة يملك من الوقاحة ما يؤكد معه أنها ليست سيئة جدا سوى الكسندر هاملتون ...ان عملاء

(1) Quoted in , Ibid, P.157
(2) Ibid ,P. 157
(٣) نصت تلك المعاهدة على السماح للولايات المتحدة بممارسة التجارة الحرة مع جزر الهند الشرقية البريطانية، كما سمحت بالتجارة الحرة والملاحة للانكليز في المسيسبي، وتم تسوية الدعاوي المتعلقة بالصراعات السابقة (دعاوي الملكية والديون التجارية والخسائر المتعلقة بتلك الدعاوي) وكانت في مصلحة المدينين الانكليز، كما نصت على إخلاء البريطانيين لقواعدهم في الشمال الغربي الأمريكي، ولم تشر المعاهدة إلى التجاوزات المتكررة للبحرية البريطانية على السفن الأمريكية ومصادرتها مع حمولاتها وبحارتها، للاطلاع على تفاصيل المعاهدة ينظر، Macdonald, Op.Cit , PP.114-129
(4) Quoted in , Ford , Op.Cit , To Edward Rutledge , Nov 30.1795,P.199
(5) Bowers ,Op.Cit, P. 269

الانكليز نجحوا في النهاية في إبرام معاهدتهم وانتصروا من هذه الناحية على قضية النظام الجمهوري، إلا انه انتصار اشتروه بثمن غالٍ"[١].

إن تصريحات جيفرسون غالبا ما كانت توقعه في مآزق خطيرة وان كان بعيدا عن المناصب السياسية لكنه عُدَّ إلى حد كبير زعيما للجمهوريين، وإذا كان حديثه عن عملاء الانكليز الذين وقعوا المعاهدة مع بريطانيا، قد تم التغاضي عنه، إلا أن رسالته إلى صديقه وجاره في مونتسليو الايطالي فيليب مازي Philip Mazzei الذي كان مزارعا خبيرا في زراعة العنب وتاجرا وفيزياويا ومؤرخا[٢]، أي إن شخصيته كثيرة الشبه بشخصية جيفرسون الى حد بعيد، سببت له حرجا كبيرا في الأوساط السياسية واستغلها معارضوه للطعن فيه، وكان مازي في ايطاليا حينما أرسل له جيفرسون الرسالة في الرابع والعشرين من نيسان عام ١٧٩٦، وكانت تلك الرسالة تشرح الوضع السياسي الداخلي للولايات المتحدة، ويقول فيها جيفرسون إن السياسة قد تغيرت تغيرا عجيبا فبدلا من حب الحرية والحكومة الجمهورية التي نشأت أيام حرب الاستقلال، ظهر الآن حزب أنجيلي ملكي ارستقراطي هدفه المعلن تطبيق روح الحكومة الانكليزية"[٣]. وطبعا المقصود هو الحزب الفيدرالي، والى الان الحديث لا يشكل مخاطرة سياسية لكن جيفرسون انتقل إلى الحديث عن الرئيس والهيئات الحاكمة لأن ذلك الحزب قد ضم الرئيس والسلطة القضائية والهيئة التنفيذية والتشريعية و"جميع موظفي الحكومة وجميع الذين يريدون أن يكونوا موظفين وجميع الجبناء الذين يفضلون هدوء الحكم الاستبدادي على بحر الحرية الصاخب والتجار البريطانيين والأمريكيين الذين يتاجرون برأس مال بريطاني والمضاربين وأصحاب الأسهم في البنوك ...الخ"[٤] وبهذا يكون جيفرسون قد أعطى وصفا سوداويا لحكومة واشنطن، فقد عد الجميع عملاء للانكليز، واذا استثنينا صفة العمالة من احد فان صفة الجبن قد الصقها جيفرسون بالجميع، وكأن ذلك الوصف لم يكن كافيا فقد أضاف جيفرسون قائلا "

---

(1) Quoted in , Ford , Op.Cit , PP.199-200
(2) Randal ,Op.Cit , Vol , II , P.269
(3) Quoted in , Ford , Op.Cit , P. 236
(4) Ibid , PP. 236-237

سوف تصيبك الحمى لو أنني أطلعتك على أسماء أولئك الزنادقة الـذين تطـاولوا بتلك الهرطقة والبدع، ففي ساحة المعركة هم أقوى من شمشون Samson وداخل المجلس هم في حكمة سليمان، ألا أن تلك الفاجرة التي تدعى انكلترا قـد حلقـت رؤوسهم، لذلك علينا أن نحافظ على الحرية التي أكتسبناها ولكن لا بد من أن نبذل جهدا اكبر وسوف نتعرض لمخاطر لا تنتهي لكننا سنحافظ عليها، وإذا أردنا ذلـك فعلينا أن نستيقظ ونخطف جبال ليليبوتن Lilliputian التي حصرونا فيهـا فـي أثناء نومنا الذي أعقب جهودنا"(١)، فمن هم الزنادقة ؟ لا شك أن جيفرسون كـان يقصد الرئيس ونائبه ووزير ماليته، وهكذا فُهمت تلك العبارات فيما بعد، فقد اخـذ مازي رسالة جيفرسون وترجمها إلى الايطالية ونشـرها فـي إحـدى الصـحف الايطالية في مدينة فلورنسا، وحصلت صحيفة فرنسية على النص وقامت بترجمته ونشرته وأخيرا وصل النص إلى صحيفة بريطانية فترجم إلى الانكليزيـة ونشـر وهكذا انتقل النص إلى الولايات المتحدة حيث نشر هناك، وقد اسـتغل معارضـو جيفرسون تلك الرسالة أبشع استغلال وعدّهُ عبارة "الزندقة والهرطقـة وعمـلاء الانكليز" كلها موجهة إلى شخص الرئيس واشنطن(٢).

إن تغير نبرة جيفرسون بالحديث التي أصبحت حادة أكثر مـن أي وقـت مضى كانت تدل على انه عازم على الرجوع إلى الحياة السياسية مرة أخرى رغم إعلانه السابق بأنه سيبقى معتزلا السياسة وانه يتمتع بالجو الهادئ فـي مزرعتـه وبين أحضان أسرته، وكان هذه المرة مضطرا فعلا للعودة للحياة السياسية، كيـف لا وهو يرى المبادئ والأهداف التي دافع عنها لخلق امة ديمقراطية تقـدر معنـى الحرية وتطبقها، تبتعد شيئا فشيئا عـن تلـك الأهـداف، كمـا أن تلـك الطبقـة الارستقراطية المتعجرفة التي كافح دهرا طويلا لإبعادها عن مسك زمام السـلطة والحكم، قد عادت من جديد وصعدت على أكتاف الحزب الفيدرالي لتمسك بزمـام الأمور وتجيّر أجهزة الدولة لمصالحها الذاتية، وما لـم يعـد مقبـولا ولا يمكـن السكوت عليه تطاول تلك الفئة للسيطرة على سياسة البلـد الخارجيـة ومحاولـة

(1) Quoted in , op cit, P. 237
(2) H.A. Washington, The Writings of Thomas Jefferson , New York 1857 , Vol.II, PP. 364-366

إغراق سفينة الحرية التي انطلقت بها الثورة الفرنسية ورجالها لتبشر بزوال الأنظمة الملكية المتهرئة، التي يدافع عنها الفيدراليون ويحاولون إعادتها لحكم الولايات المتحدة. ومن هذه المنطلقات قرر جيفرسون العودة الى الحياة السياسية، زيادة على انتهاء مدة حكم الرئيس جورج واشنطن وإعلانه بخطاب الوداع في التاسع عشر من أيلول عام ١٧٩٦ انه لن يقبل ترشيحه لولاية ثالثة[١].وعلى الرغم من كونه مؤيدا للسياسات الفيدرالية، انه ومن خلال عدم ارتباطه بأي حزب كان يمثل عصا سليمان التي كانت صمام الأمان للجميع،وما إن سقطت حتى شعر الجميع بأنهم على أبواب عصر جديد، تمثل بالصراع الداخلي على السلطة مع تبلور أفكار الأحزاب السياسية وانقسام الشعب تبعا لأهداف ومبادئ تلك الاحزاب.

اختار الفيدراليون جون آدمز مرشحا لرئاسة الجمهورية، وكان على الجمهوريين اختيار مرشح بكفاءة آدمز ليكون قادرا على هزيمته بالانتخابات،وكان جيفرسون الشخصية الوحيدة القادرة على منافسة آدمز، لكنه كان يعتقد ان تقديم جيمس ماديسون للترشح عن الجمهوريين أفضل من أن يرشح هو شخصيا، لان ماديسون رئيسٌ للحزب الجمهوري، لكن الجمهوريين فضلوا ترشيح جيفرسون بوصفه الوحيد القادر على مواجهة سياسات هاملتون الذي يتمتع باحترام واسع بين الفيدراليين[٢]، وكان نظام الانتخابات الرئاسية مبنياً على أساس تقديم مرشحين احدهما لشغل منصب الرئيس وآخر لشغل منصب نائب الرئيس، ويكون لأعضاء الهيئة التشريعية في الولايات الحق بالانتخاب على أن يدلي كل عضو بصوتين بشرط أن يكون احد الصوتين لمرشح من ولاية أخرى، وبعد إجراء الانتخابات حصل جون آدمز على ٧١ صوتاً وتوماس جيفرسون على ٦٨ صوتاً وحصل المرشح الفيدرالي توماس بنكني Thomas Pinckney الذي رشح لشغل منصب نائب الرئيس على ٥٩ صوتاً في حين حصل المرشح الجمهوري ارون بور Aaron Burr الذي رشح لشغل منصب نائب الرئيس على ٣٠ صوتاً، وقد ادت

---

(١) كتب خطاب الوداع كما تحلو للمصادر الأمريكية تسميته ،الكسندر هاملتون ونشر في صحيفة American Daily وللاطلاع على نص الخطاب ينظر: Johnson ,Op.Cit PP.115-116

(2) Mark O.Hatfield ,With the Senate Historical Office. Vic-Presidents of the united states "Thomas Jefferson" 1797- 1801, Washington 1997 , P. 20

الانتماءات الإقليمية دورا كبيرا في تلك الانتخابات، فقد جاءت معظم أصوات آدمز من ولايته ماساشوستس (حصل فيها على ١٦ صوتاً) ومن ثم ولاية نيويورك (١٢ صوت) ونيوجرسي (سبعة أصوات) ومن الملاحظ أيضا إن توماس جيفرسون وارون بور لم يحصلا على أي صوت في الولايات المذكورة سابقاً،في حين حصل جيفرسون على ٢٠ صوتاً من ولاية فرجينيا و١٤ صوتاً في ولاية بنسلفانيا وعلى ١١ صوتاً في ولاية كارولينا الشمالية و٨ أصوات في ولاية كارولينا الجنوبية ولم يحصل آدمز ومرشحه توماس بنكني على صوت واحد في الولايات الجنوبية باجمعها[١]، ومن ثم يمكن القول إن انتخابات عام ١٧٩٦ لم تكن حزبية بالدرجة الأولى فقط بل كانت إقليمية بدرجة كبيرة .

حصل جيفرسون على منصب نائب الرئيس وفق القانون الانتخابي آنذاك الذي يشترط إن يحصل صاحب أعلى الأصوات على منصب رئيس الجمهورية والذي يليه بعدد الأصوات بغض النظر عن حزبه يصبح نائبا للرئيس. وكان منصب نائب الرئيس يشبه منصب ترضية للمرشح الخاسر ولا يتعدى كونه منصباً فخرياً، إذ لا يفعل نائب الرئيس أي شيء وليست لديه صلاحيات واسعة فصلاحياته اقل من صلاحيات الوزير، باستثناء كونه يصبح رئيسا لمجلس الشيوخ، وفي الثامن من شباط عام ١٧٩٧ أعلن جون آدمز في مجلس الشيوخ الأصوات النهائية وأعلن أن جيفرسون سيكون نائبا للرئيس وأُرسل لطلب حضور جيفرسون إلى العاصمة فيلادلفيا، وعلى ما يبدو إن جيفرسون لم يشأ الحضور إلى العاصمة فسرت الشائعات التي تقول إن جيفرسون اعتبر منصب نائب الرئيس اهانة لكرامته، لذلك كان لابد من حضوره لدحض تلك الشائعات التي لم تكن بعيدة عن الصحة، وعلى كل حال وصل جيفرسون الى العاصمة في الثاني من آذار إذ مكث ليلته الأولى عند جيمس ماديسون[٢]. وفي الرابع من آذار انعقد مجلس الشيوخ وألقى جيفرسون خطاب التنصيب الذي اعتذر فيه مقدما عن أي تقصير سيبدر منه بالمستقبل ووعد بأنه سيقوم بواجباته بناءا على " رغبتي وليس قدرتي"[

(1) Stefan Lorant , Presidency A Pictorial History of Presidential Elections From Washington To Truman , New York 1953 , P36
(2) Hatfield, Op.Cit , P. 22

[١] كما قال انه سيدير المجلس على وفق القواعد السارية وسيطبقها بنزاهة، أما الخلافات بالمبادئ والآراء فذلك شيء طبيعي، وانه سوف يعتمد مبدأ الحرية في طرح الآراء[٢].

كان على جيفرسون التعامل بصورة مباشرة مع رئيس الجمهورية الجديد جون آدمز، بوصفه نائبه وكذلك مع مجلس الشيوخ، وحاول جيفرسون أن يحتفظ بعلاقة طيبة بجون آدمز فقد كان من أوائل المهنئين على فوز آدمز بالرئاسة في رسالة تنم عن رغبة شديدة بالتصالح معه، فقد عدّ الرأي العام قد وضعهما ندَّين، وقال انه على ثقة كاملة بإمكانية إيجاد حلول لكل الخلافات فيما بينهما، لكنه أكد لآدمز ان هناك بعض الأشخاص الذين يودون إبقاء الخلاف بينهما مستمراً لان ذلك يصب في مصلحتهم في النهاية[٣]، والمقصود هو هاملتون ومن معه. وقد جاء موقف جيفرسون من إذعانه بضرورة التعامل مع آدمز لثلاثة أسباب، شرحها جيفرسون برسالته إلى جيمس ماديسون في الأول من كانون الثاني عام ١٧٩٧،أولها "ليست لدي اية مشاعر خاصة تنفرني من القيام بدور ثانوي مع السيد ادمز فأنا اصغر منه سناً، وكنت اقل منه درجة في المؤتمر القاري، واصغر منه في السلك الدبلوماسي ومؤخراً اقل منه في شؤون الحكم المدني"[٤] ومسالة قبول المنصب من عدمه لا تتعلق بالكبرياء لأنه يفكر مثلما كان يفكر الرومان من أن "الجنرال في هذا اليوم ممكن أن يصبح جنديا في يوم آخر إذا تطلبت الضرورة"[٥]، وثانيها هو محاولة سحب آدمز من تحيزه لصالح بريطانيا والعاملين على ربط المصالح الأمريكية بالبريطانية والداعين لتطبيق الدستور الانكليزي في الولايات المتحدة، والسبب الثالث انه لا بد من التفاهم مع آدمز حول الانتخابات القادمة للولايات المتحدة بوصفه الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكون عائقا أمام أن يصبح هاملتون الرئيس القادم للولايات المتحدة [٦].

---

(1) Quoted in , op cit, P. 22
(2) Ibid , P. 22
(3) Peden&Koch , Op.Cit , PP.538-539
(4) Quoted in , Ibid,P. 545
(5) Quoted in , Ibid, P. 545
(6) Ibid , PP. 545- 546

وكبادرة حسن نية طلب آدمز من جيفرسون أن يرأس وفداً إلى فرنسا لتهدئة حالة الغضب في باريس نتيجة معاهدة جاي، واخبره بان أعضاء الحكومة قد رفضوا فكرة إرسال ماديسون على رأس تلك البعثة[١]. وكلام آدمز يدل على أنه كان متأثرا إلى حد بعيد بمستشاريه الفيدراليين، لكن جيفرسون رفض الذهاب بتلك البعثة لما قد تسببه من مشاكلات سياسية لان الفرنسيين كانوا يضعون ثقتهم به ومن ثم سيطلبون منه مطالب لا يستطيع تحقيقها بحسب منصبه الصغير، كما ان الفيدراليين سيحاولون الاصطياد بالماء العكر وأياً كانت نتيجة البعثة فلن يرضى عنها الفيدراليون، لذلك شكل آدمز لجنة متكونة من ثلاثة أشخاص اثنان فيدراليان وواحد جمهوري للذهاب إلى فرنسا وهم تشارلز بينكني وجون مارشال John Marshall والجمهوري البريدج جيري Elbridge Gerry وقد وصل الثلاثة إلى باريس في تشرين الثاني عام ١٧٩٧ [٢]. من جهة أخرى عين وزير الخارجية الفرنسي تاليران Talleyrand ثلاثة مفاوضين فرنسيين للتفاوض مع الأمريكيين، وهم جان كونراند هوتينجويه Jean Conrand Hottinguer و بيير بيلامي Pierre Bellamy و لوسيان هندوفال Lucien Handeval، وقد عرف هؤلاء الثلاثة فيما بعد بالرمز "اكس واي زت X.Y.Z" في التقارير الاستخبارية التي كان يبعثها الدبلوماسيون الأمريكان في فرنسا، وقد صدمت البعثة الأمريكية في أثناء انعقاد المفاوضات بمطالب المفاوضين الفرنسيين، الذين اعتقدوا ان الولايات المتحدة قد غيرت مسارها باتجاههم وأنها أصبحت تخاف من فرنسا، لذلك طلب المفاوضون الفرنسيون مبالغ (رشوة) تدفع لهم للتصرف بدبلوماسية

---

(١) هناك بعض المصادر التي تذكر ان نوكس هو من اقترح إرسال جيفرسون الى فرنسا وان اقتراح نوكس كان وراءه هاملتون لإبعاد جيفرسون عن الساحة السياسية الداخلية، وان آدمز هو الذي رفض الاقتراح قائلا: ((ماذا يقولون في اوربا لو أرسل ملك فرنسا شقيقه الأكبر وولي عهده ممثلا الى الخارج)) ينظر:
Lisitzky,Op.Cit ,P.101، في حين اكد أكثر من مصدر ان آدمز هو الذي طلب إرسال جيفرسون الى فرنسا وجيفرسون رفض، ينظر:
Hitchens, Op.Cit, P.109; Hatfield, Op.Cit,P.23

(2) Alexander Johnston , American Political History 1763-1876 , New York 1905, Vol,I , P. 167

والموافقة على إقامة علاقات جيدة مع الولايات المتحدة وطالبوا أن يقوم الرئيس آدمز بالتنصل من تعليقاته المعادية لفرنسا(١).

وصلت أنباء محاولة الرشوة إلى الولايات المتحدة، فاستشاط الرئيس آدمز غضبا وأعلن في نيسان من عام ١٧٩٨عن تلك التقارير وهذا سبب غضباً شعبياً عارماً داخل الولايات المتحدة ضد فرنسا. ونشطت صحف الاتحاديين لإثارة الموضوع بصورة كبيرة ونجحت بإثارة الشعب إلى ابعد حدود حتى أصبح الشعب ينادي بان ندفع الملايين من اجل الدفاع عن بلدنا ولا ندفع سنتاً واحداً إتاوة إلى فرنسا.واستغل آدمز وهاملتون ذلك الغضب الشعبي لإمرار العديد من القرارات لمضاعفة القوات المسلحة الأمريكية وإنشاء إدارة للقوات البحرية وبدأت الحكومة اتخاذ إجراءات الحرب، واصدر قانون التمرد واقره مجلس الشيوخ في الرابع من تموز عام ١٧٩٨ كما اصدر قانونا جديدا للتجنس يقضي بان يمنح المهاجرون الجنسية الأمريكية بعد قضاء أربعة عشر عاما في الولايات المتحدة وكان القانون السابق يمنح الجنسية لمن قضى خمسة أعوام. وقد قلصت تلك القوانين حقوق المواطن الأمريكي الذي لم يعد بوسعه انتقاد عمل الحكومة لأنه سيعاقب وفق قانون التمرد وباب إثارة الفتن، كما منع أي شخص من أن يكتب أو ينشر أي كتاب أو مقالة ضد الرئيس أو ضد مجلس النواب (٢).

لقد كانت تلك القوانين موجهة مباشرةً إلى الجمهوريين وجمهورهم، فمن خلال قانون التمرد وإثارة الفتن استطاع آدمز القضاء على الجمعيات الديمقراطية، ومن خلال قانون التجنس حرم الجمهوريين من أصوات عديدة في مناطق الحدود من المواطنين الذين كانوا يُوشكون ان يحصلوا على الجنسية الأمريكية وكانوا يدينون بهذا الفضل للجمهوريين، وكذلك الحال بالنسبة للمهاجرين الانكليز المعادين للملكية. أما في السياسة الخارجية فقد استطاع آدمز شحن الشارع الأمريكي ضد فرنسا وهيأ للحرب ضدها بكل سهولة، ومضى بخطوات ثابتة نحو جر البلاد للحرب مع فرنسا، وتعمد كشف كل التفاصيل المتعلقة بقضية اكس واي زت ونشر

(1) Alexander Johnston , American Political History 1763-1876, P. 167 ; Hitchens, Op.Cit, P.110

(2) Hatfield, Op.Cit.,P.25 ; Hitchens, Op.Cit, P.110; Lisitzky,Op.Cit ,PP.103-104

الرسائل والتقارير التي أرسلها المبعوثون الأمريكان في باريس، وقد وصف جيفرسون تصرفات آدمز قائلا " إن الخطب ليست أسوا الأشياء لان التصريحات الحمقاء وتعبيرات العاطفة يمكن الصفح عنها بالنسبة للجمهور الذي يتصرف بدافع اللحظة ولكننا لا نستطيع أن نتوقع من امة أجنبية [يقصد فرنسا] أن تصمت إزاء خطب رئيس الجمهورية وتصريحاته وان نشر الرسائل لم تترك لنا أية فرصة للسلام"[١].ولم يكن جيفرسون يستطيع الوقوف ضد ذلك المد العارم من السخط الشعبي ولم تكن لديه وسيلة لمنع إصدار القرارات القمعية لان الغالبية في مجلس النواب كانت للفيدراليين (٢٢-١٠)[٢]. لذلك نجده يكتب إلى ماديسون في السادس والعشرين من نيسان ١٧٩٨ بنوع من الحزن بان مشروع قانون التسلح البحري قد اقر بالأغلبية كما وافق مجلس النواب على إنشاء مديرية للبحرية، ويتم ذلك بغياب بعض الأعضاء الجمهوريين وانتقال بعضهم الآخر إلى صف الفيدراليين، وأخيرا يقول لماديسون" ووسط هذه الحالة التي بلغتها الأمور هنا فأنهم [أي الفيدراليين] سينفذون ما يريدون".[٣]

كان جيفرسون مقتنعاً بضرور الصبر حيال تلك القرارت التي قد تؤدي اذا ما تمت معارضتها من قبل فرجينيا وكارولينا الشمالية الى تقسيم البلاد،كما اقتنع ان هاملتون كان وراء تلك القرارات، وقال في رسالته الى جون تايلور في الرابع من حزيران عام ١٧٩٨ ما نصه:" لقد استغل هاملتون الماكر ،عند مجيئه، تأثير الجنرال واشنطن الذي لا يقاوم وشعبيته، وهو الامر الذي ادى الى جعل مقاليد الحكم في ايدي اعداء الجمهورية .لقد سلَّمَنا لخلفه[يقصد ادمز] في هذه الحالة، تحت ظروف قاسية تطورت منذ ذلك الوقت بدهاء شديد حتى ادت الى الانطباع الذي نراه الان في اذهان العامة"[٤] وبناءاً على ذلك فيجب على الجمهوريين التمسك بالصبر للتغلب على حكم هاملتون وادمز، الذي شَبهَهُ جيفرسون بحكم الساحرات في اشارة الى ساحرات سالم، اذ قال في رسالته السابقة الذكر " قليلاً

(1) Quoted in , Ford , Op.Cit , PP. 413- 414
(2) Hatfield, Op.Cit, P.24
(3) Quoted in , Ford , Op.Cit , P. 411
(4) Quoted in , Ibid , PP. 430-431

من الصبر وسنرى حكم الساحرات يمرُّ ويذوب سحرهم، وحين يستعيد الشعب بصيرته الحقيقية يعيد حكومته الى مبادئها الحقيقية"(١) .

لم يشعر جيفرسون بقلة الحيلة أبدا وبحث عن طريق للصمود بوجه الفيدراليين وزعيمهم، ووجد ضالته في الدستور فقد عدَّ القوانين الخاصة بالنشر والدفاع بمنزلة رفض صريح للتعديل الأول للدستور، ومن ثم فإنها تتجاوز نطاق السلطة القضائية لمجلس النواب، لكن الفيدراليين قاموا بتعديل القانون المقترح وحذف القيود الخاصة بالنشر وتم تمرير القانون عام ١٧٩٨ وطُبق بشيء من الصرامة ضد الكتاب الجمهوريين(٢). لكن ربح الفيدراليين لهذه الجولة لم يثن جيفرسون الذي كان يبدو جاهزا دائما لطرح حلول جديدة، وهذه المرة توجه صوب حقوق الولايات واشترك مع جيمس ماديسون في كتابة مسودات قرارات لولايتين هما فرجينيا و كنتاكي التي كتب جيفرسون بنفسه المسودة الخاصة بها والتي كانت تبطل القانون الحكومي من حيث التطبيق داخل الولاية، وأعلن جيفرسون في تلك المسودة بانه " كلما تولت الحكومة العامة سلطات غير مفوضة بها كانت أعمالها غير موثوقة وعقيمة ودون أي جدوى ...أن لكل ولاية حق طبيعي في حالات لا ينص عليها المؤتمر بإبطال كل ادعاءات الآخرين بالسلطة انطلاقا من سلطتها الخاصة وضمن حدودها "(٣)، أي أن الولاية غير ملزمة بالقوانين الجديدة الصادرة عن الحكومة فيما يتعلق بتجنس الأجانب وقوانين إثارة الفتن والتمرد وغيرها، أما ولاية فرجينيا فقد كتب ماديسون مسودتها بالاشتراك مع جيفرسون،لكنها حملت في النهاية رؤية ماديسون ومما جاء في تلك المسودة " في حالة ممارسة سلطات أخرى واضحة وخطرة مطروحة للنقاش لا يجيزها المؤتمر يكون للولايات آنذاك الحق وتكون ملزمة قانونيا في التدخل لوقف الشر والدفاع عن سلطاتها وحقوقها وحرياتها ضمن حدودها"(٤)، وخلاصة نظريتهما بنيت على أساس ان الحكومة الفيدرالية إنما تستمد صلاحياتها من الولايات ومن

---

(1) Quoted in , Ibid , P. 433.
(2) Hitchens, Op.Cit, P. 114
(3) Quoted in, Ford, Op.Cit, Draft of Kentucky Resolutions , P. 456 .
(٤) نقلا عن، ستيف فرايزر، غاري غرستل، المصدر السابق، ص ٦٤

ثم يجب على تلك الحكومة ان تكون متمدنة وان لاتحاول فرض سلطاتها على تلك الولايات التي بامكانها متى شاءت تجريد تلك الحكومة من صلاحياتها في داخل الولايات[١].

وفي تلك الأثناء كان هاملتون يسعى للحصول على منصب القائد العام للقوات المسلحة، وشعر أن آدمز ربما سيتردد بان يمنحه ذلك المنصب فسعى نحو واشنطن الذي كان لا يزال يحظى باحترام كل الطبقات الشعبية، وحصل على تأييده التام، واضطر آدمز بعد ذلك إلى تعيين هاملتون بهذا المنصب، واخذ هاملتون ينشر في الصحف البلاغات العسكرية وتدريب الجنود وكأن الحرب قد وقعت فعلا[٢]، وبعد تسلمه قيادة الجيش اقترح هاملتون إرسال قوات فيدرالية إلى فرجينيا لإثبات الأمر الواقع وانه يملك السلطة الحقيقية [٣]؛ فقد أراد هاملتون الوقوف بوجه مشروع جيفرسون الرامي إلى عدم تطبيق قوانين الحكومة الفيدرالية، وإضعاف شوكة جيفرسون في عقر داره لكن ذلك لم يحدث نتيجة تطور الأحداث السياسية الداخلية والخارجية، فأما الداخلية فان الشعب لم يعد يهتم بالحرب وبمسالة اكس واي زت أكثر من اهتمامه بالضرائب المفروضة عليه نتيجة مشاريع التسلح الحربي التي أقرتها الحكومة الفيدرالية وبدأت معارضة تلك القوانين تأخذ منحىً جديدا يهدد الاستقرار الداخلي. وقد كتب جيفرسون بهذا الخصوص ما نصه :ـ"إن مجلس الشيوخ يستقبل كل يوم شكاوي ضد قوانين الأجانب والفتن والجيوش الدائمة ولقد كان رد الفعل في عدة أجزاء من بنسلفانيا عنيفا إلى درجة نخشى معها قيام فتنة وسوف يقوم بها بعض الاهالي إن استطاعوا"[٤] لذلك كان لا بد من التفكير بطريقة صحيحة للخروج من المأزق الذي وضعت الحكومة نفسها فيه، أما على الجانب الخارجي فقد استدعى وزير الخارجية الفرنسي تاليران ممثل الحكومة الأمريكية في باريس، الجمهوري

(1) Harold Underwood Faulkner and Tyler Kepner, America Its History and People, New York, N.D, P. 174.
(2) Lisitzky,Op.Cit, P. 106
(3) Hitchens, Op.Cit, P. 115
(٤) نقلا عن، برنارد مايو، المصدر السابق، ص ٢٧٤

البريدج جيري إذ كان قد بقي وحده في فرنسا بعد مغادرة الفيدراليين تشارلز بينكني وجون مارشال، وأكد له أن فرنسا لا ترغب في الدخول في حرب مع الولايات المتحدة وأنها ترغب في توطيد العلاقة معها وأنها تريد سفيراً أمريكياً رسمياً لا يكون ضد الجمهورية الفرنسية ولا مع الانكليز ولتأكيد صدق نوايا الجمهورية الفرنسية وحسنها بعث تاليران مع جيري نسخة من قرار الحكومة الفرنسية الذي اتخذته لضمان سلامة السفن الأمريكية ضد أي اعتداء من جانب البحرية الفرنسية، كما بعث تاليران خطابا إلى الرئيس آدمز يستذكر فيه صداقتهما القديمة وطلب منه ترك الماضي والتطلع نحو مستقبل جديد يسوده السلام والمودة، ومن جانب آخر أعلن لافاييت عن استعداده للقدوم إلى الولايات المتحدة للاسهام في حل المشكلات العالقة بين الدولتين(١).

من جهة أخرى كان بعض الفيدراليين يرفض فكرة الحرب ويسعى للسلام مع فرنسا أمثال ادموند بندلتون، وكان بندلتون قد ألقى خطابا إلى الأمة الأمريكية بعد تقرير جيري، يطلب فيه النظر للأمور بحكمة وان لا يتعجل للحرب إذا كان السلام ممكنا. وقد أسرع جيفرسون لاستغلال موقف بندلتون لانه فيدراليّ وأرسل له رسالة في التاسع والعشرين من كانون الثاني ١٧٩٩ واصفا خطابه إلى الأمة بالأبوي والحنون. وحملت رسالة جيفرسون نوعا من التملق لسحب بندلتون الى جانبه فقد قال له" كان خطابك مؤثرا بشكل عميق وكان بسيطا يحمل معاني كبيرة ويتضمن أموراً واضحة وشاملة ويدل على أن شخصية كاتبة تحمل شعوراً أبوياً وحنوناً وهو رائع ومثل الخطب التي يلقيها البطريرك والقساوسة وهو خطاب مبارك للامة..."(٢) كما ذكر بخطابه هذا محاولة بعض الفيدراليين استغلال تقرير جيري بصورة سيئة إذ قالوا إن فرنسا تمر بحالة من الضعف الشديد وإنها ستهزم بالحرب، وان هؤلاء يحاولون قلب الحقائق، ولذلك يجب توضيح الحقائق للناس بصورة مبسطة وبدون تلاعب. ولم تفت جيفرسون الإشارة إلى اضطراب الناس من القوانين الجائرة، كما حث بندلتون على الاسهام بإيضاح تلك الأمور للشعب

(1) Lisitzky,Op.Cit, P .107
(2) Joint Committee of Congress, The Writings of Thomas Jefferson, e- Book ,N.D, P.4810

وانه يجد اضرار كبيرة في " قانوني الأجانب والفتن ومتاعب قانون الطابع والخصائص المزعجة للضريبة المباشرة والجيش الإضافي دون وجود عدو، وحشد الموظفين الذين يقضون وقتهم متكاسلين في النوادي ويبعدون العمال عن أعمالهم في الحراثة، كما أن البحرية المؤلفة من خمسين سفينة والملايين الخمسة التي ستجمع لبنائها على أساس دفع فائدة قدرها ثمانية في المائة والإصرار على الحرب من جانب حكومتنا في حين أن الحكومة الفرنسية تظهر رغبة قوية في السلم معنا، والضرائب التي أصبحت قيمتها عشرة ملايين الان ويدفعها أربعة ملايين من أبناء شعبنا زيادة على ضرورة رفع تلك الضرائب بعد عام أو عامين لجمع خمسة ملايين لسد النفقات السنوية..."[١]. وبعد عرض جيفرسون لما يتعرض إليه الشعب من ضغوط مالية من جانب الحكومة أكد ان ذلك الشعب في النهاية "سيعمل ما يمكنه من اجل الدفاع عن الولايات المتحدة الأمريكية واستقلالها ووضع الأمور في مسارها الصحيح"[٢] أي إن صمت الشعب عن تلك القوانين لن يطول وسيقوم بالثورة على تلك الحكومة.

أصبح الشعب الأمريكي مقتنعاً تماما بضرورة الصلح مع فرنسا وان الحرب ستجلب الكوارث عليه لذا سَعيَ العديد من المنظمات والجماعات السياسية الأمريكية الى التدخل لمنع تلك الحرب وكان من أبرزها جمعية الأصدقاء الدينية، وكان احد أعضائها الدكتور جورج لوجان وكان صديق لجيفرسون قد قرر الذهاب إلى فرنسا ليرى إمكان استبدال حالة شبه الحرب مع فرنسا بمعاهدة ولما عاد للولايات المتحدة كتب تقريرا يثبت فيه "أنه ما من فرنسي واحد يريد محاربة الولايات المتحدة"[٣]. وهنا ثارت ثائرة دعاة الحرب من الفيدراليين الذين غاظهم التقرير إلى حد بعيد ولما كانت الغالبية لهم في مجلس الشيوخ الأمريكي فقد استطاعوا بسرعة إصدار قانون جديد سمي بقانون لوجان يحرم قيام أي مواطن أمريكي بالاتصال الدبلوماسي مع أي بلد او التحدث بالأمور السياسية مع أي

(1) Joint Committee of Congress, The Writings of Thomas Jefferson, P. 4810
(2) Quoted in, Ibid ,P. 4811
(3) Quoted in , Lisitzky,Op.Cit, Op.Cit , P.107

مسؤول أجنبي خارج البلاد أو داخلها[١]، لكن ذلك القانون جاء بعد انتهاء مهمة لوجان وكشفه عن مدى رغبة الفرنسيين بالصلح ومن ثم فلم يكن القانون مؤثرا على الجمهوريين بقدر تأثيره في الفيدراليين الذين أصبحوا محط استهزاء الشعب الأمريكي ولاسيما مع زيادة التوتر بين الرئيس آدمز وهاملتون إذ اتهم الأول هاملتون بأنه يرأس جماعة سرية تتآمر ضد الحكومة وفصل اثنين من أنصار هاملتون وهما وزير الحربية جيمس ماكهنري J. McHenry ووزير الخارجية ثيموتي بيكرينج Timothy Pickering، ورد هاملتون على إجراءات آدمز "بخطاب شجب فيه الرئيس آدمز وحث الفيدراليين على مساندة تشالز بينكني احد المبعوثين الثلاثة الذين فضحوا قضية اكس واي زت، وقد سبب نشر الخطاب في الصحافة توتراً شديداً في العلاقة بين هاملتون وآدمز"[٢] وكان السبب المباشر لانقسام الفيدراليون فيما بعد.

وبعد تنامي الشعور المعادي للحرب بدرجة كبيرة والسخط الكبير الذي عم الشعب الأمريكي من ضرائب مشاريع البحرية والقوانين الأخرى، وتقرير جيري ولوجان ورسالة تاليران، كل هذه الأمور دفعت بالرئيس آدمز إلى إعادة التفكير بالعلاقة مع فرنسا واقتنع أخيرا بضرورة الصلح مع فرنسا، وأخيرا وصلت اليه في الثامن عشر من شباط ١٧٩٩ رسالة من تاليران يؤكد فيها أن" أي معتمد فوق العادة قد ترسله إلى فرنسا ليفاوض فيما بين الدولتين من اختلافات سوف يستقبل بالاحترام اللائق بممثل امة حرة مستقلة"[٣] وكان وقع خبر الصلح على جيفرسون عظيما وكتب إلى ادموند بندلتون،الذي يمكن أن نعدّه من الان فصاعدا من أتباع جيفرسون، في اليوم التالي من تسلم الرئيس آدمز رسالة تاليران، قائلا :ـ" إن هذا الصلح يجعل جهودهم [يقصد الفيدراليين] في سبيل الحرب يائسة ويخرس كل إنكار بعد ذلك لإخلاص الحكومة الفرنسية ... ومن الواضح أن هذا الخبر قد تم

(1) Randal , Op.Cit , PP.466- 468
(2) Quoted in , Hitchens, Op.Cit, PP. 116- 117.
(3) Joint Committee of Congress , Op.Cit, P. 4848

كتمه عن الفيدراليين في كلا المجلسين على ما يبدو من خوفهم وخيبة أملهم ... كما أن هناك حديثاً عن انقسامهم وانشقاقهم ..."(١) .

كل هذه الأمور أعطت جيفرسون شعورا عظيما بالرضا عن الذات وبأنه انتصر في النهاية على خصومه من دعاة الحرب مع فرنسا وفاز برضا الشعب الأمريكي وكتب بنوع من النشوة في الحادي والعشرين من شباط قائلا " إن السخط الكبير الذي عم عقول مواطنينا بسبب قضية اكس واي زت قد سكن إلى حد عظيم ... وإذا مضينا في سلام فاني لا ارتاب في أن الاتجاه الرائع في الرأي العام الذي اخذ الان يحدث ويزداد بسرعة سوف يصبح عاما وهاما إلى درجة أن الصداقة في الخارج والحرية في الداخل ستستقران بقوة الشعب على وجه العموم وسلطاته الدستورية وان روح مواطنينا التي أخذت الان ترتفع بسرعة مثلما كانت آخذة من قبل في التهور، وتسمو بقوة وجلال يبنيان جمال الحرية سوف تجعل هذه الحكومة في التطبيق مثلما هي في المبدأ نموذجا لحماية الإنسان في حالة من الحرية والنظام"(٢)، ومثلما توقع جيفرسون اقتنع شعب الولايات المتحدة بضرورة السلام مع فرنسا كما اقتنع الرئيس آدمز بضرورة ذلك السلام، وجاء في خطابه إلى مجلس الشيوخ الأمريكي في العاشر من كانون الأول عام ١٧٩٩ بأنه يود أن تبقى بلاده منسجمة في سلام دائم ولا يود دخول حرب غير ضرورية ويجب العمل على جلب المصلحة والسعادة للشعب الأمريكي(٣).

وأخيرا لا بد من القول إن جيفرسون قد نجح فعلا بتحويل منصب نائب رئيس الجمهورية من " أتفه منصب استطاعت البشرية ابتكاره"(٤) كما يقول آدمز إلى منصب ذي أهمية كبيرة، ولعل السبب لا يكمن في المنصب ذاته بقدر ما يكمن في الشخصية التي تشغله، فإذا نظرنا لصلاحيات جيفرسون نائباً للرئيس في ذلك

---

(1) Joint Committee of Congress, P. 4848
(2) Ibid, To General Thaddeus Kosciusko , PP. 4849- 4850
(3) Carnegie Endowment for International Peace , Document Relating To the controversy over Neutral Rights between the United states and France , 1797- 1800, Washington 1917, P. 55
(٤) نقلا عن، اودو زاوتر، رؤساء الولايات المتحدة الأميركية منذ ١٧٨٩ حتى اليوم، دار الحكمة لندن ٢٠٠٦، ص ٢٨

الوقت فلا نجد له أي صلاحيات تذكر فيما يتعلق بالشئون الخارجية ولا الداخلية فهو لا يعد أكثر من منصب فخري لترضية المرشح الخاسر بالانتخابات، مع منصب فخري آخر يتمثل برئاسة مجلس الشيوخ دون أن يكون له أي تأثير على قراراته[١]، غير أن جيفرسون أصر على ألاّ يترك منصبه نائباً للرئيس بدون إن يترك أثرا في ذلك المنصب، فشرع بكتابة كراسة أو كتيب عن عمل البرلمان بمجلسيه، لتصبح مرجعا سياسيا للعمل البرلماني الأمريكي حتى يومنا هذا، وقد سمى جيفرسون كتيبه هذا بـ " كتيب عن الممارسات البرلمانية A Manual of Parliamentary Practice "[٢] وتعبيرا عن قيم ومبادئ كتيب جيفرسون المثمرة فقد قرر مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة عام ١٩٩٣ تقديمه للنشر في طبعة خاصة بمناسبة الذكرى المئتين والخمسين لولادة جيفرسون[٣]، ومما جاء في مقدمة كتيب جيفرسون " إن مصادرنا المتعارف عليها بخصوص هذا الموضوع في هذا الجزء من الكرة الأرضية، غير كاملة،لكني بدأت بكتابة مسودة لأولئك الذين سيأتون من بعدي ليعلموا أخطاءنا وينجحوا بعدم الوقوع بما وقعنا به ، واخبرهم عن قواعد جيدة ليستخدموها في مجلس الشيوخ وخاصة فيما يتعلق بضبط الأعمال واحترام الوقت والنظام ..."[٤] وفي الحقيقة أنه لم تكن هناك مصادر تتناول هذا الموضوع في الولايات المتحدة غير المصادر البريطانية وهي شحيحة، وان كتابة مثل هكذا كتيب في ذلك الوقت تحتاج إلى خبرة حقيقية وفهم عميق للممارسة البرلمانية وهذا حقل جيفرسون فقد عمل سنوات طويلة عضوا في المؤتمر القاري عام ١٧٧٦ ومجلس نواب ولاية فرجينيا وعضوا في المؤتمر

---

(١) كانت الأغلبية الفيدرالية في مجلس الشيوخ الأمريكي تقف ضد أي مشروع قرار او أي موقف يحاول جيفرسون تقديمه ، وبنفس الوقت كانت الأغلبية في البرلمان للجمهوريين ويرأسه الفيدرالي ألبرت كلاتين Albert Gallatin، لذلك لم يكن لجيفرسون أي تأثير بإصدار وتشريع القرارات ، للتفاصيل ينظر: Dumas Malone, Thomas Jefferson as Political Leader,University of California Press 1963 ,PP.31- 32

(٢) طبع الكتيب عدة طبعات والباحث استخدم الطبعة الأولى الصادرة في فيلادلفيا عام ١٨٣٤

(3) Hatfield, Op.Cit, P. 27

(4) Thomas Jefferson , A Manual of Parliamentary Practice , Philadelphia 1834 , PP.7 8

القاري عام ١٧٨٤ ومن ثم رئيسا لمجلس الشيوخ بحكم منصبه كنائب للرئيس، لذلك أبدع جيفرسون بهذا الكتيب .

قسم جيفرسون كتيبه إلى ثلاثة وخمسين مبحثا تناول فيها القواعد المهمة للتشريعات والانتخابات والحديث في المجلس ثم تناول لجانُ البرلمان واختبارات أعضاء اللجان ثم اللوائح والتقارير وكتابتها وقراءتها وتبويبها ثم كيفية تقديم اللوائح والمذكرات وتداولها بين المجلسين ثم تناول موضوع المعاهدات والاتفاقيات والرسائل وأخيرا وضع قواعد للنظام الداخلي لكلا المجلسين(١)، وقد اعتمد جيفرسون بتأليفه لهذا الكتيب على خبرته أولا ومن ثم راسل أستاذه القديم جورج ويث أملا في الحصول على المساعدة منه في إنعاش ذاكرته عن الموضوعات التشريعية وذكره ويث بكتاب الجيب البرلماني Parliamentary Pocketbook الذي أعطاه إياه حينما كان عضوا في مجلس فرجينيا التشريعي قبل الثورة الأمريكية وقد استفاد منه جيفرسون لدرجة كبيرة كما استفاد من بعض المصادر البريطانية(٢).

انتخابات عام ١٨٠٠

اعد جيفرسون عدته للدخول في انتخابات عام ١٨٠٠ وجهز هذه المرة كل الوسائل المتاحة لمنافسة خصومه الذين انشقوا الى قسمين قسم مع الرئيس آدمز وقسم مع هاملتون، وبذلك يكون الجمهوريون قد كسبوا نقطة أفضلية وهي دخولهم الانتخابات متحدين. أما مبادئ جيفرسون السياسية فيمكن استنباطها من رسائله فلم يكن يوجد حينذاك برامج انتخابية معلنة للمرشحين، بل كانت لهم مبادئ يعرفون بها وعلى أساسها يخوضون الانتخابات، وجاءت تلك المبادئ بصورة واضحة في رسالته إلى البريدج جيري بتاريخ السادس والعشرين من كانون الثاني عام ١٧٩٩ التي قدم فيها إقرارا بعقيدته السياسية، كما ذكر في مقدمة رسالته، ويمكن تلخيص عقيدته تلك بعدة نقاط وهي كالآتي:ـ

(1) Jefferson, A Manual of Parliamentary Practice.
(2) Hatfield, Op.Cit, PP. 27- 28

أولا:ـ السياسة الداخلية ـــ إذ أعلن جيفرسون انه يرغب في المحافظة على الدستور الفيدرالي بشكل يحفظه من كل تطاول وطبقا للروح الحقيقية التي تبنته بها الولايات لا طبقا للروح التي خشيها أعداؤه وأصبحوا لأجل ذلك أعداء للدستور، وعارض صبغ ملامح الدستور بالصبغة الملكية وذلك بتغيير أساليب الإدارة بقصد جعل منصب الرئيس وأعضاء مجلس الشيوخ لمدى الحياة ومن ثم تحويلها إلى مناصب وراثية ومن ثم القضاء على المبدأ الانتخابي، أما عن العلاقة بين الحكومة الفيدرالية والولايات فانه أيد إبقاء الولايات على سلطاتها التي لم تتنازل عنها للاتحاد واحتفاظ الهيئة التشريعية التابعة للاتحاد بنصيبها الدستوري عند توزيع السلطات ورفض محاولة تجريد الولايات من سلطاتها ونقلها للحكومة الفيدرالية(١).

ثانيا :ـــــ السياسة الخارجية ـــــ أكد جيفرسون ضرورة تكوين تجارة خارجية حرة مع جميع الأمم لكن بدون الارتباط السياسي بأي احد ودعا إلى عدم إقامة علاقات دبلوماسية خارجية قد تربط الولايات المتحدة بمعاهدات من شأنها أن تجر البلاد إلى الخصومات والنزاعات الأوربية وقال" اجل لا أريد أن نقحم أنفسنا في ميدان المذابح ذاك لنحفظ توازنهم ولا أن ننضم إلى التحالفات الملكية الهادفة لمحاربة مبادئ الحرية"(٢). وبذلك يكون جيفرسون قد تحيز مسبقا للجمهورية الفرنسية وهو لم يخف ذلك التحيز بل ذكر بكل صراحة " أحب أن أضيف إلى هذا باني كنت أتمنى بكل صدق نجاح الثورة الفرنسية ولا أزال أتمنى أن تنتهي بإقامة جمهورية حرة ومنظمة لكني لم افقد شعوري بغاراتهم الوحشية على تجارتنا "(٣) أي انه مع كونه مناصرا للجمهورية الفرنسية لكنه لم يفقد شعوره بعداوته للغارات الفرنسية على السفن التجارية الامريكية.

ثالثا:ـــــ الاقتصاد والجيش. أما ما يتعلق بالاقتصاد فقد أعلن انه يرغب في تكوين حكومة شديدة الحرص على مواردها وتقوم بتخصيص كل ما تستطيع ادخاره من الدخل العام لسداد الديون القومية، ودعا إلى عدم زيادة عدد الموظفين

(1) Joint Committee of Congress, Op.Cit , PP. 4800- 4801 .
(2) Ibid, P. 4801
(3) Ibid, PP. 4801- 4802

وزيادة المرتبات مثلما كان سائدا في حكومة آدمز إذ عدّ ذلك سبباً لجلب الأنصار والأعوان وزيادة الدين العام بكل وسيلة ممكنة لانه نعمة. أما بخصوص الجيش فقد دعا إلى الاعتماد على المليشيا أو الحرس الأهلي لأجل حفظ الأمن في الداخل، وعلى الإبقاء على قوة بحرية صغيرة تكفي فقط لحماية السواحل الأمريكية من الغارات التي قد تتعرض لها ورفض وجود أسطول كبير أو إنشائه لان ذلك يؤدي إلى تحمل تكاليف كبيرة زيادة على انه قد يتسبب بدخول حروب مع الاخرين، وقال أنه لا يوافق على وجود جيش نظامي بوقت السلم لان ذلك من شانه إرهاب الرأي العام(١) .

رابعا:ــ الحرية والدين. نادى جيفرسون بحرية الصحافة والمنشورات وقال انه يعارض كل اعتداء على الدستور من اجل استخدام القوة لا المنطق لإخماد التذمرات أو التمردات التي قد يقوم بها المواطنون ضد ممثليهم وانتقادهم لهم سواء أكان ذلك بناءً على حق فعلي أم لا. أما بخصوص الدين فقد أعلن انه مؤيد بقوة للحرية الدينية وانه معارض كل حركة تهدف إلى انتصار شرعية أحد المذاهب على المذاهب الأخرى .(٢)

خامسا:ــــــ العلم والعقل والفلسفة. أيد جيفرسون نشر العلوم وتشجيعها بكل فروعها لكنه في الوقت نفسه عارض " النيل من قداسة الفلسفة"(٣) كما قال انه يعارض إرهاب العقل البشري بقصص مفزعة لدفعه الى التخلي عن أحلامه وتصوراته ومن ثم الاعتماد الكلي على أفكار الآخرين وتصوراتهم. وعارض رجوع العقل إلى الماضي بدلا من السير قدما متطلعا إلى الإصلاح معلقاً "لا اعتقد أن الحكومة والدين والأخلاق وكل علم آخر كانت في أرقى صورها في عصور الجهل المطبق وانه لا يمكن اختراع شيء يداني في كماله ما وضعه أجدادنا"(٤) أي الدعوة إلى التجديد في الحكومة وأشكالها وفلسفتها السياسية والدين والأخلاق حسب رؤية عقلية جديدة بعيدة عن التطرف.

---

(1) Joint Committee of Congress, P. 4801
(2) Ibid, P. 4802
(3) Ibid, P. 4802
(4) Ibid , P. 4802

كان هذا منهاج جيفرسون لدخوله الانتخابات الرئاسية وحكم البلاد، ومنهاج جيفرسون هذا هو في الحقيقة خلاصة آرائه السياسية والاقتصادية والفكرية التي توافقت بشكل كبير مع مبادئ الحزب الجمهوري الذي هو في الأساس من صنيعة جيفرسون، ومن ثم يمكن القول إن عقيدة جيفرسون كانت المنهاج الأساسي للحزب الجمهوري في انتخابات عام ١٨٠٠. ولإيصال تلك الأفكار وكسب أصوات الناخبين اعتمد جيفرسون على بعض الصحفيين النشطاء ليديروا حملته الانتخابية وكان أبرزهم الصحفي كالندر، والصحفي ليف لينكولن Levi Lincoln ولمواجهة الصحف الفيدرالية التي كانت منتشرة بكثرة في الولايات المتحدة ولاسيما في العاصمة حيث توجد ثلاث صحف فيدرالية[١] في حين لا توجد أي صحيفة جمهورية، انشأ جيفرسون بمساعدة ماديسون وبعض الجمهوريين الآخرين صحيفة المخبر الوطني National Intelligencer التي بدأت بالصدور في نهاية تشرين الأول من عام ١٨٠٠ واستمرت حتى آذار عام ١٨٠١[٢]، أي ان الغاية منها كانت الترويج للأفكار الجمهورية في الانتخابات، وهاجمت تلك الصحيفة الفيدراليين وزعيمهم جون آدمز متهمةً إياه بمحاولة تقييد عمل البرلمان وربطه بمؤسسة الرئاسة وغيرها من الأمور حتى لم يبق للنظام الجمهوري سوى الاسم فقط[٣]

أما الفيدراليون فلم يغيروا من آرائهم ولم يقدموا بديلا قويا لمواجهة الحزب الجمهوري الذي اخذ أنصاره يزدادون كل يوم،ولاسيما بعد فرض الضرائب من الفيدراليين، فلم يكن أمام الفيدراليين إلا وسيلة واحدة لإضعاف الجمهوريين في الانتخابات وهي النيل من زعيمهم توماس جيفرسون فقد تركزت حملتهم على الطعن فيه بوصفه ملحدا لا يؤمن بالله. واخذوا بنشر الإشاعات المغرضة عنه

(١) في عام ١٧٩٥ كان هناك حوالي ١٥٠ صحيفة في الولايات المتحدة ، اغلبها فيدرالية ولا يملك الجمهوريون منها سوى ثمان عشرة صحيفة ، للتفاصيل ينظر:

Mel Laracey ,"The Presidential Newspaper as Engine of Early American Political Development : The Case of Thomas Jefferson and the Election of 1800" , Rhetoric & Public Affairs , Vol ,11, N. 1 ,Spring 2008 , P.11

(2) Laracey,OpCit, P. 15 .

(3) Ibid , P. 15.

ومنها قولهم انه سيصادر كل الأناجيل الموجودة في البلاد ليفرض إنجيله بدلا منها وهو الأمر الذي دعا الكسندر هاملتون إلى محاولة اتخاذ تدابير سياسية لمنع انتخاب جيفرسون في نيويورك بوصفه ملحدا في الدين لذا لا يجب تركه يتولى دفة الحكم. لكن جون جاي محافظ نيويورك آنذاك رفض اقتراح هاملتون(١). وقد أجاد الفيدراليون استغلال رجال الدين لأجل تلك القضية وقد لفق قسيس مدينة كونيكتيكوت شارون Smith of Sharon, Connecticut لجيفرسون تهمة مفادها انه حصل على ثروته بالغش والسرقة وقام في أحد الأيام بخداع أرملة وأطفالٍ لا أب لهم وسرق ضيعتهم التي قيمتها عشرة آلاف جنيه إسترليني حين كان وصيا عليهم (٢)، والمعلوم أن جيفرسون لم يكن أبدا وصيا على احد وهو لم تكن به حاجة إلى الأموال فقد حصل على ثروة عند وفاة والده وثروة أخرى عند وفاة زوجته دع عنك المرتبات الضخمة التي كان يكسبها جراء خدمته بالحكومة وزيراً للخارجية ونائباً للرئيس، كما قام الفيدراليون بإعطاء الأمل بعض رجال الدين بأنهم سيقرون مذهباً او مذهبين دينيين ليطبقوه في أرجاء الولايات المتحدة، ورد جيفرسون على تلك الآمال بان " رجحان العقل الذي امتاز به بلدنا يهدد بضياع تلك الآمال وأنهم يؤمنون أن أي قدر من السلطة يوكل إلي سوف يستخدم في معارضة مشروعاتهم وأنهم بإيمانهم هذا [أي بكونه سيرفض ذلك المشروع] صادقون لأني أقسمت على محراب الله بالعداء الأبدي ضد كل شكل من أشكال الاستبداد المفروض على عقل الإنسان"(٣). وفي الحقيقة اندفع الفيدراليون بكل قوتهم نحو تشويه سمعة جيفرسون وإطلاق الإشاعات الكثيرة جدا ضده وكان أغربها ترويج إشاعة مفادها أن جيفرسون قد مات ويبدو ان تلك الإشاعة كانت قوية للغاية حيث انتشرت بسرعة واضطر جيفرسون ان يصدر إعلانا في الرابع من تموز عام ١٨٠٠ مفاده انه على قيد الحياة(٤).

---

(1) Gaws , Op.Cit , P.73
(2) Joint Committee of Congress, Op.Cit , P.4918
(3) To . D. R. Benjamin, September 23, 1800 , Quoted in , Joint Committee of Congress, Op.Cit , P. 4923
(4) Hitchens , Op.Cit , P. 118

إن تلك الاتهامات لم تكن تجدي نفعا ولم تستطع أن تغير نتائج الانتخابات التي باتت ستحسم لصالح الجمهوريين، وكان جيفرسون يحصل على دعم الولايات الجنوبية والغربية ولاسيما الولايات الجديدة الناشئة على الحدود التي أملت بمستقبل أفضل مع الجمهوريين الذين كافحوا وعلى رأسهم جيفرسون لإعطاء تلك الولايات الحرية لحكم نفسها، كما حصل جيفرسون على دعم الطبقات الكادحة والفقيرة في الولايات الشمالية[1]. وأخيرا جاءت نتائج الاقتراع مطابقة لتوقعات جيفرسون، وقد جاهد جيفرسون للفوز بتلك الانتخابات، وتجد في رسائله بتلك المدة متابعة دقيقة لعمليات الاقتراع والموقف السياسي لأعضاء الولايات فقد كتب مثلا إلى الجمهوري بي. ان. نيكولاس P.N. Nicholas في السابع من نيسان عام ١٨٠٠ يقول " إن الناس في الولايات الوسطى قد أوشكوا جميعاً ان يلتفوا حول فرجينيا، أما الولايات الشرقية فقد أخذت تعود الى التردد الذي أوقفه كشف الفضيحة الفرنسية المرتبطة بالعملاء الثلاثة المرموز إليهم بالحروف اكس واي زت، وان كارولينا الشمالية لفي حالة خطرة جدا ألان ويجب ان يكون الدواء لتلك الولاية معتدلا جدا وان يعطى بطريقة سرية ولكن ينبغي ألا يترك شيء في سبيل تقديم الأخبار الصادقة للأهالي"[2]. وكانت كارولينا الشمالية كما ظهر من نتائج الانتخابات فيما بعد منقسمة بين الفيدراليين والجمهوريين فقد أعطت ستة عشر صوتاً للجمهوريين وثمانية أصوات للفيدراليين[3]. وكانت بذلك الولاية الوحيدة التي لم تصوت تبعا للأقاليم[فقد صوتت الاقاليم الشمالية لصالح الفيدراليين، اما الولايات الجنوبية فكان تصويتها لصالح الجمهوريين.] ولا ندري ما الدواء السري الذي حاول جيفرسون إعطاءه تلك الولاية فهو لم يفصح عن ذلك أبدا ولم يتطرق لذلك الموضوع أي من كتبة سيرته ولعله دفع باتجاه الضرائب المفروضة على الشعب من الفيدراليين، أو ربما يكون قد أنذر الجنوب بالمصاعب المالية التي سيعانون منها في حال فوز الفيدراليين وتقدم خططهم الصناعية والمصرفية التي تضر بمصالح ملاك الأراضي. وعلى أية حال دخل جيفرسون وحزبه انتخابات

(1) James Truslow Adams, The Epic of America , Boston 1955 , P. 124
(2) Quoted in , Ibid , P. 4907
(3) Lorant, Op.Cit , P.50

عام ١٨٠٠ بقوة وشعر آدمز انه سيخسر الانتخابات، ولاسيما بعدما ظهرت نتائج نيويورك وكانت لصالح الجمهوريين، حينها قال لجيفرسون " إنني فهمت انك ستهزمني في هذه المبارة ولن أقول شيئا سوى إنني سأكون مخلصا لك كأحسن ما تكون عليه رعيتك" فقال له جيفرسون " يا سيد آدمز ليست هذه معركة انتخابية شخصية بينك وبيني، فمجموعتان من المبادئ عن موضوع نظام الحكم تقسمان مواطنينا إلى حزبين وأنت تؤيد مجموعة أما أنا فأؤيد الاخرى. وبما أننا قد أمضينا وقتا أطول على مسرح السياسة العامة مما قضاه معظم أولئك الذين يعيشون ألان فقد اتفق إن أسماءنا أصبحت معروفة على نطاق واسع ولهذا وضع حزب من هذين الحزبين اسمك على رأسه ووضع الأخر اسمي. ولو إن كلينا مات اليوم فان غدا سيوجد اسمان آخران في مكان اسمينا دون أي تغيير في حركة الماكنة. فحركتها تصدر عن المبدأ الذي تقوم عليه، لا عنك ولا عني"[١] وحصل جيفرسون على ثلاثة وسبعين صوتا وحصل ارون بور الذي كان مرشحا لنائب الرئيس على ثلاثة وسبعين صوتاً أيضا في حين حصل جون آدمز على خمسة وستين صوتاً وبنكيني المرشح الفيدرالي لنائب الرئيس على أربعة وستين صوتاً وحصل جون جي على صوت واحد فقط[٢].وندرج في مايأتي جدولاً بنتائج انتخابات ١٨٠٠ في كل ولاية.

---

(١) نقلا عن، برنارد مايو، المصدر السابق، ص ٢٨٠

(2) James M. Hiatt , The Voters Text Book , Documents and Statistics , Indianapolis, 1868 , P. 170

الولاية	توماس جيفرسون	ارون بور	جون آدمز	جارلز بينكني
نيو هامبشير	—	—	٦	٦
فيرمونت	—	—	٤	٤
ماساستوستش	—	—	١٦	١٦
رود ايلاند	—	—	٤	٣
كونكتكيوت	—	—	٩	٩
نيو يورك	١٢	١٢	—	—
نيو جرسي	—	—	٧	٧
بنسلفانيا	٨	٨	٧	٧
ديلاور	—	—	٣	٣
ميرلاند	٥	٥	٥	٥
فرجينيا	٢١	٢١	—	—
كارولينا الشمالية	٨	٨	٤	٤
كارولينا الجنوبية	٨	٨	—	—
جورجيا	٤	٤	—	—
كنتاكي	٤	٤	—	—
تينسي	٣	٣	—	—
مجموع الاصوات	٧٣	٧٣	٦٥	٦٤

المصدر: Hiatt,Op.Cit , P. 170 ; Lorant ,Op.Cit,P. 50

عد جيفرسون فوزه بانتخابات عام ١٨٠٠ ثورة حقيقية وقال " إن ثورة عام ١٨٠٠ هي ثورة حقيقية في مبادئ حكمنا مثلما كانت ثورة عام ١٧٧٦ ثورة في شكل الحكم ولم تنفذ في الواقع بالسيف كالثورة الأخرى بل نفذت بأداة الإصلاح العقلية والسلمية وهي اقتراع الشعب"(١). وقد ذهب العديد من المؤرخين الأمريكيين إلى ما أعلنه جيفرسون بان ما حدث عام ١٨٠٠ هو ثورة، وفي الواقع أن التغييرات التي أحدثتها انتخابات عام ١٨٠٠ كانت تغييرات اقتصادية بجعل الاقتصاد معتمدا على الزراعة بصورة رئيسة وعدم الاهتمام بالصناعة، فهل يمكن عد تلك التغيرات ثورة ؟ ولنترك الفيلسوفة الامريكية حنة ارندت تجيبنا عن هذا السؤال إذ جاء في مطلع تعريفها للثورة قولها "إن الثورات مهما حاولنا تعريفها هي ليست مجرد تغييرات. إن الثورات الحديثة لا تشترك بشيء يذكر بما كان يسمى في التاريخ الروماني القديم بالخصام الأهلي Mutatio rerum الذي سبب الاضطراب في الدولة " (٢) فأن مجرد حدوث تغييرات اقتصادية لايعد ثورة، كما إن شكل الحكم لم يتغير والنظام الاجتماعي بقي على حاله، وإذا سلمنا بنظرية جيفرسون فان كل حزب أمريكي سيفوز بانتخابات معينة يمكن أن يقول أنها ثورة لان الناس ـــــ حسب رؤية جيفرسون ـــــ أرادوا تغيير شكل الحكم عن طريق انتخاب حزب آخر، وخلاصة القول أن ما حدث سنة ١٨٠٠ لا يعد كونه أكثر من فوز حزب على آخر بأغلبية يسيرة.

بعد نشوة جيفرسون بالنصر صدم برغبة المرشح الجمهوري ارون بور بالترشيح لمنصب الرئيس وليس نائب الرئيس، وكان الجمهوريون قد صوتوا كما كانت العادة السائدة لشخصين يكون الأول الرئيس والثاني نائبا له ولتلافي حدوث تصدع بالحكومة أو اختلاف في وجهات النظر والرغبة بعدم دخول أي فيدرالي بالحكومة الجديدة، صوت الجمهوريون بصورة متساوية لكلا المرشحين

---

(1) Quoted in , Joint Committee of Congress, Op.Cit, To Judge Spencer Rone , September, 6 , 1819 , P. 7477

(2) Arendt , Op.Cit , P. 27

الجمهوريين جيفرسون وبور وحصل كل منهما على ثلاثة وسبعين صوتا، وبعد ظهور النتائج ظهرت رغبة بور بتولي منصب الرئيس فكان بحق إنساناً انتهازياً بصورة كبيرة فقد استغل الوضع السياسي لصالحه، لان الفيدراليين سيسرهم الاقتراع لصالح بور في الكونكرس الأمريكي، حيث تقرر أن يجرى التصويت في مقر الكونكرس وان يحضر ممثلو الولايات ويصوتوا هناك، واستمر التصويت لمدة أسبوع كامل من ١١شباط عام ١٨٠١ حتى السابع عشر منه. وهنا ظهرت على الساحة محاولات الفيدراليين الضغط على جيفرسون للحصول على شروط ووعود في حال التصويت لصالحه لكنه رفض قائلا " إنني لن اقبل الحكم مقابل التسليم بشروط خاصة وأنني لن أتولى الحكم ويداي مقيدتان"(١). وازدادت قوة الفيدراليين وشراستهم ورغبوا بالقفز على نتائج الانتخابات إذ حاولوا تشريع قانون جديد في مجلس الشيوخ يعطي الحق لمجلس الشيوخ بترشيح رئيس لمجلس الشيوخ ويفوض له الحكم لأية مدة يخلو في أثنائها منصب رئاسة الجمهورية من شاغله لكنهم فشلوا في ذلك لتدارك الجمهوريين لموقفهم واتخاذهم القرار المناسب وهو قيام ممثلي ولاية فيرمونت بتقديم أوراق اقتراع بيضاء وذلك في الاقتراع السادس والثلاثين، وبذلك أعلن توماس جيفرسون في السابع عشر من شباط عام ١٨٠١ رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية(٢).

وفي الرابع من آذار عام ١٨٠١ ألقى جيفرسون خطابه الشهير في مجلس الشيوخ الأمريكي داعيا إلى ترك أجواء المعركة الانتخابية والالتفات للمستقبل وان ينظم الناس أنفسهم تحت أرادة القانون لخدمة الصالح العام، وان على جميع المواطنين تذكر مبدأ مقدس وهو " انه بالرغم من أن إرادة الأغلبية تسود في جميع الأحوال فان تلك الإرادة حتى تكون عادلة يجب أن تقوم علي العقل وان الأقلية لها حقوقها المتساوية التي يجب ان تحميها القوانين المتساوية ... دعونا أيها المواطنون نتحد بقلب واحد وعقل واحد . دعونا نعيد للعلاقات الاجتماعية ذلك الانسجام والود اللذين بدونهما تصبح الحرية وحتى الحياة نفسها أشياء موحشة .

(1) Quoted in , Joint Committee of Congress, Op.Cit , P. 4954
(2) Merwin, Op. Cit, P. 117 ; Randall , Op.Cit, PP. 595 599 ; Hitchens , Op.Cit , PP. 120- 121

دعونا نفكر في أننا قد قمنا بطرد التعصب الديني من أرضنا الذي عانت البشرية بسببه وسالت دماؤها زمنا طويلا. نحن لا نريد كسب تعصب سياسي يشبه التعصب الديني في خاصيته الاستبدادية الشريرة وقدرته على خلق اضطهادات مرة ودامية"[1]. ثم تطرق في خطابه إلى حرية الرأي والتعبير، وكان الرئيس جيفرسون هو أول رئيس أمريكي يتحدث بخطاب علني عن الأحزاب الأمريكية طالبا من المواطنين الاتحاد فيما بينهم بعيدا عن روح التعصب الحزبي، مضيفا " أن كل اختلاف في الرأي لا يعد اختلاف في المبدأ . لقد أطلقنا ألقابا مختلفة على إخوة يعتنقون المبادىء نفسها. فكلنا جمهوريون وكلنا فيدراليون.فاذا كان بيننا من يتمنون حل هذا الاتحاد أو تغيير الشكل الجمهوري، فليرشحوا أنفسهم دون مساس كنموذج على الطمأنينة التي يجب أن نوفرها لهم متغاضين بها عن الرأي الخاطئ حيث نترك للمنطق الحرية في دحضه"[2].

أثار خطاب جيفرسون العاطفة في نفوس مؤيديه ومعارضيه فقد وعد بالإصلاح وبعدم إهمال حقوق الأقلية السياسية في البلد والعمل مع الفيدراليين لتقدم الدولة، وان كان حضور جيفرسون إلى مبنى مجلس النواب الأمريكي يوحي بنوع من الزهد والتقشف ومعارضة الأفكار الملكية والارستقراطية كافةً التي كان الفيدراليون يدعمونها، فقد رفض جيفرسون الظهور مثلما ظهر واشنطن سابقا بركوبه عربة فاخرة مع عدد من الحراس، بل حضر راكبا حصانه يرافقه خادم واحد، وكان يرتدي ملابس بسيطة جدا حتى إن ممثلي البلاطات الأوربية اعتقدوا انه يحاول أهانتهم بارتدائه تلك الملابس البسيطة جدا[3]. لكنه لم يكن ينوي ذلك بل على العكس أراد إعطاء صورة واقعية عن طبيعة ما سيفعله مستقبلا في الداخل الأمريكي وهو محاربة الارستقراطية الأمريكية التي روج لها الفيدراليون بصورة كبيرة.

---

(1) Quoted in , Randall ,Op .Cit , PP.630 - 631
(2) Quoted in , Ibid , P. 632
(3) Schmitt , Op.Cit , P. 9

الخاتمة

شهدت الولايات المتحدة على مدى تاريخها الحديث والمعاصر العديد من الزعماء والرؤساء الذين كان لبعضهم أثر كبير في تغيير مصير تلك الدولة الحديثة التكوين، أما الزعماء الذين قامت على أكتافهم هذه الدولة فهم قلائل وقد تم عدهم أو تسميتهم بالآباء المؤسسين ويعد جيفرسون ابرز أولئك الآباء من خلال تأثيره القوي في تكوين الجمهورية الأمريكية وتثبيت أركانها، ومن خلال هذه الأطروحة استطعنا الكشف عن جملة من الحقائق والاعتبارات التي أوضحت شخصية توماس جيفرسون ودوره الحقيقي في الولايات المتحدة، ويمكن إجمالها بالاتي

ـــــــ على الرغم من عدم اشتراك توماس جيفرسون في المؤتمر القاري الأول استطاع تقديم مذكرة قانونية وتاريخية ممتازة لإعطاء الشرعية التامة للثورة الأمريكية، وعلى الرغم من عدم تبني المؤتمر القاري لمذكرته أثبتت أن جيفرسون هو قلم الثورة الحقيقي ويجب الرجوع إليه عند اتخاذ أي موقف من قبل المؤتمر لإعطاء الصيغة القانونية والتاريخية التي يحتاجها ذلك الموقف.

ـــــــ عند انعقاد المؤتمر القاري الثاني وتبنيه قرار الانفصال عن بريطانيا العظمى لم يجد المجتمعون شخصية مؤهلة لكتابة ذلك الإعلان سوى توماس جيفرسون الذي وضع كامل جهده لكتابة بيان الاستقلال ونجد ان جيفرسون قد بنى بيانه على أساس نظرية العقد الاجتماعي وقام بالاقتباس من جون لوك ، ألا انه كتب بيانا ممتازا وضع فيه كل الأسباب القانونية والتاريخية والطبيعية التي دعت المستعمرات إلى الانفصال عن بريطانيا العظمى، وصهر كلماته بإيجاز وإعجاز لتخرج واضحة ومفهومة للإنسان العادي والمثقف ولتؤدي الدور المأمول منها في كسب شعب المستعمرات إلى جانب المؤتمر القاري وخير دليل على قوة البيان هو تأثيره العظيم في نفوس شعب المستعمرات وأخذه تلك الشهرة العالمية التي ما زال يتمتع بها حتى يومنا هذا، فلم يحظ بيانٌ ما أو إعلانٌ معين بتلك الأهمية التاريخية التي حظي بها بيان الاستقلال وكاتبه.

ـ تأثر توماس جيفرسون بالبيئة التي ولد ونشأ وتعلم فيها، وكان ذلك التأثير سلبياً نوعا ما فعلى الرغم من نشأته ضمن الطبقة الارستقراطية وعده واحدا من أبنائها ما إن شب حتى اظهر بغضه لتلك الطبقة التي رأى فيها مثالاً سيئا لطبقة النبلاء في أوربا. وجاءت تلك النظرة بسبب عدمُ حبه لأمه المنحدرة من عائلة انكليزية مرموقة، وحبه لأبيه الذي طالما عده رجلا عصاميا بنى نفسه بنفسه بدون الاعتماد على الإرث الارستقراطي، فهو من ثم لم يعد والده واحدا من أبناء تلك الطبقة بل عده واحدا من العامة استطاع من خلال جهده وعمله الدؤوب الحصول على المال والأرض والسيادة، وبناءً على ذلك كره جيفرسون الطبقة الارستقراطية التي سعت لحماية مصالحها دون الاهتمام بمصالح عامة الناس. ولما كانت تلك الطبقة تستمد نفوذها من خلال تبعيتها للنظام الملكي في بريطانيا البلد الأم، فانه عد الثورة على الحكم البريطاني ليس هدفها تحقيق غرض سياسي بالانفصال عن بريطانيا فقط بل عدها ثورة ضد كل مظاهر التعصب الديني للكنيسة الانكليكانية، وضد كل أشكال التفريق والتمييز الاجتماعي بين الناس، فيجب أن يكونوا متساوين في الحقوق والواجبات وان ينظر إلى الإنسان من خلال عمله وخدمته للمجتمع وليس من خلال مذهبه الديني أو مقدار ما يرث من المال أو الأرض. ولذلك عمل جيفرسون منذ بداية حياته السياسية على تحقيق مبدأ المساواة بين الناس وازالة الفوارق بينهم عن طريق محاربةِ الارستقراطية، ونجح بتوجيه ضربة قوية لهذه الطبقة من خلال تشريعه لقانون الابن البكر.

ـ عدّ توماس جيفرسون من حقوق الإنسان الطبيعية والعادلة ان يختار مذهبه الديني وان يكون حرا بممارسة شعائره الخاصة، وان ذلك الحق هو هبة من الخالق الذي لم يختر مذهبا ويصطفِه على آخر ولو كان الله تعالى قد اصطفى مذهبا لأعلن ذلك. وكان الهدف من دعوة جيفرسون تلك توجيه ضربة أخرى للارستقراطية الأمريكية التي اتخذت من الكنيسة الانكليكانية ومن المذهب الأسقفي دينا رسميا لها وأصبح هذا المذهب رمزا للارستقراطيين ومنه يستمدون قوتهم وسلطانهم لأنه مذهب النظام الملكي في بريطانيا وتشبثوا به ليغدق الملك عليهم

بعطاياه من الأراضي باعتباره يستمد سلطته وصلاحياته من الله تعالى فهو يمنح ما يشاء للمخلصين من أبناء مذهبه، أما أصحاب المذاهب الأخرى فعليهم يقع دفع الضرائب الكنسية لكنهم غير متساوين في العطايا والمنح لان إيمانهم محل شك وريبة. ومن هنا جاءت معارضة جيفرسون ونجح بإمرار قانون فرجينيا للحرية الدينية التي جعلت الناس أحرارا فيما يعتقدون وأحرارا في دفع ضرائبهم لأي كنيسة يتبعونها وذلك لا ينقص من حقوقهم المدنية والسياسية أي شيء.

ـ لم ينجح جيفرسون طول حياته السياسية في إصدار او قانون يعطي العبيد حريتهم، على الرغم من محاولاته العديدة في إصدار قوانين تمنع استيراد العبيد، ويرجع السبب في ذلك الى المعارضة الشديدة التي كان يلقاها ذلك التوجه من أصحاب المزارع الكبيرة في الجنوب زيادةً على عدم رغبته الحقيقية في المساواة بين الأبيض والعبد فطالما عد العبيد اقل شانا من البيض، لكنه كان يخشى على الولايات المتحدة من ان ينشا فيها جيل من العبيد يطالبون بالحرية بأنفسهم ويقومون بالقصاص من ساداتهم ومن ثم كان يخشى ان يأتي يوم يقوم فيه العبد بقتل الأبيض وطرده من ديارِه، لذلك حث جاهدا على إصدارِ قانون يمنع الاستيراد ويشجع إعادة العبيد إلى إفريقيا.

ـ قدم جيفرسون فكرة متكاملة للتعليم في الولايات المتحدة بنيت على أساس التعليم لعامة الناس مستثنياً العبيد، وقسم التعليم إلى مراحل يستطيع خلالها التلاميذ دراسة التاريخ والحضارة واللغات العصرية والعلوم المتقدمة لخدمة الدولة فيما بعد، لكن جهوده بالتعليم لم تلق اذانا صاغية من الساسة الآخرين الذين لم يشاؤوا أن ينال أبناء الطبقات العامة التعليم ليكون حصرا لأبنائهم وكان ذلك من خلال نظرتهم العنصرية ضد الفقراء، وعمل جيفرسون خلال توليه منصب حاكم فرجينيا على تطوير كلية وليام وماري من الناحية العمرانية والعلمية ليكون بذلك أول حاكم لولاية يسعى لتطوير التعليم العالي في ولايته دون الرجوع الى المؤتمر.

ـ لم يكن جيفرسون قائدا عسكرياً ناجحاً فقد فشل بالدفاع عن ولاية فرجينيا وارتكب خطأً عسكرياً كبيرا بإرساله جيش فرجينيا إلى كارولينا الشمالية

لملاقاة الجيش البريطاني. وكاد ذلك الخطأ يطيح برأسه ويقضي على أحلام الأمريكيين بالاستقلال فلولا وصول الأسطول الفرنسي بالوقت المناسب لاكتسح الجيش البريطاني الولايات الجنوبية والغربية برمتها ولنجح بالزحف نحو قوات واشنطن في نيويورك.

ـ كانت لجيفرسون نظرة ثاقبة وبعيدة بخصوص الأراضي الغربية، وجاءت نظرته تلك من خلال ولادته ونشأته في منطقة الحدود فقد تعرف على الهنود ورأى بعينيه المخاطر التي لا يمكن تجنبها لذلك سعى جاهدا لتوطين الأمريكيين في تلك المناطق لتشكل حزاما دفاعيا عن كل الولايات الجنوبية والغربية ضد الهنود والفرنسيين والأسبان في أوهايو والمسيسبي، ومنح أولئك المستوطنين الحكم الذاتي تمهيدا لجعل تلك المناطق الحدودية ولايات كبيرة. وقد نجح في إقرار قانون الأراضي لعام ١٧٨٤ الذي فتح الباب لإنشاء ولايات جديدة وفعلا أُنشئت ولاية كنتاكي وبنسلفانيا في تلك المناطق.

ـ لم ينجح جيفرسون على الرغم من المدة الطويلة التي قضاها سفيراً لبلاده في فرنسا، في الحصول على معاهدة تجارية أو سياسية مع فرنسا أو أي من الدول الأوربية الأخرى على الرغم من تقديمه لتلك الدول مشاريع معاهدات واتفاقيات بمميزات كبيرة. ويكمن السبب في شخصية جيفرسون نفسه فقد كان لا يجيد الحوارات والمناقشات الشفوية ولم يكن يملك جاذبية في الحديث، كما انه خلال وجوده في فرنسا لم يسع لمقابلة سفراء الدول الأخرى وجها لوجه بل كان يرسل مشاريع المعاهدات التي وضعها إلى السفراء عن طريق الوسائل الرسمية، والمعلوم أن المقابلة الشخصية لها دور كبير في إقناع الآخر وهذا ما لم يفعله جيفرسون. وإذا قارنا بعثة جيفرسون إلى فرنسا ببعثة جون آدمز في المدة نفسها إلى انكلترا وجدنا مهمة آدمز أصعب بكثير لكنه مع ذلك استطاع العمل هناك وحصل على تفاهم مع هولندا تمهيدا لعقد معاهدة معها.

ـ أدار توماس جيفرسون وزارة الخارجية الأمريكية بنوع من التخبط ولا نستطيع القول أنه فشل في إدارتها ولا القول أنه نجح بإدارتها ولعل السبب في ذلك يعود للصراع القوي الذي كان دائرا بينه وبين الكسندر هاملتون الذي لم يترك

له الوقت الكافي للعمل على تحقيق طموحه بالحصول على الحرية في الملاحة في المسيسبي، ولا باتخاذ موقف واضح من بريطانيا او من فرنسا، ويمكن حصر نجاحات جيفرسون إبان توليه لمنصب وزير الخارجية بالآتي :

١) نجح بإقناع الساسة الأمريكيين بعدم تقليد نظام الحكم الملكي في بريطانيا ووقف بحزم ضد المشاريع الملكية التي تبناها خصمه اللدود هاملتون.

٢) نجح جيفرسون بتحويل الموقف من الثورة الفرنسية إلى قضية شعبية عن طريق استخدامه الصحافة وتكوين حزبه للجمعيات الديمقراطية المناوئة لبريطانيا التي انتشرت بالولايات كافة، كما نجح بإبقاء الولايات المتحدة على الحياد إبان الحرب البريطانية الفرنسية ١٧٩٣ وإفشال مخططات هاملتون بدخول الحرب إلى جانب بريطانيا وحلفائها ضد فرنسا.هاتان النفطتان هما اللتان نجح فيهما جيفرسون أما عن ما فشل فيه فهو الأتي:

١) فشل بإقناع الرئيس واشنطن بالوقوف ضد إنشاء مصرف الولايات المتحدة، ويعود السبب في ذلك إلى ذكاء هاملتون وحنكته أولا والى ميل الرئيس واشنطن لتوجهات الاخير.

٢) فشل في الوقوف ضد مشاريع هاملتون بدفع الديون الفيدرالية التي أدت إلى حصول السماسرة والمضاربين على ثروات هائلة أمتصّت من عامة الشعب عن طريق النصب والاحتيال الحكومي إذا جاز التعبير. ولم يكن البديل الذي حصل عليه جيفرسون مقابل السكوت او إمرار مشاريع دفع الديون، مقنعا.

وأخيرا لا يمكن عزو فشل جيفرسون في تلك الأمور اليه مباشرة فقد كان الصراع السياسي في الولايات المتحدة على أشده وإذا أخذنا الخارطة السياسية للولايات المتحدة في ذلك الوقت ووضعناها أمامنا فسنجد جيفرسون واقفا وحده ضد الرئيس الذي كان انحيازه واضحا جدا لهاملتون ومشاريعه وضد مجلس الشيوخ الذي كان ذا أغلبية فيدرالية وضد نائب الرئيس انذاك جون آدمز الذي كان مساندا لهاملتون وضد الطبقة الرأسمالية الصناعية والتجارية الناشئة في الولايات المتحدة، فما الذي كان بامكان جيفرسون عمله ازاء كل ذلك ؟ وإذا أعدنا النظر مجددا فلن نجد معه سوى بعض الأعضاء في مجلس النواب من الجمهوريين

ولاسيما جيمس ماديسون وعامة الشعب من الفقراء الذين لا يملكون شيئا سوى إبداء التعاطف مع موقف جيفرسون.

ـ أراد توماس جيفرسون الوقوف إلى جانب فرنسا الثورية أولا ثم مساندتها حينما تحولت إلى جمهورية مدفوعا بذلك من خلال كرهه الشديد للأنظمة الملكية التي رأى فيها فساد البشرية وظلم طبقة صغيرة من الناس لعامة الشعب. وشجع الحروب التي خاضتها فرنسا من اجل الإطاحة بالأنظمة الملكية في أوربا ، لكنه لم يستطع تقديم العون المادي لتلك الجمهورية الحرة، ولاسيما بعد خسارته في الانتخابات أمام الفيدراليين عام ١٧٩٤ ولو تصورنا جدلا فوز الجمهوريين في تلك الانتخابات وتولي جيفرسون دفة الحكم، لتغيرت خارطة أوربا برمتها لان فرنسا كانت ستحصل على الدعم الكامل من الولايات المتحدة وكان جيفرسون على استعداد تام لمنح تلك الجمهورية كل ما تريد من الدعم المادي والمعنوي فلم يكن جيفرسون يداهن بمبادئه الجمهورية أبدا.

ـ على الرغم من توليه منصب نائب الرئيس في إدارة جون آدمز، الذي طالما عدّ ذلك المنصب استرضائياً للمرشح الخاسر ولا يتمتع من يتولاه بأي نفوذ يذكر، استطاع التأثير في السياسة الداخلية والخارجية للولايات المتحدة من خلال قيادته للحزب الجمهوري الأمريكي والوقوف ضد المشاريع الفيدرالية الرامية إلى جر البلاد إلى حرب ضد فرنسا ولاسيما بعد استغلال الفيدراليين لقضية اكس. واي. زت، إذ نجح جيفرسون في تحويل الموقف لصالحه وصالح حزبه من خلال الانتقادات الموجهة للرئيس آدمز بخصوص قوانين التسلح الحربي وقانون الفتن والضرائب الجديدة التي فرضت على الشعب لبناء أسطول حربي جديد. كما نجح من خلال علاقاته بالدكتور مورغان ومساندته لتقريره الشهير بان فرنسا لا تريد الحرب ضد الولايات المتحدة، إذ اقنع الرئيس آدمز بعدم الدخول في حرب ضد فرنسا والتزام الحياد في الحرب الدائرة في أوربا، وبذلك يكون جيفرسون قد بر بالتزاماته للثورة الفرنسية قدر المستطاع .

ـ نجح جيفرسون بالفوز بانتخابات عام ١٨٠٠ من خلال استخدامه مديرين للحملة الانتخابية وكذلك استخدام الصحافة وبذلك تكون انتخابات عام

١٨٠٠ أول انتخابات أمريكية يستخدم فيها المرشحون الصحافة وجعل ذلك سنة لمن أتى بعده وإعلان بداية عهد جديد يقوم على أساس المحافظة على مبادئ الجمهورية وعدم المساس بها وبذلك مُحِيَ أي أمل بإقامة نظام ملكي في الولايات المتحدة .

الكتب الوثائقية

1- Boyd, Julian P., The Papers of Thomas Jefferson, New Jersey 1969.from Volume 1-16.

2- Carnegie Endowment for International Peace , Document Relating To the controversy over Neutral Rights between the United states and France , 1797 -1800, Washington 1917.

3- Commager, H.S., Documents of American history, New York 1949

4- Ford, Paul Leicester, The Works of Thomas Jefferson, New York 1904, Vol . VIII.

5- Froman, S.E., The Life and Writing of Thomas Jefferson, New York 1900.

6- H.A. Washington, The Writings of Thomas Jefferson, New York 1857, Vol.II.

7- Hiatt, James M., The Voters Text Book, Documents and Statistics, Indianapolis 1868.

8- Holmes, Abiel, D.D, American Annalis, Or A Chronological History of America For mists Discovery in 1492 To 1806, Vol. II, London 1813.

9- Joint Committee of Congress with Numerous Illustrations, The Writings of Thomas Jefferson, Definitive, N.D.

10- Idzerda, Stanley J., Lafayette in the Age of the American Revolution, Selected Letters And Papers, Volume II 1778-1780, London 1979.

11- Macdonald, William, Select documents illustrative of the history of the United States 1776-1861, New York 1905.

12- Morris, Richard B., Basic Documents in American history, New York 1965.

13- Peden, William, Adrienne Koch, the life and selected writings of Thomas Jefferson New York 1944.

14- Preston, Howard W., Documents Illustrative of American History 1606- 1863, New York 1886.

15- Syrett, Harold C., American historical documents, New York 1873.

16- The Life and Letters of Thomas Jefferson from Original Manuscripts, New York 1858.

مؤلفات توماس جيفرسون

1- Jefferson, Thomas, A Manual of Parliamentary Practice, Philadelphia 1834.

2- Jefferson, Thomas, Notes On The State of Virginia, Boston 1832.

3- People of Virginia, A Native and member of the House of Burgesses, A Summary View of the Rights of British American, Williamsburg 1774.

4- Randolph, Thomas Jefferson, Memoirs, Correspondence, and private papers, London 1829.

5- Sawvel, Franklin B., The Complete ANAS of Thomas Jefferson, New York.1903.

المصادر العربية والمعربة

١- ألبرت ك ميزل، المهاجرون إلى أمريكا، ترجمة عبد الفتاح المنياوي، القاهرة د . ت.

٢- ألان نفيز وهنري ستيل كوماجر،موجز تاريخ الولايات المتحدة ، ترجمة ، محمد بدر الدين خليل،القاهرة ١٩٩٠

٣- أموري د. رينكور، القياصرة القادمون، ترجمة، احمد نجيب هاشم، القاهرة ١٩٧٠.

٤- إميل هوبنر، النظام السياسي في الولايات المتحدة الأمريكية، ترجمة : عدنان عباس علي، أبو ظبي ٢٠٠٩.

٥- اودو زاوتر، رؤساء الولايات المتحدة الأميركية منذ ١٧٨٩ حتى اليوم، دار الحكمة لندن ٢٠٠٦

٦- برنارد مايو، جيفرسون الرئيس الفيلسوف من كتاباته، ترجمة تقديم الدكتور محمد عبد المعز نصر، القاهرة ١٩٥٩.

٧- بيير سلانجر, أمريكا المستبدة , الولايات المتحدة وسياسة السيطرة على العالم , ترجمة د. حامد فرزات , دمشق ٢٠٠١.

٨- جان توشار، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة، علي مقلد، بيروت ١٩٨١.

٩- جلال يحيى , التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الأولى , الإسكندرية ١٩٨٣.

١٠- جون ستيل جوردن , إمبراطورية الثروة التاريخ الملحمي للقوة الاقتصادية الأمريكية , ترجمة محمد مجد الدين باكير , الكويت ٢٠٠٨.

١١- جيراد ديلودال، الفلسفة الأميركية، ترجمة جورج كتورة والهام الشعراني، بيروت .٢٠٠٩

١٢- دان ليسي , الثورة الأمريكية دوافعها ومغزاها , ترجمة محمد عبد الفتاح إبراهيم , القاهرة ١٩٦٥.

١٣- ديب علي حسن ، الولايات المتحدة من الخيمة إلى الإمبراطورية ، مراجعة ، إسماعيل الكردي، دمشق ٢٠٠٢ .

١٤- ستيف فرايزر، غاري غرستل، الطبقة الحاكمة في أمريكا، تأثير الأثرياء والنافذين في دولة ديمقراطية، ترجمة حسان البستاني، بيروت ٢٠٠٦.

١٥- ستيفن فنسنت بنيه , أمريكا , ترجمة عبد العزيز عبد المجيد , القاهرة ١٩٤٥.

١٦- شادي عبد السلام , الويلات المتحدة الأمريكية , دمشق٢٠٠٣

١٧- عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة الى مؤتمر فينيا،د.ت.

١٨- عبد الحميد جودة السحار، صانعوا التاريخ الأمريكي،القاهرة د.ت.

١٩- . عبد السلام الترمانيني، الرق ماضيه وحاضره، الكويت ١٩٩٠

٢٠- عبد العزيز سليمان نوار , محمد محمود جمال الدين , تأريخ الولايات المتحدة الأمريكية من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين , القاهرة١٩٩٩

٢١- فرانك ثيسلويت، الثورة العظمى، ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين، د.ت.

٢٢- فريال حسن خليفة، حقوق الإنسان ونظام الحكم والسلام عند توماس بين، القاهرة ٢٠٠٣

٢٣- فنسنت شيان، توماس جيفرسون أبو الديمقراطية، ترجمة الزعيم الركن المتقاعد جاسم محمد، مراجعة وتقديم : بدر شاكر السياب، بغداد، ١٩٦١.

٢٤- كلود جوليان , الحلم والتاريخ أو مئتا عام من تاريخ أمريكا , نقله إلى العربية نحلة كلاس , ط٢دمشق ١٩٨٩.

٢٥- كورنل لنجيل، أربعة أيام من يوليو، ترجمة احمد عبد الرحمن عودة، القاهرة ١٩٦١.

٢٦- لويس هايكر , الرأسمالية الأمريكية , ما أنجزته وما تعد , ترجمة دكتور ع. الحفار, بيروت د.ت.

٢٧- محمد محمود النيرب , المدخل في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية , الجزء الأول حتى ١٨٧٧, القاهرة ١٩٩٧.

٢٨- محمد محمد صالح , تاريخ أوربا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية ١٥٠٠-١٧٨٩, بغداد ١٩٨٢.

٢٩- ناظم فخري العاني، ادموند بيرك والثورة الفرنسية، مطبعة الرحاب، بغداد ١٩٥٧

٣٠- ناهد إبراهيم دسوقي , دراسات في التاريخ الأمريكي , الإسكندرية ١٩٩٨.

٣١- هربرت شنيدز، تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، القاهرة ١٩٦٤.

المصادر الأجنبية

1 - Adams, James Truslow, The Epic of America, Boston 1955.

2 - Agar, Herbert, The United States, The Presidents, The Parties & The Constitution, London 1950.

3 - Alden, John Richard, The American Revolution, 1775-1783, New York N.D.

4 - Appleby, Joyce & Terence Ball, Thomas Jefferson, Political Writings , Cambridge University Press, United Kingdom 1999,e-book

5 - Arendt, Hannah, On Revolution, New York 1963.

6 - Baker, Werten, The planters of colonial Virginia, New York N.D.

7 - Baldwin, Leland Dewitt, The Meaning of America, Essay Toward understanding of the American Spirit, university of Pittsburgh press 1955.

8 - Becker, Carl L., The Declaration of Independence studying the history of political ideas, New York 1922.

9 - Beloff, Max, Thomas Jefferson and American Democracy, New York 1965.

10 - Boorstin, Daniel J., The Lost World of Thomas Jefferson, Boston 1960.

11- Boucher, Jonathan, Reminiscences of American Loyalist, Boston 1925.

12 - Bowers, Claude G, Jefferson And Hamilton The struggle for Democracy In America, New York 1941.

13 - _____,The Young Jefferson 1743 – 1789, U.S.A 1945.

14 - Boyd, Julian P., The Declaration of Independence: The evolution of the Text as shown in facsimiles of various drafts by its author, Thomas Jefferson, Princeton 1945.

15 - Brinkley, Alan, A survey American history, New York, 2007.

16 - Brodie, Fawn, Thomas Jefferson, Norton 1974.

17 - Chinard, Gilbert, Thomas Jefferson, The Apostle of Americanism, U.S.A 1943.

18 - Clinton, Charles, Memoirs of The Hon, Thomas Jefferson, Secretary of states, Vic-president and president, Vol.1, New York 1809,

19 - Curti, Merle, The Growth of American Thought, New York 1964.

20 - Davidson, James West, Nation of Nations Aconcise Narrative of The American Republic, New York 2006.

21 - Deweu, John, Thomas Jefferson, New York 1940.

22 - Diumond, Martin,The American Revolution three Views, New York 1975

23 - Ellis, Edward S., Thomas Jefferson, a Character Sketch, e-book , Release Date: January 21, 2006.

24 - Faulkner, Harold Underwood and Tyler Kepner, America Its History and People, New York, N.D.

25 - Fiske, John, The American Revolution, New York 1916.

26 - Fite, Emaerson David, History of The United States, New York 1919.

27 - Fitzpatrik, John C., The spirit of Revolution: new light from some of The Original sources of American history, Boston 1924.

28 - Ford, Paul Leicester , George Haven Putnam , Autobiography of Thomas Jefferson 1743- 1790 , New York 1914.

29 - Fried, Albert, The Essential Jefferson, Library of Congress 1963

30 - Gaws, Petar, Two Centuries of Philosophy in America, Great Britain 1980.

31 - Gilpin, Henry D., Biographical sketch of Thomas Jefferson, Philadelphia 1828.

32 - Gordon – Reed, Annette, Thomas Jefferson and sally Hemings: An American controversy, Charlottesville: university of Virginia press, 1997.

33 - Gowen, J. Sophie, Notes on early American history, New York 1900.

34 - Handlin, Oscar, The history of the united states, U.S.A 1967.

35 - Hayes, Charlton J. H., A Political And Cultural History of Modern Europe, Vol, I, 1500- 1830, N.D.

36 - Hemings, Madison, Life among the Lowly, No. 1, "pikcounty (Ohio) Republican, March 13, 1873.

37 - Herbert Friedenwald , The Declaration of Independence :An Interpretation and analysis, New York 1904.

38 - Hiatt, James M., The Voters Text Book, Documents and Statistics, Indianapolis 1868.

39 - Hicks, John D. ,The Federal Union , A history of the united states to 1865 , Cambridge .Massachusetts 1948.

40 - Hitchens, Christopher, Thomas Jefferson, Author of America, New York 2005.

41 - Jones, Mumford, The Pursuit of Happiness, Harvard University Press 1953.

42 - Johnson, Paul, George Washington. The Founding Father, New York 2005.

43 - Johnston, Alexander, American political history, London 1905

43 - Lecky, William Edward H. And Jams Albert wood burn, The American revolution 1763 - 1783, New York 1906.

44 - Lehmann, Karl, Thomas Jefferson American Humanist, London 1965.

45 - Lenderum, John, History of The American Revolution, Vol:I , U.S.A 1836.

46 - Linn, William, The life of Thomas Jefferson Author of The Declaration of Independence, New York 1834.

47 - Lisitzky, Gene, Thomas Jefferson, New York 1933.

48 - Lloyd, T. O., The British Empire 1558-1995, Oxford University, New York 1997.

49 - Lorant, Stefan, Presidency A Pictorial History of Presidential Elections from Washington to Truman, New York 1953.

50 - Lyman, T. P., The Life of Thomas Jefferson, ESQ.L.L.D, Late Ex. President of The United States, Philadelphia 1826.

51- Malone, Dumas, The story of the Declaration of independence, New York 1954.

52- _____, Thomas Jefferson as Political Leader, University of California Press 1963.

53 - Marshall, Dorothy, Eighteenth Century England, 1963.

54 - Marcham, Frederick George, A History of England, New York 1957.

55 - Maurois, Andre, A History of England, London 1962

56 - _____ , The Miracle of England, U.S.A N.D

57 - Maryland, A Citizen of, Notes on Thomas Jefferson, Philadelphia 1885.

58 - McCoy, Drew R., The Elusive Republic: Political Economy in Jeffersonian America, New York 1980.

59 - McDonald, Forrest, The Presidency of Thomas Jefferson, Kansas 1976

60 - Merwin, Henry Childs, Thomas Jefferson, New York 1901.

61 - Miller, John Chester, The wolf by the Ears: Thomas Jefferson and slavery, New York 1977.

62 - Mitchill, Samuel L., A Discourse On The Character and Services of Thomas Jefferson, New York 1826.

63 - Moscow, Henry, Thomas Jefferson and his World, New York 1965.

64 - Morse, John T.JR, American Statesmen, Thomas Jefferson, Cambridge 1889.

65 - M. Perry, Miss Fransces and Henry w. Elson, Famous American's series, four Great American presidents, No. I, Washington, Jefferson, Jackson, Lincoln, New York 1905.

66 - Muzzy, David Saville, Thomas Jefferson, New York 1918.

67 - Nevins, Allan, The American States During and After The Revolution 1775-1789, New York 1924.

68 - Nock, Albert Jay, Jefferson, New York 1926.

69 - Padover, Saul K., Thomas Jefferson on Democracy, New York 1959.

70 - Passos, John D., Thomas Jefferson The Making of president, U.S.A 1964.

71 - Person, Hamilton w., Jefferson At Monticello, New York 1862.

72 - Randall, Henry S., The life of Thomas Jefferson, Vole, 1,2,3,New York 1858.

73 - Rayner, B. L., Life of Thomas Jefferson, Boston 1834.

74 - Riethmuller, Christopher James, The life and times of Alexander Hamilton, London 1864.

75 - Savelle, Max, Seeds of Liberty, The Genesis of The American Mind, New York 1948.

76 - Schultz, Harold J., History of England, New York N.D.

77 - Sears, Robert, The pictorial history of the American revolution , New York 1846.

78- Simpson, Stephen, The Lives of George Washington And Thomas Jefferson, With A Parallel, Philadelphia 1833.

79 - Smythe, A Tour in the United States, N.D.

80 - Stone, Gene, Famous Americans, The Story of Thomas Jefferson, New York 1922.

81 - Thompson, Charles L., The Religious Foundations of America, A study in National Origins, New York 1917.

- Trevelyan, George Otto, The American revolution, New York 1964. 82

83 - Tucker, George, The life of Thomas Jefferson Third President of the united states, Philadelphia 1837 .

84 - Williamson, James A., The Evolution of England, A Commentary on The Facts, Oxford At The Clarendon Press 1944.

85 - Wilson, Richard L., American Political Leaders, Library of Congress 2002.

البحوث والمقالات

١- منير الماوري، قمة جبل هادئة ساعدت جيفرسون في التفكير لتاسيس دولة كبرى، جريدة الشرق الاوسط ٨ نوفمبر ٢٠٠٦، العدد ١٠٢٠٧.

٢- هاشم صالح التكريتي , الحياة السياسيه في المستعمرات الانكليزيه في العالم الجديد قبل حرب الاستقلال, بحث غير منشور .

٣- ــــــــــــــــ , "الصناعة والتجارة في المستعمرات الانجليزيه في العالم الجديد قبل حرب الاستقلال" , المجلة القطرية للتأريخ والاثار/بغداد , العدد٢لسنة ٢٠٠١.

4- Allen, Milford F., Thomas Jefferson and the Louisiana – Arkansas Frontier, The Arkansas Historical Quarterly, Vol. 2 , No.1 (Spring.1961).

5- Chinard, Gilbert, Jefferson and the American Philosophical Society, Proceedings of the American Philosophical Society, Vol. 87, No.3 (Jul.14, 1943).

6- Foster, Eugene A . , and others, Jefferson fathered slaves last child, Nature Macmillan , vol 396 , 5 November, 1998 .

7- Godspeed, Edgar J., "Thomas Jefferson and the Bible" The Harvard Theological Review, Vol.40, No. 1(Jan, 1947).

8- Graham, Pearl M., "Thomas Jefferson and sally Hemings ", The Journal of Negro histors , vol . 46 . No . 2(APR , 1961).

9- Hatzenbuehler, Ronald L. ," Thomas Jefferson life among Virginia gentry" , the Virginia magazine of history and biography , vol .101, No. 1, Jan, 1993.

10- Honeywell, J.," A Note on the Educational work of Thomas Jefferson", History of Education Quarterly, Vol.9, No.2 (spring 1969).

11- Horseman, Reginald, "Thomas Jefferson and the Ordinance of 1784 ", Illinois Historical Journal, Vol. 79, No. 2 (summer, 1986).

12 - Jr, Floyd Ogburn, Structure and Meaning in Thomas Jefferson's "Notes on the State of Virginia" , Early American Literature, Vol. 15, No2 (Fall, 1980).

13- Kevin Mane, DNA Test Basks in Simpson Spotlight, USA Today News Paper, Des. 2, 1994.

14- Laub, Carl H.," Revolutionary Virginia and Crowns lands", 1775-1783, William and Mary quarterly (Williamsburg) Vol,xi(October 1931).

15- Larceny, Mel, The Presidential Newspaper as Engine of Early American Political Development: The Case of Thomas Jefferson and the Election of 1800, Rhetoric & Public Affairs, Vol ,11, N. 1 ,Spring 2008.

16 - Leeies, Anthony Marc, "Jefferson and Virginia Pioneers, 1774-1781", The Mississippi Valley historical Review, Vol.34, No.4 (Mar.1948).

17 - Peterson, Merrill D., Thomas Jefferson and Commercial Policy, the William and Mary Quarterly, Third Series, Vol.22, No .4 (Oct, 1965).

18 - Reconsidered:Hamilton,Madison,and U.S-British relations 1783-89",Journal of Early Republic,Vol.27,No.3,Fall 2007.

19 - Richard Bridgman," Jefferson's Farmer before Jefferson", American Quarterly Magazine, Vol.14, No.4 winter, 1962.

20 - Schmitt, Gary J.," Jefferson and Executive Power: Revisionism and the Revolution of 1800" , Oxford Journals , Vol. 17,No.2(Spring, 1989)

21 - Wallace, D.D., Jefferson's Part in the Purchase of Louisiana, The Sewanee Review , Vol.19,No.3(Jul.1911).

22 - Wozniak, Chad J.," the new western colony schemes: A Preview of the United States territorial system", Indiana Magazine of History, No. 68, 1972.

الموسوعات

1- The Encyclopedia Americana, The international Reference Work, U.S.A 1962

2- Encyclopedia Britannica, U.S.A 1965

الانترنت

1- http: // www. Wikitree.Com / index .phptitleSpecial: Family Tree and Who.

2- http: // www. Monticello. Org/ library/ reference / Tree. Jefferson Family tree.

3- http: //www. Wikipedia. Com.

4- http: // www. Architecture week. Come / topics / orders – ol . Html

5- http: //www. Monticello.org.

6- http: //www. pbs. org \ wgbh \ pages \ front line \ shows \ Jefferson \ cron \ 1873 \ march . html.

7- http: //www. Tjheritage – org, The Scholars Commission on the Jefferson – Hemings Issue.

8- http://www.pbs.org/jefferson/archives documents / /ih195811z.htm. Jefferson, Thomas, Head and Heart Letter.

9- , www. tjheritage . Org \ do cum ents \ sc Re – port 1 . pdf. Scholar commission on the Jefferson – Hemings Matter, under standing the DNA Evidence Linking Est on Heming to Thomas Jefferson's cousins.

10- http://www.debbieschlussel.com ,Schlussel, Debbie, was Thomas Jefferson Jewish ? : Researchers find tj's possibly Jewish genes.

11- http: \\ www . ashbrook . Org \ articles \ Mayer – Hemings . Html, Apr. 19, 2001,Mayer, David N. "A. Denials by Jefferson Himself and virtually All His Contemporaries" , The Thomas Jefferson – Sally Hemings Mythandthepoliticization of Americanhistoryo

12- National Genealogical Society Quietly 89 (3) : 156 – 207 . http: \\ www . loc . gov \ loc \ locib \ 0205 l Heming's . Html. ,Leary, Helen F. M. (Sep 2001). "Sally Hemings s children: A Genealogical Analysis Evidence".

13- http ://www .anytime's .com /2007/02/28/us/28jefferson .html. Jobling, Professor mark , taken while conducting a previous study in to president Jefferson university of Leicester, http://www.sciencedaily .com/re;eases/2007/03/.html;nicholaswade,study raises possibility of Jewish tie for Jefferson .

14- http : \\ www . Monticello. Org \ plantation \ heminhscontro \ appendix. Html.,J, Appendix: The possible paternity of other Jefferson's , A summary of Research " . Report of the Research comm. It tee on Thomas Jefferson and sally Hemings Thomas Jefferson foundation Jan 2000.

15- http : // www . Chriskern. Net / essay. html, 2009 – 7 -10 .Chriskern, " Jefferson's Dome At Monticello ".

16- http://hnn.us/articles/48794.html, why we should all regret Jefferson's broken promise to Kościuszko, Nash&Hodges.

17- " http:// www.deathpenalty info. Org/ article.php"history of the Death Penalty"

18- http://users. Bestweb.net, "Virginia Executions" Rob Gallagher.

discussed the struggle between Jefferson and Alexander Hamilton about several matters such as : Payment Federalist debts, establish the Bank of United States, and the relation with France. The tow leaders adopted different views about all these matters and the president George Washington take the said of Hamilton, but without revealing his position. Second topic is concerned with the election of 1796. In this election Jefferson lost to John Adams, but had enough electoral votes to become Vic President 1797-1801, but Jefferson don't to surrender for this situation and continue his struggle even he won the battle of the election of 1800 , then he called it the " Revolution of 1800" .

It clearly appeared in this study that the character of Thomas Jefferson is very strong and influenced the establishment of the United States of America and drawing its foreign policy toward Europe .Therefore; his influence was great on United States of America to be called "The Apostil of Americanism" due his great reforms in "social, Political and religions affairs ".

As for the second chapter, it carried the title "The struggle between American colonies and British government and Jefferson position". It contains tow topics; the first deals with Jefferson essay "Summary View of the Rights of British America", which was about producing the first Continental Congress 1774. Jefferson explained his views about the American colonies rights for separation from British government. Then discussed the declaration of war in 1775, attending meeting of the second Continental Congress in 1775. He was asked to write the Declaration of Independence, and then explain the different views about Jefferson's quotations by John Lock, specially the term;"The Pursuit of Happiness" and other ideas. In the end I believe he quoted in lock, but he produces perfect declaration. Topic two entitled "Thomas Jefferson members of the Virginia House of Delegates 1776-1779 ". He drafted 126 bills in three years, including laws to abolish primogeniture, establish freedom of religion, and streamline the judicial system. In 1778, Jefferson issued the "Bill for the More General Diffusion of Knowledge ". In the matter of salves, the legislature passed a bill proposed by him to ban further importation of salves into Virginia. In 1778, Jefferson was an outspoken abolitionist, but he owned many salves over his life time.

Chapter three deals with "Jefferson role in the American political between 1779- 1789". He served as governor of Virginia from 1779- to 1781. Virginia was invaded twice by the British , first invasion led by Benedict Arnold and then by Lord Cornwallis during Jefferson's term as governor, He failed to defend Virginia and runaway .The second topic is devoted to the discussion of the his mission to France 1784-1789, what was his tasks in Paris, his relationship with the leaders of France Revolution, and his opinions about the American Constitution.

As for the fourth and the last chapter "Thomas Jefferson Secretary of state and Vic President ", this chapter divided into two topics, the first

Abstract

This thesis is an attempt to shed light on the background of the Thomas Jefferson who was the third president of the United States of America. He was almost regarded as - Apostle of Freedom and Democracy- . As a political philosopher, Jefferson was a man of the Enlightenment and he was acquainted with several intellectual leaders in Europe. When he was young, he wrote the Declaration of Independence. On the age thirty three, Jefferson supported the separation of the church and the state. He was the author of the Virginia state for Religious Freedom. Jefferson served as the wartime Governor of Virginia (1779-1781), first United States Secretary of State (1789-1793) and second Vice President (1797-1801). The great works of Thomas Jefferson carried out before undertaking the presidency chair, for that he asked when he died; these words should be written on his tomb:

"Here was buried Thomas Jefferson Author of the Declaration of Independence of the State of Virginia for religious freedom and Father of University of Virginia" , and further more he said that because by these testimonials that I have lived, I wish to be remembered at large" .

This thesis contains an introduction, four chapters, and conclusion. The first chapter includes what was titled "Thomas Jefferson familial ancestry which is displaying the social and political character". It deals with the early upbringing of Thomas Jefferson and his social, Political life, biography, education, the bar practices and the beginnings of his political life as a member of the House of Burgesses of Virginia colony. Further more, construction of Monticello. He married from Martha Wayles Skelton. He got relationship with Sally Heming and the case of the DNA was well known at that time.

discussed the struggle between Jefferson and Alexander Hamilton about several matters such as : Payment Federalist debts, establish the Bank of United States, and the relation with France. The tow leaders adopted different views about all these matters and the president George Washington take the said of Hamilton, but without revealing his position. Second topic is concerned with the election of 1796. In this election Jefferson lost to John Adams, but had enough electoral votes to become Vic President 1797-1801, but Jefferson don't to surrender for this situation and continue his struggle even he won the battle of the election of 1800 , then he called it the " Revolution of 1800" .

It clearly appeared in this study that the character of Thomas Jefferson is very strong and influenced the establishment of the United States of America and drawing its foreign policy toward Europe .Therefore; his influence was great on United States of America to be called "The Apostil of Americanism" due his great reforms in "social, Political and religions affairs ".

As for the second chapter, it carried the title "The struggle between American colonies and British government and Jefferson position". It contains tow topics; the first deals with Jefferson essay "Summary View of the Rights of British America", which was about producing the first Continental Congress 1774. Jefferson explained his views about the American colonies rights for separation from British government. Then discussed the declaration of war in 1775, attending meeting of the second Continental Congress in 1775. He was asked to write the Declaration of Independence, and, then explain the different views about Jefferson's quotations by John Lock, specially the term;"The Pursuit of Happiness" and other ideas. In the end I believe he quoted in lock, but he produces perfect declaration. Topic two entitled "Thomas Jefferson members of the Virginia House of Delegates 1776-1779 ". He drafted 126 bills in three years, including laws to abolish primogeniture, establish freedom of religion, and streamline the judicial system. In 1778, Jefferson issued the "Bill for the More General Diffusion of Knowledge ". In the matter of salves, the legislature passed a bill proposed by him to ban further importation of salves into Virginia. In 1778, Jefferson was an outspoken abolitionist, but he owned many salves over his life time.

Chapter three deals with "Jefferson role in the American political between 1779- 1789". He served as governor of Virginia from 1779- to 1781. Virginia was invaded twice by the British , first invasion led by Benedict Arnold and then by Lord Cornwallis during Jefferson's term as governor, He failed to defend Virginia and runaway .The second topic is devoted to the discussion of the his mission to France 1784-1789, what was his tasks in Paris, his relationship with the leaders of France Revolution, and his opinions about the American Constitution.

As for the fourth and the last chapter "Thomas Jefferson Secretary of state and Vic President "; this chapter divided into two topics, the first

Abstract

This thesis is an attempt to shed light on the background of the Thomas Jefferson who was the third president of the United States of America. He was almost regarded as - Apostle of Freedom and Democracy- . As a political philosopher, Jefferson was a man of the Enlightenment and he was acquainted with several intellectual leaders in Europe. When he was young, he wrote the Declaration of Independence. On the age thirty three, Jefferson supported the separation of the church and the state. He was the author of the Virginia state for Religious Freedom. Jefferson served as the wartime Governor of Virginia (1779-1781), first United States Secretary of State (1789-1793) and second Vice President (1797-1801). The great works of Thomas Jefferson carried out before undertaking the presidency chair, for that he asked when he died; these words should be written on his tomb:

"Here was buried Thomas Jefferson Author of the Declaration of Independence of the State of Virginia for religious freedom and Father of University of Virginia" , and further more he said that because by these testimonials that I have lived, I wish to be remembered at large" .

This thesis contains an introduction, four chapters, and conclusion. The first chapter includes what was titled "Thomas Jefferson familial ancestry which is displaying the social and political character". It deals with the early upbringing of Thomas Jefferson and his social, Political life, biography, education, the bar practices and the beginnings of his political life as a member of the House of Burgesses of Virginia colony. Further more, construction of Monticello. He married from Martha Wayles Skelton. He got relationship with Sally Heming and the case of the DNA was well known at that time.

Thomas Jefferson And His Political Role In The American History To 1801

A Historical Study

A Dissertation Submitted By

Kifah Ahmmd Mohammed Ahmmd Najar

TO THE COUNCIL OF THE COLLEGE OF ART BAGHDAD UNIVERSITY IN PARTIAL FULFILLMENT OF THE REQUIREMENTS FOR PH.D. DEGREE IN MODERN HISTORY

Supervised By

Prof. Dr. Hashem Saleh M. AL –Tikriyti

1432 *A.h* *Baghdad* 2011*A.D*